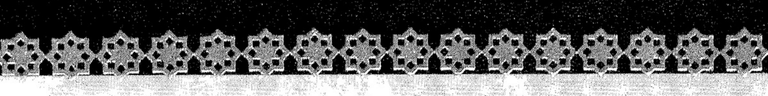
الموسوعة الشاملة
في
تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء التاسع والعشرون

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

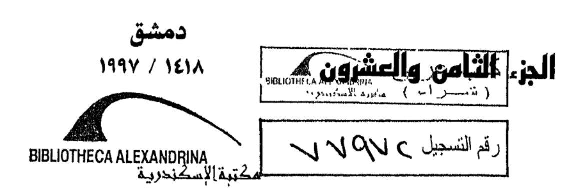
أعمال يوحنا ومانويل كومينوس

تأليف

يوحنا كينا موس

مع ماوردلدى

أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية



الجزء الثامن والعشرون

دمشق

١٤١٨ / ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

تبين لي أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أنه على الرغم من الأهمية العظمى لمعركة حطين، ان اخفاق الحملة الثالثة، شكل الحدث الفيصل بالنسبة لجميع وقائع الحروب الصليبية، لأن الذي توفر لهذه الحملة لم يتوفر لسواها، لذلك سعيتُ نحو الحصول على كل ماكتب عنها في الأصول، لاسيما غير العربية، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وكان كل الذي توفر لي آنذاك حولها هو ذيل تاريخ وليم الصوري.

وقمت في شتاء العام الماضي برحلة بحث علمي أخذتني إلى عدد من المكتبات العالمية والعربية فحصلتُ من لندن على عدد من الأصول ومن مكتبة الكونغرس على خمسة أصول نادرة كنتُ بأمسّ الحاجة إليها، وهكذا توفر لدي ماكنت بحاجة إليه من مصادر غربية وعربية، منها مواد هذا المجلد الذي أقدم له، وتعلق جلّها بالحملة الثانية، ومواد نثرية وشعرية عملاقة تعلقت بالحملة الثالثة، ثم مواد أخرى عن بقية الحملات.

وقمتُ وأنا أتولى إعداد الفهارس للمجلدات التي طبعت وكان عددها خمس وعشرون والتي دعيتها باسم الحلقة الأولى من الموسوعة، بإعداد هذا المجلد، الذي يشكل الجزء الأول من الحلقة الثانية.

وقوام خطتي الآن أن أقدم أولاً الأصول الأوربية حتى نهاية الحملة

السابعة المخفقة، ثم سأعقب ذلك بتقديم أعمال الرحالة الذين جاءوا من أوروبا أثناء الحروب الصليبية، وسيأتي إثر هذا كل من كتابي: «الأسرار» و«استرداد الأراضي المقدسة» اللذان كتبا بعد تحرير عكا وانهاء الوجود الفرنجي في بلاد الشام.

وبعد الفراغ من هذا العمل سألتفت نحو المصادر العربية وكلها جديد وهام وغني لاسيما مواد البدر العيني في «عقد الجمان» التي جاءت في عدة آلاف من الصفحات، هذا وسألحق الموسوعة بعدد من الأجزاء حول تاريخ المغول والعلاقات المغولية الصليبية، وفي الحقيقة إن مجلد العلاقات جاهز للطباعة.

ويحوي المجلد الحالي كتاب «أعمال جون ومانويل كومينوس» الذي ألفه يوحنا كيناموس، وتكمل مواد هذا الكتاب مواد كتاب الألكسياد لآناكومينا، ولقد تمّ التعريف بالمؤلف وبعمله في المدخل المقبل، وبالاضافة إلى كتاب كيناموس انتزعت ماأورده أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية في كتابيه: «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا».

ويعدّ أوتو أسقف فريزنغ أعظم المؤرخين الألمان في العصور الوسطى، ثم إنه يتمتع بمكانة قومية ووطنية لدى الألمان، وقد كان عضواً في واحدة من أعظم الأسر الاقطاعية الحاكمة في ألمانيا، فأسرته هي أسرة بابنبيرغ Babenberg ، ووالده هو مارغريف ليبولد الثالث صاحب النمسا، وكان واحداً من المرشحين لعرش الامبراطورية الغربية أثناء الانتخابات الملكية لعام١١٢٥، وأمه هي أغنس ابنة الامبراطور هنري الرابع، وكان زوجها الأول هو فردريك هوهنزتوفن Hohenstaufen دوق سوابيا، وعلى هذا كان أوتو أخاً من جهة الأم لكونراد الثالث وعماً لفردريك بربروسا نفسه، وبذلك كان مؤهلاً ليؤرخ لأيامه وللمرحلة المبكرة من حياة بربروسا.

فلقد ولد أوتـو في حوالي سنة١١١٠، وتوفي عـام١١٥٨، أي قبل سنين طوال من وفاة فردريـك بربروسا، وغرقه الأمر الذي مـرت أخباره معنا من قبل أثناء التأريخ للحملة الثالثة.

والتحـق أوتو منـذ سنـواته الأولى بـالسلـك الكهنـوتي، وقاده هـذا إلى الدراسة في باريس حيث أمضى عـدة سنوات هناك، التقى خلالها بكبار علماء عصره ورجـال الـلاهـوت، كما أنـه نال بعـض الثقـافـة الفلسفيـة، ويـرجح أنـه كـان في بـاريس سنـة ١١٢٧أو١١٢٨، وقـد غـادرها سنـة ١١٣٣، وتوقف في طريقه في شامبين حيـث دخل في سلك كهنة أخوانية دير سيستيرشيان Cistercian ، وصار فيها بعـد راعياً لهذا الـدير، لكن تظـل أهم مرحلة في حيـاته الكهنوتية، حينها أصبـح في سنة ١١٣٧ ومن خـلال نفوذ أسرته أسقفـاً لمدينة فريزنـغ، وظلّ يشغل هـذا المنصب حتى وفاته التي حدثت سنة ١١٥٨ كما أسلفنا أعلاه.

ونبعـت شهـرة أوتـو في ميـدان كتـابـة التـاريـخ مـن خـلال كتـابـه «المدينتـان»، وهو كتـاب أراد أن يـؤرخ به للعـالم حتـى سنة١١٤٦، وقـد جعلـه في ثمانية أقسـام [كتب] وتـأثر بكتـابته بمثـل القديـس أوغسطين وكتابه «مدينـة الرب»، ومدينة الرب لدى أوغسطين هي رومـا التي كانت قبل المسيحيـة مدينـة الشيطان، ثم غـدت مدينـة الرب يحكمهـا «نائب الرب على الأرض، بابـا الكنيسة الكاثوليكيـة»، وظهرت في حقبة الحروب الصليبية مـدينة أخرى هـي مدينـة القدس السماوية، يضـاف إلى هذا أن روما غدت مـدينة الرب من خـلال الصراع الأبدي بين الخير والشر، فعلى فكرة الصراع هـذه دارت فلسفة أوتو التاريخيـة في كتابه، وهذا هـو الذي منحه شهرته في ميدان الفلسفة التاريخيـة، ومكانته القيادية في هذا الميدان خلال العصور الـوسطى الأوروبية ولأن كتابـه عن حياة فردريـك وأعماله يـدخل في فـن السيرة والتراجم فقـد انعـدمت في ثنـاياه فلسفـة الصراع هذه، وجاء بالتـالي كتاباً خلواً من المرارة وروح التراجيديـا، وأوتو في كتابه

عن فردريك مؤرخ عادي، وليس فيلسوفاً محلقاً حسبما شهدناه من قبل، فهو على هذا يشكل انتكاسة في حياته الفكرية.

ونظراً لوفاة أوتو قبل فردريك، هو على هذا لم يؤرخ لحياته كلها، ومع أنه جرت محاولات لإكمال عمله والتذييل عليه، الهام بالنسبة لنا من كتابيه ماجاء حول الحروب الصليبية، حيث يبدو أن أوتو كان مع كونراد الثالث أثناء الحملة الثانية وترك اخفاق هذه الحملة في نفسه مرارة قاسية جعلته يقلع عن الحديث عن تفاصيلها لاسيما حصارها لدمشق، ثم عن أسباب هذا الاخفاق.

ويوجد في كتابه «المدينتان» مادة مفيدة عن الحملة الصليبية الأولى تعلقت بتفصيل ماذكره وليم رئيس أساقفة صور، عن قدوم وفد أرسلته الخلافة الفاطمية للتفاوض، أو بالحري للتحالف مع الفرنجة أثناء حصارهم لأنطاكية، وكانت أهداف هذا التحالف موجهة ضد السلاجقة، ويضيف أوتو خبراً فيه أن وفداً من الفرنجة ذهب إلى القاهرة، ويومي إلى أن من نتائج المباحثات مع هذا الوفد هناك كان تجهيز حملة فاطمية ضد القدس، احتلت المدينة وطردت منها الأراتقة التركمان، ولاشك أن رجالات الوفد الفرنجي عرفوا أثناء رحلتهم في الذهاب والإياب طرق وأوضاع بلاد الشام، ومصر مع صورة وافية لأوضاع القدس ودفاعاتها، علماً بأن هذه المدينة —كما رأينا— ستسقط بعد أمد وجيز للحملة الأولى، التي تولى رجالها ذبح جميع سكانها.

واليوم وأنا أكتب هذه التوطئة أجدّد الشكر للقائد العربي الكبير الرئيس حافظ الأسد، الذي رعى هذا المشروع منذ البداية ووجّه محموداً بمتابعة العمل فيه ومن ثم طباعته ونشره.

هناك تشابه كبير بين أوضاع الأمة العربية الآن وأيام الحروب الصليبية، فحين تخاذل من تخاذل وكاع من كاع، وقف ساعة المحنة نور الدين في

دمشق، فكان بارقة الأمل التي مهدت السبل لبزوغ شمس التحرير يوم حطين، وفي يومنا هذا يقف الرئيس الأسد وحده متصدياً للهجمة الشرسة للاستعمار الأمريكي الصهيوني، ويسعى بدون كلل وبعبقرية عملاقة لجمع شمل العرب والمسلمين.

إن رجال الفكر في الوطن العربي مع موقف الرئيس الأسد، وكذلك الأحرار في جميع العالم، والعرب والمسلمون الواقفون في ظل رايته لايأبهون بمواقف الذين غلبتهم شهوة الحكم وحرفهم شبق السلطة، إنهم يقرأون وهم معه قوله تعالى:

﴿قل ياأيها الكافرون. لاأعبد ماتعبدون. ولاأنتم عابدون ماأعبد. ولاأنا عابد ماعبدتم. ولاأنتم عابدون ماأعبد. لكم دينكم ولي دين﴾.

التحرير مقبل لامحالة وسيزول العدوان الصهيوني كما زال العدوان الصليبي طال الزمن أم قصر، فالله تعالى وعد هذه الأمة ووعد رسالتها بالحفظ بقوله جلّ وعلا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

من الله أستمدُ العون، وأنشدُ السداد والتوفيق، وله جلّ شأنه الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيد البشر النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وكل من اتخذه مثلاً أعلى له.

سهيل زكار

دمشق ١٠/ ربيع الثاني١٤١٨

١٤/ آب١٩٩٧



مدخل

تمتع تطور تاريخ الامبراطورية البيزنطية، التي كانت بالنسبة لسكانها امبراطورية رومانية مسيحية، بسلسلة من المؤرخين البارزين، ولقي عصر آل كومنين وآل أنجيلوس ١٠٨١-١٢٠٤ اهتمام ثلاثة من المعاصرين تغطي كتاباتهم المدة بطولها، فبعد موت ألكسيوس الأول (١٠٨١-١١١٨) بأمد كتبت ابنته آنا ملحمة حياته، بكتاب حمل عنوان الألكسياد، بنغمة فيها حرارة وعاطفة قوية تجاه أبيها، وصحيح أنها ركزت الأضواء على انجازات أبيها العسكرية، فقد غطت خلال ذلك جوانب هامة من تقاليد وتفكير الامبراطورية البيزنطية وسلوكها، وقام يوحنا كيناموس بمتابعة التأريخ لبيزنطة من حيث توقفت آنا، فقد خطط لكتابة تاريخ عن حكم جون الثاني [١١١٨-١١٤٣] ومانويل الأول [١١٤٣-١١٨٠]، لكن النص الذي وصلنا يتوقف مع أحداث سنة١١٧٦، وكتاب كيناموس هو أيضاً كتاب اطراء وتمجيد للامبراطورين، لاسيما لمانويل، ومثل كيناموس بدأ نكيتاس كونياتس روايته منذ وصول جون الثاني إلى الحكم حتى سنة١٢٠٤ عندما استولى الفرنجة الغربيون على القسطنطينية، ثم أضاف بعض الأخبار حول بعض ماتلا ذلك من أحداث حيث توقف مع سنة١٢٠٦، وكتابه كتاب ازدراء متصنع للأباطرة الذين عاش في ظلهم، حيث استهدف تحديد الملامة عن مسؤولية سقوط القسطنطينية وانهيار الامبراطورية سنة١٢٠٤، وكان بحكم كونه مؤرخاً، وشخصيته رئيسية متألماً لما حدث، ومرعوباً من وقع مأساة أيامه، ولذلك كتب بقلم حاد مقيت يشبه أسلوب توسيدس، وكتابه الطويل، الذي يستحق عناية أفضل متوفر في ترجمة ألمانية(١).

لماذا على هذا نقوم بترجمة كيناموس، الذي هـو الأدنى مكانة وأهمية بين الثلاثة؟ لأننا بدونه ستكون معلوماتنـا عن التاريخ البيزنطي وعن العقلية البيزنطيـة هي الأفقر، فبالنسبـة للسنوات من ١١١٨ حتـى ١١٧٦ يغطي هو ونكيتاس كونياتس الأرضيـة نفسها، لكن وفق طريقتين مختلفتين كلياً، وهذا واضـح وحقيقي بـالنسبة لحكـم مانـويل، الـذي وصفه كينـاموس بشكل مطـول بينما عرضـه نكيتاس بـاختصار، غير أن نكيتـاس كشف في كثير من الأحيان أموراً جـرت تغطيتها من قبل كيناموس، لـذلك لايمكن قراءة أحدهما دون الآخر.

زد على ماتقـدم كان كل مـن آنا كـومينا ونكيتاس شخصين متميـزين بثقـافتهما التـي تفوقـت على ثقـافـة معظـم معـاصريهما، وكان بـالمقـابـل كينامـوس متعلماً بيزنطياً عـادياً، فهو قد قـرأ بشكل مفيد الكـلاسيكيات، وكـان متقبلاً بـلا جـدال للأشكـال العـامة للعقـائد المسيحيـة، وكانـت عقيدته وديانتـه هي ديانة الامبراطورية والامبراطور: الامبراطـورية كمركبة لتوحيـد بني البشر، والامبراطـور كقائد مختـار لأجل شعبـه، وجعلت هـذه المفاهيم التي شاركه فيها غالبية النـاس من عمله عرضاً رئيسياً للبساطة، والفهم المبـاشر لطبيعة التاريـخ وأهدافه حسبما رعـاها وتصورهـا الكتّاب البيزنطيون.

وولد كينـاموس حسبما ذكـر مراراً بعـد وفاة الامبراطـور جون الثـاني في نيسان١١٤٣، لكن كما يبدو ليس بعد هذا التـاريخ بوقت طويل(٢)، وفي الوقت الذي لانعرف فيه شيئاً عن أسرته، غير:

كـان باسيـل كينـاموس أسقفـاً لبـافـوس في قبرص عام١١٦٥ وبعـد ذلك(٣)، ويبدو أنـه تدرب منذ صغره على أسـاليب البلاغة، ممـا يعكس تأثير ونفـوذ نقفور بـاسيكلس عليه، وكـان هذا مـن الخطباء المشهـورين، وربما كـان أستاذه(٤)، ويـؤكـد عنـوان تاريـخ كينـامـوس أنه كـان مـن

العـاملين في البلاط الامبراطـوري(٥)، وبذلـك كـان واحداً مـن مجموعـة كبيرة مـن الكتّـاب الـذيـن ارتبطـوا بـالبـلاط الامبراطـوري وبشخـص الامبراطور، واستخـدم هؤلاء أحياناً في مهـام دبلوماسية أو أرسلـوا لمرافقة بعض الجيـوش(٦)، ويبدو أن بعـض العاملين مـن هؤلاء، مثـل نكيتاس كـونياتـس، قد ميـزوا أنفسهم، وتمكنـوا من الارتقـاء إلى مراكـز عاليـة في الادارة الاقليمية أو المركـزية، لكن يبدو أن كينـاموس لم يفعل ذلـك، وقد ذكر أنه دخل في خـدمة مانويل منذ أن كان صبيـاً: «حتى قبل أن أصبح يافعاً، رافقـت عدداً من حملاته في كل من القـارتين»(٧)، ونستخلص من اهتماماته العسكرية ومن القليل الذي نعـرفه عن حياته، أنه قضى معظم عمره خلال حقبـة حكم مانويـل مع الجند(٨)، ومن المحتمـل أنه شارك في الحملـة الايطاليـة لعامـي ١١٥٥-١١٥٦، فـوصفه لها فيـه حيويـة، وتحديـداته الجغـرافية دقيقـة تماماً، مـع أنه كـان آنذاك —كما يبـدو— لم يتجاوز الاثنتي عشر سنة(٩)، ومثل هذا لـدى حكايته أخبار السفارة التي أرسلـت إلى روما عـام١١٥٧، فهنا قـدم لنا بشكـل مفاجـيء معلومـات لامثيل لها عن سياسات مدينة روما، وعـن ممارسة البابوية لأعمال الحرمان (الذي كـان غير معروف في الكنيسة الشرقيـة) وأيضاً عـن سياسة الـرسل البيزنطيين، فلو لم يكن حاضراً، لما امتلك مثل هذه المعلومات الهامة، وقد غـدا أخيراً قريبـاً من الامبراطـور إلى حد أنـه —كما قال— تنـاقش معـه حول قضايا من فلسفة أرسطو(١٠).

وكانـت المناسبـة الأولى التي ذكـر أنه كـان شاهـد عيان فيهـا هي في عـام١١٦٥ لـدى حصـار مـانـويـل لـزيغمنـون (زيمـون الحاليـة) في يوغـوسلافيا(١١)، ولـدى جمعنا مـابين نصين منقولين عنه نتـوصل إلى أن كينـامـوس كـان حـاضراً سنـة١١٧٦ معـركـة ميريـوكيفـالـون My-riokphalon المأسـاوية، فقـد حكى النـص الأول شكـوك كينامـوس بشأن اقدام مانويل في المعركة:

«حتى وصلت حقائق الأمر إلى ادراكي، لأنه صدف أن كنت وسط العدو مطوقاً من قبله، أراقب عن قرب مقاومة الامبراطور لفرقة تركية كاملة، لكن التاريخ سيصف هذا في الوقت المناسب»(١٢)، ثم قال فيما بعد: «لأنه بعد كثير من السنين أصبح قلج أرسلان لايعبأ بارتباطاته نحو الامبراطور، وقد جعل هذا الرومان يقاتلون الترك بكامل القوات، وصدف أن وقع الجيش في منطقة صعبة، وفقد كثيراً من الأعيان، واقترب من المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور شوهد هناك أنه تفوق في فن الحرب وتجاوز البراعة البشرية، لكن كما سلف وقلت: هذه الأمور ستتم حكايتها فيما بعد من قبلي»(١٣)، ومما لاشك فيه أن النص الأخير يومي إلى ميريوكيفالون، والإحالة فيه تشير فقط إلى النص المتقدم، الذي ورد قبل عدة صفحات، ويبدو أن كيناموس كان واحداً من حفنة الرجال الذين نجوا من المأساة، والمؤسف أن نص تاريخه كما وصلنا ينقطع عند بداية الحملة قبل تلك المعركة.

وكانت المحطة التالية في حياة كيناموس مرتبطة عن قرب بتصنيف تاريخه، فقد كتب بعد موت مانويل يقول: «لقد هلك مخلفاً الامبراطورية إلى ولد في سن المراهقة» وأشار فيما بعد إلى ولادة هذا الوريث، أعني ألكسيوس الثاني بعبارات مسايرة محكمة، ووعد بتقديم وصف شامل له في اللحظة المناسبة(١٤)، وقدم رواية فيها اطراء زائد عن العلاقات بين لويس السابع ومانويل أثناء الحملة الصليبية الثانية، وهي رواية تجاهلت عدداً كبيراً من نقاط الخلاف والصراع بين الحاكمين(١٥)، ومن الممكن فهم هذه المعاملة عندما يقيم المرء التقدير لحقيقة أن لويس كان حمو ألكسيوس الثاني، هذا ولم يول كيناموس أسرة أنجيلوس المدح بشكل منفرد، وفي الحقيقة وصف قسطنطين أنجيلوس جد الأباطرة المقبلين بعدم الكفاءة بسبب فقدانه أسطولاً أمام النورمان(١٦)، وتلقى أندرونيكوس كومينوس معاملة فيها بعض التناقض: فقد تولى وصف

كراهيته الشديدة لمانويل وخيانته له بالتفصيل، لكن نجاته ببراعة من السجن نال اعجاب كيناموس، فهو لم يمدحه ولم يطريه وكأنه الامبراطور الحالي، ولم يشتمه على أنه طاغية ساقط، بل قدمه بمثابة منافس خطير للأسرة الحاكمة(١٧)، وتشير هذه التفاصيل جميعها إلى الحقبة فيما بين أيلول ١١٨٠ إلى نيسان ١١٨٢، وإلى وصاية ماري —اكسينا مع ألكسيوس كومينوس— البروتوسيباستوس— على الصبي ألكسيوس الثاني، وهي الحقبة التي صنف فيها كيناموس تاريخه، فوقتها كان ألكسيوس الثاني مازال حياً، وقد تلقت أمه تقديراً كبيراً، ثم عدّ أندرونيكوس عدواً خطيراً، ولم يكن نائباً للامبراطور أو امبراطوراً، فأسرة أنجيلوس لم تكن قد اعتلت العرش بعد(١٨).

لكن لماذا اختار كيناموس هذا الوقت للكتابة، هذا مايمكن استخراجه من بعض التفاصيل في تاريخه، فلقد كان هو شخصياً شديد العداء للاتين، ونادراً ماترك فرصة دون أن يهاجمهم، وهناك استثناء واحد هو ريموند أوف بواتيه ولويس السابع اللذان كانا الجد ثم الحمو لألكسيوس الثاني، ونال الألمانيان كونراد الثالث وفردريك بربروسا، والبنادقة والبابوية كل نصيبه من الشتائم، اللهم باستثناء بعض المناسبات عندما كان يصدف عملهم بالتوافق مع ارادة الامبراطور، حسب تعابير كيناموس، وكانت هيئة الوصاية على العرش، من جهة أخرى تؤثر اللاتين إلى أبعد الحدود، وموقف كيناموس العدواني من هؤلاء يومي بأنه أرغم على الانسحاب من الخدمة العامة، وهذا الافتراض يعلل اشارته في مطلع كتابه إلى متعته وراجته لكتابة التاريخ حيث قال:

«الفرصة المناسبة حالياً»(١٩)، ويعلل هذا أيضاً عدم تمكنه من الوصول إلى الوثائق الرسمية (أو على الأقل عدم تمكنه من استخدامها) أثناء كتابته (٢٠)، ثم حين حاول كيناموس اطراء الأسرة الحاكمة، كان

يسعى لاستعادة الحظوة الامبراطورية ونيل مكان في الحكومة.

وآخر مرة نلمح فيها كيناموس تؤكد هذا الرأي فيما يتعلق بتاريخ تصنيف الكتاب، فقد رآه نكيتاس كونياتس في ربيع ١١٨٤ يتناقش باللاهوت مع يوثيميوس مالاكس مطران نيا—باتري Neai-Patrai في خيمة الامبراطور في لوباديون، وكان وقتها أندرونيكوس كومينوس هو الامبراطور، وقد هدّد المتجادلين برميهما بالنهر إذا لم يتوقفا(٢١)، ويفيد هذا أن كيناموس قد استرجع مكانه في الادارة، وكسب ثقة الامبراطور، ورافقه في حملته ضد الثوار في بيثينيا، وكان يتردد على الخيمة الامبراطورية، ويبدو أن مواقفه العدوانية ضد اللاتين وطرده من قبل الوصاة على العرش قد ساعده ليتم تقبله من قبل مغتصب العرش.

ومعرفتنا عن نهاية مصيره بعض الشيء أكثر وضوحاً، فقد عاش حتى سقوط أندرونيكوس (أيلول١١٨٥)، وقد ألقى خطاباً —هو مفقود الآن— أمام واحد من أباطرة الأنجيلوسيين(٢٢)، ومع هذا يبدو أن الحاكم أرغمه الآن على التقاعد أو العيش في أحد الأديرة.

ومصادر كيناموس بعيدة عن الوضوح، فهو لم ينقل ولاوثيقة امبراطورية، مع أنه كان يعرف محتوى بعض هذه الوثائق، كما أنه لم يدون أخبار ومناقشات أياً من المجامع اللاهوتية(٢٣)، وذكر نكيتاس، الذي عالج الحقبة نفسها، أنه استعان بروايات شفوية استقاها من بعض الذين كانوا أحياء، وشاركوا في حروب الامبراطور، ولقد أشار كيناموس إلى مصاعب الكتابة حول تلك الحقبة، لذلك عزم أن يقدم عرضاً عاماً فقط «بشكل مختصر وكأنه موجز، لأنني كما ذكرتُ، لم أكن موجوداً في تلك الأوقات»(٢٤).

وقال في مكان آخر، فيما يتعلق باحتلال جون لكليكية: «لكن أن ندون هذه القضايا بالتفصيل، فأمر يتجاوز —كما أعتقد— مهمتنا

الحاليـة، فلقد كـانت غـايتي هـي الحديـث حول الأحـداث التي نحـن بصددهـا باختصـار، لأنني لم أكـن شاهـد عيان لهم، كما أننـي لم أتسلم رواية مـوثوقة حـولهم»(٢٥)، ومن المؤكد أنه استقـى مواده الأساسيـة من مصـادر شفويـة حصـل عليهـا من بعـض الأفـراد، لكـن يبدو أنـه مـن سنة١١٥٥ فصاعداً قد اعتمد على ملاحظاتـه، ثم إنه من الممكن أحياناً تعقب مصـدره من ذلـك مثلاً: كان جـون كومينـوس البروتوفستيـارويس والبروتوسيبـاستوز منـذ زمن مصـدره فيما يتعلق بمـؤامرات أنـدرونيكوس ضد الامبراطور في بيـلاغونيا (حوالي سنـة١١٥٤)(٢٦)، وربما أعطاه جون كانتاكـوزينوس روايته حول الصراع مع الصرب والهنغـار على درينا وتارا، وكان جـون دوقاس مصدره عـن الحملة الايطـالية (إن لم يكن كينـاموس نفسـه قـد شـارك فيهـا)، ومـايكـل بـرانـاس عـن الحملـة لاسترداد سيرميون(٢٧).

وذكرت آنـاكومينـا انها استطاعـت أن تدوّن أخبـارها ببسـاطة عظيمـة وبدون تصنع اعتماداً على واحـد كان من عساكـر والدها، كان قـد تقاعد فيما بعـد في أحد الأديـرة(٢٨)، ويمكن للمـرء أن يغرى بـالتفكير بوجـود روايـات مشابهة أقحمـت داخـل كتـاب كينامـوس، وسيكـون على رأس الاحتمالات روايـة حول هجـوم مـانويـل في ١١٤٦ على قـونية، والنتيجـة المأساوية والتراجـع(٢٩)، فهذه أول رواية طويلـة متواصلة حواهـا كتاب كينامـوس، والمعلومات الجغـرافية هنا صحيحة بشكـل مدهش، تسـاعد على إعادة بناء تفـاصيل معظم الطريـق، وما من شخص هنـا واضح أنه «البطل» (وربما المطلع) غير الامبراطور، هذا من جـانب ومن جانب آخر كـان سوء قيـادة الجيـش البيزنطـي أثنـاء التراجـع قاسيـاً (وهـو بالنسبـة لكينامـوس قريـب بشكل فـريد) ومجرداً، وتـوحي هـذه المزايا أن الـرواية اعتمدت على واحـد من ضباط الجيـش المحترفين، ممن كانـت رتبته دون رتب الأرستقـراطية، وربما جاءت روايته عـن الحملة الصليبية الثانيـة من

المصدر نفسه أو من مصدر مشابه(٣٠).

ومع هـذا لقد جمع كينامـوس الكتلة العظمـى من مادة تـاريخه مما رآه ولاحظه ومن روايات شهود عيان.

وكان كينـاموس مثل غيره مـن المثقفين العلمانيين البيزنطيين قـد عرف واستفاد مـن كتابات الكتّاب الكـلاسيكيين الاغريق، فقد أشـار في مطلع كتـابـه إلى ماكتبـه اكـزنفـون عن تـربيـة قـورش، وأنابـاسيـس، وربما إلى هيرودوت، زد على هـذا هنـاك ايماءات استغلهـا هذا الكـاتـب واستفـاد منها(٣١)، ففـي إحدى النقاط نشعـر بوجـودأصداء لتوسيـدس وذلك في قـوله: «لقـد انتهت السنـة بعدمـا أحدثـت هذا التغيير»(٣٢)، ويبـدو أن بـروكوبيـوس قـد زوده بنمطـه الأدبي، وعنه نقـل روايـة حـول رومولـوس أغطستولوس، وأودوفاكار، وثيـودورك(٣٣)، ومن الممكن أن نتلمس بشيء مـن الضبـابية آثـار بعـض الكتّـاب الآخـريـن مثل بلـوتـارخ أو أرّيـان، وليبانوس(٣٤) خلف صفحاته، وعلى كل حـال لايمكن مقارنة كيناموس مع آنـاكومينا بالنسبـة لسعته الثقافة والقـراءة لكتابات الكتّاب القـدماء، ولاحتى بنكيتـاس، ذلك أن هذا تمثل كتـاباتهم واستطاع بعد ذلـك صنع أسلوب خاص به.

وبشكل عام ومقارنة له ببقية الكتّاب البيـزنطيين الذين كتبوا بالتاريخ نلاحظ أنـه بذل جهده لتغليف مـواده وتمويهها بثوب قديـم، وهكذا كان كلما استطاع يعطـي شعوب العصـور الوسطى أسماء قـديمة، فلقـد أطلق على جميـع شعوب الـدول الاسـلاميـة في المشرق «الفرس»، وعلى القبـائل المنتشرة من شمال البحر الأسـود اسم «السكيزيين»، أما الهنغار فكـانوا إما «بانونيين» (من هيرودوت) أو «هون» (من بـرسكوس وبروكوبيوس) ومزج بعـض الأسماء فـدعـا الفـرنسيين بـاســم «الجيرمـان» والجيرمـان بـاسـم «ألمانيو»(٣٥)، وكـان البيزنطيـون عنده دومـاً «رومان» اللهـم إلاّ في بعض

المناسبات النادرة، عند الاشارة إلى سكان العاصمة، ويعكس هذا الاستخدام أصالة الشعور القوي بالهوية الرومانية التي آمن بها الشعب البيزنطي، فهم حتى بالاغريقية الشفوية «رومانيو».

وأخيراً استعار من توسيدس اختراع «الكلام الزائف» و«الرسالة المصطنعة»، فما من واحدة من الرسائل التي نقلها كيناموس يمكن عدّها أكثر من مجرد تركيب صنعه هو، وتختلف الوثائق الأصيلة التي وصلتنا (خاصة المراسلات فيما بين البيزنطيين والحكام الألمان) بمحتواها عما ادعاه كيناموس ورواه(٣٦)، والأفكار التي وردت لدى توسيدس وتصورها بمثابة مقدمات لتأتي في بداية مناقشات بعض الفرقاء قد انحدرت لدى كيناموس وتشوهت إلى عبارات مثل: «بضع كلمات مناسبة» و«تمارين طفل مدرسة ومسرح خطابات»، وأكثر الكلام احكاماً بالصنعة ذلك الذي وضع في فم جون الثاني وهو على فراش الموت، وهو الأكثر زيفاً، علماً بأن كيناموس كان في هذا المقام ضحية مؤامرة استهدفت اخفاء الحقائق المتعلقة بوفاة جون(٣٧)، هذا وينبغي ألاّ يغيب عنا أن مثل هذه الخطابات والرسائل المصطنعة غالباً ماجرى استخدامها لتغطية عملية انسحاب بيزنطية أو هزيمة(٣٨).

وبعيداً عن الخطابات والرسائل جاء أسلوب كيناموس على العموم أسلوباً واضحاً ومباشراً، وهذا هام بالنسبة لكاتب بيزنطي، ونادراً ماجاءت تراكيبه متداخلة، وجمله بالعادة جمل قصيرة، ومفرداته ليست غير اعتيادية خالية من التشدق، وهذه السمات التي تجعله مقبولاً بالنسبة للقارىء المعاصر، قد نظر إليها على أنها علامات تدل على نقص الثقافة من قبل أبناء جلدته من الكتّاب البيزنطيين، فاستخدام الأساليب المحكمة والمعقدة مع القدر الأكبر من الكلمات الكلاسيكية هو السمة التي تميز بها الكتّاب الأعلى ثقافة من معاصري كيناموس مثل نكيتاس كونياتس ويوتاثيوس السالونيكي، ونتيجة لهذا وجدنا أن روايته ما ان

وصلت حكم مـانويل حتى تدفقـت بسرعة لكن بنعومة غـالبة، وكان قادراً على تقديـم بعض المشاهد المشرقـة والحية، من ذلك مثـلاً: التراجع البيزنطي من قـونية، والمعركة مع رتشارد أوف أندريـا، والساحرة العجوز أثناء حصـار زيمون(٣٩)، ولقـد وصف ببراعـة أندرونيكـوس كومينـوس، على أنـه كان رجـلاً صـاحـب قدرات عظيمـة، وقـد دُمّـر بطموحـه غير المستقـر، وكـراهيتـه الموروثـة لمانويـل، وشروره الشخصيـة التـي لايمكـن التخلص منها(٤٠).

وبالنسبـة للقارىء المعـاصر تشوه أسلـوبه بمبـالغته في مـدح مانـويل كومينوس ويدلل حـديثه عن كل سمة من سمات مانويـل مثل: شجاعته واقـدامـه في الحرب، وعبقـريته في تصـور وادراك الأوضـاع الاستراتيجيـة للأعـداء، وفروسيتـه، وبراعته في ميـدان الطب، وثقافتـه العاليـة، ان هذا كلـه دفع كينـاموس إلى اعجـاب هائل بـه، وحماس منقطع النظير نحـوه، وليس لما ادعاه من أنـه كان يقوم فقط برواية أشيـاء رآها بنفسه أو رويت موثوقة له جاذبية، ومع أنه لاشك هناك بعض الحقيقة قائمة وراء رواياته عن انجـازات مانويـل —شابه الامبراطـور الفرسان الغـربيين في سعيهم نحـو المبارزات الفـردية واظهـار براعتهـم واقدامهـم— إن الحقائق التـي ليست لصالح مـانويل هي الطاغية، لاسيما وأن نتـائج مؤامرات البلاط، وأخبار الدسائس والاتهامـات، لم تتم روايتها قط بطريقة معـادية لمانويل، فعلى سبيل المثال وتبعـاً لنكيتاس إن التهم حول محاولـة اغتصاب العرش التي أثيرت ضد ألكسيوس اكسوكوس كـانت كلها زائفة(٤١)، وعلى هذا إن تاريخ نكيتاس كونياتس وسيلة ثمينة لتصحيح روايات كيناموس.

ولم يشكل كينـاموس، على كل حـال، في أعمال اطرائه ومديحه، حـالة استثنائيـة، فقد كان بكـل بساطة يعمـل في نطاق تقاليـد مقبولة بـالنسبة لآداب التاريـخ والبلاط، ولابـأس هنا بعرض بعـض الأمثلة القليلـة من كتابـات سلفه المبـاشرين، فقـد ختم ميخـائيل بـزللوس تـاريخه المشهور

بمديح طويل لميخائيل السابع دوقاس، ووجّه ميخائيل أتاليانس تاريخه وأهداه إلى نقفور الثالث بوتانياتس، لابل حتى أقحم فيه رواية ناشزة حول الاستيلاء على كريت من قبل بوتانياتس الذي زعم أنه جد لنقفور الثاني فوقاس، ولقد كتب كل من نقفور برينيوس وآناكومينا لتمجيد ألكسيوس الأول(٤٢)، فلقد كانت خطابات المتعلمين وأعمال الاطراء للحاكم المتسلط، جزءاً من الرسوم الاحتفالية للبلاط البيزنطي، ولقد كان جميع الأشخاص ذوي الثقافة العالية قادرين على كتابتهم، ولم يكن هناك من حاجة لا إلى الاخلاص ولا إلى الصدق في انشاء هذه الخطابات، ونكيتاس المعاصر كان في خطابه معاكساً تماماً وبشدة لما ضمنه في تاريخه الذي صنفه فيما بعد(٤٣)، وبالنسبة لكيناموس لم تكن مقاطع المديح هامة فقط بل أساسية لمقاصد كتابه، وذلك بسبب أمله باستعادة الحظوة ونيل وظيفة، وكانت اعلاناته المتكررة عن ايجابيته هي مجرد كلام للزينة ووسائل رخيصة(٤٤).

وتاريخ كيناموس بعيد عن الكمال، ولقد اتبع بالعادة خطاً زمنياً متتابعاً بشكل معقول، ونجم عن هذا في بعض الحالات تغييرات سريعة في المشاهد الجغرافية، واقحام مواد لاعلاقة لها بالموضوع أو شطائر من التاريخ اللاهوتي، وقادته في بعض الأحيان ضرورة تقديم خلفية، والميل لمتابعة التعايش مع بعض الأفكار، إلى تبدلات وتلونات لانهاية لها، ففي إحدى المرات، وبمناسبة حديثه عن ابرام معاهدة مع هنغاريا (١١٥٣) أشار كيناموس ضمن أربع جمل أو خمس، إلى حرب أثيرت (١١٥٤-١١٥٥) بسبب أعمال أندرونيكوس التآمرية، وإلى ارسال أندرونيكوس «في ذلك الحين» (١١٥٢) إلى كليكية لإخماد ثورة طوروس، ثم إلى هرب الأخير من القسطنطينية (حوالي١١٥٤)، والنشاطات التالية في كليكية، وكان أندرونيكوس —على كل حال— قد اصطحب معه القيصر جون روجر، الذي كان مرشحاً لخطبة كونستانس صاحبة

أنطاكيـة، وهنا جرى عـرض أسباب تـرملها (١١٤٩) باسهـاب، وعادت الحكاية بعـد عدة صفحات تالية إلى أنـدرونيكوس في كليكية (١١٥٢)، وكـان الرابـط هنا بين هـذا كله شخصيـة أندرونيكـوس وضرورة تقديـم ملخـص عـن حيـاتـه، غير أن كينامـوس لم يكـن يخشـى مـن التعقيـب والتذييل[٤٥].

وكـان مـن الممكـن لهذه الفـوضـى أن تتلطـف بعـض الشيء، لـو أن كينـامـوس قـام بمـراجعة عملـه، كما يفترض أنـه نـوى ذلـك، وتنقطـع المخطوطـة الفريدة لهذا الكتـاب والتي وصلتنـا من العصور الـوسطى في نهاية الوجه الخلفي للورقة وسط إحـدى الجمل، ويبدأ وجه الورقة التالية بكتاب آخر، ومـن غير المعروف فيها إذا كان المؤرخ قد أكمـل كتابه، أو أن هنـاك بعض الأوراق مفقـودة من المخطـوطـة، أو أن الناسـخ تعب مـن عملـه فتوقـف هنـا[٤٦]، والبينـة الرئيسيـة حـول عـدم قيام كينـامـوس بمراجعة عمله، هو توفر عدد من الاحالات مثل قوله:

«كما قلنا في الغالـب» أو عبارة مشابهة، وعدم توفـر الصفحات المحال عليها أو النصوص المشار إليها، ومن أهـم الأمثلة الصارخة على هذا ذكره للـزواج الذي تـمّ سنـة ١١٤٨ بين ثيودورا ابنـة أخـي الامبراطور وهنـري صاحب النمسا، فقد أسقطت هذه الرواية من مكانها الصحيح من قبل كينـاموس[٤٧]، ولـدى جمع هذه العيـوب مع بـداية عنـوان النص وهـو «ملخص للمتواليـات......» الذي يعكس بدوره العنوان الـلاتيني الذي أعطاه المحقـق وهو «ملخص للأعمال.....» يـؤكد أول تلميذ لكينـاموس أن النص المتوفر حـالياً هو مختصر تولاه أحدهم في وقـت تال، ولم يعد هذا الرأي مقبولاً الآن:

ذلـك أن المتولي لـلاختصار كـان مـن المفترض أن يقوم بحـذف المواد الخطـابية الفـائضـة، بينما في حال وجـود عيـب الاحـالات. هذا يمكـن

تعليله بأن المصنف أخفق في مراجعة نصه أي لم يقم بذلك، وبرهان آخر على أن كيناموس قد ترك كتابه ناقصاً هو الطبيعة الاختصارية المتوالية لأجزاء الأخبار المتعلقة بمانويل في عقد سنواته الأخيرة، وتعطي هذه الصفحات الانطباع بوجود ملاحظات كانت تنتظر عناية المؤلف وانتباهه في النهاية(٤٨).

وتأكد لدينا بشكل غير مباشر أن الكتاب لم ينشر من خلال إعلان نكيتاس كونياتس في مطلع كتابه أن ما من مؤرخ سواه قام بتغطية هذه الحقبة منذ وفاة ألكسيوس الأول(٤٩)، ومع هذا من المؤكد أن نكيتاس استفاد شخصياً من كتاب كيناموس (٥٠) واستقى منه، ولابدّ أن نجد تعليل هذا الأمر في حقيقة أن الكتاب لم يختم وبالتالي لم ينشر، ولم يتداول خارج وسط طائفة العاملين في البلاط الملكي، وطبعاً كلاهما انتمى إلى هذه الطائفة نفسها.

وجرى نسخ أصل النص في القرن الثالث عشر، وهكذا بقي لنا ووصلنا، وتفيد الاشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من كتابات مؤرخي تلك الحقبة كادت أن تضيع، فلقد وصلتنا نسخة وحيدة من تاريخ بزللوس، ونسختان (كلاهما من القرن الثاني عشر) فقط من النص الكامل لكتاب الألكسياد هما اللتان عاشتا حتى العصر الحديث(٥١)، ولدى عقد مقارنة بين كتابات المؤلفين الاغريق الكلاسيكيين وكتابات المؤرخين البيزنطيين، نجد أن نتاج البيزنطيين كانت له قيمة قليلة في أعين باعة الكتب والنساخ، وكانت نسخة تاريخ كيناموس العائدة للقرن الثالث عشر موجودة في القسطنطينية عام١٤٥٣، وقد وصلت بشكل ما إلى مكتبة الفاتيكان، حيث هي الآن، وقد أخذت عنها نسخة في القرن السادس عشر، ثم ثلاث نسخ أخرى في القرن السابع عشر، وقام اسحق فوسيوس بنسخ إحدى هذه الثلاث، وهذه استخدمها كورنيليوس توليوس أساساً لأول طبعة للكتاب في أوترخت عام١٦٥٢، مع نص

لاتيني مـرافق، وقـام الاختصاصي العظيـم بالبيـزنطيات شـارل دي فرزن Sieur Du Cange بنشر طبعـة أخرى في بـاريس عـام١٦٧٠ مع ترجمة لاتينية جـديدة، وحواشي ماتزال هامة، وبـالنسبة لطبعة أ.مينك التي نشرت في بـون عام١٨٣٦، فقد اعتمد على الطبعتين القـديمتين مع نسخة عـن مخطوطـة الفاتيكـان أعدّهـا ثيودورهـايس، ويبقـى إن هناك حـاجـات أسـاسيـة لإعـادة نشر هـذا الكتـاب مـن قبـل الاختصـاصيين بالبيزنطيات(٥٢).



مختصر عن نجاحات الامبراطور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يوحنا كومينوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطور والبرفيروغنتوس المولى مانويل كومينوس. [كتبت من قبل السكرتير الامبراطوري يوحنا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١- لم ينظر إلى كتابة التاريخ انه عمل غير مشرف من قبل القدماء الذين كانوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلوا على تقدير كبير لعملهم بالتأريخ، ويذكر انسان في التاريخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخر تدريبات قورش منذ طفولته، والأعمال التي أنجزها عندما بلغ مرحلة الرجولة.

وهناك خطر ان ماكشف عنه في وقت ما قد يتعرض للإخفاء ثانية، لكن الرجال الذين دونوا الأشياء في الكتب، كما لو أنها نقشت على أعمدة لن تفنى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هذه الأعمال هي ليست مما لايستحق القيام به أبداً، وهذه الأعمال يتوجب تزويدها بشكل جيد بالمعلومات عن الوقائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، وما من شيء من هذه الأمور، التي أراها ضرورية، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألاّ نلتزم بالصمت حيال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبالحري طالما توفرت فرصة مناسبة أمامنا، علينا

أن نلتزم بـالعناية حتى لانصدّ النـاس عن العودة إلينا ثـانية، ويمكن أن ننجح إذا ما نظـرنا نظرة عابـرة إلى أخبار جميع الأشياء العـائدة إلى الحياة العامة للبشريـة وقدمنا عرضاً لأعمال امبراطورين، واحـد منهما فارق هذه الحياة قبل قـدومنا إلى هذا العالم، وازدهـر الآخر في أيامنا، ثم هلك تـاركاً الامبراطـوريـة إلى ولـد في مقتبل العمـر، وهـذان هما يـوحنـا ومـانـويل كومينوس.

ولانحتـاج نحن الـذين تـولينـا القيـام بهذا العمل أن نحكـي ثـانيـة أصـولهما ومن أين جـاءا (لأن أحدهما عهـد إليـه بالمنصب الامبراطـوري بحكم علاقتـه بأبيه —ألكسيـوس الأول كومينوس— والثـاني بحكم أنه حفيـده)، ولاكيف أدارا الشـؤون الـرومـانيـة العـامـة، لأن ذلك —كما أعتقد— قد أشبع وصفاً من قبل الـذين دونوا هذه الأعمال، كما اننا لسنا حتى بحاجـة لأن نروي كيف ثار ضـدّ نقفور [الثـالث بوتانيتـاس] الذي حكم الامبراطوريـة آنذاك، وكـان رجلاً قـد تخطى كثيراً مرحلـة الشباب، وكـان في مرحلـة تقهقر الحيـاة، وكما قلت: لقد روي هـذا بشكل صحيح من قبل أشخاص كتبوا دون أن يحملوا مشاعر عداء نحوه(١).

وسأتـولى عرض أعمال يـوحنـا باختصـار، أو لأقل بـايجاز، بسبب أنني —كما قلت— لم أكن مـوجوداً في أيـامـه، ولاأعرف هل يمكن لأحـد أن يتـولى عـرض أعمال خليفته مـانـويل أفضل مني، بسبب أنني رافقتـه في عدد من حملاتـه في كلا القـارتين قبل أن أكون شـاباً، وقصـدي طالما أن المناسبة موائمة أن نعود بروايتنا إلى البداية، ومن هناك نبدأ تاريخنا.

٢- عندمـا ختم ألكسيـوس حياته [١١١٨] خلفـه يوحنـا في منصب الامبراطورية، الـذي سلف ووعد به من قبل والده، وبعـدما أوقف نفسه على الشؤون المدنيـة بقدر ماسمح الـوقت له، انطلق نحـو آسيا [١١١٩] وعلى مقـربـة من نهري ليكـوس Lykos [شـوروكسـوشي]

وكابـروس Kapros [قاضي كـوي ديري] الفـريجية قـامت مـدينة لودقيا [قـرب دنزلي] ,وكان الترك قـد استولوا عليهـا فيما مضى منذ بعض الـوقت، وقد نـوى الامبراطور اعـادتها إلى الأراضي الرومـانية، وقـد وجّـه حملته الملحـوظة ضـدّهـا، وعندمـا كان على مقـربـة من فيلادلفيـا [علاشهـر] أقام سياجاً وعسكـر هناك، وبعث بواحـد من المحظيين عنده واسمه يوحنـا [أكسوكوس] وكان قريبـاً من الترك عن طريق أجداده(٢)، بعثـه مع قوة كي يحاول الاستيـلاء على المدينة، ثم قـام بعد قليل —بنـاء على رغبة جيشه كله— بالاستيلاء عليها بـدون مقاومة تقريباً. وكان هناك حشـد من البرابرة، ولايقل عن ثمانمائة من مشـاهير رجالهم، وكـان بينهم ألب—قـرا(٣)، وكان رجـلاً واسع التجربـة في عدد كبير من المعـارك، ثم قـام بترك حاميـة كافيـة في المدينة وشحنهـا بما يكفيها من مـؤن، ومن ثم انطلق يريد بيزنطة.

وبعـدمـا عسكـر لبعض الـوقت ضـد سـوزوبـولس Sozopolis (أولوبورلو)(٤) تمكن بسهولة من وضعهـا تحت السيطرة الرومانية، وأنا سأحكي كيف حدث ذلك، كـانت سوزوبـولس في الماضي إحدى المدن البـازرة في آسيا [الصغـرى] متمركـزة على منحـدر، وذات موقع مسيطـر، وكـانت صعبة الـوصول إليهـا من كل جـانب، باستثنـاء جانب واحـد، الـذي وفر ممـراً ضيقاً جـداً يوصل إليهـا، وكان من المحـال سحب آلات ورفعهـا إليهـا، كما لم يكن بإمكـان أيـاً من مـواد الحصـار الحربي أن تهيأ ضدها، وكان الوصول إليها من قبل الـرجال صعباً مالم يزحفوا ضدها في مجموعات صغيرة. لقد امتلكت المدينة هذه الأحوال.

وفي الحقيقـة جلب التفكير بـالاستيـلاء عليهـا في البـدايـة اليأس إلى الامبراطـور، لكـن تهيأ لـه خطـة جعلت من السهل اعطـاء المدينـة إلى الرومـان، وجعلته يحصل على شهـرة عظيمة بين النـاس جميعاً، وسأوضح ماهية هذه الخطة:

لقد قام باستدعاء اثنين من حملة الرماح لديه، وكان اسم أولهما باكتياريوس Paktiarios واسم الآخر ديكانوس Dekanos ، وأمرهما مع قوتهما بأن يمضيا مباشرة إلى أبواب المدينة، ومن ثم يتوليا رمي الذين كانوا متمركزين فوق الأسوار، وعندما يتقدم هؤلاء، توجب على [البيزنطيين] الفرار دونما خجل، حتى يتمكنوا من استدراج المطاردين لهم إلى أقصى مسافة ممكنة، وتوجب عليهم لدى تركهم للمكان الضيق، وقد امتلكوا التفوق، الانعطاف بشكل مفاجىء والهجوم من هناك، بغية احتلال منطقة الأبواب، وهكذا انطلقوا نحو المدينة، وعندما رآهم البرابرة يقتربون، فتحوا الأبواب واندفعوا مسرعين نحوهم بقدر ماامتلكوا من قوة، وما ان أدار [البيزنطيون] ظهورهم، حتى بدأت عملية المطاردة تأخذ أبعادها، ثم قام أحد الرجال بالانعطاف، فلحق به عدد كبير من الرومان، وعندما وصلوا إلى الأبواب، ترجلوا عن ظهور خيولهم ووقفوا هناك، وإثر ذلك عرف البقية من الجيش الروماني ماحدث، فزحفوا بسرعة كبيرة، ووقع العدو في الوسط، ففر في هذا الاتجاه، وفي ذاك نحو السهل المجاور، وتمّ الاستيلاء على المدينة.

٣- وانطلق الامبراطور من هناك، فاستولى على حصن هيراكوكوريفايت(٥) Hierakokoryphite وعلى عدد كبير آخر، كان معظمها قائماً في أحواز أطاليا [أنطاليا]، وهكذا عاد إلى بيزنطة، وبعد إقامة قصيرة هناك انطلق يؤم مقدونيا، فقد كان البشناق(٦) قد عبروا الدانوب مع جيش، وتولوا خرق الحدود الرومانية، لكن بحكم أن الشتاء [١١٢١-١١٢٢] فاجأه هناك، فقد أمضى الفصل في مكان حول مدينة برهويا Berrhoia [ستارازغورا] وكان يستهدف من بعض الجوانب الاستعداد للحرب، لكنه أراد بالدرجة الأولى أن يكسب إلى جانبة بعض مقدميهم، ذلك انه عندما كان سيمزقهم بهذه الصورة، كان سيسهل عليه التغلب على الآخرين،

وبعدما تمكن من اقناع كثير منهم بالالتحاق به، وذلك بوساطة الرسل، قام في الربيع بالزحف ضدّ البقية، راغباً في حسم الأمور عن طريق القتال.

وعندما اصطدم الجيشان ببعضهما بعضاً، بقيت المعركة متأرجحة لبعض الوقت، ثم أصيب الامبراطور نفسه بسهم في رجله، إنما بما أن الرومان قاتلوا بشجاعة فقد هزم البشناق هزيمة ساحقة، وقتل بعضهم، ووقع بعضهم الآخر بالأسر، وكان عدد البشناق الذين تراجعوا إلى معسكرهم معتبراً، وقد عدّ هؤلاء الفرار عملا ليس فيه جدوى، واختاروا تحمل المخاطرة هناك مع زوجاتهم وأولادهم، وقد قاتلوا أمام عرباتهم، التي كانوا قد غطوها بجلود الثيران، وربطوا بعضها مع بعض ووضعوا في هذه العربات زوجاتهم وأولادهم، وهكذا وقعت ثانية معركة حامية، وسقط القتلى من على الجانبين، واستخدم البشناق العربات بمثابة حصن وهكذا ألحقوا أذى عظيماً بالرومان، وعندما أدرك الامبراطور هذا الحال، رغب في أن يترجل عن ظهر حصانه، وأن يتابع القتال على الأقدام مع جنوده، وعندما لم يوافقه الرومان على ذلك، أمر حملة الفؤوس من حوله (وكان هؤلاء من الأمة البريطانية، داخلين في خدمة الامبراطور الروماني منذ زمن طويل) أن يقوموا بقطع [العربات](٧) المواجهة لهم بفؤوسهم، ونظراً لدخولهم المعترك على الفور، غدا الامبراطور بذلك سيداً مسيطراً على معسكر البشناق، وجاء عدد كبير من الذين طلبوا السلامة بالفرار طواعية إلى الامبراطور، راغبين في أن يؤخذوا أسرى، وقد جرى تدريبهم على طرائق الرومان، وبعدما جرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية، خدموا لزمن طويل.

٤- هكذا كان مرور البشناق في أراضي الرومان، لكن الامبراطور انشغل ثانية بشؤون آسيا، وحيث انه هاجم البرابرة بشكل غير متوقع في الشتاء هناك [١١٢٤؟] أخذهم أسرى تقريباً، وقام بتحويل عدد كبير

منهم إلى الايمان الصحيح، وبذلك زاد من عدد القوات الرومانية، وبما انهم كانوا غير مدربين على الأعمال الزراعية، بل يعتمدون على شرب الحليب وأكل اللحوم، مثلهم في ذلك مثل البشناق، وبما انهم كانوا يعسكرون متفرقين في السهل، كانوا فريسة جاهزة لكل من كان يرغب في قتالهم، فعلى هذه الصورة عاش الأتراك من قبل.

واندلعت حرب بين الرومان والهنغار الذين سكنوا في المنطقة الواقعة فيما وراء الدانوب، وذلك للأسباب التالية: كان للازلو الأول Laszlo ، ملك هنغاريا ولدين هما ألموس وستيفن [اصطفان الثاني](٩)، وعندما توفي والدهما تسلم ستيفن —الذي كان هو الأكبر— العرش الملكي، والتجأ الآخر إلى الامبراطور، ذلك ان عادة الهنغار كانت انه عندما يموت حاكمهم مخلفاً أولاداً، فإن الذي يتسلم السيادة عليهم مادام بدون ولد ذكر، يتعايش الاخوة مع بعضهم ويتمتعون بعلاقة طيبة أحدهم بالآخر، لكن عندما يلد طفل له، فإنه [أي الملك] لن يمنحهم أية استمرار في البلاد، إلا إذا اقتلعت أعينهم، ولهذا السبب جاء ألموس إلى بلاط الامبراطور، وقد عامله الامبراطور برعاية، واستقبله بلطف، لأن الامبراطور جون كان متزوجاً من [بيروسكا Piroska] ايرين ابنة لازلو، وكانت امرأة فاضلة جداً لم تر العين مثلها أبداً، في درجات السمو الأخلاقي التي امتلكتها، فكل ماكان يزودها به زوجها الامبراطور والامبراطورية، لم تكن تدخره على شكل حصص لأولادها، كما انها لم تنفقه في زيادة زينتها وترفها، بل أمضت حياتها كلها تقدم النفع لمن استجداها شيئاً، أو لمن طلب منها عوناً، وقد أسست ديراً كرّسته على اسم البانتوكراتور Pantokrator [المسيح القادر](١٠) ،وكان من أجل الأديرة وأكبرها حجماً، هكذا كانت هذه الامبراطورة.

وعندما سمع الملك الهنغاري أخبار أخيه، أرسل مبعوثين إلى الامبراطور وطالب بطرد [ألموس] من الأراضي الرومانية، وعندما وجد

[اسطفان الثاني] نفسه غير قادر على فرض مطالبه على الامبراطور، عبر نهر الدانوب، وحاصر بلغـراد [بيوغراد] وهي مدينة قائمـة إلى جانبه، واستولى عليهـا [١١٢٨]، واجتثها هـدمـاً حتى الأسـاسـات، ونقل أحجـارهـا بالقـوارب، وبهم عمّر زيـوغمي Zeugme [أو زيوغمنـون وهي زيمـون المعـاصرة](١١) وهي مـدينـة بـاتجاه سيرميـون Surmoin [سرمسكامتروفيكـا] وقد عاشت لسنوات طوال، لكنها سـويت بالأرض أيام حكم الامبراطـور مانويل، وهكذا بتغير [السعد] استخـدمت كلها في سبيل بنـاء أسوار مـدينة بلغـراد، غير أن هـذا سأحكيه فيما بعـد، عندمـا يصل سياق الرواية إلى هذه السنوات.

وعندمـا سمع الامبراطور بهذا، انـدفع عابراً للـدانوب مع جيشـه كله، آخـذاً معـه قوة حليفـة [أي مـرتـزقة] من الترك(١٢)، وعسكـر هنـاك إلى جـانب ضفة الـدانوب واستعـد للمعركـة، لكن حدث أن ستيفن كـان مـريضاً في بعض جسـده، كما وكان مشغـولاً بإعادة الاستيـلاء على بعض الأمـاكن في وسط أراضيـه، ومع ذلك لم يـرغب بـالظهور بعـدم المبـالاة، لذلك أرسل قواتاً بأقصى سرعة ممكنـة، مع أوامر بالحيلولة بين الامبراطور وبين العبـور، ونفـذ الهنغـار المهمـة وقـامـوا بما أمرهـم بـه، وحتى يجعل الامبراطـور المواجهـة غير فعّالـة خطط كما يلي: فقـد قـام بفصل القـوات الحليفـة، وأمرهـا بأن تسايـر صعـوداً مجرى النهر إلى منطقـة اسمها تمبـون Tempon، حيث هناك ربـوة مرتفعة من الأرض الهنغاريـة وممتدة حتى النهـر، فمن هنـاك تـوجب عليهـا الجواز، ومكث الامبراطـور مع القـوة الرومانيـة الأخرى في مواجهة مخاضـه كرامون Kramon [كاما]، وتـظاهر أنـه سيعبر من هناك فـوراً، وعندمـا تم تنفيذ ذلك، عبر الـرومان بدون صعوبـة، وكان الهنغار غير قادرين في البدايـة على مقاومتهم، فلاذوا بالفـرار مسرعين، وتمت المطاردة ضاغطـة باتجاه النهر حيث انـدفع الهنغار في جماعات لعبور جسر قائم فـوق مجرى النهر، وسقط الجسر، وجرف النهر

عـدداً كبيراً منهم، بعـدمـا فـارقـوا أرواحهم، غير أن كثيراً منهم سقط في أيـدي الـرومـان، وكـان من بينهم آكـوص Akus وكلدي Keledi (١٣)، وكانا من أبرز رجالات الهنغار.

وعنـدمـا نجح الامبراطـور بهذا، استحـوذ على حصن كـرمـون دون مقـاومـة، ثم قـام على الفـور بعبـور النهر عـائداً إلى الأراضي الـرومـانيـة، وبعدما قام بتقوية برانيتشيفو Branitshevo [قرب دوبرافيكا] بحامية من الجنـد، تحت إمرة كورتكيوس Kourtikios عاد إلى بيزنطة، وبعـد وقت قصير حاصر الهنغار برانيتشيفو واستولـوا عليها، وقتلوا بعضاً من الرومـان فيها، وأخذوا البقية أسرى، لكن كـان هناك بعضاً ممن طلب السـلامة بـوساطـة القتـال، وغضب الامبراطور ممـا حصل، وحكم على كـورتكيـوس بتهمـة الخيـانـة، وأنـزل على ظهـره عـدداً كبيراً من الضربـات، مع انـه لم يغادر الأسـوار [كما قـالوا] حتى انـدفع العـدو إلى داخل المدينة بكامل القوة، وجعل البيوت طعمة للنيران.

٥- وفي هـذه الآونـة (١١٢٩-١١٣٠) تـآمـر الصرب أيضـاً —وهم شعب دلماشي— وثـاروا وأخضعـوا حصن رهسـون Rhason [رصنج] ولهذا السبب انتقم الامبراطور من كريتوبلوس Kritoplos ، الذي كان مـوكلاً إليـه أمور الـدفاع عن ذلك الحصن، وأمـر فطيف به في الأسـواق، وقـد ارتـدى ثياب امـرأة، وهـو راكب على ظهـر أتان، ومضى ثـانيـة إلى برانيتشيفو، وأعـاد بناءها بسرعة، وكان الجيـش منذ وقت مضى يعاني من برد الشتاء ومن نقص بالضروريات، ولذلك كـان في حالة يائسة، وعندما علم الملك الهنغـاري بهذا، قـرر عبـور نهر الدانـوب بأقصى سرعـة ممكنـة ومهاجمة الجيش وهـو غير متوقع لذلك، وكان في بـلاد الهنغار، سيدة ذات منبت لاتيني، متميزة بثرائها وبـأشياء أخرى، فأرسلت إلى الامبراطور تخبره بما كان قـد خطط، وحيث انه لم يكـن قادراً على الاشتباك معهـم بقوات مكافئة، بسبب ماذكرنـاه عن معاناة جيشه من المرض ونقص الحاجيات،

قام بتحصين المدينة بالقدر الممكن وانسحب، وفي الحقيقة قام بغية تجنب الاصطدام بالجيش الهنغاري باتخاذ طريق وسط منطقه ذات شعاب وعرة، كانت تدعى محلياً باسم سلّم الشيطان، وانقض الجيش الهنغاري هناك بشكل غير متوقع على الوحدات الموكل إليها حماية الساقة، لكنه لم يلحق الأذى بالرومان، وانسحب الهنغار بعدما جمعوا بعضاً من الأشياء المعلقة التي شكلت الخيمة الامبراطورية، والتي كانت قد تركت لعدم توفر حيوانات الحمولة، ونجا الجيش الروماني دون أن يصاب بأذى.

وبعد وقت قصير، زحف الامبراطور إلى آسيا، وأسرع بغية الاستيلاء على مدينة قسطمون Kastamon [كاستامونو] التي هي مجاورة لمدينة بفلاغونيا Paphlagonia [١١٣٢](١٤). فقد اعتاد الأتراك الساكنين هناك على الاغارة على المنطقة المجاورة التي كانت خاضعة للامبراطور، وأساؤوا دوماً معاملة الرومان الذين كانوا هناك، وفاجأ الامبراطور الأعداء بضخامة استعداداته للحرب، وأرغمهم على التخلي عن المدينة وعن أنفسهم لصالح الرومان، وإثر عودته إلى بيزنطة أقام احتفالاً رائعاً بانتصاره، وعندما تمت صناعة عربة من الفضة محلاة بشكل كثيف بالذهب أعد نفسه لدخولها، ومع ذلك لم يركب بها، ولعل سبب ذلك تجنب العجرفة والغرور.

وعوضاً عن ذلك وضع فيها تمثالاً لأم الرب، وسار هو يحمل شارة الصليب وتبعته العربة، وكان منظراً رائعاً للبيزنطيين أن يروا شيئاً —كما أعتقد لم يروه من قبل— ولم يشهدوه منذ الأيام التي قاد فيها أباطرة أسرة هرقل وأسرة جستنيان المملكة الرومانية.

٦- وكان الشعب الروماني مشغولاً بهذه المسائل، لكن [كمشتكين غازي ابن دانشمند]، الذي كان وقتذاك حاكماً لكبادوكيا، قام بتطويق قسطمون Kastamon وحاصرها بجيش(١٥). وحال الحظ بين

الامبراطـور وبين شن الحرب، (لأن قـرينته ايـرين فـارقت الحيـاة الدنيـا، وكان هو نفســه قد أصيب بمرض ثم شرع يتعافى منـه في بيزنطة)، وانهك [كمشتكين غازي] المدينة أولاً بـالتجويع، ثم استولى عليهـا بقوة الحصار [١١٣٢-١١٣٣]، واثرت هـذه الفاجعة كثيراً على معنويـات الامبراطور، وحدث آنـذاك أن توفي [ابـن] دانشمند [١١٣٤-١١٣٥] واستحـوذ ابنه محمد على السلطة، وكان على عدم وفاق مع صـاحب مدينة قونية، الذي قـدره الأتـراك أكثر من ســواه، ودعـوه بـاسم السلطــان(١٦)، وأرسل الامبراطـور جـون رسـلاً من قبلـه إلى قـونيـة، وبعـد أن كسبـوا صـداقـة السلطـان، أقنعـوه أن يقـاتل إلى جانـب الرومـان وضـد محمـد، وقبل أن يمضي وقت طويل جـاء واحد من أعيانه إلى البـلاط ومعه جيش ليعطي رهائن ولينخرط بالقتال.

وجاء الامبراطور إلى غانغـرا [جنكيري] مع الرجال المذكورين، ونصب خيمتـه أمام السـور، بغيـة الإعـداد لهجوم على التحصينـات في الصبـاح، وتصور محمد نفسـه انه لن يكون قادراً على مواجهـة الامبراطور في القتال، وعرف ان عليه ان يكسب إلى جانبه السلطـان، الذي كان مثله من أصل واحد، وأزال الـرجلان خـلافاتهما واتحدا على مـواجهة الـرومان، وفي تلك الأثناء قامت القـوات الرديفة من الترك بالمغادرة والفـرار ليلاً وذلك بناء على دعـوة من السلطـان، ولـدى ادراك الامبراطـور لهذه الخيـانـة غضب غضبـاً شـديـداً، وخطط لـلانطــلاق من هنـاك على الفـور، لكن بعض الرهبان، الذين صدف أن كانوا مـوجودين، حالوا بينه وبين القيام بذلك، وأصروا أن الـذي يحتاجـه للاستيـلاء على غانغـرا هو أن يكـون شجاعـاً، ولاقتناعـه بما قالـوه قام في الصبـاح التالي بمهـاجمة الأسوار، غير أنـه صدّ عنهـا، فـانتقـل إلى رهينـديكن(١٧) Rhyndakene حيث أمضى الشتاء هنـاك مع الجيش كله، وعـانى الرومـان الذين أمضـوا وقتاً طويلاً هنـاك معاناة كبيرة من الجوع، حيث لم يوجد مكـان للحصول منه

على المؤن من أجل الشتاء.

وانطلق من هناك، ومضى إلى قسطمون Kastamon ، وبعدما استولى عليها بالاتفاق، قاد الجيش إلى غانغرا، وعرف الأتراك الذين كانوا مستولين على المدينة، أن قواتاً [تركية] قد احتشدت ثانية عند رهينديكن، وتردد هؤلاء في البداية بشأن تسليم المدينة إلى الامبراطور، حيث كانوا يأملون بالنجدات، ولكن بما أن تلك القوات، لم تكن قد اجتمعت بعد في المكان نفسه حتى تفرقت [لأنها لم تكن قادرة على القتال في فصل الشتاء، حسبما سلف وبينت فيما مضى] فقد أرغمتهم الحاجة فسلموا المدينة له، بشرط أن يغادروا هم والأتراك الذين أسرهم الرومان عندما كان [كمشتكين غازي بن] دانشمند مايزال حياً دونما أذى، ويتحرروا من السيطرة الرومانية، غير أن الأتراك آثروا على الحرية التي توفرت لهم، الخضوع عن طواعية للامبراطور والحصول على فضل رعايته، وشكلوا رديفاً هاماً للقوات الرومانية.

٧- وفيما يلي تبيان لأصول مسألة الحروب الرومانية الايزورية، ذلك ان ليون الأرمني«١٨»، استولى على عدد كبير من المدن الايزورية [أي الكليكية] التي كانت خاضعة للرومان، وشرع بشكل خاص بحصار سلوقية [سيليفكي]، وعندما علم الامبراطور بهذا، حشد قواته، واندفع بسرعة كبيرة نحوها [١١٣٦-١١٣٧]، ولهذا السبب، ولسبب آخر سأقوم بايضاحه، زحف الامبراطور إلى كليكية، فعندما غادر بوهيموند«١٩» حاكم انطاكية هذه الحياة الدنيا [١١٣٠] أرسل أعيان البلاد إلى الامبراطور يقولون: إنه إذا ما وافق على خطبة ابنة بوهيموند إلى مانويل، أصغر أولاده، فإن مملكة انطاكية ستؤول إلى سلطانه بعد الزواج مباشرة، لكن حتى قبل أن يصل إلى كليكية، غير [الأنطاكيون] نواياهم، وعوضاً على الصداقة والتحالف أصبحوا معادين جداً له، ولادراكهم انهم لايضارعون الجيش الروماني في قدراته، قرروا انه يتوجب عليهم كسب

ليون إلى أنفسهم، وهكذا قاموا باخراج هذا الرجل من السجن، وأطلقوا سراحه —ذلك أنهم كانوا من قبل قد قهروه بالحرب وأودعوه السجن لديهم— وحرروه بعدما أخذوا عليه العهود انه سيكون صديقهم وحليفهم ضدّ الامبراطور، وهكذا سرحوه بكل لطف، وعندما وصل الامبراطور إلى كليكية استولى على المصيصة، وكان ذلك بعد اخضاعه لطرسوس وأذنة، ثم عسكر أمام عين زربة جنوب سيس.

وحدثت في الوقت نفسه بعض الأشياء حسبما يلي:

كان لدوق بويتو Poitou ، القائمة دوقيته حول خليج ايسونيا [كذا] ولدين، وعندما توفي الأب، استقر واحد منهما على عرش آبائه، ووصل الآخر إلى كنيسة القيامة في القدس متخفياً على شكل رجل فقير، وعندما رآه المحافظ هناك، أثاره مظهره الجميل وحجمه، فاقترب منه وطلب منه أن يكشف عن هويته، وأجابه الآخر بأقل مااعتقد انه يمكن توضيحه، لكنه كان غير قادر على اقناعه، لذلك قام هذا [الغريب] بإعلان جميع الحقائق حول هذا الرجل، وبعدما استدعى [الملك] ريموند (ذلك أن هذا الاسم أطلق عليه) إليه، أقنعه أن يخطب ابنة بوهيموند، التي لم تكن قد بلغت سن الزواج(٢٠).

وبناء عليه انطلق [ريموند] مسافراً نحو انطاكية، وبالصدفة وقع بين الكشافة الرومان، وكاد أن يؤسر من قبلهم، وقام واحد من الجند الذين تصدوا له بتوجيه ضربة له على الخوذة، لكنه لم يقع لأنه أمسك بكلتا يديه برقبة الحصان، ثم لحق به عدد كبير من أتباعه، فتمكن من العودة إلى ظهره، وهكذا تجنب الخطر، ووصل إلى انطاكية.

وعلى كل حال، كان الامبراطور مشغولاً بحصار عين زربة، وكان الذين في داخل المدينة يخططون لجعل الحصار مخفقاً، لذلك قاموا بتسخين قطع الحديد بوساطة النيران بمافيه الكفاية، ورموها بالآلات،

على رماة الحجارة، وكانت هذه عندما تصبح قريبة تشعل النيران في الأخشاب القائمة أمام الرماة، وأغضب هذا الذي حدث مراراً الامبراطور، وفي حالة الانزعاج اقترب منه ابنه اسحق [السيباستوكراتور Sebastokrator] وقال: «تعال ياأبي وأصدر أوامرك بتغليف المنشآت الخشبية بالقرميد».وعندما أنجز هذا، وجد الذين في داخل المدينة أنفسهم غير قادرين على مقاومة الهجمات المتوالية، ولهذا فتحوا الأبواب وقدموا الطاعة للقائد الروماني.

٨- ووقعت عين زربة، بهذه الطريقة تحت النير الروماني، غير أن ريموند وبلدوين، الذي كان آنذاك صاحب مرعش، وقد شعرا أن الخطر لم يقف بعد أمام أبوابها، جمعا مايكفي من القوات وسارعا نحو فلسطين لانقاذ الملك هناك من الخطر[١١٣٧]، ذلك أن المسلمين الذين عاشوا على مقربة من فلسطين هزموه بالحرب، وكانوا يحاصرونه في قلعة مونت فيراند Mont ferrand [بارين] التي كان قد التجأ إليها.

وبعدما استولى الامبراطور على عين زربة توجه إلى حصار حصن فهكا Vahka [فيكي] قرب انطاكية، وعاد لذلك ريموند وبلدوين مسرعين إليه، وغير في الوقت نفسه الجيش الروماني أوضاع حصار فهكا، ونصب معسكره حول النهر الذي يجري ماراً بالمدينة [أنطاكية]، وكان الانطاكيون في البداية غير خائفين، واثقين بمتانة أسوارهم وبقية الدفاعات، ولهذا عندما طال الحصار لوقت معتبر قام بعض المسجلين بين [المشاة البيزنطيين]، كما يحدث عادة في كل جيش كبير، بالاندفاع نحو الحدائق القائمة أمام المدينة لجمع الفواكه، وهاجمهم [الأنطاكيون] بشكل مفاجىء وقتلوا كثيراً منهم، وعندما انتشر هذا الخبر بين الجنود الرومان، اندفعوا بحماس للانقاذ، وهنا هرب [الأنطاكيون] نحو أبواب المدينة، وفقدوا عدداً كبيراً من رجالهم أثناء الفرار، وعندما استأنف الرومان عمليات الحصار بنشاط وفعالية، أصيب الانطاكيون برعب كبير،

ولهذا غالباً ماقصد ريموند الامبراطور ورجاه بحرارة أن يتخلى له عن المدينة، بشرط وجوب اعلان الامبراطور سيداً لها، واعلان ذلك، لكن على أساس أن يكون ريموند وصياً شرعياً عليها، بموجب سلطان الامبراطور جون، وعندما أخفق ريموند في الحصول على مطلبه، عاد بدون نجاح، لكن بعد مضي عدة أيام، عندما اتخذ المجلس الروماني قراراً حول هذا، استقبل ريموند على أساس الشروط المذكورة، ورضخ بقية اللاتين وسلموا للامبراطور، وكان منهم الذين عرفوا بالاخوان [الاسبتارية والداوية] والذين سكنوا في تلك المنطقة وهكذا جرت الأمور.

وكان الامبراطور جون يمقت أن يضيع الفرصة المناسبة التي تهيأت، فقام بوساطة القوات المذكورة بمهاجمة أعالي سورية، فاستولى بقوة السلاح على حصن بزاعة، وحصل على كميات وافرة من الغنائم منه [١١٣٨]، وأرسل هذه الغنائم مع حشد من الأسرى إلى انطاكية، وذلك بعدما أسند المسؤولية عنهم إلى توماس، الذي كان رجلاً من أصول غير هامة، لكنه دخل —كما أعتقد— منذ طفولته بين موظفي الامبراطور، وذهب الامبراطور نفسه نحو حلب، وهي مدينة قديمة وواسعة الشهرة، وبما أن توماس هوجم بشكل مفاجىء، فقدْ فقدَ الغنائم وقافلة الأسرى التي كان يقودها، ونجا بصعوبة بالغة من الخطر، وعندما وصل الامبراطور إلى حلب، تصور أن المنطقة من حولها كانت بدون ماء تماماً، ولذلك اجتازها دون توقف، وبعدما تغلب على حصني حماة وكفرطاب بالقتال، انتقل نحو شيزر، وهي مدينة مزدهرة وكثيرة السكان، وقد حاصر المدينة هذه واستولى عليها، لكنه عندما تقدم نحو القلعة صدّ خائباً، وفيما هو على وشك الاقلاع بهجوم جديد عليها، وصل إليه بعض الرسل ووعده بمال يدفع إليه فوراً، وأن يوظفوا عليهم مبلغاً يدفعونه سنوياً إلى الرومان، ولقد كان هذا محتوى عرضهم، ورفض الامبراطور هذا العرض، لأنه كان يأمل في أن يتغلب عليهم بالحرب، لكنه بعدما قام بعدة

هجمات مخفقـة ضـدهم اقتنع انـه كـان يحاول المستحيل، لـذلك استقبل رسولهم، وارتحل وفق شروط(٢١).

وقـد زودوه بكثير من المال، وأضـافـوا إلى ذلـك صليبـا، وكـان شيئـاً مـدهشاً، وهـدية تليق بـامبراطور، فقـد كـان عبارة عن حجـر لونـه أحمر، وبحجم معتبر، وعندما حفر على شكل صليب، فقدَ بـالحفر شيئاً من لونه الطبيعي، وقالوا إن قسطنطين الأول، الـذي هو الرسول بين الأبـاطرة، قد أمر بصنعـه، وقد آل أمـره إلى أيدي المسلمين بطريقـة ما، وبعـدما تسلم هـذا، وأخذ العهـود عليهم فيما يتعلق بـالجزيـة المستقبلية، انطلق عـائداً نحو كليكية ثـانية، وما ان استولى على حصنـي فهكا وكابنسكيرتي Kap-niskerti ، بقي في تلك المنطقـة، لكنـه عـزل قطعـة من الجيش وأرسلهـا لنهب بقيـة الحصـون، هـذا وأن أقـوم بتـدويـن هـذه المسـائل بالتفصيل، خـارج كما أعتقد، عن المهمـة التي نحن بصدد تأريخهـا، فقد كـان هدفي الحديث عن الـوقائع الحاليـة باختصـار، لأنني لم أكن شاهـد عيان لها، كما انني لم أتلق روايـة موثقـة حولها، وعلى كل حال لقـد رافقه الحظ، لذلك استطاع أن ينجز هذا القدر في عامين[١١٣٧-١١٣٨].

٩- لقد حاز الامبراطور على شهرة واسعـة في الحروب في آسيا، باستثناء المسائل المتعلقـة بنو—قيسـارية [نكسـار الحالية] فهي لم تسر وفق مـاكان قد خططه، فقد كان الوقت بـداية الانقلاب الشتوي [كانون أول١١٣٩] عندما عسكـر ليس بعيداً عنها، وفكر بـاخضاعها بوسـاطة الحصار، لكن بما أن الترك الـذين كـانـوا مستـولين على المدينةذوي فعـاليـة عظيمـة في ممـارسـة الحرب والهجـوم بعنف عليـه، ولأن برد شتـاء قـارص غير معتـاد ضغط بشدة على جنـوده، غادر المدينة وابتعد عنهـا(٢٢)، وفي أثناء زحفه في المناطق المجـاورة للترك، استحوذ على غنائم هائلـة، وأعاد إلى الأراضي الرومانية حشداً من الرجال، كان الترك قد استرقوهم منذ زمن طويل.

وفي هـذه الحملـة، أعني عنـدما كـان مـايـزال يحتل منـاطق في نو—قيسـارية، حدث شيء يستحق الـذكر والسماع، فعندمـا وقع اشتباك عنيف بين الـرومـان والترك، صـدف أن نـال الترك اليـد العليـا، ولـدى ملاحظـة مانويل —الذي غـالباً [كذا] ماذكـرت أنه كان الولـد الأصغر للامبراطـور— ماكان يحدث، انقض على وسـط العدو —دون معرفـة أبيه بـذلـك— ومعـه حـاشيتـه، وتمكن من صـده ورده إلى الـوراء، وأنعش شجاعـة جنود الـرومان التي ضعفت، وغضـب أبوه —محقاً— مـن هذا ولامه وانتقد تهوره، لكنه في قرارة نفسه أعجـب به وتملكته الدهشة، لقيام مانـويل، الذي لم يكن قـد بلغ الثامنة عشرة من عمـره بعد، بـرمي نفسه وسط خطـر عظيم من هذا القبيل، ولهذا أطلـق عليه ودعـاه علناً بمنقـذ الجيش الرومـاني، وهكذا إن الشجاعة ليست مقصـورة على أي عمر أبداً، وفي هذه الحرب بالكاد استطاع أي من الرومان أن يعود على ظهر فرس.

١٠- وهكذا اختتمت قضية نو—قيسـارية، وما إن علم الامبراطور أن الترك يشنون حـرباً ضدّ سـوزوبولس، حتى سـارع نحوها بكـامل القوى [١١٤٢]، وعندمـا أخفق في لقاء أي عـدو، (لأنهم ماإن علمـوا باقتراب الرومـان حتى انطلقوا فـارين)، قاد الجيش نحـو بحيرة تدعى بـوسغوس Pousgouse[بيشيرغولـو](٢٣)، وهي بحيرة تمتد طـولاً وعرضـاً بشكل عظيم، واستولى على الجزر القـائمة وسط الماء كل منها معـزول عن الآخر، وكان مبني عليها منذ القدم حصون، وعـدّ الناس الذين سكنوا فيها الماء بمثابـة خندق، وكان من الممكن بالنسبـة لهم الذهاب إلى قونيـة والعودة في يوم واحـد(٢٤)، ولهذا السبب بـالذات أولى الامبراطـور أهمية خـاصة للاستيلاء على البحيرة، وعنـدما رفض الرومـان الساكنين في الجزر الخضوع له والتسليم (لأنهم كـانوا منـذ وقت طويل وممارسـة مديـدة، متحدين في مواقفهم مع الأتراك) وضع خطة وفق مايلي:

بعـدما جمع أكبر قـدر ممكن من القـوارب والعـوامـات ربطها ببعضهـا

بعضاً بوساطة ألواح على ظهرها، ووضع آلات حربه عليها، وقادهم مباشرة نحو الحصون المذكورة، وعندما اضطربت البحيرة بالرياح الجافة، فُقد عدد كبير من الرومان، ومع هذا، وبعد عنف لامزيد عليه استولى عليهم.

وعندما علم أن ريموند أمير انطاكية قد ثار، زحف مباشرة عائداً إلى كليكية[١١٤٢]، وعزم على منح كليكية وانطاكية مع اطاليا وقبرص إلى مانويل، ليكونوا حصته، وسأروي لماذا عزم على هذه النية، فقد كان منذ وقت طويل مضى قد وعد الرومان باعطاء الصولجان إلى ألكسيوس، الذي كان أكبر أولاده(٢٥)، في حين كان مانويل آخر أولاده ولادة، وراجت حكايات واشارات تتعلق بالحكم قد ظهرت وأفشيت إلى الشاب، وبالنسبة لي هناك حكاية أو حكايتين ليستا غير مناسبتين للرواية:

مرة عندما كان مانويل نائماً، ظهرت له امرأة في الحلم، وكانت مبجلة المظهر، متدسرة بالسواد، وفي يدها الحذاء [اللؤلؤي] الذي يسمح به القانون للأباطرة، وقدمت الحذاء إلى مانويل حاثة إياه على استخدامه، وخلع هذا: مشيرة إلى حذائه العادي الأزرق اللون والخاص(٢٦) بـ[السباستوكراتور]، واستيقظ مليئاً بالخوف، وحيث انه لم يجد ماظهر له، انفجر باكياً مثل طفل، وظن انه أخذ من قبل شخص من أفراد بيته، هذا مايتعلق بهذا الأمر، لكن هناك شيء آخر لم يقلّ أهمية بالنسبة له:

كان هناك راهب من الرهبان بلاده هي طبرية، وكان طريق حياته بعيداً، وكان من سكان الجبال، وعندما وقف مرة أمام الامبراطور جون للوعظ، لاحظ اقتراب الأبناء منه، وقد عامل البقية مثل معاملة المواطنين العاديين، لكن عند اقتراب مانويل منه، خاطبه بتواضع، وعندما استوضح الامبراطور منه سبب صنيعه هذا، أجابه الراهب قائلاً:

«لأن من بينهم جميعاً يبدو لي مانويل امبراطوراً»، ومن هذا الأمر، ومن

أشياء أخرى مرت بالامبراطور بمثابة اشارات لا عدّ لها ولا حصر، وبما انه لم يكن قادراً على أن يغير مابدا له صحيحاً في البداية، تحول بانتباهه ونواياه نحو الخطة التي سلف ذكرها.

لكن يبدو أن مامن واحدة من هذه المسائل، كان متوقفاً على الخطط البشرية، فهو لم يكد يصل كليكية حتى حرم من ولديه الأكبر سناً [ألكسيوس وأندرونيكوس]، في حين عاد [اسحق]، أحد المتبقين الذي لم يكن صحياً بشكل جيد، إلى بيزنطة مرافقاً للجسدين(٢٧)، ثم تقدم إلى عرش الامبراطورية.

ومن المفيد التوقف هنا قليلاً لتبيان كيفية نهاية جون: فبينما كان يصطاد، غلبه خنزير بري، وكان كبيراً، ذلك أن كليكية وجبال طوروس تنتج أعداداً كبيرة من الخنازير، وقد قيل:

وجّه إليه الامبراطور طعنة بالرمح، غير أنه تغلب عليها أثناء اندفاعه وحين انغرس السنان في صدره، اشتعل غضباً بسبب الطعنة، فازداد ضغطاً واندفاعاً، ولذلك التوت ذراع الامبراطور، وسحبت جانباً بسبب شدة المقاومة، كما والتوت في الاتجاه الخاطىء جعبة كانت مليئة بالنشاب، كان الامبراطور مجهزاً بها، وكشط رسغه برؤوس النشاب، وتلا ذلك جرح أصابه فوراً، وفار الدم واندفع من الجرح، ووضع على الجرح رباط رقيق، يدعوه العامة ايكديرا Ekdera (٢٨)، بهدف الربط معاً لما انشطر، ولشفاء الجرح، لكنه ازداد التهاباً وتحرك الألم، وكان ذلك السبب لما نجم بعد ذلك من التهاب، لأنه نقل التسمم إلى بقية الجسد من رأس النشاب الذي كان قد انغرس عميقاً، لكن هذا كان فيما بعد.

وبينما كان مايزال لايشعر بالألم، مدت له طاولة، ووضعت له مساند ليتناول الطعام (٢٩)، وفي أثناء الأكل وقف الأطباء من حوله لمراقبة الرباط، وسألوا عن سبب الجرح، وعندما عرفوا ذلك، اشتكوا بشأن

الطاولـة، وطلبوا فك الـربـاط ورفعـه مباشرة عن ذراعـه، وأصرّ هو —على كل حال— بشـدة على أن الجرح قد أغلق، وانه لايشعر بـوجود أي خطر فيما يتعلق بتورم الجرح والتهـابه في المستقبل، لكنـه بعدما تنـاول الطعام، وما ان استلقى لينـام، شعر فجأة بألم حاد قد اعتراه والـورم يهاجم ذراعه، وتمّ استدعـاء مجموعـة الأطباء، وقام نقـاش حول مـاينبغي صنعه، ورأى بعضهم أن الأفضل هو فتح التـورم، لكن عدم نضجه لم يـرض الآخرين، وفضلوا التخلص من الورم بطريقة أخـرى، لكن بما انه بدا مريضاً بشكل كبير انتصر يـومذاك رأي الجراحـة، وعندمـا فتح الجرح ازداد التورم أكثـر، وبات الذراع كله متورماً.

وبدأ الامبراطور يرتجف في قرارة نفسه لتـوقعه الموت، خاصة بسبب انه لم ينفـذ خطتـه التي نـاضل من قبل في سبيل تحقيقهـا، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين، فلهـذه الغاية كان قد صنع شمعدانـاً وزنه عشرين رطلاً من الذهب، أعده كتقـدمة للكنيسة هناك، وبما انه كان وقتـذاك في حالة مستعصية على الشفـاء، استدعى رجـلاً مقدساً، وكـان راهباً من بـامفيليا Pamphylia، وسألـه أن يطلب لـه الـرحمة الـربـانية بـالصـلاة طـوال الليل، ولقـد قيل انـه بينما كـان الـراهـب مكـرسـاً نفسـه للصـلاة سمع أصوات غنـاء، وانبعث ضوء رؤي مـن مكان مـرتفع، وكان هنـاك شاب رباني أوقف روحه المضطربة، وهكذا كانت هذه القضية.

ولدى شعور الامبراطـور انه في حالة ميؤوس منها، أمـر بحضور النبلاء، مع جميع من عدّ بين الأعيان وأمراء الجيش، وخاطبهم كما يلي:

«أيها الـرومان الـذين اجتمعتم للمشاركـة في هذا المجلس معي، لقـد رأى عدد من أباطرتنا مع كثيرين انه من المناسب نقل منصب الحاكم إلى ابنـائهم بمثابـة عمل توريثي، وأنـا نفسي أعلم انه لهذا تسلمت السلطـة من أبي الامبراطور، وكل واحـد منكم يعلم ان الشيء نفسه قـد تمّ صنعه

من قبلي في هذه الحالـة، وبناء عليه اعرفوا، انني أنـا الذي وصلت —كما ترون— إلى نهاية هذه الحياة الحاضرة، قد نقلت المنصب والعرش إلى أكبر أبنـائي البـاقين لي، وذلك تماشيـاً مع عـادات بني البشر، لكنني شـديـد الاهتمام بموقفكم، إذا كان الأمـر يتعلق بأي واحد من الاثنين، فيما يخص السمات الصحيحة، انني سأختار كل من لايبدو معـارضاً لرأيكم ولرأيي، لأنني أرى انـه لـن يكـون مفيـداً، لاللمعطي ولاللمتسلم، إذا مـا تـولى موجه الـدفة اغراق السفينة بالجهـل، حتى وإن كان سيهلك مع العطية، ولن يستطيع إقـامـة ادعـاء ضدّ المُعطي، اننـي أقدر ان هـذا بـلا ادراك، وجهل في تقديم الأعطيات، وعمل غير سليم بالبتة.

لهذا انني شخصياً أعطي الأفضلية لما تقدرونه، وهاكم البرهان التالي:

انتبهوا، لفـائدتكم، بقدر مـايحتاج الأمر من سرعـة، انني جاهـز للقيام بعمل مضاد للطبيعـة، إن ولديّ كلاهما جيد، وأحـدهما متقدم على الآخر بالسن، لكن المنطق الصحيح يرفض الأسن، ويطـالب بالأحسن، ويقول إن الجودة تتـوافق مع الجودة، وهذا الصراع في جميـع الأشياء صعب، إنـه صعب أن تحصـل على الأفضل، وبما أن الانســـان يـــود أن يعين الجزء الأفضل للشخـص الأفضل (لأنـــه مـــا الـــذي هـــو أعلى من شرف الامبراطوريـة؟) إنني أرغب، ياجنـودي، أن تكون الجودة التـامة خـاصة بـالابن الأكبر، لكن القرار ينظـر نحـو الأصغر، ويشير معيـار الامبراطوريـة بـالحري نحـو الآخـر ولادة، إننـي لست مـرغماً على الخوف من أن مـاأراه متأثراً بالتفضيل، فأنا أحب ولديّ تمامـاً بالقدر نفسه، وما من واحد منهما متقـدم على الآخر بـالأفضليـة، ولهذا إن هذا القـرار فيما يخصهما ينبغي أن يوكل إليّ أكثر من أن يعهد به إليكم.

وما سأقوله ينبغي أن نتفحصه بكل دقة معاً، ماأعنيه هو:

يـاترى عنـدما يكـون ولـد أفضل من أخيه، ووضع على العـرش، هل

برهن قط على أنه أدنى، أنا نفسي لاأشعر بالثقة حول ان الإثرة قد أبعدت تماماً من خططي، كلما تعارضت مع الكفاءات، ذلك انها كافية لافساد كل قرار، وبناء عليه هل ترغبون في أن ألقي على مسامعكم سماته ومؤهلاته، ومن ثم أنتم تتخذون القرار؟ إنه لواضح لكل انسان كم يمتلك من القوة والقدرة والشجاعة في أعمال الحرب، إن في أحداث نو—قيسارية براهين على مصداق ماأقوله، فعندما كانت أوضاع الرومان آيلة بوضوح إلى التلاشي، قام باستردادها واعادتها، وإذا كان يكفي الاستشهاد عنه بما يعرفه والده فقط فاسمعوا: غالباً، عندما كان البقية في ضياع، كان يظهر لي متماسكاً وصحيح المشورة، وذلك كان كلما عانيت من مصاعب شؤون لاتعدّ ولاتحصى، ولقد كان دوماً قادراً على رؤية العاصفة المقبلة، وبارعاً في تجنب الزوابع وفي مواجهة الرياح العاتية، ويمكننا أن نسوغ أمر اعتبارنا له أمام الآخرين، بحكم أن قرار الرب قد وقع على الأصغر، خذوا بعين التقدير كيف أن ألكسيوس قد جرى استدعاؤه إلى العرش من قبلي، وأعلن القرار ونشر قبل عدة سنوات، لكن الرب قد كشف لي للتو، في اللحظة الأخيرة التي توفي فيها، وأخذ بعيداً ذلك الرجل الشاب من بيننا، وسأخبركم أيضاً ببعض المعطيات التي كشفت فيما يتعلق بقدرة [مانويل] الحالي، باستثناء انني متنبه إلى أن هذه الأشياء ينظر إليها بشكل غير معقول من قبل الجمهور، لأنه مامن شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل، وكل ماكنت قادراً على معرفته بالنسبة لابني قد رويته أنا نفسي. والآن جاء دوركم لاضافة ماترونه».

وما ان قال الامبراطور هذا، حتى وافقه الآخرون بالسرور، والبكاء، وقام الشاب (الذي أحب والده أكثر من أي شيء آخر) احتراماً منه لقوانين الطبيعة، بالانحناء ووضع رأسه على صدره، وغسل الأرض بدموعه، وبعدما لفّ برداء أمير الجيش، ووضع على رأسه اكليل من

الماس، تمّ إعلانه امبراطوراً من قبل الجيش أجمع، وعاش الامبراطور جون بعد هذا لعدة أيام، ثم غادر هذه الحياة، وكان قد حكم الرومان لمدة خمس وعشرين سنة وسبعة أشهر (كذا) معاً، وقد توفي في اليوم الثامن من الشهر الذي يدعوه الاغريق Xanthikos ، أي نيسان عند الرومان [١١٤٣] (٣٠).

الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١ - لندع روايتي عن أعمال الامبراطور جون تتوقف هناك، وكان الامبراطور مانويل الذي تسلم الصولجان مايزال شاباً، قد بدأت لحيته بالظهور، ولم يكن هياباً من تحمل أعباء السلطة، كما انه لم يسمح لأي شيء أن يكون متراخياً، وبما أن أخاه اسحق كان آنذاك في بيزنطة، راودت الحشود شكوك، انه لن يتمنع عن إحداث ثورة، وحيث انه كان بطبيعته ميالاً للخصام، تحركه الانفعالات وتقوده، فإنه لابدّ وأن يجد مسوغاً يتمسك به من أجل الثورة، ومع هذا لم يول مانويل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغادره حتى أكمل بشكل لائق الطقوس المتعلقة بأبيه (وذلك بالاضافة إلى أشياء أخرى منها تأسيس دير في البقعة التي أسلم فيها روحه)، وأعدّ مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكان قبل ذلك، أي بينما كان الامبراطور جون مايزال حياً، كان الانطاكيون قد شرعوا بالتملص من سلطته، وقد بعثوا إلى الامبراطور مانويل يطلبون منه مغادرة حدود الأراضي التي أعلنوا أنها تعود بملكيتها إلى مدينتهم، وهي الآن متملكة بالقوة وبشكل غير عادل من قبل الرومان، ولقد كان هذا ماقالوه غير ان الامبراطور تصدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الرسل، ان الانطاكيين لم يعانوا من أيّ ضرر صدر عنا، وإذا سرق الانسان شيئاً ما من الآخرين، عندها من العدل أن يعيد إلى الآخرين ممتلكاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلوا عن

انطاكية للرومان من قبل، بل استوليتم عليها بالعنف وسلبتموها من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندما كانت مملوكة من قبلنا، ثم ماهذا الذي تطلبون تسلم ملكيته منا؟ ألا تطلبون مدينة انطاكية؟ إنها أولاً كانت مملوكة من قبل دولتنا (١)، وإذا كنتم لاتستحون من خرق اتفاقاتكم، لماذا أتيتم لتتهمونا بالاعتداء على حقوقكم، في حين نحن الذين ينبغي أن نطالب بتصحيح الأمور منكم؟ لكن ستكون هناك فرصة مناسبة لعرض مانحن بصدده من مسائل، والآن آمركم بمغادرة ماليس عائداً إليكم، وإنني سأزيد —ولن أنقص— ماوصل إلى يدي من أبي».

لقد كان هذا ماقاله للرسل. وحمل جثة أبيه على كتفه، وقام يعاونه النبلاء بأخذها بوساطة مسيرة، إلى السفن التي كانت متوقفة في نهر بيراموس Pyramos [سيحان]، وكانت هذه السفن ستعبر من خلال موبسوستيا Mopsueistia ومن ثم تأخذ طريقها إلى البحر، وعندما انطلقت الدرمونات [سفن حربية] إلى البحر من هناك، أمر بإزالة المعسكر وتولى بنفسه قيادة الجيش، وزحف غير هياب في وسط أراضي الترك(٢)، واندهش الترك رعباً، وكانوا معجبين بسرعة اندفاعه الزائدة، ولذلك لم يتجرأوا على التصدي للرومان، وسار الرومان وسط بلاد أجنبية كما ولو أنهم كانوا يعبرون أراضيهم الخاصة بهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إلى الأراضي الرومانية، ووصلت السفن التي حملت بقايا الامبراطور إلى أرض بيزنطة، وخرج أعيان(٣) الرومان لاستقبالها بشكل رائع، ونقلوا هذه البقايا إلى الدير المقدس، الذي —كما سلف القول— قد أقامته الامبراطورة ايرين من قبل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً برحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلق بالسيباتوكراتور [أخيه اسحق]، فإن الذين عهد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قد أوقعوه في شراكهم بخداعه، وذلك على أساس انه كان يخطط لاغتصاب العرش، ولذلك سجنوه في الأفنية الخاصة بالبانتوكراتور، ولم تحصل فائدة من هذه الخطة وأخفقت، وحمل اسحق مشاعر سيئة نحو بعض الذين كانوا مع مانويل، ولاسيما نحو الذين كانوا يديرون المراكز السامية، وكان من الممكن أن يقوم بالحاق الضرر بأهليهم وحواشيهم في بيزنطة، وفكر مانويل في الحقيقة في كيفية منعه ببراعة من تلك المحاولة، وهكذا ارتأى أن من الصواب ارسال مراسيم إلى بيزنطة يتهم فيها أولئك الرجال [مؤيدي مانويل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيّرة ، وبدون حاجة إلى مواجهة تقديرات الناس، لأن مانويل كان قد نوى هذه الأشياء، وقام بالكشف عن خططه للذين من حوله، وبالنسبة لكل من أخيه اسحق، وعمه، كان كما أسلفنا القول أولهما محافظ عليه ومحروس داخل الدير، وكان الآخر مقيداً بقيود حديدية، وكان عم الامبراطور مسجون من قبل أبيه، أعني أنه كان مسجوناً بأمرٍ من جون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكان اعتاد أن يعيش هناك بشكل لائق، وذلك بعدما كان قد نفي من قبل أخيه الامبراطور عندما كان على قيد الحياة، وبسبب مؤامراته ورغباته بالعرش مابرح ينقل من هذا المكان إلى ذاك، إلى أن وصل إلى حالة التعاسة هذه بالسجن بقرار من قبل الذين كانوا مسؤولين آنذاك عن بيزنطة، وذلك بعدما عرفوا أنه ينوي الثورة مجدداً، ولكن —كما قلت— جعلت الحكمة طريق الامبراطور إلى السلطة ليناً، فما ان وصل مانويل إلى بيزنطة، وعلم بهذه الأشياء التي تخص

السيباتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريرق، رفع إلى عرش البطرقية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها(٥)، وامتلك حسبما قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دنيوياً برأس اصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وبيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلفاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل انسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الاضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما انه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضدّ أبيه (ولأنه لم يقم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمور أعاقت زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسبيهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معهما برسق(٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتوستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا ماسأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ماوجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسينيين(٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن مامن أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل،فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقترابه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا باخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا مايزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالانسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل ماراه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردتهم وأوقعت بهم مذبحة كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحازية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطىء، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحنق، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلّت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملأوا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهو ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه(٩).

٤-وتزوج في هذه الآونة [كانون الثاني١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح(١٠)، وفيما يلي ماروي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة[١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للأخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلـم بشكل فيه أبهة عظيمة، وبدا أن هذه الاشارة ليست طيبة أبداً بـالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل(١١).

وشغلـت منطقـة آسيا القـائمـة عبر المضـائق [البوسفـور] الامبراطـور، الذي كان يبحـث عن كيفية جعل حـدود بيثينيا بإمكانها أن تتـوقف عن كونها نقـاط دخول بـالنسبة لأمة الترك، ذلـك انه بحكـم أن التحصينات التي كانت تصـد فيما مضى أعمال خرق البرابرة قد أهملت رعـايتها، فقد غدت تلك المنـاطق هناك منافـذ سهلة لوصول الترك، لكـن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحـة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هنـاك، وقرر في هـذه اللحظة انشاء حصـن في المنطقة المعـروفة باسم ميـلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريـا شرقي ازنيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جـارياً، روي له أن مرضاً متقدمـاً يوحي انه وبـاء لايمكن التغلـب عليه قـد أصاب مـاريا الابنـة الأكبر للامبراطـور جـون، التـي كـان القيصر جـون روجـر(١٣) قد تـزوجهـا وبعـدمـا أقـام الامبراطور مـافيه الكفـاية في المكـان لإكمال الأعمال، أخذ الطـريق نحـو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قـدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكـانت ذات مظهـر معبر تمـاماً. وبـوصولي إلى هـذه النقطـة في روايتي، جئت إلى ذكـريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي مـاتزال تستحق الاعجـاب، لأنهم قالـوا إن القيصر روجر رنـا ببصره على الامبراطوريـة، في الساعـة التي تلـت وفاة الامبراطور جـون، فقبل أن تستقبـل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحـاط نفسه بعدد كبير من الميليشيـات الأخرى، وربح بشكل خاص إلى جانبـه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلدتـه من جانب أبيه، وذلـك مع أتباعـه الذين بلغ عـددهم أربعمائة، وكان هـذا الايطالي متميـزاً ومشهوراً بنسبـه، إنه روبـرت أمير كابـوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بها يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريا، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير[١١٤٦] في السهول القريبة من ريندداكوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أو لابات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة(١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد خرقوا هدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي(١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأخرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان،انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقـداً العزم على تـدميرهم من الشبـاب فصاعداً، وذلـك عندمـا ينقض عليهم بشكل مفـاجىء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكـن من أمر، لم يخفق تمامـاً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخـدم يديه في ذلـك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكـل سريع بميسيان أوليبموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas (١٦)، حيث أنشأ حصناً قـوياً، زحـف أثناء الليـل خـلال الجبال هنـاك، التـي هي عـالية لا بـل بالحقيقـة شاهقة(١٧)، ونـامية أكثر مـن اللازم، وعنـدما امتلأ رأسـه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانيـة، وقد بقـي حتى حوالي منتصـف الليل بـدون وعي، غير أنـه تحسن بعـد ذلك قليـلاً، واستعاد وعيـة في اليوم التـالي، ومع ذلـك بقي هـادئاً، وأرسل شطراً منـاسباً من الجيش، أرسلـه على كل حال مع القـادة لتنفيذ واجباتـه، وعندما اصطـدموا بقوات العـدو على مقربـة من هناك، تفـوقوا عليه بالقتـال، ولذلك استحوذوا على كميـات هائلة من الغنـائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ماأنجزه الامبراطور.

وانقـض الترك، الـذيـن أعدوا حملـة كبيرة، آنـذاك على أراضي تـراقيـة [بندتراقية في وسط غربي آسيـا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كـونتوستيفانوس Kontostephanos ، الذي أرسل لهذه الغـاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكـن قد تمكن من جمع جيـش حتى يحافظ به عليـه)، ومضى الترك ينهبون وصـولاً حتى إحدى المنـاطق القريبة مـن البحر التي اسمها كلبيـانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] (١٨)، وعـادوا وهـم يسـوقـون أمامهـم أسـلاباً كثيرة،وعنـدمـا سمع الامبراطـور بهذا لم يستطـع أن يحبس نفسـه، فبعدمـا أجرى استعداداتـه بكل سرعة، وانطلق بسرعـة وافية نحو قـونية، قام بـاخبار السلطان (مسعود) صـاحبها برسالـة، وجاء نص الرسـالة كما يلي:

«نحن نرغب أن تعلم أنك اقترفت أشياء أثارت هجومنا عليك، فأنت نفسك الذي سلبت منا براكانا Prakana، التي ليست عائدة إليك، وأنت نفسك أغرت مؤخراً على الأراضي الرومانية، كما أنك لم تتمنع عن المقاتلة بالطريقة نفسها مع يغي —بسان [بن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليف الرومان، ومع عدد آخر كبير من المقدمين هناك، إنك رجل عاقل، وعليك أن تدرك أن الرومان لن يسمحوا لأنفسهم بالاغضاء عن هذا، ويبقى، أنك ينبغي —بعون الرب— أن تدفع الغرامة لهذا مرات عديدة، وعليك إما أن تتوقف عن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكل كانت الرسالة، وبعدما قرأ السلطان الرسالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسالتك أيها الامبراطور العظيم، وقد أعددنا أنفسنا حسبما أمرت، ثم يتوجب عليك أن تأمر زحفك ألا يؤخرنا بطول الاتصالات، ويبقى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحالية] المكان الذي سنتصادم به، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هذه الشاكلة، وبصورة عامية متدنية، ردّ السلطان على الامبراطور، وقد بقي السلطان مع الجزء الأكبر من الجيش التركي هناك في فيلوميلون، حيث كان معسكراً من قبل، وكان قد انتقى بعضاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مع الامبراطور، وكان ذلك قرب مدينة أكرنوس Akrounos [أفيون— قراحصار الحالية]، وكان الامبراطور معسكراً في مكان يدعى تل كالوغرايا Kalograia، وعانى الترك من هزيمة ساحقة، وعادوا مثل اللاجئين إلى السلطان، وكان بين الذين باتوا طعمة للسيف الحيري(٢٠)، وكانوا مشهورين بين الأتراك، وأصاب الرعب السلطان، بسبب الفاجعة، ولذلك لم يبق في

المكـان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غـادر فـاراً من هنـاك، ولدى معرفـة الامبراطور بذلـك عزم على الاستهزاء بـه، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبـب قحتك التي تقدمت ذلك، ثـم إن ذلك لم يمكـن رحضه مـن قبل الآخـرين في القتـال، وحيث بـدا وكـأنك نسيـت تماماً فخـارك المبكر، ولم تقـم وزنـاً لما كتبتـه مؤخـراً إلى امبراطـوريتنا [بيـزنطة التـي هي مصـدر جلالتنـا] بل هـربت إلى حيـث لاأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لـن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنـا يبقـى على ذاتـك الشريفة والكـريمـة أن تسرع وتتجـاوز دنـاءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلـوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحـرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذيـن كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤسـاء هؤلاء من أغلالهم، وسمـح لهم أن يروا النـور والحرية، وكان الترك عنـدما اقترب الامبراطـور أولاً واثقين من قـوتهم، فقـرروا عدم نقـل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكـن عندما أرغمهم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتبـاه، بل عدّوا أن ممتلكاتهم أقـلّ قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسـالة إلى السلطان، إما انه شعر بـالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلـك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يـدعى بالتركية أندرخمان(٢١)، وعسكر هناك وعندمـا سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسم انتقل إلى ليكونيا Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يـدعى غيتا Gaita [أكيت] (٢٢)، وعبـأ في اليـوم التـالي قـواته [لأن الجيشين كـانـا معسكـريـن على

مقربـة] وزحف، وعندمـا اقترب من الترك، بدأ القتـال، ولم يستطع الترك الصمود أمـام هجوم الـروماني، فانعطفـوا للتراجع، وطـاردهم البيـزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتـوقف السلطـان عـن الفـرار حتى وصـل في فـوضـى إلى قونيـة، فاندفع إلى داخلهـا واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بـالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هـو لم يتجرأ على البقاء في الداخـل، خشية أن يصبح محاطـاً به مـن قبل المحـاصرين الـرومـان، فذلـك سيجعله عـاجزاً عـن الظهور، وبشكـل عام، وبـدون أن يعرف إلى أي نقطـة من الحظ ستصـل نهاية الحرب إليها، فقـد ارتأى انه غير مفيد لـه أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضـع قسماً مـن جيشـه شحنـة في المدينــة، ثـم شطـر المتبقـي إلى شطرين، حيـث مركز أحد الشطـرين على السفوح خلف المدينـة، وأبقى الشطـر الآخر معـه حيث قـاده صاعـداً نحو اليمين، فقـد اعتمد بشكـل خـاص على قـوة الجبـل الممتـد بين قونيـة وحصـن قبـالـه Kabalh ‎(٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندمـا وصل الامبراطور إلى قباله، كان متحمسـاً حماساً عظيماً، وشـديد الـرغبة في مهـاجمة السلطان، ونظـراً لأنـه كـان في البدايـة غير قـادر على الفـور معـرفـة أين يمكـن أن يكـون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجـوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركـزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسـائل أبرع من أي واحـد آخر) وقام على الفـور بامساك حـامل الرايـة، وسحبه بـوساطـة المقود، وأداره نحـو تلك الفـرقة، وعنـدما تـردد الجيـش الرومـاني، ونظر إلى الحركـة بدهشـة كبيرة، وتساءل لماذا عليـه أن يرغب بالمغـامرة بشكل غير حذق وضدّ مثل هـذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهــم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هم مقدمة الفيلـق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كـان مختفياً في مخابىء

الجبـل)، ولأن الـرومان كـانـوا هكـذا منـدهشين، خفف الامبراطـور مـن انـدفـاعه قليـلاً وقـال: «أيها الـرومـان لاتـدعوا حيـل البرابـرة تحول قـوة انتباهكم إلى خـوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيـش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لاأعتقد بوجود فرقة أخرى من العسـاكر قد بقيت للأتراك،وأن راياتهم قد وضعـت بالخفـاء فوق هنـاك في الأماكـن الكثيفـة، وذلك بغيـة اخافتنـا بمظهر وجـود حشود، عليكـم ألا تحتاروا وتندهشـوا أمام البربـري لعدده، بـل عليكـم ازدراء ضعفـه، ولايتعـايـش الصـدق بشكـل طبيعـي مـع التخيـلات، وعلى كـل حال إنني سـأنطلـق مـع أكبر عدد مـن الأتبـاع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعـدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كمائن العدو».

ومـا أن أنهى الامبراطور كـلامه هـذا، حتـى اندفـع للانقضـاض على العدو، وتـوضع هو نفسـه على اليسار، لأن ذلك كـان يواجه قلـب جيش الأعداء، وحيـث وجد أكبر عـدد من خيرة الترك، واعتقـد أن الترك فقدوا شجـاعتهم أثنـاء سير القتـال، فعنـدما رأوا سيـوف الـرومـان اضطربـت صفـوفهم وتفـرقـوا في فـوضى، وكـل واحـد كـان راغباً في أن يكـون أول النـاجين من هنـاك، وراجت اشـاعة أن السلطـان كان مـوجوداً هنـاك، وأضاع الـروم‌ان وقتاً كبيراً بالانشغـال في مطاردة الفارين وهكـذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان —كما قلنا— موجوداً في السـاقـة فقد زحـف فـوقـع أثنـاء زحفـه بكمائن غير متوقعـة، فـانعطـف وأعطاهم ظهره، ثـم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعنـي بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقـد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليـات المطاردة بعيـداً عن قونيـة لذلك خـرجوا مهـاجمين) وفعل الشيء نفسه الترك الـذين كـانوا متمـركزيـن على السفوح خلـف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه إليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيها بعد برتبة أمين البلاط(٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور —الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ماينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبتزيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش مايشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعتها، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتفوقت هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدما أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدما نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك(٢٥).

وروي انه بينما كان الجيش الروماني يعيث فساداً في قبور الأتراك

خـارج المدينـة وينبشهـا ويخرج أكبر عـدد مـن الجثـث منهـا، لم يـرغـب الامبراطـور، على الـرغـم مـن ضغـط اللحظـة بـالاسـاءة إلى مكـانـة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعـدم ذروه، وأعلن باختصار أنـه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحيـاء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتـابة رسالة لم تكن بعيدة عـن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطـان، وقد جاء بالـرسالة مايلي:

«نـرغـب إليـك أن تعـرفي أن ابن امبراطـوريتنـا(٢٦)، السلطـان حـي ومازال بـاقياً، ذلـك انه فـرّ من شـدائد الحرب»، وكانـت هي، على كـل حال، قـد أعدت حـوالي الألفين من الأغنـام وكميات كبيرة مـن الثيران، وأنواع أخرى كثيرة ممـا يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيـب به،لكن بما أن الجيش الروماني قـام —كما سلف الذكر— باحراق أمـاكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطـور بالانسحاب، أرسل ثانية رسـالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقـد طلبناك مـراراً، غير اننـا لم نستطع التصـادم معـك، فقد فـررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لانبـدو كأننا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بـالمغادرة، ونحـن في طـريقنا إلى الـوطـن، وسنعود إليـك بـالربيـع باستعـدادات أعظم، وعليـك التنبه وعـدم الفرار كليـاً بطريقـة غير لائقة بك».

٧- هكذا كـانـت الـرسالـة، ووصلت قـوى كثيرة من الأتـراك الذيـن سكنوا وراء قونيـة، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابـن دانشمند(٢٧)، لقد وصلـوا متحـالفين مـع السلطان، والتحقـوا بـه، واعتماداً منـه عليهـم لم يرغـب الآن بالفـرار كما فعل مـن قبل، بل انـه ما ان ضـمّ صفوفـه حتى سارع نحو قتـال الرومان، الذين كـانوا قد وصلوا إلى مكـان اسمه بلسان

البرابرة زبـريلزمـاني Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكـــان كان الـوصول إليـه أصعب مـن أي مكان آخـر، ليس فقـط بالنسبـة للرجـال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهـل الجواز به للمسافرين على شكل جماعـات صغيرة، وكان الجيش يعـاني من مصاعـب جمة حول المعسكر، لكـن الامبراطور، مدفـوعاً بحداثـة سنه، وبما انه لم يمـض وقت طويل منـذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء مـا خلال القتال، وذلـك تماشياً مـع عادات الـلاتين، لأن الـلاتيني الـذي اتخذ زوجة منـذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لايجلـب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعـاب الجبلية من على يمينـه وشماله جماعـات على شكل كمينين، وتألـف أول الكمائن من الـذين كـانوا أقـرب الناس إليـه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته(٢٩)، وحوى الثاني على وحـدتين عسكريتين، قادهما نيكـولاس الذي كنيتـه أنجيلوس Angelus ، وكـــان رجـلاً شجـاعـاً في العمـــل ومـزوداً بكثير مــــن الشجاعة، وأمـرهما بالمكوث هناك هادئين حتـى يرياه يقوم بـالهجوم ضد العدو.

واستجـاب على غير رضى لطلبـات أخوه اسحـق وجـون [أكسوكـوس Axouchos]، دمستـق قوات الشرق والغـرب(٣١)، فمضـى معهما إلى بقعـة حيـث رأى بعـض الـرومـــان ذاهبين على شكـل جماعـات لجمـع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت ردائه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعـوا به مـن سمات استطلاعية بـارزة، وانتظر قـدوم بعض الترك الذيـن قد يأتـون لإحداث بعض الأضرار، لكن حيـث مامن واحـد منهم كان باديـاً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحـداً من جنود الرومـان واسمه بوبكـس (أبو بكـر) (٣٢)، وكان تـركي المولـد، وامتلك شجـاعة عظيمـة ونشـاطاً كبيراً، وأمـره أن يتقـدم، ويفتش بحـذر علّـه يـرى أياً مـن الترك يقترب، وانطلق على هـذا الأساس، وعاد بعـد قليل ليـؤكد انه لم يـر أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستق نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، وذلك بعدما أراهم أبو بكر الطريق، وغضب ختنه زوج أخته —الذي تمّ تجاوزه— غضباً شديداً، لأن كل واحد منهم، لابل هم جميعاً ربطوا أنفسهم وأوثقوها بأيمان مخيفة، قضت انهم سيلتحقون عن صدق بالامبراطور (الذي لم يرغب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطور قد اشتبك مع الأتراك الذين شوهدوا، وقد تبين أن عددهم حوالي الثمانية عشر، وكان متشوقاً ومتحرقاً لقتالهم، لكن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كان مايزال واقفاً بعيداً عنهم لم يكن قادراً على الاشتباك بهم عن قرب) فقد بذل جهده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكون قريباً جداً منهم، وعندما يرى انه اقترب منهم، يفرّ بكل ما أوتيه من قوة حتى يصبح قريباً منه، وهكذا فعل أبو بكر ماأمر به، وعندما أخذ البرابرة يطاردونه، هرب، ولم يهرب هروباً كاملاً من العدو، بل راوغه وأعطاه بعض الأمل في أسره، ثم فرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غادروا راكضين بسرعة أكبر مما أظن، ولكن عندما التقوا بحوالي خمسين آخرين كانوا قادمين من خلفهم، تشجعوا بسبب عددهم، وقدروا ان بامكانهم التصدي له إذا هاجمهم، ومهما يكن الحال، فإن الذين كانوا مع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الوقت بل هجم بسرعة قصوى، ورافقه السيباتوكراتور [أخوه اسحق] وركب محازياً له، لكن عندما لم يعد قادراً على التقدم —لأن فرسه كان منهكاً— تخلف وراءه، ونظراً لخوفه الشديد على سلامة أخيه، رجاه بحرارة كبيرة، وذكّره بزوجته وأولاده، ووبخه مانويل وانتقد رأيه المستخف به قائلاً: «حسناً

ياأخي العـزيز، هل تظن انني مـاعشت سأتركك في أيـدي العدو؟ ليس أنت؟ فكـر ولاتتكلم بـاستخفاف عـن نفسك»، وعنـدما أضـاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابـق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنـت تقاتل البرابـرة»، قال مـانـويل: «إذا أعطـاني الـرب سأعـود مسرعـاً إليك بعـد الاشتبـاك، والآن انني أنـوي أشيـاء أخرى، ومتلهـف إلى أفعـال جريئـة جذبتنـي تماماً إليهـا». وقال هـذا لأخيه وانـدفع نحـو العدو. وعلى هـذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأمـا بالنسبـة للـذين ذكـرنـاهم في الكمائن، فقـد أرسلـوا واحداً مـن نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف على أوضاع شؤون الامبراطـور وليعلـم الأحـوال، وأعاده الامبراطـور مصـدراً أوامـره إليهـم للقدوم بـأقصى سرعة ممكنـة، وما ان وصل مـانويل إلى تلـة مجاورة حتى واجه قـوة تركيـة كبيرة وصل عددهـا إلى حوالي الخمسمائة، وزحـف ليس بعيداً عنهـا، من خلفها السلطـان ومعه الجيـش كله، وما ان رآهـم حتى قام على الفـور بتسديـد رمحه، واندفـع مسرعاً نحـوهم، فطعـن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقـف الترك بـلا حـراك، وكأن ألسنتهـم عقـدت وأصيبـوا بـالخرس، وعندمـا حدث هذا ظهـرت القوة الرومـانية التي سلـف ذكرها، وكـانت تشكـل الكمائن، ظهرت على مقـربة مـن الامبراطـور الذي أرسـل —كما ذكرنـا— يستدعـي رجالها، أمـا الأتراك الـذين فهمـوا هذا وأدركـوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في الساقة بالتصدي للرومان، المقتربين، وظنوا انهم طوقـوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولـذلك عملوا كما يلي:

غير أنـه وقف مستنـداً على رمحه، منتصبـاً على الأرض، ووجـه أبا بكـر (لأنه كان مايزال مرافقاً له) أن يـراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الـوصول إلى أقـرب التلال، وذلـك بوسـاطة الترك، فـوقتها يكـون قد أحيط به تمامـاً، ولكن أبا بكر وقـد أخذ يتصرف بطريقة معـاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كـم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتـك» وبعدمـا قال هـذا وأكثر، وكـان غير قادر على اقنـاعه، تصرف وفـق أوامره، ولم يبـال الامبراطـور ولم يصغ لما قـالـه (فقـد كان مـن غير الممكن بـالنسبة لـه الفرار إلاّ مـع عار مستقبلي) بـل شرع ثانيـة بحملات على العدو،وبعدما قتل واحداً منهـم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلـك اغتنم الفرصـة فمضى ووقـف على تلة صغيرة، حيث التحـق به بقية الـرومان، وكان أولهم جون، الـذي بسبب كونـه [مانويل] ابـن أخيه أدخـل فيما بعد في صفـوف الــ Protosebastoi ‏(٣٣)، وهكذا نجـا الامبراطوربهذه الطـريقة، مـن هناك، لأن فـرسه كـان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينما كـان الامبراطـور مشتبكـاً مـع العـدو، كـان الـدمستـق جـون [أكسوكـوس] قد ترك بالخلـف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعـداء، ذلك أن العدو استمـر بالظهـور هنا وهنـاك على شكل جماعـات، وكان هـو بلا عون، وألـف فيها بعد تسويغات ضعيفـة لصالحه، قائلاً إن المكـان الذي وقف بـه كان منـاسباً جـداً، وكان مـن المتوجـب عليهم التجمـع هناك، لاتخاذ نقطـة حشد لـلامبراطور، وبهذه الطـريقة كـان قادراً على أن يُبقـي على مقربة منـه عدداً كبيراً من الذيـن كانوا —كما ذكرنـا— خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدما أنقذ بـوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسـوكوس] نفسه وعدد كبير آخـر من بقية الرومـان شجاعة مـانويـل، وأصروا على أن مثـل هذه الأشيـاء ليسـت بعيـدة عن التهـور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثـل ذلك العـدد من المهـالك، ولم يصـب بجراحـة أو بضربة، ولاأجرؤ على القول فيها إذا كـان بسبب أعماله الجريئة المتكـررة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهم بمعرفة أصالته ونبله، وأصبح من المتعذر بالنسبة لهم الحاق الضرر به، أو أن مرد ذلك كان إلى عناية حكيمة به حسبما بات مفهوماً، وأنا شخصياً لاأرى ماقام به بين الأشياء التي تستحق الادانة، كما لايمكنني تصديق شجاعة الاسكندر، عندما أتفحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بذلك الرجل، مالم يمنح المرء شيئاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشباب لايقاوم، وإذا ماارتبط بالقوة والقدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول مايحب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعرض الامبراطور —كما سلف بنا القول— إلى ملامة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بأحسن صيغة ممكنة خشية فقدان المزيد من الرومان في هذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعب جبلي، لمساعدة الذين مازالوا يتقاطرون، من حاشيته، وأيضاً ترك نيكولاس أنجيلوس —الذي تقدم ذكره— في الخلف في الكمين مع الوحدتين العسكريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندما قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشاهد الأتراك يقتربون، وقد تصرف وفق مايلي: فقد وقف مع عدد قليل من رجاله على طرف الوادي، وأمر الآخرين الذين كانوا صاعدين في أن يتوجهوا مباشرة نحو العدو، وما ان اصطدموا بالبرابرة، حتى سمع ذلك الذين كانوا في الكمين، فخرجوا مسرعين، وطعن نيكولاس السالف الذكر برمحه واحداً من الأتراك، ومع ذلك لم يستطع زحزحته من مقعده، ذلك أن الطعن بقوة لم يكن ممكناً بسبب انحدار الأرض، وبذل مانويل أقصى ماأمكنه لدفع الترك إلى الوراء بعيداً، فأمر أتباعه بالذهاب إلى الشعب الجبلي فيما بدا بسرعة قصوى، لكن توجب عليهم عدم صعوده، وعندما لاحظ الأتراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقى النبالة الذين كانوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطور، وكان هؤلاء —كما سلف القول— قد أرسلهم الامبراطور نفسه لتقديم العون للرومان الذين تركوا بالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بالفرار، وعندما رأى الامبراطور هذا، قال لأتباعه: «تشجعوا، هناك قوة قادمة إلينا من المعسكر»، وعندما أخفق الأتراك في الاقتراب، علّل بعضهم السبب بقوله: «لقد أدار الأتراك ظهورهم وغادروا فجأة، مع أنه لم يكن هناك خوف يدفعهم (ذلك أننا لم نكن معادلين لهم بالقوة) بسبب أنهم كانوا قادرين على رؤية شيء كان مايزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانوا ينظرون نحو الأسفل من مكان مرتفع»، وتبرهن أن هذا كان صحيحاً تماماً، فقد كان مارأوه هو الرومان من المعسكر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقد روي أنه حدث آنذاك ان قام السيباتوكراتور اسحق عم الامبراطور من جهة أبيه، الذي كان آنذاك في المعسكر، بالاقتراب من الخيمة الامبراطورية، وذلك عندما علم بأن الامبراطور كان في وضع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عازماً على اغتصاب العرش، الذي كان منذ زمن بعيد —كما سلف القول— الشوق إليه قد استولى عليه، وتنامى الأمر لديه، ولم يقف عند حد النمو، بل نظر إليه بمثابة ميراث من الآباء إلى الأبناء، وستتحدث الرواية المقبلة، —على كل حال— عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عندما —كما قلت— (انني عائد إلى حيث بدأتُ الاستطراد) التحقت القوات القادمة من المعسكر بالامبراطور، تشجع الامبراطور بعددهم، فقام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الذين كانوا معسكرين بالقرب كثيراً) القوة الرومانية، التي

كانت ثانية في أرض وعرة، لقد هاجموها من الجانبين وآلموها بشدة، وسقط كثير من وحدات الرجالة للسبب التالي: كان في الجيش الروماني مقاتل رائع، اسمه كريتوبلس Kritoples ، وكان هذا الرجل يقود قوات الرجالة، وعندما حرف جانباً تشكيلته، صار في قبضة الترك الذين كانوا يتبعونه عن قرب، ولدى تغلبهم عليه بأعدادهم الضخمة، تطلع نحو فرار علني، وبهذه الطريقة، وبعدما فقد كثيراً ممن كانوا معه، نجا بصعوبة، وعندما علم الامبراطور بهذا، عهد بالوحدة التي معه إلى أخيه وإلى عدد كبير آخر من كبار الأعيان، وأسرع مع عدد صغير من الرجال لانقاذ الجزء الذي كان يعاني من تلك القوة، ووصل إلى وسطهم، فأمرهم بالوقوف بشجاعة، وقاتل بنفسه الأتراك، ولاحظه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يداً بيد.

وأعمل الامبراطور فكره، حول كيف يمكن للقوة الرومانية أن تسترد شجاعتها، فبسبب ماحدث لقوات الرجالة —كما ذكرنا— بدأت شجاعتهم تتلاشى، لأنه مامن شيء يؤثر على النفس مثل أن يرى الانسان عن قرب نزيف دم زميله، وسحب الامبراطور من جيبه مدرجاً كان مدوناً عليه أسماء كل واحدة من الفرق،وأعطى توجيهاته بما ينبغي على كل واحدة، أن تفعله في مثل هذه الظروف الدقيقة من الأزمة، ورفض عدد كبير من الوحدات طوال النهار مواجهة العدو، وتخلوا عن صفوفهم، وساروا نحو قافلة أثقال الجيش، ولم يقيموا وزناً لأوامر الامبراطور إلى حد أنه على الرغم من أن كثيراً منهم قد عوقبوا جسدياً ذلك اليوم من قبله، فإن البقية لم يبالوا تقريباً بكل ماكان يُفعل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظير ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتزجت على هذه الصورة قوات الساقة بالثقل، طوقت بقية قوات العدو بأكملها الامبراطور، وضغطت عليه بشدة بالغة، غير أنه تصدى للعدو بخبرته القيادية، وهكذا استطاع أن يبقى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا مـن المناسب لبعضهم العسكرة هناك، وعـدم متابعة السير، غير أن هذا لم يـرض الامبراطور، خشية انه إذا مـا استمر الرومان في حـالة الفوضـى وعدم الانتظـام التي كـانوا فيهـا، فإنهم سيهـزمون فـوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قـائمين بالتجهز للمغادرة(٣٤)، وقال عليهم بالحري القتـال، فإذا مـا تمكنوا بطـريقةمـا من ردّ العـدو، فبإمكـانهم زرع الحسـك دونها اعـاقـة، والعسكـرة حيثما أرادوا وليـس في فسحـة محدودة، وبعـدما قـال هـذا، وعنـدما رأى أن غـالبيتهـم لم تقبـل النصيحة عهـد بالمسؤوليـة عن المعسكر إلى زيكانـديلس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كـريتوبلس Krit-oples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطـور الراية الامبراطوريـة، وقام بمهاجمة العدو بكـل سرعة ومعـه أتبـاعه، وقـد اعترى العـدو الـدهشـة بسبـب الهجوم المفـاجـىء، وأرغمهـم الامبراطور على التفكير بـالفـرار، ثم تبـع ذلـك مطاردة فخمـة، وقتل الرومان الـذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً مـن الأعداء، وأخذوا قليلاً منهـم وهم أحياء، وكـان بينهم بركـوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الـذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثنـاء تناول الطعـام، ويدعـو الرومـان هذه الشخصيـة «حامـل الكأس»، وكـان في الجيش الرومـاني واحداً له قـرابة بالـرومان من نـاحية المولد، لكن بما أنه نشـأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ لـه حظ تسلم امارة بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)،وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملـوا رأسه وطافوا بـه حول المعسكر، وتوقـف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيـع طويل من الليـل) وعاد مع علامـات الظفر، ليجد الرومـان مايـزالون في فوضـى عظيمة وعدم انتظـام، (حتى أن حيـوانات النقل لم تكن قـد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورهـا) فقام بسرعة برسـم دوائر المعسكر كله، وعين مسـاحة مناسبـة لكل واحدة مـن القطع

العسكرية، لكن عدد الجنود الذين أمضوا الليل على ظهور خيولهم لم يكن قليلاً، فبسبب الجبن المتناهي، كانوا غير قادرين على الترجل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

وما ان أشرقت الشمس، ورؤيت على وجه الأرض حتى مضى إلى وسط الجيش، ووقف على ظهر فرسه، كما هي العادة بالنسبة للذين يتولون قيادة الوحدات العسكرية، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكم على أن تكونوا شجعاناً، بسبب ادراكي لجبنكم أو أي جانب ضعف آخر، إن الرومان لايتصرفون بمثل هذه الدناءة ولايقودون أنفسهم بمثل هذا الانحطاط، ولايلطخون هكذا بالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أنفذ هذه العادة العسكرية بمخاطبتكم، لاأريد أيضاً اقناعكم باتخاذ سبل أكثر أماناً للمستقبل، لأن هناك لحظات تقع فيها مخاطر غير مرئية أو متوقعة وتلقي بالحزم والشجاعة في فوضى، وعليكم أيها الأتباع من الجند أن تعلموا اننا نواجه اليوم صراعاً أعظم من الصراعات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتوجب علينا أن نكون على خير استعداد، على أساس جهودنا المتقدمة، وإلاّ سنلطخ بالعار أفعالنا الرائعة السالفة، ونكون السبب في جلب تعاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة من حسن الحظ تقوّم بشكل طبيعي ماتقدم من سوء حظ، كذلك تدمّر المأساة اللاحقة النجاحات المتقدمة، وخشية أن يقع هذا لأنفسنا، على كل واحد منا، ياخيرة الرجال، أن يحافظ على النظام بقدر ما هو ممكن، ذلك اننا جميعاً ندرك اننا إذا ماحافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ماأسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيبقى لنا امكانية أن نربح وأن نبقي لأنفسنا شهرة سوف تعيش للناس وللزمن، وعلى كل حال، إذا ماحدث العكس، في أن افترقنا عن بعضنا بعضاً، اعلموا إننا سنكون على الفور فريسة سهلة للأعداء، وكما الحال عندما تكون هناك مدينة محاصرة فتتدمّر أسوارها

وتنهار، وبذلك يسهل دخول الأعداء إليها، يندرج كذلك الأمر على الجيوش، وعلى هذا الأساس، ولهذا السبب اخترع القدماء: الفئات، والوحدات، والمقدمة والساقة، والجناحين الأيمن والأيسر، والصفوف المتناظرة، وأشكال الزحف، لأن الجيش أيضاً مدينة، إنه يتطلب أبوابا، وأسواراً، وخنادق، وجميع أنواع المستلزمات مثل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنا لأننا مازلنا في وسط بلاد العدو، وتجولنا بعيداً عن حدود رومانيا»(٣٨).

وبعدما قال هذا، وعبأ الجيش ونظمه، انطلق مباشرة نحو البحيرة التي كان الناس يدعونها من قبل «سكلروز Skleros»، ويسمونها الآن «بوزغور(٣٩) Pousgouse» ، وعندما وصل السهول من ذلك المكان الضيق، وأصبح في منبسط مفتوح، أمر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مرتفع جداً، ويستدعي واحداً من الأتراك، ونفذ الجندي ما أمر به، وقال الامبراطور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقد جئنا إلى قونية نفسها، لقد دمرنا أرضك، لأننا بشكل خاص نرغب في معاقبة جرائمك ضد امبراطوريتنا [أي: جلالتنا]، إنك على كل حال، قد فررت بشكل مستمر، مثل عبد آبق، تتنقل من مكان إلى آخر، ولذلك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلم جيداً انه عندما يأتي الربيع سنعود إليك ثانية باستعدادات أعظم»، وبعدما أعطى هذه الرسالة إلى التركي، وقدم له درع واحد من النبلاء، ليكون دليلاً على أنه قد أرسل من قبل الامبراطور، أمره بالانصراف.

وعندما سمع السلطان بهذا، بعث بعد وقت قصير برسل من عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحدداً حول الذين متوقع —كما قلنا— قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرز]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدوة، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريحة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأحراج، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد مارآه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحرش كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسماهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامان Raman كان مقدمهم، وانهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة(٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أثقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهتهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى ملاحظة الامبراطور ذلك (لأنه —كما قلنا— وقف على مكان مرتفع يراقب الأمور) توجه نحوهم بأقصى سرعة ممكنة، بدون درعه، وعندما رأى الأتراك عدداً من الرومان قد لحقهم الإعياء، نتيجة المطاردة —حسبما ذكرنا— وانهم تفرقوا وابتعد أحدهم عن الآخر، ولدى ادراكهم تماماً كم كان عدد الآخرين قليلاً، هاجموا البيزنطيين من على الطرفين، وقاربوا أن يلحقوا بهم بالحال ايذاءً عظيماً، لولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكل غير متوقع وأنقذهم من الخطر، وأمضى وقتاً طويلاً في متابعة مطاردة الهاربين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصانه قد انهك، وقف هناك منتظراً أن يزود بحصان يكون من نوع الخيول السريعة المتميزة، والتي لسرعتها، دعيت بالخيول «البرية»، ووجه الرومان الذين كانوا يتقاطرون على شكل أفراد أو جماعات، وتمسكوا معه من الخلف بالمطاردة أبعد، وألا يتخلوا عن حماسهم، وقرر آخرون من الرومان انهم بعدما قاموا بمطاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادرين على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظوا ان المكان الذي جاؤوا مندفعين نحوه معظمه خلواً ومهجوراً، وفي الحقيقة يتعذر الوصول إليه، قرروا ادارة ظهورهم، وسُعد مانويل بابن عمه أندرونيكوس(٤١)، الذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والذي كان مندفعاً نحو العدو،وقد تخلى بعد الضغط عن حصان له [لمانويل]، وبعدما امتطاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسوماً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطيع الخيل كله، الذي تبعهم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما من أحد من الرومان ظهر في أي مكان، فقد تشجعوا للمستقبل، واتحدوا معاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بـدون سيطرة عليه، وعندمـا لاحظوا أن الامبراطور لوحـده من دون الرومان، يقـاتلهم بدون درعه، تقـاطروا نحوه بشكل حـاشد، مفوقين قسيهـم، ومشجعين بعضهـم بعضـاً، واتخذ الامبراطـور مـوقفاً فـوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه مـن قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضـاً وأرغم الباقين على طلب الفـرار، ثم إن واحداً من البرابـرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطـور، فانبطح على الأرض، ومـا ان لاحظ قيـام مانـويل بـالهجوم والتقـدم نحو الأمـام، حتى رمـاه بسهم أصاب بـه نهاية رجلـه من الخلف، أي أصـابه في الجزء الوحشي البـارز من كعبـه، ثم سـارع التركي ليرميـه ثانيـة، لكن قبـل أن يفعل ذلك أخذه الامبراطور أسيراً بامساكـه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجـه أندرونيكوس، ذلك أنـه عندما جلب لـه الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجـم الأتراك، وحاول مانويل بـالحاح أن يثنه عن الذهـاب بعيداً، ذلك انه كـان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنـه كان غير قادر على اقناعه (لأن أنـدرونيكوس تابع المطاردة بشجاعـة وبدون حدود، وشخر ونخـر شوقاً للحـرب، وكان يحمل رمحاً وتـرساً بشكل جيـد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل مـا أخذه من واحد من النبلاء) تركه يـذهب، وتابع مانـويل سيره على الطـريق والتحق ببقيـة الجيش الـروماني، ولم يجب على أسئلة الـذين استوضحـوا منه كيف تـدبر الأمـور في القتال عندمـا مضى لوحـده تماماً ضدّ العـدو، كما أنه لم يذكر شيئـاً عن الأعداء الـذين —كما ذكرنـا— تولى قتلهـم، متجنباً بـذلك شكـوك دناءة التبجـح، لأن الفعل الـذي لايقع على مشهـد مـن الناس ويعـرض لسماع الثنـاء عليه، يقـود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفـور بمعالجة جـرحه والعنـاية بـه خشية أن يلتهـب وتتعذر معالجتـه، ثم حـدث بعد ذلـك حدث يستحق الـذكر، فعنـدما لم يعـرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعزم على ازالة قطعة من لحمه، بغية وضعها وهي ساخنة على الجرح فلربما تمنع الالتهاب، وفي الوقت الذي تقبل فيه الامبراطور رغبة الرجل الطيبة، منع ذلك، وأمر بقطع قطعة من لحم واحد من الخيول التي هلكت على الطريق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعدما ثابر على الزحف خلال منتصف الليل وصل إلى المعسكر المنصوب قرب ينابيع نهر منادر، وكانت هناك كميات هائلة من المياه تتدفق من الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث من عشرات الألوف من الأفواه، وتغطي المنطقة المجاورة ثم تتجمع أولاً في بحيرة، بعدها تندفع حافرة قناة، ومشكلة نهراً من هناك(٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكوس الذي —كما ذكرنا— تابع سيره نحو الأمام، فإنه لم يحقق شيئاً، باستثناء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً من الخيول كانت ممتطاة من قبل الأعداء الذين قتلهم الامبراطور، وبعد الاكتفاء بهذا، ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى بيثينيا Bythynia أسكن الرومان الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبادل مع أحد الأديرة المقدسة، وأشاد هناك حصناً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠- في حوالي ذلك الوقت، جرى خلع كوزماس Kosmas —الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الشؤون اللاهوتية، وكان رجلاً أديباً [Kosmios] في الحياة والحديث— من العرش البطريركي للأسباب التالية(٤٤):

كان هناك رجلاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيوية، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتابات المقدسة، وبينما كان ميخائيل، وهو رجل مقدس،

ومتميـز بصلاحـه، يحتـل العرش الـلاهوتي، بشر نيفـون هـذا بأفكـار غير مقبولـة، نشرها بين كثيرين مـن حولـه، تعلقت بالعقـائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانتـه بقرار مجمـع ديني مقـدس، فقصت لحيتـه، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزمـاس العرش —كما ذكـرنا من قبـل— تلقى نيفـون على الفور حـرية أعظم للكـلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسـواق، وهو لم يفعـل شيئاً تعدى تـوزيع أفكـاره، ورفضه لرب العبرانيين(٤٥)، ورغـب بالافـادة من مثل هـذه الأشياء، وأعجب بـه كوزماس اعجـاباً عظيماً، وجعل مـن هذا الشخص خـدينه، وأعلـن أن ماصـدر بحقه كـان ظلماً، وسارع إلى إلغـاء العقوبات التي صـدرت من قبل بحق الرجل، وقـد احترم فضائله، ومنح شيئـاً ما إلى كلماتـه، لأنه كـان في وقت مبكـر قـد تنبأ بـاعتلائه العـرش البطريركي.

وكانـت الجماهير غير راضية عن هـذا، ولهذا تقدم بعـض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منـه، عندما كان مرتاحـاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعـي المقدس، عهدت بنفسـك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الـرعية انك مخدوع في هذا الجانـب؟ انفصل عن صداقة الفاسـد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلمـوا، أما الذيـن كانوا معـادين للبطـريرك فقد اشتكـوا علناً ضده، واتهموه أمـام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عـابىء بأي شيء، وظل متعلقـاً بقوة بنيفـون، وكان غير راغـب بالانفصـال عنه، مهما حـدث، وبسبب بسـاطته المتنـاهية مـاكـاد ينجو مـن العقوبـة القاسيـة، وبعـدما أمـر الامبراطور بـايـداع هذا الشخـص بـالسجن، وعنـدما جـاء الرجـال لأخذ [نيفون]، أصيـب كوزمـاس أولاً بالذهـول إلى أبعد الحدود، ثـم استرد وعيه، وجمع نفسـه، وذهب مـاشياً إلى صحـن الكنيسة، حيـث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذيـن كانوا آخذيه، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سأله كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولايوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجّه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، ماالذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالآراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سذاجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١- وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر ريندكوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية وللعيث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد —على كل حال— الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان(٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما —كما رويت— واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطور براكـانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه مـن قبل من الرومـان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هنـاك سلام في المستقبـل بين الترك والـرومـان، وقبـل الامبراطـور بهذه الشروط، وأوقـف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانـت في هذه الآونة بـداية تحرك جـديد في الغرب، للنـورمان والفـرنسيين، وأمم الغـاليين، وكـل من سكـن حـول روما، والبريطـانيين والبريتـون، وببساطـة تحركت جميـع صفوف الغـربيين، وانطلقت بحجـة ظاهـرة هي أنهم سيجـوزون من أوروبـا إلى آسيا بقصـد قتال الترك أثنـاء الـزحف على الطـريق، ولاسترداد الكنيسـة في فلسطين، ولحمايـة الأماكـن المقـدسة، غير أنهم، كـانـوا في حقيقة الأمـر يـريـدون الاستيلاء على بـلاد الـرومان، بـوسـاطـة الاغتصاب، وسحـق كـل شيء أمـامهم(٤٧)، وكـان جيشهم لايعد ولايحصى، وعندما علـم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغاريـة بعث إليهـم برسولين هما: ديمتروس مـاكريمبـولايتس De-metrioes Makrembolites ، والاسكنـدر، وكـان ايطـالي المولد، وكـان كونتاً لمدينة غـرافينا Gravina الايطالية، لكـــن قد تمّ طرده منـذ زمن طويل مع عـدد كبير آخر من المملكة، وذلك بـوساطة طاغية صقلية [روجـر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعيـة من رعايا الامبراطـور(٤٨)، ووجههما الامبراطـور للبحـث في نـوايـا الغـربيين، وإذا كـانوا قـد قدمـوا وهـم لاينوون الحاق الأذى بـالـرومان، فليـؤكدوا هـذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثـل الرسولان أمام قـادة البرابرة قالا مايلي: «إن تـوجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقترفوا ذنباً، ليـس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً بـرجـال ذوي منزلـة رفيعـة مـن حيـث الأصل وشـدة البـأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبما انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، ومالم تكونوا أديتم أيماناً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم مواثيقكم وآثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيمان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعقل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصليبيون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا لالحاق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يساند في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجها من أجلها إلى البرابرة ونجحا، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لاأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وانها ماكانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطىء، وعندما نصب اكزرسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تمركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعدّ إلى تسعين عشرة آلاف [٩٠٠,٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر(٤٩).

١٣- هكذا كانت عظيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيش]، التي هي حاضرة داشيا(٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى ساريكا [صوفيا] Sardika ، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سيباستوس، من أسرة باليولوغي Palaiologoi ، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفياً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أمـا الآخر فكـان شخصاً اختـاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفـة كـارتوليريـوس Chartoularios [رئيس ديـوان الانشاء]، ونـــال رعاية الامبراطور جـون ونظر إليه نظرة تقدير، فعنـدما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعـوة مانويل لاستلام صولجان الملك بعد مـوتـه وأن ينقل إليـه المنصب الامبراطـوري(٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى ساردیكا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنـه من نهر الدانوب إلى ساردیكا يرتفع عـدد كبير من الجبال عـالياً، وهي في الحقيقـة متعذرة العبـور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبـات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقـة داشيا، بدأوا يظهرون نواياهم الشريرة، فقـد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كـانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسـواق، وإذا ماقاوم أحد سلبهـم، جعلـوه ضحية لسيـوفهم، وكان الملك كـونراد غير مبـال تماماً بما كـان يجري، وهو إمـا لم يهتم بـالمتهمين، أو كان إذا مـاأولى الاهتمام تـولى عزو كل شيء إلى حماقـة الحشود.

ولـــدى سماع الامبراطــور بهذا، أرسل جيشـــاً تحت قيـادة بـــروســـوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدما قابلهم قـرب أدرنة، تتبعهم لبعض الـوقت على مسافة قـريبة، سـاعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فـوضاهم، وعندما رآهم أصبحوا أكثر وقـاحة، اشتبك معهم وقتها في منـاوشات عسكرية مكشـوفة، وذلك للسبب التالي:

حـوى أحد الأديـرة في أدرنة واحـداً من الشخصيـات الألمانية، وكـان يعاني من مرض في جسـده، وكان معه أمواله وتجهيزاتـه كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الـرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقـر اقامته، وبعد

أن دمروا على هـذه الصورة الـرجل، استولوا على بضـائعه جميعـاً، وما ان وصل الخبر إلى مسـامع فـردريك، ابن أخي كـونـراد، وهـو رجل لايمكن السيطـرة على انفعالاتـه، وكـان بالفعل يتسـم بالـوقـاحة، بسبب غضبـه المفرط، فلقـد عاد سريعـاً، وبات بذلك عليـه امضاء يـومين على الطريق للحـاق بكونـراد، لقد عـاد مسرعـاً إلى أدرنة، وأحـرق الديـر حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجـد بهذه المناسبة فرصـة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأسـاس جاء بـروسوك للسيطـرة على الموقف، وصد فردريك وطـرده وأوقع مذبحـة كبيرة بين البرابرة، وكـان فردريك هـذا هو الذي تـولى حكم الألمان بعد كـونراد، للسبب الـذي سأحكيه في الـرواية التالية(٥٣)، وتخلى الألمان منـذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كـان هذا يحدث هنـاك، فإن أنـدرونيكوس، الـذي كانـوا يدعونـه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث بـه لهذا الغرض، ذكرهم بأيمانهم، وغـالباً مـا أوضح لهم الذي تعهـدوا به من قبل بعـدم الحاق أي أذى بـالـرومـان، ولامهم لغـدرهم، ونصحهم، انهم إذا مـا أرادوا تفـادي الوقـوع بالخطر، فما عليهم سـوى متابعة السير إلى العبّارات عنـد أبيدوس [جنق قلعـة] والجواز من هناك، وبعـدما كـرر قول هـذا ورده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفقاً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقـدير الأمر المعـروض أمامهم، وعندمـا بدا لهم أن الصـواب بـالتمسك بالطـريق إلى بيـزنطـة، انطلقوا نحـو الأمـام، وساروا على طـريقهم، وكانوا ثانيـة ليسوا أقل وقاحة وتبجحـاً، حتى بعد هزيمتهم، فقـد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلـوا كثيراً من الرومـان الذين قاوموهم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعنـدمـا علـم الامبراطـور بهذا، قـرر بأن عليـه هـو نفسـه القيـام

بالاستعـدادات، وهكذا شحنـت القسطنطينية على الفور بـالعساكـر، التي قـام بعضهـا بـالعسكـرة أمـام الأسـوار، واتخذ آخـرون مـواقفهم داخل الأبـواب، وبعث ببـاسيل الـذي يكنيـه قـومـه زيكـانـدلس(٥٤) Tzikandyles الـذي كـان قـد حقق مجداً في كثير من الحروب في المنـاطق الواقعـة عنـد مشرق الشمس، وفي القتـال هناك مع البرابـرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الـذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً ممن حظي بالتربية الـرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواتـه عند مكان اسمه لـونغيو Longoi ، وأمرهـم أن يبـذلوا قصـارى جهدهم في ردع الألمان إذا ماحاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولـدى وصولهم إلى تلك البقعـة، تعـرفـوا إلى أرقام الألمان، واستطلعـوا بـدقة كيف كـانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كـانت في فوضى أو في انتظـام، وكان ممـا لاحظوه أن بنيتهم الجسـدية كـانت مفرطـة الضخامـة، ومغطاة تمامـاً بـالسـوابغ، لكن خيـالتهـم لم تكن خفيفـة الحركـة وسريعـة أبـداً، ولاحظوا أيضـاً أنهم يمارسون فـوضى عظيمة أثنـاء الزحـف، وافترضوا أن قـوتهم لهذا سـوف تكـون من السهل التغلـب عليهـا من قبل الـرومـان، الذين يقـاتلون بشكل علمي، وبعثـوا إلى الامبراطور، بتقـدير حـوى هذه الأشيـاء، وسألوه مـاالذي ينبغي صنعـه، وكان حتى الآن مـايزال حـذراً بشأن الغـرض الظـاهري للبرابـرة، وأعني حملتهم المزعـومـة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيـام بـاجـراء ضدهـم، وآثر الانتظـار حتى يقـدمـوا على القيـام مجدداً بمـزيد من محاولات العنف، وهكـذا تمسك الامبراطـور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعنـدما زحفوا في السهول القائمة قـرب كيوروبـاكيـو(٥٥) Choirobacihoi (لأن المنطقة هنـــاك واسعة الامتـداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً مـن الأعشاب لرعايـة الخيول) عسكـروا هناك، وقـد حلت بهم كـارثة هنـاك بـالتأكيـد تفوق الـوصف،

يمكن أن يستخلص منها بشكل منطقي أن الرب كان غاضباً عليهم، لأنهم أفسدوا أيمانهم وزيفوها، ومارسوا كثيراً من الأعمال اللاانسانية نحو أناس يدينون بالدين نفسه، ولم يقترفوا بحقهم أي خطأ، فحينما هبت عاصفة غير متوقعة، فاض النهران اللذان يمران بذلك المكان، وكان أولهما يعرف بين السكان المحليين باسم ميلاس Melas (قراسو) وثانيهما باسم أثيراس Athyras ، ولقد ازدادت مياههما بشكل تخطى بعيداً المستوى المعتاد، وغمرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفتها أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الرجال، وبعث بعدد من الأعيان إلى كونراد لمواساته بسبب النكبة التي حلت به، ودعوته للمشاركة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامة، وكان كونراد مايزال حتى الآن غير راغب بالتخلي عن كبريائه، وطالب أن يقابله الامبراطور عندما يقترب من بيزنطة، وقدّر أن محادثاته جديرة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غروره لاحدّ له، تركه وشأنه يخلد إلى الراحة، وسارع كونراد ومعه جميع قواته، إلى بيزنطة، وعندما وصل إلى المقر الامبراطوري مقابل الأسوار، والذي يدعوه الناس فيلوباشن Philopation ، ولاأدري هل الاشارة بهذه التسمية إلى لطافة المكان، (لأنه يوفر الراحة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فراراً من صخب المدينة) أو لأن أشجاره وارفة الظلال، وأرضه تنتج نباتات خضراء غنية (وكان المكان واسعاً جداً، ويحمل من كل جانب مظهر الخضار) (٥٦)، ومن هناك أولى كونراد انتباهه إلى أسوار المدينة، وعندما رأى الأبراج المرتفعة إلى علو شاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الذي يحيط بها، أصيب بالذهول، وعندما رأى حشداً من النساء والسكان يقفون بدون سلاح وبدون عمل، على الأبنية

الخارجيـة، (لأن جميع الـذين كـانـوا يستخدمـون في الأعمال العسكـريـة الصعبة، وقف بعضهـم للحراسة فـوق الأسوار الـداخلية، ووقف البـاقون أمـام تحصينات المدينـة، ينتظرون شروع الألمان بـالقتـال)، وعندمـا لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة مـابرحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كـانت حقيقيـة، ولهذا انطلق من هنـاك بسرعـة، وعبر الجسر، الـذي يقـوم على كتفي مايمكن للمـرء أن يـدعوه وصلـة النهـر البحري [القـرن الـذهبي] ووصل إلى واحد من الأربـاض المواجهة لبيـزنطة، التي كـانت تدعى بيكـريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هنـاك المجـاز الطبيعي المعقـول، ويكـوّن بحـر يـوكسين Euxine [البحر الأسـود] هناك خلفية من المياه، وذلك بـدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عاليـاً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسـافة قليلة من بيزنطـة، ثم إلى المكان الذي يقـوم عليه الجسر.

١٥- هكذا كـان الحال هناك، وعنـدما وصل كـونراد إلى هنـاك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتـوجب على الامبراطـور المتملك للـذكـاء، ألا يتفحص المشكلـة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صـدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً مايخفق في اصـلاح ما هو جيد، ولايلوم بالطبع مايبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الـرائج، يقابل الانسان أحياناً ببعض الترحـاب مـن قبل الأعـداء، غير أنـه قـد يعـاني مجدداً من بعـض سـوء المعاملـة من الأصدقـاء، لاتعزو إلينـا أسباب المضار التي أنـزلت بأرضك من قبل بعض العـامـة في جيشنـا، ولاتغضب لهذا السبـب، حيث أننـا أنفسنا لم نسبب مثل هـذه الأشياء، لكن الغوغاء كانـوا قادرين على فعل

ذلك بإرادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهـواتهم، ثم إنه عندما يكون هنـاك جيشاً أجنبيـاً خارج بـلاده يطـوف ويتجول في كل مكـان، جزئيـاً لاستطـلاع الأرض، وجزئيـاً لجمع الحاجيـات الضرورية، وقتهـا ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظـر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطـوريتنا مسألة أن أهواء العـامة يصعب دومـاً التحكم بها وقيـادتها، وفي الحقيقة إن مـاكـان موضـع اهتمامنا هـو وجـوب جـوازكم أنتم أيها الأجـانب الغـربـاء لمملكتنـا دون أذى، ودون شكوى، أو بـالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنـا، خشية أن نكسب سمعة سيئـة بين الناس بـالتصرف بما هو مضـاد لكرم الضيـافة،وعلى كل حال، بما أن مثل هـذه الأشياء واضح انها لاتستحق الملامة بـالنسبة لك، ونظراً لأنـك بارع جداً، وعظيـم المهارة في البحث في طبيعـة الأشياء على الوجـه الصحيح، فنحن مدينـون لك بالشكـر، ذلك أننا سـوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفيـة وجوب كبح جماح العامة من شعبنا وانـدفاعها ضـدكم، بل سـوف نعـزو ذلك إلى حماقـة الغـوغــاء، طبقـاً لما تعطفت ووجهتنا إليـه، وعليه لـن يكون من الآن فصـاعداً نافعـاً بالنسبـة لك أن تأخـذ الطـريق مع الجيـش بشكل جماعي، ولا التجـول أيضـاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسمـوح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقـرر، لابدّ أن الأجـانب سيكونون عـرضة للمعـاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الرومـاني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلـوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسـوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القـادة الرومان، أن يقودوا قوة كـافية، وأن يتخذوا مواقع تواجـه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العـوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فـرق، وجاء بعـدهم الجنـد الأفضل تسليحـاً والدارعين، ثم الـذين امتطوا خيـولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكـومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الـرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هـذا حتى استولت عليهـم شدة الـرغبـة والفوضى، وزحفـوا مسرعين، وأعقب ذلك معـركة حادة، ووقع قتلى كثـر بين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطـرساً، ذلك انه لم يكن عالماً بما حـدث، وكان مقوداً بآمـال عظيمة، ورغب الامبراطور بـالسخريـة من رعونته السـالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتــوجب علينـا أن نــدرك تمام الادراك، أن الفـرس الــذي لايحتمل اللجـام لايفيد راكبه، لابل حتى ربما لن يحملـه فـوق منحدر صخـري، وهذا الجيش الـذي أخفق في الاصغاء إلى آمريه، غـالباً مايورط قـادته في المهالك، وعلى هـؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسـب أهوائها، غير انني لاأعـرف مـاالذي اعتراك من آلام، فلقـد ازدريت هـذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعـاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على مـوقفك نفسه، قـدّر الآن إلى أين قـادك السماح للغـوغاء من مصـاعب، ذلك انني عـرفت أن قطعـة صغيرة جـداً من الجيش الـرومـاني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهـم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكـون متفوقاً على الغربـاء الأجانب، وإذا لم يكن لدينـا رغبة في معاقبـة العامـة لعدم التزامهـا، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا ماارتأيت، أن علينا معـاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمـي، وأن نوقف نـزوات الجند

نفعل، أما إذا كان هذا لايروق لك، فدع الأمور تبقى على ماهي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه بيّن لنا بوضوح ماالذي ينبغي صنعه».

١٦- لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجواز، وهدّد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بآلاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان مايزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لايحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لايتفوق على الجيش الوطني إلاّ قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطيع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الأغنام، تزهو بعشرات ألوفها، إذا ماصادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا مارغبنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدّروا أيضاً أنكم لن تعلو متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ماتسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطـريق نفسه، ويجب ألا تلومونا إذا مـاجعلنـامن أنفسنـا غيرلطفـاء جـداً مـع الـذين رغبـوا بـاقتراف الاثم والعـدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخـذ بالثأر والانتقـام، فـالأول يصدر عـن تقديـر خـاطىء، بينما يقـود الحذر إلى الآخر، ويعطينـا تملكنـا الماضي الحق بـاستحـواذ أي أرض سـوف تسترد من الأتـراك المجـاورين، وفي الحقيقـة سـوف يتملـك الـرومـان هـذه الأراضي بـدون صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطـالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعنـدما سمع كـونراد بهذا، وعلم بـالوقت نفسـه بالبـلايا التي نـزلت مـؤخـراً بالألمان، اعتلى ظهـر عبـارة بـائسـة كـانت مـربوطـة هنـاك على الشاطىء، وجـاز مضيق داماليس(٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل إلى الشاطـىء المقابل، ذلك أن واحـداً من البرابرة المعـاندين قاد الـرجل وأرشده، ومع أن البربـري يتباهى ويتفاخـر بلا حدود في حالات الـرخاء، لكنـه يتـواضع ويتـذلل في حـالات النكبـة أكثـر من الـلازم، فقـد فكـر الامبراطور في اذلالـه أكثر، ففعل مايلي: لقـد أرسل عدداً من الـرومان إلى ساقة الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشـوة عدداً لايحصى من أعيانه ليسحبوا ولاءهم لكونراد.

ومـا ان لاحظ كـونـراد هذا، لم يعـد كما كـان من قبل الـرجل الفـائق المهـارة، فكتب إلى الامبراطور يسـأله أن يبعث إليـه بـواحد مـن الرومـان ليقـوده على الطريق، ويـوجهـه بأمان، وجـرى ارسـال الذي كـان يشغل وظيفـة أكولاوثـوس(٥٩) Akolouthos ، ووجـــه للبحث في اقامة حلف مع كـونراد، وبعدما دخل الرومـان والألمان في نقاش طويل، توجب على كونـراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطـور، لكن مقابل ثمن كبير جداً، إذا مـاتوجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتـال ضدّ الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكـولاوثوس) كونـراد أن أمامه طـريقين، والذي

عليه هو أن يختار أيها ليتابع سيره عليه، وبعدما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهر] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز(٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهاك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجموا بأسلوب وحشي لايمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب باللذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيباتوس ميخائيل باليولوغوس، وميخائيل الذي كنيته براناس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولوحظ انه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولاأستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخـلاق الـرجل كـانت بشكل طبيعي هكـذا! ولهذا أنهى حـديثـة مع الـرسولين معبّراً عن بهجتـه لـلاستقبـال العظيم من جـانب الامبراطـور، وعندمـا بات قـريبـاً من بيزنطـة، أرسل رسلاً إلى الامبراطـور واعـداً بمزيـد من الصداقـة، ووافق على التعاون معـه في المسائل الهامـة، وإذا كـان من المفيـد لهما الالتقـاء مع بعضهما والاشتراك في بحث في القصر، لم يـرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطـور بـاهتمام إلى هـذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجـال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلـون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطـور في أبهة، ومنحه التشريف الـلائق به، وعنـدما بـات في داخل القصر، كـان الامبراطور جـالساً على عـرش مرتفع، وقـدم للويس مقعـداً منخفضاً، وهـو الذي يسميه النـاطقون باللاتينيـة كرسياً، وبعـدما جلس عليـه تكلم وسمع ماهـو مناسـب، ثم غادر إلى الـربض خارج الأسـوار، الذي تسميـه العامـة —كما قلنا— فيلـوباشن، ليقيم هنـاك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطـور إلى قصر بـلاشرين في جنـوب المدينـة(٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديـرية بالتفحص، وليشاهد الآثـار المقدسة في الكنيسة هنـاك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقـة بجسد المسيح، والتي هي علامات حمايـة ربانية للمسيحيين، وبعدما أنجـز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهـود بالأيمان أن يكون صديقاً للامبراطـور وحليفاً مادام حياً، عبر هو بدوره إلى آسيا(٦٢).

١٨ - لقـد كان هـذا ماحصل، وقـام الامبراطـور بترقية شخص اسمـه نيقولا وكنيته مـوزالون Mouzalon إلى عرش البطريـركية(٦٣)، وكـان منتميـاً من قبل إلى النظـام الـرهبـاني، لكنـه بعـدمـا تسلم عـرش الكنيسـة القبرصية، استقـال عن طـواعية منهـا، لكنـه ما ان تـولى الادارة حتى انفتح كل فم ضـده، وادعـوا انـه اعتلى العـرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنـه تخلى من قبل عن الـرهبنة وعن الكنيسـة المعينـة له، وكـان في البداية عنيداً وغير راغب بـالتخلي عن العرش، لكن ماإن اتخذ الامبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثـانية، تخلى عن العرش، وتابع العيش بمثابـة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي(٦٤).

وكما ذكـرنـا من قبل، كـان الألمان قد هـزمـوا مـراراً من قبل الأتـراك، وفقدوا كثيراً من رجـالهم، وما ان تخلوا عن المرور خلال فيلـوميلون، حتى سارعوا بـالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هنـاك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريـق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معهما قواتاً كبيرة:

وكـان واحد منهما يحكم أمـة التشيك، وكان فيما يبـدو، قد عين ملكـاً من قبل كـونـراد، وكـان الآخـر ملـك البـوليسيين، الـذين كـانـوا شعبـاً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين(٦٥).

وعندمـا اتحد الجيشان معـاً، تردد بشكـل مكشوف كلمـة عابـرة اعتاد الفرنسيون على استخـدامها وتلفظها وإطلاقهـا على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقـاعة الألمانيـة» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصلـه الصادر عنـه، فسأبينُ ذلك على الفور:

إن أسلوب هـاتين الأمتين في القتال ليـس نفسه، فـالفرنسيـون قادرون بشكل خـاص على امتطاء ظهور الخيـل في نظام جيـد، والقتال بالـرمح، وخيالتهم متفـوقة على الألمان بالسرعة، والألمان —على كل حـال— أقدر على القتال على الأقـدام وأفضل من الفرنسيين، وهـم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفـرنسيين، فإنهم كانـوا يـرتابـون بقـدرة خيالتهم، ويصرّون على خـوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمونها، وبعدما كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسيرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبارة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً(٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخرية منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم لأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لاأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ماكان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ماقد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ماالذي بقي ممكناً لنا، وماالذي لم نخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغيّر المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكـن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادته ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصـلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بما هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالـة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقتـه، ولكن بما أنـه لم يعـرف ماالـذي ينبغي فعلـه، تبع بـدون ارادتـه الفرنسيين، ولدى وصـول رسالة الامبراطور إليـه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصـائحـه بـالسرور وعـاد مسرعـاً، ولـدى وصـولـه إلى الهالسبونـت، جاز إلى تـراقيا بالعبّـارة من هناك، وقـابل الامبراطـور الذي كان مقيماً هنـاك، وعاد إلى بيزنطـة معه [شتـاء١١٤٧-١١٤٨]، وتتابعت هنـاك أعمال التسلية الـواحد تلـو الآخر: مسـاكن امبراطوريـة، ومشاهـد متنوعـة، وسباق خيل، واستقبالات فخمـة، وبذلك زال ارهاقـه الجسدي ونقه.

وبعــدمـا زود بما يكفـي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عــدد من السفن الحربية، وقاد سفينتـه نقفور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمـات، والتقى هنـاك ببقية الملـوك، وأدى طقوسـه المطلوبـة عند ضريح المسيح المانح للحيـاة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحـو وطنه بخير مـايمكن، رحل هـو من هنـاك مع السفن المشـار إليها، ورسـا عنـد سـالونيك، ورأى الامبراطـور هنـاك للمرة الثـانية، واشترك مجدداً معـه في مناقشـات ومحادثات، وذكـره الامبراطور بما جـرى الاتفاق عليـه من قبل، وكان هذا قـد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليـا وكالبيرا] إلى الامبراطورة [بيرثا] ايـرين، لتكون هديـة زواجها [بائنة] لأنها كـانت قريبة [كـونراد] وهـو الـذي خطبها إلى الامبراطـور، وبعـدمـا وثق هو وفـردريك اتفـاقهما بـالأيمان الاضـافيـة، غـادرا الأراضي الرومـانيـة، ذلك أن أعمال كـونـراد واجهت نهايتها هناك [شتاء١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقـع شيء —كما يلي— للملك الفـرنسي أثنـاء عـودته مـن فلسطين [١١٤٩] مع سفن رسـت هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقـل بالأجرة إلى اوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانـت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانـت هذه السفن قد قامت مـن قبل بالاغارة على الأراضي الرومـانية، وكـان هناك أسطـول روماني يقـوده كوروب Chouroup ، قـد قـابـل هـذه السفـن وقـام بمهـاجمتهـا، وبينما الأسطـولان يتحاربـان، حدث أن أبحـرت سفينة الملـك إلى وسطهما، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندمـا —كما ذكرنا— التقى بـالسفن الصقلية، نزل مـن سفينته، وصعد إلى ظهر مركـب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطـر، تمّ رفع علم واحد من حلفاء الـرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القـوات الرومانية، وبعدما فقد عـدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحـوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفسـه بصعوبـة، وما ان قـام بتقديـم شكوى إلى الامبراطـور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ماكان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية(٦٩).

٢٠- وبعد عودة كـونراد إلى بلاده مالبثت أن وافتـه منيته، وذلك دون اكمال انجـاز أي شيء مما وعـد به الامبراطـور، ووصـل إلى السلطة بعـده فردريك(٧٠)، لكـن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فـردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملـك الألماني هنري [الخامـس] بسجن أبيه [هنـري الرابـع] وهو على قيد الحياة، وهو الـذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابـا باسكال الثـاني]، وهو أيضـاً استولى على الملـك بشكـل غير شرعي، ولهذا السبـب انتقم الألمان منـه، عندمـا مات، حيث قـرروا عدم منـح السلطة لأولاده، (كان أولاده كـونراد هذا ووالد فـردريك) (٧١)، بل استدعـوا إلى السلطة

رجلاً عجوزاً هو لوثر (٧٢)[الثاني]، ومنحوه السيادة على الألمان، ولكن بما أن الآخرين [كونراد وفردريك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمانهما من ملكهما الموروث، قررا محاولة الثورة، وعندما عرف لوثر بهذا، وكان بالحقيقة عجوزاً، ومتقدماً بالسن كثيراً، كما كان يمتلك طبيعة نبيلة، ولا يعرف كيف يتكلم ويعمل إلاّ ببساطة، وافق على نقل الملك منه لهما عندما يتوفى، وإثر وفاته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخوين، وأعني به والد فردريك، مع ذلك بما أنه كان مصاباً بالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندما توافيه المنية سينقل السلطة إلى فردريك الأصغر، لذلك عندما كان —كما ذكرنا— على فراش الموت، وضع التاج على رأس فردريك، ومضت هذه الأمور على هذه الصورة تقريباً، وإثر ذلك كانت بداية الحروب الصقلية.

الكتاب الثالث

١- كان روجر في البداية كونتاً بين الكونتات(١)، غير انه كان رجلاً فعالاً ونشطاً، بارعاً في التصدي للمشاكل، وماهراً في تحريك ماكان مستقراً، وأقرض مالاً إلى وليم دوق لومبارديا [أي أبوليا] الذي كان هو تحت سلطته، وكان منطلقاً إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس تسلم حكم لومبارديا بالضمان(٢)، وبعدما مارس الطرد ضدّ أسقف روما، بطريقة أنا مقبل على حكايتها، تمّ تكريسه ملكاً من قبله.

وعندما سمع الجالس على العرش [البابوي] في روما أن روجر قد تملك لومبارديا، امتلأ حنقاً تجاه هذا العمل الوقح، وادعى أن هذه البلاد تعود ملكيتها منذ زمن طويل إلى كنيسته(٣)، وقام لوثر بغزو لومبارديا بجيش كبير، وذلك بعدما ادعى أنه تعرض للتهديد، وانه يعارض سلب البابوية واهانتها، وقد احتل جزءاً عظيماً من البلاد، وبات على مقربة من طرد روجر من جميع البلاد، لكن روجر نسج —كما هي العادة— خططاً تآمرية، وطرد لوثر بلا قتال من هناك، وأنا سأحكي فيما يلي كيف حدث هذا:

كان للوثر قريب عن طريق الزواج، وكان صاحب سلطان عظيم في بلاطه، وعدّ من قبل الألمان الثاني بعد لوثر، ودون معرفة من لوثر، اتصل به روجر، فأفسده بالمال، وأقنعه أن يعطي اشارة انتهاء الحرب إلى الجيش الألماني، ولم يكن هذا بنفخ البوق أو أي شيء مشابه بل وفق عادة البرابرة وحماقتهم، وكان وفقاً للتقاليد يجري عزف نغمة محددة في المعسكر، بعدها يكون غير مسموح للعساكر بالبقاء، ولكن بمجرد سماع ذلك، يفترقون ويقوم كل واحد بالاستعداد للعودة، وسعى قريب لوثر خيانة إلى أن يتم عزف هذه النغمة بشكل مفاجىء، وبذلك سبب ارفضاض الجيش

وتبعثره مباشرة، وغضب لوثر مما حدث، وحاول ايقاف عملية اندفاع الحشود هذه، بايقاف خمسمائة رجل للقيام بذلك، لكنه لم ينجح، وتسلل الألمان وتبددوا، متجاهلين العقوبات والحرمان معاً، واستولى اليأس والرعب على لوثر، ومالبث أن أصابته حمى حادة، فارق بسببها الحياة، وطبقاً لما ذكرناه من قبل خلفه على الحكم كونراد(٤).

٢- وما ان حدث هذا حتى شدد روجر من قبضته على لومبارديا مرة ثانية، وقام أسقف روما، الذي لم يستطع تحمل هذا، بإقامة تحالف بينه وبين الألمان، وسارع بالعمل ضد روجر بحماس شديد[١١٣٩]، غير ان روجر ظهر بشكل مفاجىء، وعسكر أمامه، فهزم أتباعه، وأخذه أسيراً، وعندما أصبح في قبضة يده، أمر بنصب خيمة من الكتان، وجعل الأسقف يجلس فيها، وألقى بنفسه أرضاً ووجهه نحو الأسفل، ثم زحف على قدميه ويديه نحوه متظاهراً بطلب المغفرة لجريمته، وسائلاً تكريسه ملكاً، واستقبله الرجل الآخر عندمااقترب منه (ماذا كان بامكانه أن يفعل غير هذا؟) وعندها سماه ملكاً، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات حاكم لومبارديا يحمل لقب ملك(٥).

وعندما نجح روجر في خطته، أرسل رسلاً إلى الامبراطور جون —وكان مايزال على قيد الحياة— يسأله الحصول على عروس ذات دم امبراطوري، لابنه، ولم تحقق السفارة هدفها عندما توفي جون، واتصل بعد مرور بعض الوقت بمانويل، الذي كان حاكماً للامبراطورية آنذاك، وصنع الطلب نفسه [حوالي١١٤٣-١١٤٤]، وبناء عليه توجه باسيل الذي كنيته اكسروس Xeros إلى صقلية للبحث في هذه المسألة مع روجر، وبعدما أغواه بالذهب، وعده ببعض الأشياء غير المرغوبة، كان على رأسها أن يكون في المستقبل كل من الامبراطور وروجر على سوية واحدة بالعظمة، وتلا ذلك قيام صراعات كبيرة، وعاد اكسروس إلى بيزنطة ليموت مباشرة، وبذلك لم يدفع عقوبة عمله المتسرع، وعالج

الامبراطـور مسألـة سفارتـه بمثابـة عمل عـابث، وأزاح روجـر نفسه مـن تفكيره(٦) ،وغضب روجـر، وعدّ المسألـة مسألة خـداع وغش، فأمـر ببناء اسطول، ووضعـه على أهبة الاستعـداد، ينتظر لحظة منـاسبة يتمكـن فيها بطريقة مامن الانتقام من الرومان.

ونجـح البربـري في خططـه، وفي ذروة تـدخل أمـم الغـرب وخـرقهـا للأراضي الـرومانيـة، قام بنهـب: كورنثـا، ويوبيـا Euboea ، وبيتين Boeotionفي طيبـة [١١٤٧-١١٤٨]، وبما أن الجيـش الرومـاني كـان مشغولاً بـالمشاكـل التي يواجههـا أمامه، فقـد قام البرابـرة بمهاجمة المدن المذكـورة، دون أن يعترض سبيلهـم أحـد مطلقـاً.وشحنـوا سفنهـم بالأسلاب، وعبر مـن هناك إلى كيركيرا Kerkyra (كورفو)، فـاستولى عليهـا عنوة، مـدعياً أنها ملكـاً لـه، ثم حكمهـا حكماً مطلقاً(٧)، ولـدى سماع الامبراطور بذلك غضب غضباً شديداً، وأعمل فكره في كيفية تمكنه من الانتقـام من روجر، وأن يفـرض عليه العقوبـة التي يتطلبها مثـل هذا العمل الوقح، وأمـر على الفور باعداد اسطول فيه خمسمائة سفينـة حربية، مع ألف ناقلة للخيول، وقام بشحن الاسطول، وفي الوقت الذي أخذ فيه الطريق البري، أبحر الأسطول وتجول هناك بأقصى سرعة ممكنة.

٣- وما ان وصل الامبراطـور إلى فيلبه [بولفديف] حتى ذاعـت اشاعة وعمـت أفادت ان جيـوش الكومـان قد عبرت الـدانوب، وكـانت تقـوم بنهب وسلب كل ما كان أمامهـا، حتى ان هذه الجيوش قد استولت على مدينـة بارزة، قائمة على شـاطىء الدانوب [١١٤٨]، وبهذا القـدر والنوع كانت فحوى محتويات الاشـاعة، لهذا غيّر الامبراطور اتجاهه، وخف نحو الدانـوب من خلال أنكيـالوس Anekialos [بوموري Pomorie]، وبما أنهم لم يكـونـوا قد وصلـوا إلى هنـاك، فقـد شغـل نفسه بـالتجـوال بـالسهول هنـاك صـائداً، لأن كميات هـائلة مـن الـوحوش قطنـت على شكـل قطعـان في تلك السهـول، ذلـك انها كـانت مهجـورة تمامـاً وغير

مسكونة منذ زمن طويل.

وفيما هو مشغول هكذا، نقل إليه خبر أن الكومان كانوا يسوقون أمامهم في طريق عودتهم غنائم من الأراضي الرومانية، وأنهم عبروا للتو نهر الدانوب، وكانوا معسكرين على مقربة منه،وعندما سمع بذلك، بادر مسرعاً بالقدر الممكن نحو الدانوب، وصدف أن وجد هناك قارباً، من النوع الذي يصنع من جذع واحد، ويترك بالعادة على الشواطىء هناك، وأمر باحضار القارب إليه، غير أن الملاح كان عنيداً، وعندما سمع بأن الامبراطور يدعوه قال: «لو كان الامبراطور مهتماً بشؤوننا، لما سقطت ديمنزيكوس(٨) Demnitzikos (فهكذا كان اسم الحصن الذي استولى عليه الكومان كما سلف بنا الذكر) ولم تنهب ممتلكاتنا وتحمل ثم تؤخذ بعيداً من قبل الكومان دونما اعاقة»، ولدى سماع الامبراطور هذا الكلام، غضب غضباً شديداً، وأعلن: «تأكدوا، انني لن أكون الرجل الذي عهد الرب إليه بشؤون الرومان، إذا لم يدفع الكومان الغرامة عن عملهم الطائش».

وعلى هذا ترك بقية الجيش يقوم ببناء المعسكر هناك على الشواطىء، ولما كانت السفن لم تصل بعد —كما ذكرنا من قبل— قام بجمع القوارب وربطها مع بعضها، وعبر الدانوب مع خمسمائة من الأتباع، وواجه هناك نهرين كبيرين، ولعدم رؤية قوارب هناك يمكن استخدامها للعبور، أمر الذين كانوا معه أن يربطوا القوارب التي كانت على سطح الدانوب إلى ذيول خيولهم، ومن ثم نقلهم إلى النهرين المذكورين، ولدى انجاز هذا العمل، تمكنوا من العبور بسهولة، وجالوا بعد ذلك في طول المنطقة إلى أن وصلوا إلى جبل تلي—أورمان(٩) Teli-orman، الذي امتد على مقربة من حدود روسيا، ووجد معسكر الكومان خالياً تماماً من الرجال، (لأنهم انطلقوا راحلين منذ وقت قصير) ولذلك تابعوا تقدمهم.

وبما أن النهار كان قد شارف على الانتصاف، وما من أحد من العدو قد ظهر، اختار الامبراطور الكومان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الرومان، مع قائدهم جفردوس Giphardos ، وكان رجلاً مجرباً في عدد كبير من المعارك، وأرسلهم لملاحقة الأعداء، ولتتبع آثارهم، والاشتباك معهم عندما يكون ذلك ممكناً، وسار خلفهم بخطوات واسعة، لذلك لم يمض وقت طويل حتى اصطدم جفردوس مع العدو، ونظراً لعدم جرأته على الاشتباك معه (لأن عدد العدو قد ظهر له لايعدّ ولايحصى) أرسل إلى الامبراطور ورجاه أن يقدم بأقصى سرعة ممكنة، وعندما سمع الامبراطور بهذا، بادر إلى حمل سلاحه، وحملت القوة كلها أسلحتها، وانطلقت نحو مطاردة الكومان، ووصل الرومان إليهم ودنوا منهم، وفي البداية وقف الكومان صامدين لاستقبالهم، وعبأوا صفوفهم، ورغبوا في القتال للدفاع عن أنفسهم، وعن الغنائم التي ساقوها معهم، وتطور الصراع، من حملات كرّ وفرّ إلى اشتباك عنيف على كلا الجانبين، وكان عدد من الرومان شجعاناً يومذاك، غير أن الامبراطور كان أشجعهم، وعندما رصّ العدو صفوفه، انقض عليه بكل قوة وحمل برمحه فخرق سور دروعه، وقتل عدداً كبيراً من الأعداء ليس بشكل فردي، بل ازدواجي، وعندما تمّ صدّ العدو بحملة الامبراطور التي لاتقاوم، اندفع الرومان نحوهم بكامل القوى، وحققوا حملة رائعة، حيث سقط عدد كبير من البرابرة قتلى، وتمّ أسر مائة منهم، كان بينهم لازاروس Lazaros ، وهو رجل احتل مرتبة عالية في الشجاعة، وكان محترماً من قبل المقدمين بينهم، وحفظ باقيهم سرعة خيولهم، وانتشار أحراش الجبال، التي توفرت وامتدت بأعداد كبيرة، واسترد الرومان منهم جميع الأسلاب وعادوا، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن تم تحرير سوتاس Sotas ، الذي كان —كما ذكرنا من قبل— [كذا] واسع الثراء عالي الأسرة، وكان قد وقع في أسر الكومان، وقد عاد إلى معسكر الرومان بمثابة لاجىء.

٤- بعدما حقق الامبراطور هذا النصر السريع والحكيم. تقدم الامبراطور نحو الأمام، ليعد العدة للحرب مع الصقليين، وبالنسبة لمسألة التعب العسكري، كان لايظهر عليه التعب، مع أنه —كما اعتقد— لم يكن أدنى من أي عسكري عادي، وليس حتى من الأباطرة أو القادة، وتقدم يفكر ببراعة حول صقلية وجميع ايطاليا، لكن بدا أن القدر رفض توقعاته المخلصة، وفهم بشكل جيد كيف ينهي قيادة علمية بشكل مضاد تماماً، بدون جهود، لأنه مع أن الكومان عادوا في الوقت نفسه، وكان هو نفسه قد وصل في موسم مناسب إلى المنطقة التي منها يتم الابحار إلى [كيركيرا]، لكن الأسطول قد تأخر، على كل حال إما بسبب ريح غير مواتية أو بسبب جهل أميراله بالأمور، ثم وصل متأخراً عن الوقت المناسب، فقد كان قد أقلع من موانىء بيزنطة في الربيع، غير أنه وصل إلى الامبراطور في الخريف، لذلك باتت أمور الرومان في وضع سيء، وصعد الامبراطور ظهر إحدى السفن الحربية، وأقلع الأسطول كله للعبور فوراً، لكن وقوع عاصفة غير متوقعة مع رياح شديدة أعاقت مشروعه، وكان البحر واسع الامتداد هناك، والابحار في الحقيقة خطير، لاسيما في الشتاء، ولهذا توجه إلى مكان قريب من بيرهويا Berrhoia [فيرويا إلى الغرب من سالونيك] وأمضى الشتاء هناك [١١٤٨-١١٤٩].

وأرسل قريبه بالمصاهرة ستيفن الذي ينبذه الناس بلقب كونتوستيفانوس [ستيفن القصير] [لأنه كان قصير الحجم]، أرسله مع الأسطول كله إلى كيركيرا، التي —كما ذكرنا— كانت آنذاك بأيدي الصقليين، وذلك بغية استردادها إلى الرومان، وبعدما وصل إلى المدينة وجرب كل نوع من القتال ضد أسوارها، وبينما كانت الأمور ماتزال متأرجحة، فقد حياته بطريقة أنا مقبل على حكايتها، فقد أنشأ سلماً طويلاً جداً، امتد أعلى من الأسوار الخارجية، وبوساطته قاد الجيش ضد

المدينة، وتساقطت مجموعات هائلة من الحجار المقذوفة من المجانيق في المدينة فوق السلم، وحطمته بالضربات، ونشرت شظاياه في كل مكان، ووصلت إحدى هذه الشظايا إلى الدوق، وأصابته إصابة قاتلة.

وشعر أن منيته قد دنت، وفكر في عقابيل هذا الأمر، مقدراً أن الخبر عندما يصل إلى الطرفين، سيسبب ربما الاحباط إلى الرومان، لكنه سيشجع الصقليين الذين كانوا يتقهقرون، لذلك أمر بتمديده بهدوء على ظهر سفينة، وأن يعودوا إلى القتال، وقام باستدعاء ابنه أندرونيكوس، الذي كان أصغر أولاده، والذي كان مقدم حملة البلطات، وأشار عليه أنه ينبغي على الرومان عدم التخلي عن الشجاعة، بل عليهم الآن النشاط بشكل خاص، لأنهم وقفوا غير بعيدين عن تحقيق آمالهم بالاستيلاء على المدينة، وكان هذا —كما أعتقد— تعبيراً عن روح الرجولة والشجاعة الحربية والوطنية، لكن ما ان كمل العمل وانتشر الخبر وعمّ بين الجميع، حتى سارت الأمور جميعها بالاتجاه المعاكس، فقد صدّ الصقليون الرومان، مع أنهم كانوا قد اعتلوا فوق الأسوار، وسادت الفوضى واستولى الاضطراب على كل شيء.

٥- وكانت أحوال الرومان كما يلي: كان الامبراطور حزيناً لدى سماعه بهذا، وعين أميراً مكانه، وأمره بالحفاظ على الحصار دون انقطاع، وبما أنه لم ينتج شيئاً يستحق الملاحظة، (لأن خصاماً تفجر فجأة بين الرومان والبنادقة، الذين قاتلوا كحلفاء لهم، وقد حرم هذا الخصام الجيش الروماني من النجاح) صمم الامبراطور نفسه أخيراً على الذهاب إلى هناك والانشغال بالحصار، وقام أولاً بانهاء الخصام فيما بين البنادقةوالقوات الرومانية، بايقاعه العقوبات المناسبة بحق المجرمين على كلا الطرفين، وإثر هذا هاجم بقوة الأسوار، وهكذا كان مشغولاً[١١٤٩].

غير أنه ما إن علم روجر طاغية الصقليين أن الامبراطور يصرف وقته

في كيركيرا حتى أرسل اسطولاً ضد الأراضي الرومانية، عازماً على ارغام الامبراطور على ترك الحصار، بإعماله العيث هناك، وقام الامبراطور، بفصل جزء من السفن التي كانت معه، وسارع بارسالها تحت قيادة كوروب، لمواجهة الصقليين، عندما —كما قلت— يهاجمون الأراضي الرومانية، وقام هو نفسه بتشديد الحصار على الصقليين بحدة أعظم، وأوقف أمام الأسوار سلالم عملاقة امتدت من السفن، وقاد الجيش صعوداً بصعوبة ومشقة، وانكسر أحد السلالم تحت ضغط ثقل الذين صعدوا عليه، وقذف بكثيرين إلى البحر، حيث لفظ هؤلاء التعساء أرواحهم، مخلفين إلى الرومان كمية كبيرة من الشجاعة، ومع أن الصقليين رأوا الرومان قد صاروا فوق الأسوار وفيها، كانوا على غير استعداد للتخلي عن المدينة للامبراطور، وسارعوا نحو الحصن بأقصى ما أمكنهم، ومن هناك كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وأخذوا يسقطون على الرومان الحجارة والنشاب وأي شيء طالته أيديهم، مثل زخات المطر الساقطة من السماء، ذلك أن القلعة كانت ذات ارتفاع شاهق، وكان من المتعذر اصابتها بحجارة المنجنيق.

ثم إن الامبراطور قام وهو يغلي غضباً، بسبب سوء الحظ الشرير هذا، فوقف عالياً فوق ظهر السفينة التي كانت تحمله، وأمر المجذفين بالاندفاع بالسفينة نحو الأسوار، في محاولة منه —كما أعتقد(١٠)— للهجوم بنفسه، لكن بعضاً من القادة ومن أقربائه بالدم، بذلوا جهد طاقتهم، لايقافه والحيلولة بينه وبين تنفيذ رغباته، إن هذا ماأعتقده، لأنه كان على درجة عالية من الاقدام والشجاعة، ولقد سمعت بعض الناس يتهمه بالتهور، لكن المسألة انه امتلك إقداماً رائعاً وشجاعة فوق الشجاعة العادية، وفي الحقيقة، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، أمسك بيديه بكثير من البرابرة وجعلهم أسرى، ولهذا قالت السيدة الألمانية التي تزوج منها [بيرثا—ايرين]• بادراك كامل بأنها انحدرت

من عرق محب للحـرب كثيراً جداً، لكنها لم تر بينهم، ولم تسمـع عن أحد قط قام بالتفاخر بمثل ماأنجزه في عام واحد.

ثـم دنـت إحدى سفن الاسطول الـروماني من أسـوار كيركيرا، ولم تكن مـن السفـن الكبيرة الحمـولـة، كما أنها لم تكـن مـن السفـن المنخفضـة والطـويلـة، بل كـانت مـن السفن التـي امتلكت ارتفـاعاً كـافياً وعـرضاً مناسبـاً، وكانـت مشحونـة كلياً بالخيـول، ومليئة بـالسلاح، وحملتهـا قوة الريح إلى مكـان خاص من السور، كـانت أكوام الحجارة تغطـي أطراف أرض الشاطـىء هناك، مما جعـل المكان شديد الصعـوبة للوصـول إليه، وفي الحقيقة مخيفـاً، وصب عليها صخـور كل منهـا بحجم عربـة ونشاب وكل شيء كان متوفراً، ولهذا تخلى عنها الذيـن كانوا فيها بسبب ماحدث، وأصابهم رعب عظيم، وزحفوا مرعـوبين تحت ظهر السفينة، وما ان لاحظ الامبراطور هـذا حتى بادر فحمل بـإحدى يديـه ترساً لم يكن مـن الأنواع العادية التي تتخذ لحماية فرد واحـد، لكنه كان من الترسة العراض، التي لم يكن من السهل على الرجل حمله، وأمسـك باليد الأخرى وحرك بمهارة الآلة التي تزود بها بالعادة السفينـة الامبراطورية، واستهدف من ذلك درأ نفسه من الرمايات التي كانـت تأتي من الأسوار، حتى لاتصيبه احداهن، وأسرع نحـو السفينـة، وبعدمـا ربطهـا بـالحبـال، كـان قادراً على جـرهـا وانقاذها من المخاطر.

وروي أن الرجـل الذي كـان معهوداً إليـه من قبـل روجر بتسيير أمـور كيركيرا والـدفاع عنهـا، قـال وقتهـا، وهو يـرى النـاس مـن المدينة وهـم يقومون بقذف الحجارة نحو الامبراطور:

بحق خلاصكـم، توقفوا أيها الجنود عـن رمي أي سهم آخر نحو مثل هذا البطـل، وإذا مالـزم الأمر في تقـديم تسـويغ لهذا، فـأنا نفسي سـوف أتحمل غضب [الملك].

على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك، وكان الأسطول الصقلي عندما اصطدم مع كوروب، هزم معظمه، ولم ينج من المخاطر سوى أربعين سفينة، وصلت إلى بيزنطة، وبعدما حاولوا النزول إلى البر هناك، لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، وعندما بذلوا جهودهم في اشعال النار في المستودعات المنتشرة حول منطقة داماليس [جزء من أوسكودار] عبر القسطنطينية، غادروا المكان والعار يجللهم، وقد فقدوا كثيراً من رجالهم، ثم إن الذين هربوا من المخاطر لم ينجوا تماماً، لأنهم واجهوا سفناً كانت تنقل الخراج العام من كريت، وغدا كثير منهم أسلاباً للقتال.

وتمكن الامبراطور من الاستيلاء على مدينة كيركيرا بوساطة التجويع ووسائل الحصار، ثم انطلق من هناك، وفيما يخص صقلية والأرض الايطالية، وضع الخطط لاستردادهما في المستقبل لصالح الرومان.

٦- واكتشف أنه عندما كان يستعد للحرب في صقلية، عرف الألمان والصرب والهنغار بهذا وانضموا إلى تحالف مع بعضهم بعضاً في سبيل قتال الرومان من الغرب، كما وعرف أن يغي—باسان، الزعيم التركي، قد قرر نهب آسيا بالتعاون مع سلطان قونية، وسارع هنا الامبراطور بنفسه بالتوجه ضد الصرب، وكان متشوقاً لازاحة زعيمهم زوبان الكبير(١١)، الذي كان وقتذاك قد شرع بالنشاط، وأوكل الامبراطور أمر الأسطول كله إلى جون أكسوكوس Axouchos دمستق الجيوش الشرقية والغربية، وأمره أن يقف في أنكونا Ancona (أنكونا جزء من ايطاليا) وأن يتخذها قاعدة ينهب منها ايطاليا، وعلى كل حال، عندما وصل جون إلى نهر فيجوسي Vijose [في ألبانيا] قرر عدم التقدم أكثر، وفعل ذلك إما لأن هذا الدمستق أخفق في مجال الخبرة البحرية، أو أن قادة البنادقة أشاروا عليه بهذا خشية منهم أن يستولي الرومان على ايطاليا، وبذلك يتمركزون بمثابة جيران لبلادهم، وبذلك يستخفون بهم ويقللون من الرغبة بالتحالف معهم، وهكذا فإنه إما لهذا السبب أو ذاك لم ينجز

الدمستق شيئاً مما أمره به الامبراطور، لكن عبثاً أضاع وقته، ولهذا عندما هبت عاصفة مفاجئة (لأن الوقت كان قريباً من الاعتدال الخريفي) فإن كثيراً من السفن التي كانت متروكة ومهملة من قبل الأميرال تحطمت، وفي حين أن السفن التي كانت راسية عند النهر، كان من الممكن سحبها من أحد الطرفين، وتركها واقفة على شاطىء البحر(١٢).

وهاجم الامبراطور بلاد الصرب، وأخضع حصن راسون Rhason، ونهب كل شيء في جواره [١١٤٩](١٣) وبعدما وضع حشداً لايحصى من الناس في فوج الأسرى، تركهم هناك مع العساكر تحت قيادة قسطنطين الـ Sebastohypertatos ، الذي يكنيه الناس أنجيلوس(١٤).

وزاد الامبراطور من تقدمه، واستولى على منطقة نيكافا Nikava، التي كانت من ممتلكات زوبان العظيم، وأخضع جميع بقية الحصون التي كان قد بناها هناك، بدون جهد، ووصل إلى غاليتزا(١٥) Galitza، فوجد البرابرة يثقون بأعدادهم الكبيرة وبوعورة الأرض، ولذلك كانوا على غير استعداد للتخلي عن الحصن الذي كان هناك، وأقام الامبراطور معسكره، وأمر رجاله —دون أن يفقد وقتاً— برمي التحصينات بالسهام والحجارة من العرادات، وهكذا تمكن في اليوم الثالث من الاستيلاء عليه عنوة، فوجد فيه حشداً من البرابرة، عاد جزء منهم إلى طبقة الفرسان، والبقية كانوا من العامة، وقد اقتادهم جميعاً بمثابة أسرى.

وعندما وصل في طريق عودته إلى راسون، بعث بهم لاسكانهم في سارديكا Sardika وفي بقية الأراضي الرومانية، وقد أخبره أنجيلوس أن زوبان كان ينتظر الفرصة بعد انسحابه، ليبدأ بقتال الرومان، ولم يلق مانويل سلاحه، وظل مشغولاً بالحرب، لذلك عاد بأقصى سرعة ممكنة، متشوقاً لمفاجئته، لكن زوبان، ما ان سمع باقتراب

الـرومان، حتـى اندفـع نحو الممـرات الجبليـة، وهرب مـن الخطر بسرعـة هـائلة، ودخـل الامبراطـور إلى المنطقة، وقـام في غياب مـن يـدافع عنهـا بنهبها، وفي أثنـاء عبوره ألقـى النار في أمـاكن الاستقـرار التي أقـامها على حذه زوبان العظيم من أجل بناء قصر له، وأحرقها.

٧- ومـا ان حـلّ الشتـاء القـاسي [١١٤٩-١١٥٠] ولأن الحرارة الجسديـة تتمركز في المخلوقـات الحية حول القلـب، وفي كثير من الحالات يهاجم الجرح الأطراف، رأى مانـويل أنه بات من المناسـب التفكير بأخذ الطريق إلى بيـزنطة، وقام في السنة التـالية [١١٥٠]، عندما بـات الفصل هو فصـل الخريف، في ذلـك الوقـت الذي تغـدو فيه الطـرقات في بـلاد الصرب بشكل خاص في متناول العـدو، ولأن الاخضرار قد غادر الأشجار آنذاك، قام بحشـد جيش في نيسوز Naissos ، وعندما عرف هناك أن قـواتاً أرسلـت مـن هنغاريـا إلى الصرب، تنفيـذاً للتحالـف، أسرع في قيـادة جيشـه خلال المنطقـة المعـروفـة بـاسم لـونغـوميروس(١٦) -Lon gomeros وذلـك بهدف تمكين الجيـش الرومـاني مـن الاشتبـاك مـع الهنغـاريين، الذيـن كانـوا يزحفـون على اليمين، ولـدى وصولـه إلى سافـا Sava عبر مـن هنـاك إلى نهر آخـر اسمـه درينـا Drina الموجـودة ينابيعه في مناطـق أعلى بعض الشيء، وهو الذي يفصل البوسنـة عن بقية بلاد الصرب، والبـوسنة نفسها غيرخـاضعة لصرب زوبان العظيـم، لكنها قبيلة قائمة بذاتها، وتحكم بشكل منفصل.

وسأبين على الفور لماذا اصطدم الهنغار بالرومان:

كان بين الصرب شخص بـارز، لا أعرف اسمه، وكان أخـوه هو بيلوس Belus ، وكانا معـاً بارزين بين الصرب، وكان هذا الشخـص متزوجاً مـن أخت زوبـان العظيم، لكـن لما حدث أن أصيـب في إحدى عينيـه، بطريقة أنـا غير قادر على حكايتها، سـافر إلى هنغاريا، وبعـد امضائه وقتاً

طويلاً هناك بات عالي المكانة عند الملك غيزا(١٧) Geza بشكل خاص، ذلك انه أسهم في تربيته وتعليمه منذ الطفولة.

وبسبب هذه العلاقات الطيبة، سعى إلى جعل بلاد الصرب خاضعة بالتحالف إلى غيزا، وقد عرض هذا الأمر وناقشه في كل مناسبة ممكنة، وبذلك استطاع اقناع الرجل، بوساطة الطلبات الملحة، وبناء عليه عندما سمع غيزا أن الرومان كانوا يهاجمون بلاد الصرب، بعث بقوات من عنده تنفيذاً لتحالفه مع الصرب، وكانت هذه هي المناسبة التي جعلت الرومان يبدون مشاعر سيئة نحو الهنغار.

وبينما كان الجيش الروماني يتقدم، اصطدم الرومان الذين كانوا يتجولون لجمع المؤن، بالهنغار، وهم على الطريق نحو هدفهم، وجاؤوا وجهاً لوجه معهم، وما ان وصلت الأخبار عن هذا إلى الامبراطور، حتى بادر بارسال جون [كومينوس] (١٨) البروتوسيباستوس، وأرفقه بقوة لمساعدته، وما ان وقع الاشتباك حتى انهزم الهنغار من قبل الرومان، وفروا إلى أن وصلوا مجرى نهر ستريمون(١٩) Strymon [كذا] فتخلوا عن أثقالهم وجدّوا فارين بدون توقف، لكن الرومان تابعوا اللحاق بظهور الفارين إلى أن وصلوا إلى نهر تارا(٢٠) Tara ، وعندما لم يعد الرومان يلاحظون وجود من يقاومهم، فكروا بالعودة، وأقام الامبراطور معسكراً في وسط الطريق المؤدي إلى سيتزينيتزا(٢١) Setzenitza ، ولم يكن قادراً على معرفة مكان وجود زوبان العظيم، ولهذا مكث بعض الوقت متوجساً، وعندما سمع من الأسرى الصرب أن قواتهم كانت تنتظر وصول الحلفاء الهنغار، الذين دنا وقت وصولهم، حرك جيشه نحو الأمام، ولم يظهر أي خصم أمام الرومان من أي اتجاه حتى وصلوا إلى نهر تارا.

وعندما وصلوا إلى هناك، وبينما كانت الشمس ماتزال تمر بالأفق الغربي، رؤي حشد من الصرب شاكي السلاح، واستولى على الرومان

التعب والرعب، فعادوا لاخبار الامبراطور بها رأوه، وحكم الامبراطور بشكل صحيح أن القوة المشاهدة كانت قوة الهنغار المتوقع وصولهم إلى الصرب، وعلى الفور أعلم كشافة كوروب بها كان يتوقعه قائلاً: «ينوي الصرب الآن الانقضاض بشكل مفاجىء على الرومان» لأنهم كانوا معسكرين غير بعيد عن هاهنا، وبها أن الليل بادر إلى السقوط، فقد وضع خطة هي كمايلي:

لقد كان من عادة الرومان أثناء ذهابهم إلى الحرب، إذا ما أراد الجيش أن يتخذ موقفاً في أحد الأماكن، أن ينفخ بالبوق في أواخر النهار، وكان صوت البوق بالنسبة للحشود اشارة تعني أن عليهم منذ تلك الساعة البقاء في تلك البقعة، وبناءً عليه ولكي يتمكن من خداع الذين يعرفون العادة الرومانية، أمر بالنفخ بالبوق فوراً، غير أنه أفشى بشكل سري إلى القادة على انفراد بها كان قد خطط له: عندما تشرق الشمس، على كل واحد منهم أن ينتقي من الوحدة التي تحت قيادته كل من كان كامل التسليح، وأهلاً لأن يكون بين عناصر قوات النخبة، وأن يقف هؤلاء بكل هدوء بانتظار الأوامر منه، وخشية منه أن يتمّ كشفهم، أمر بلف الأسلحة بقطع من الأقمشة الرخيصة.

٨- وهكذا فعلوا، وعندما اقترب النهار، غادروهم برفقة المعسكر، وكأنهم ذاهبون لجمع المؤن، ولهذا الغرض أمر بعض الرجال المجردين تماماً من السلاح أن يسيروا في الطليعة ومعهم الكلاليب والمذاري، التي اعتاد أن يستخدمها الذين يجمعون المؤن للجيش في البحث عن الأطعمة في مخازن ماتحت الأرض، وأمرهم أنهم عندما يرون العدو زاحفاً ضدهم، أن يفروا حتى يلتحقوا بالرومان القادمين من خلفهم، وبذلك يكونوا آمنين، ومن أجل وصول المعلومات حول ماكان يحدث بالسرعة المتوجبة إلى القادة، أمر قائدين أن يمضيا في المقدمة، وأن يتبعهما على مسافة قريبة أربعة، ثم من بعدهم ستة، وإثر ذلك عشرة، وبعدها عدد

أكبر، وأمر بعدها بمركـزة فرقة أخرى من النبالة، وأمرهـا بمحاربة الأعداء مـن جـانـب آخـر، وتـوجب انـه إذا مـابـدأ الصرب بـالقتـال، أن تقـوم الوحـدات الأقل عدداً بـالفرار، لكـن إذا لم يهاجمها أحد، عليهـا أن تلتزم بالوقـوف هادئة أمام المعسكر، وفعل هـذا بغية أنه في الوقـت الذي يبقى هـو فيه مـع القوة الأخـرى، سيتمكنون مـن الحاق الهزيمة بـالصرب أولاً، وبـالوقـت نفسه مـن الممكـن قتل المهـزومين بـوساطـة القوات الخفيفـة التسليح.

وهكـذا زحفـوا نحـو الأمـام، وقبـل أن يبتعـدوا كثيراً، وصـل بعـض الكشـافة يـركضون نحـو الامبراطور، وهـم يولـولون بصـوت مرتفـع، وفي الحقيقة كـانت وجوههـم مصفرة من الرعـب تمام الاصفرار، وقالـوا هناك جيش لايعد ولايحصى واقف ومعبأ على الطـرف الآخر من النهر، ولم يكن جيشاً محلياً، بل فيه قوات لاتعد ولاتحصـى من الحلفاء من فرسان الهنغار وكذلك كـان بينهم قوة من الهراطقـة الـ «الخاليسونيين Chalisioi » [الخزر اليهـود]، لأنه في الـوقت الـذي كـان فيه الهنغـار يبجلون العقيـدة المسيحية، كانـوا يتبعون الشرائع الموسوية، حتى وإن كـانت هذه الشرائع ليسـت جميعها نقيـة، وقـال الكشـافة: إن هـؤلاء سيقـاتلـون إلى جانـب الصرب ومعهم البشناق، وعندما سمـع الامبراطور بهذا، احتاط خشية أن يتم تطـويق الرومـان الذين سـاروا في الطليعة، ومن ثـم قهرهم بـالقوات المتفوقـة عددياً، لهذا سار وهـو شديد الانـدفاع، وحثهم على اتباع حـامل الراية، وبما أن ذلـك الشخص اضطر إلى السير ببطء، لأن فرسـه قد أعياه الزحـف، فقد تناول الامبراطـور نفسه الراية منـه وتابع الطـراد إلى الأمام، ولدى وصـوله إلى نقطة بـارزة هناك، جعل العـدو يعرف من هـو ويعرف الراية.

وفي الوقـت نفسه وقف الرمـاة الذين وصلـوا إلى النهر وجهاً لوجـه مع الصرب، وبما أن أياً من الفـريقين لم يبدأ القتال، وقفوا هـادئين بلا حراك

تقريباً، وعنـدما ظهر العلم الامبراطوري ورآه الصرب، قامـوا بالتخلي عن الجسر، وبذلـك أعطوا الرومـان الفرصة مـن أجل التناوش، ولـدى ابصار الامبراطـور هذا (لأنـه وقـف —كما ذكرنـا— فوق مكـان مـرتفع بعـض الشيء، يراقب ما كان يحدث) تقدم ليعبر الجسر بنفسه معهم، لأنه —كما ذكـرت مراراً مـن قبـل— كان يتحـرك دوماً في المعـركـة على شكل فـوق الطاقة البشرية، لابل حتى أعلى بكثير من مجرد الشجاعة.

ومـع أن الذيـن تبعوه تـألفـوا من عـدد قليـل من الجنـد، فقد هـرب الصرب حتـى وصلوا إلى أرض وعـرة، وانعطفوا مـن هنـاك، واقتربوا مـن الرومان، وعنـدما اشتبك الطرفان بـالقتال، سقط قليل مـن كلا الطرفين، ولـدى معرفـة الصرب بـوجود الامبراطـور هـربوا مجدداً، وتـابـع الرومـان مطاردتهم فقتلوا عـدداً كبيراً من الهنغار ومن الصرب أنفسهـم، وسقط في ذلك الوقـت في أيدي الرومان غـرديشا Grdesa وفلسين[٢٣] Vlcin، وكـان مـن أبـرز الشخصيـات بين الصرب، وبـالنسبـة للبقيـة، فقـد رأى الامبراطور أنه من المهم جداً أن يصب عليـه دروعه، وعندما أضاع بعض الوقت في هذا السبيـل (لأن الذين كانوا يحملون الـدروع لم يكونوا قريبين منـه) كـان بعـض القـادة الـرومـان، وكـان مـن بينهـم غيفـاردوس Gi-phardos وميخائيل الذي كنيته براناس، بين آخـرين كثر من القادرين على العمل على انفـراد، وبارعين في القيـادة، كانوا قـد وصلوا إلى أمـاكن مستعصية وكثيفـة الانحدار على طريق المطـاردة، وكانوا في وضـع يائس، لأنهم زحفوا نحو خطـر واضح، وحيث أن الصرب قد تصـوروا أنهم باتوا بعيدين جداً عن الرومان الآخرين انعطفوا ووقفوا مواجهين لهم.

٩- وفيما الرومان في هذه المآزق، كان الامبراطـور قد أكمل لبس لأمته، فقام باللحاق بهم بسرعـة كاملة، وعندما وصل إليهم وجـدهم قد تجمعوا ووقفوا إلى جـانب بعضهـم بعضاً في بقعـة منفردة، فتـوجه إليهـم باللـوم والتوبيخ بكـل حدة وبشكل علني، وأهـانهم بأن وجّه إليهم تهمـة الجبن

وجهل التكتيكات العسكرية، وعندما أومأوا إلى طبيعة الموقع وكثافة الثلوج، ركب بذاته الطريق بعد اختياره له، وأمرهم باتباعه، وفي تلك الأثناء وصل حشد من الرومان وانضموا إليهم، وفيما هم سائرون على طريقهم، خرج عليهم كمين للعدو كان مختبئاً، وقاتل الرومان من على الطرف الأيسر، ونظراً لادراك الامبراطور أن حجم الكمين كان صغيراً جداً، ارتأى عدم وجود حاجة للدوران والعودة، واستمر بالمطاردة دون راحة بغية إلقاء القبض إما على زوبان الكبير نفسه، أو على الذي تولى ذلك اليوم القيادة بين الهنغار، أو على واحد ممن شهر بالشجاعة، وبما أن الذين كانوا في الكمين لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، فقد تملصوا وابتعدوا من جديد.

وبعدما استأنف المطاردة لمسافة قصيرة، لاحظ الامبراطور أن أتباعه كانوا في مأزق حاد، فقام بتخليصهم، مستعيناً باثنين من أقربائه، كان أحدهما جون دوكاس(٢٤)، وكان اسم الآخر أيضاً جون ويحمل كنية كانتاكوزينوس Kantakouzenos الذي كان متزوجاً من [ماريا] ابنة أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل](٢٥)، فقد زحف معهما ضد الأعداء، الذين عرفوه من خلال لأمته (لأنها كانت مزينة بالذهب)، وعرفوه بسموه وبرشاقة جسده وبقوامه الذي لانظير له (كان في الحقيقة يشبه الأبطال [القدماء] وذلك بقدر ما كان متميزاً بفروسية لاشبه لها أبداً، وبقدرته على التعامل مع السلاح واستخدامه بكلتا يديه)، ولم يكن عاراً بالنسبة لهم ادارة ظهورهم فراراً، وفيما هو يقاتل ضد الفارين، روي أنه ألقى أرضاً بخمسة عشر واحداً من الأعداء بطعنة واحدة برمحه، ولأنهم سيقوا إلى حالة من الفوضى والاضطراب ضرب أحدهم الآخر لدى اختلال الصفوف، وبعدما رمى على الأرض بأربعين منهم ساق البقية وطاردهم، وأعمل الطعن والضرب باستمرار في الهاربين، مستخدماً السيف والرمح معاً.

ثم حدث شيء هو كما يلي:

كان واحداً ممن طعنه برمحه من قبل (لم تكن طعنته مميتة) قد استرد وعيه بعد سقوطه، ونظراً لاعتقاده أنه قد انتهى أمره، تحامل على نفسه وخرج من بين الجرحى، وعندما شاهد الامبراطور يقترب، سحب سيفه واندفع نحوه ليطعنه، لكن الامبراطور لبطه بقدمه على صدره، فألقاه أرضاً، وتجاوزه بعدما لاحظ أنه مصاب بجرح مرئي حول إحدى عينيه.

وفي تلك الأثناء شعر مانويل أن الإعياء لحق بحصانه بسبب ثقل السلاح، ومع هذا لم يرغب بالعودة، فأمر كانتاكوزينوس Kan-takouzenos (صدف أن كان وحده من بين رجال الامبراطور مثابراً إلى جانبه) بالتقدم نحو الأمام والاشتباك مع البرابرة، ذلك أنه بوساطة انشغاله معه، سيكون من الممكن له الايقاع بهم، ولقد نجح في مقصده هذا، فعندما اقترب جون [كانتاكوزينوس] بسرعة من الأعداء ضرب باكشينوس Bakchinos [باغين Bagin] (٢٦) على ظهره، وكان متشوقاً لتمرير الرمح فيه، ومع ذلك هو لم ينجح لأن الدرع قاومه، واستدار هذا الرجل فرأى أنه مطارد من قبل رجلين، لأننا —كما أسلفنا القول— كان جون الآخر مصاحباً للامبراطور، فجمع سبعة من أتباعه واشتبك مع كانتاكوزينوس، وصار القتال يداً بيد، وفي هذه الآونة عندما كان واحداً من البرابرة قادماً من أحد الاتجاهات، وآخر قادماً من اتجاه آخر، بات كانتاكوزينوس في خطر عظيم، ولولا أن الامبراطور ظهر إلى جانبه، وأنقذه من الخطر، أظن أن الرجل، ماكان لينجو من أن يصبح ضحية لسيف البرابرة، كما أن الامبراطور نفسه لم يكن بعيداً بالمرة عن المخاطر، لأنه عندما لاحظ أنه إذا ماتصدى للسبعة الذين كانوا يطوقون جون، سيكون بإمكان الآخرين الذين يصل عددهم إلى ثلاثمائة القتال على الجانبين، لذلك قرر ان عليه الاشتباك مع القوة الرئيسية أولاً، وعندما تخلى هؤلاء عن القتال وهربوا، بات من المتصور أن الذين كانوا يطوقون

جون سيقومـون أيضاً بالانسحاب، فقـام بغمز حصانه، وانـدفع فكان في وسطهم، وعزم على طعـن واحد منهم برمحه، غير أنه لم يصبه، لأنـه عندما استدار البربري على ظهـر حصانه، مرّ الـرمح إلى طرفه دون أن يصبـه، ثم اشتبك معه يداً بيد.

ولدى مـلاحظة بـاكشينوس هـذا قام بنفسـه ومعه أتبـاعه بترك جـون هناك، وحملوا بكل سرعـة على الامبراطور، وكانت الحادثة محشوة بـالرعب، وقام الامبراطور بإلقاء رمحه والتخلي عنه، وجـرد السيف الذي كان يحمله، وشرع يضرب ويتلقى الضربـات وهو يدور حولهم وبينهـم، وإلى أن تفرق البقية، تطـورت نتيجة المعـركة وتمحورت حـوله نفسـه وحول بـاكشينوس الذي كـان مشهوراً بشجاعتـه، ويمتلك بنية بدنيـة هائلة، وبعـد اشتباك طويـل، وجّه باكشينـوس ضربة أوصلـت سيفه إلى فك الامبراطـور، ومع هذا لم يستطـع قطع واقية [سلسلـة اللأمة] التـي تدلت مـن الخوذة فوق العينين، وكانـت الضربة —على كـل حال— مـن القوة بما يكفـي لجعل الحلقـات الموضـوعـة فـوق الجلـد تضغـط بعمـق عليـه، وبعـدمـا حـرم الامبراطور البربري من إحدى يديه بوسـاطة سيفه، سلمه بسرعة إلى قريبه [جون كـانتاكـوزينوس]، وفي الـوقت الذي كـان فيه عـديم الصبر يـريد مهاجمة العـدو ثانيـة، بذل كـل من جـون والبربري بـاكشينوس جهـدهما لايقافـه عن الحملة، لأن هـذا الأخير كان قد أعلن عـن طاعته، وتظـاهر بـالصـداقـة، فعنـدمـا كشـف عـن شعـر رأسـه، أعطـى بـذلـك شـارة [استسلامه] للغوغاء الـذين كانوا قادمين للقاء به، وحرم كـانتاكوزينوس في هـذا الصراع مـن اصبعين مـن إحـدى يديـه، وعـاد الامبراطـور نحـو المعسكر، وهو يـدفع أمامه حـوالي أربعين أسيراً من الأعداء، وتذكـر هناك الرجـل الذي رماه أرضـاً وخلّفه وراءه، وذلك بعدمـا حفظ العلامـة فوق عينه، وطلـب البحث عنـه في المعسكر، ذاكـراً علامتـه الفارقـة، وبذلـك وقف عليه، وعرف الرجل المهزوم، وعُرف من قبله.

ووصل قبل مضي وقت طويل إلى المعسكر رسول من عند زوبان العظيم، هو [بيرفوسلاف أوروش الثاني Pervoslav Uros] يطلب العفو عن جميع ماقترفه من أعمال، وبناء على طلب من الامبراطور جاء الرجل بعد وقت قصير، وقدم نفسه بمشابة تائب متواضع، وقبل الامبراطور توبته، وعفا عن ذنوبه، وبعدما نهض [زوبان العظيم] قليلاً، وارتفع عن سطح الأرض، وذلك بعدما رمى بنفسه على قدمي الامبراطور، تعهد بالأيمان بما وافق عليه، وأعلن أمام العالم أجمع أنه سيكون خاضعاً للرومان، وإذا ماأراد [مانويل] القيام بحملة في الغرب، وافق على أن يلتحق به ومعه ألفين من رجاله، أما بالنسبة للقتال في آسيا فلسوف يبعث بمائتين من الرجال وذلك بالاضافة إلى الثلاثمائة التي اعتاد من قبل على ارسالهم.

أما وقد نجح في هذه الأشياء، فقد عاد الامبراطور إلى القسطنطينية، وعاد في الوقت نفسه الاسطول الذي لم ينجز شيئاً في ايطاليا، إلى بيزنطة، وحافظ الصرب إثر هذا على خضوعهم للرومان، وبعد مضي عدة سنوات، وبعدما طردوا من الملك أوروش الثالث، قاموا بدون رضا من الامبراطور بمنح الملك لواحد من اخوانه، وكان واضحاً أن الامبراطور سيغضب منهم لما حدث، وخشية منهم أن يقوم باستدعاء كل من ديسا Desa وأوروش إلى حضرته، قائلاً بوجوب اطاعتهم لمن سيعينه عليهم، حاولوا ايجاد حل للقضية بأنفسهم، فأخفقوا، ثم كان أن عاد أوروش إلى منصبه ثانية، كمنحة له من الامبراطور لكن هذا حدث بعد مضي بعض الوقت [حوالي١١٥٥].

١٠ - وزحف الامبراطور على هنغاريا، عاداً تحالفهم السالف الذكر مع الصرب، حجة لاعلان الحرب عليهم، ولم يفاجئهم بالقتال، لكنه راسلهم أولا مبينا لهم سوء تصرفهم نحوه، وحذرهم من الهجوم الروماني الوشيك، وعندما وصل إلى شاطىء الدانوب [خريف١١٥١] لم تكن

السفن التـي تمّ اعدادهـا في بيزنطة قد تـوفرت وحضرت أمامـه، وخشية منه أن تذهـب الفرصة التي تهيـأت سدى، وبحثاً منه عـن شيء يفيد في مثـل هـذه الحالات ويسـاعـد على النجاح، أمـر بصـف قـوارب جـذوع الأشجار التـي كانت ملقـاة على الشاطـىء هناك، وأسرع نحو الشـاطـىء الآخر لنهر [السافا Sava] ، حيث قام بجر فـرسه بمقوده ولجامه، وبعـدما عبر الجيـش الـروماني على هـذه الشاكلـة، وضـع هنغاريـا تحت قدميه، وبينما كـان هذا الجيش يتقدم نهب بدون رحمة كـل شيء عثر عليه في طريقه.

وكان يـوجد على إحـدى ضفتي النهـر هناك قلعـة اسمها زيـوغمينون Zeugminon [أو زيوغمي—زيوم الحالية]، وكانت مجهزة بأسوار قويـة وبدفـاعات أخرى، ولما وجـد استحالة الاستيـلاء عليها فـوراً، ترك هناك ختنه ثيـودور باتاتزس مع جيـش، وقام باجتياح جميـع القرى هناك، وحمل تقريباً كل من كان فيهـا أسرى، ووقتها جاء جيش هنغاري لمواجهة الرومان، ولدى ادراك هذا الجيـش أنه كان يحاول المستحيلات، ذهب إلى الامبراطور، وإثـر ذلك تدبـر الأمر وحمل كـل شيء دون تدخل مـن أحد، وبعد هذا بات مـن الممكن رؤية أجيال بكاملها تزحف مـأسورة مع أمم تتحرك مهـاجرة، وفـرغت الجزيرة بكـاملها [كذا]، وأعنـي بذلـك الجزيرة التي يشكلهـا كل من نهري الـدانوب والسافا، فـأثناء تدفقهما وجـريانهما مـن الألب إلى هنغـاريا ينفصـلان عن بعضهما في الأعـالي، وبعد عمليـة دوران كبيرة يجتمعان معاً ثانيـة، لقد فرغت هذه الجزيرة مـن سكانها، ثم قام الرومـان بتمزيق المساكن الملكية، وهـو أمر جدير بالتـدوين بين أعظم انجازات الرومان ونجاحاتهم.

ونجـح الامبراطور في هـذا، وإثـره عـاد إلى زيوغمنـون، حيـث —كما ذكرنا— كـان قد ترك باتاتـزس الذي حافظ على الحصـار، غير أن الذين كانـوا يديـرونها من الـداخل بـإحكام حـافظوا عليهـا وظلوا متملكين لها

ماداموا يأملون بأن الملك سيصل إلى عونهم بعد وقت قصير، لكن بما أنه لم يرد في الأخبار حديث عن وجوده في أي مكان قريب، وكان الرومان على أهبة الهجوم على الأسوار، ولكراهيتهم البقاء تحت المخاطر، فقد سألوا الامبراطور عما إذا كان يمكنهم تسليم القلعة إليه، بشرط مغادرتهم لها وأجسادهم سليمة حرة، وعندما رفض هذا ربطوا رقابهم بحبال، وجاؤوا كاشفين عن رؤوسهم، وبذلك أخضعوا أنفسهم إلى الامبراطور بكل خنوع، ومنع الامبراطور الرومان من التعرض لأي منهم بالقتل، غير أنه نهب القلعة وكانت مشحونة بمؤن لاتعدّ ولاتحصى.

١١- وبعدما حقق الرومان هذا، بادروا إلى جواز السافا، وهم يقودون أجيالاً من الهنغار أسرى، وكان عددهم أكبر بكثير من تعداد جيشهم، لكنهم ماكادوا يعبرون حتى وصلتهم أخبار قالت بأن ملك الهنغار، قد نجح للتو في إنهاء حرب في غاليشيا Galicia ، التي كانت مقاطعة روسية، وهو قادم بسرعة عظيمة لمواجهة الرومان، وتحت امرته قوات عظيمة.

وإنه بشكل خاص بسبب حربه لغاليشيا كان الامبراطور يعاقبه، لأنه [غيزا] قام نكاية بمانويل بمحاربة فلادميركو (لأن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على أمير غاليشيا) الذي كان حليفاً للرومان(٢٧).

ولدى سماع الامبراطور بهذا أمر بقية الجيش، والذين كانوا في قطار الأثقال وحشود الأسرى التي كانت فوق الحصر، والتي كانت قد عبرت النهر، بالبقاء على الطرف الآخر من النهر، وبعدما أخذ النخبة من جيشه، بادر نحو الاصطدام به [غيزا]وسعى إلى ذلك بأعظم سرعة ممكنة، ومع أن القادة عارضوا خططه بكل قوة، فقد أوضح مانويل لهم أن الهجوم على قطيع من الماشية هو عمل الذئاب وليس الأسود، لكن عندما يظهر الرعاة أو الكلاب من أي مكان لايشعرون بالعار إذا مافروا،

ويعنون بذلك فقط أنهم نادراً ماكانوا قادرين بكل صعوبة على الحفاظ على فريستهم.

ثم كان أن حدث أمر، إذا ماكان قد بدا له لدى اختياره له صحيحاً، فأنا لاأوافق عليه، لكن إذا كان الاختيار قد تمّ بناء على تبصر أو بعد نظر حتى يبذل الرومان غاية جهدهم ليكونوا على درجة عالية من الشجاعة، فأنا أرى في ذلك مثلاً رائعاً من أمثلة الابداع العسكري، ذلك أنه عندما كان يعد العدة للانطلاق من السافا إلى مواجهة الهنغار، وجه الأوامر إلى الشخص الذي عهد إليه بقيادة الأسطول بالبقاء راسياً مع سفنه على الطرف الآخر من النهر، حتى إذا ماجاء أي واحد من الرومان طالباً الالتجاء، إلى الضفة الأخرى من النهر ونقله إليها، عليه أن يتظاهر بعدم رؤية ذلك الشخص، وقال: «إذا ماجئت أنا نفسي الامبراطور إلى هناك ورغبت إليك بشيء يتعدى الأوامر الحالية، عليك أن ترفض ذلك، وإذا لم تفعل هذا لن تنجو من عقابي المباشر»، وهكذا أعدّ الأمور، فاتحاً بذلك باب الشجاعة —كما أعتقد— لجنوده، وذلك حسبما ذكرت من قبل، لأنه عندما تنعدم الفائدة من الخوف، يبات من الضروري أن يكون الانسان شجاعاً حقاً.

وفيما هو على نية الانطلاق، جاء إليه واحد من الأسرى الرومان، ملتجئاً إليه بعد فراره من عند الهنغار، وأخبره أن ملك الهنغار قريب الوصول، وعندما سمع الامبراطور هذا، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، خشية أن تصل القوات الهنغارية فوراً، وأن تبدو وكأنها تقاتل الفارين الرومان، لذلك عبأ قواته ونظم صفوفها، وانسحب، وبما أن ملك الهنغار —على كل حال— لم يكن هو الواصل، بل بيلوش `Belus الذي شغل أعلى مرتبة بينهم (دعا الهنغار هذه المرتبة باسم«بان»)(٢٨) وكان قد دنا وصوله، أسرع مانويل نحوه، ونظراً لحلول الظلام، ترجل من على ظهر حصانه ونام بسلاحه، فوق ترسه المقلوب، وأمضى الجيش كله الليل على

هذه الحال نفسها، وفي اليوم التالي علم بيلوش باقتراب الامبراطور، فقام بالمغادرة ومعه قواته كلها، بعدما فبرك بعض الأعذار الواهية، وبذل بيلوش غاية جهده لتعليل فراره، فأعلن أنه مأمور من قبل الملك بالتحول عن الطريق المرسوم، والذهاب إلى مدينة برانيتشيفو Bra-nitshevo وبذلك يتمكن من محاربة الرومان بشكل أفضل هناك.

وتمنع الامبراطور عن مطاردته، وعبر نهر [السافا] وتوجه إلى برانيتشيفو، وعسكر هناك، وبعد مضي بعض الوقت عزم على نهب جزء آخر من هنغاريا، حيث الجبال التي يطلق عليها المحليون اسم تيميسس(٢٩) Temises فبعث بالقائد بوريس Boris مع جيش، وبوريس هذا نفسه قيل إنه جاء من الأبوين نفسيهما مثل غيزا، ولكن بسبب بعض الخصومات التي وقعت منذ زمن طويل مضى، جاء إلى عند الامبراطور جون ملتجئاً(٣٠)، وقدم له جون مايكفي من التشريف، ووحده معه عن طريق القران بزوجة من أسرته الخاصة، وعندما وصل بوريس هذا إلى المنطقة، قام بالاغارة على البلدات هناك، التي كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السكان، وكانت مثقلة بكل نوع من الأشياء الثمينة، ثم إنه اصطدم بثلاث فرق هنغارية، وأوقع هزيمة قاسية بهؤلاء الذين تصوروا أن الامبراطور كان موجوداً، ولدى انسحابه، عاد إلى المعسكر الروماني محملاً بالأسلاب من هناك، وبعدما عرف الملك أن بوريس هو الذي صنع هذه الأفاعيل المرعبة في هنغاريا، قام بملاحقته، متشوقاً إلى قتاله، ومع ذلك لم يتمكن من الالتقاء ببوريس، الذي كان قد عبر الدانوب ليلاً، معتمداً ضوء المشاعل، التي كان الامبراطور قد أشعلها له بأعداد كبيرة من المعسكر، ثم إن اثنين من أفراد فرقة الرجالة، اللذين خلفا على الضفة الأخرى، اختبئا هناك تحت الأحراش، بعد وصول الهنغار، ونجحا بالنجاة.

ومكث الامبراطور بعد هذا النجاح هناك ليقوي بقدر الامكان المدن

الباريسترينية Paristrian [القائمة على امتداد الدانوب أو «ايستر Ister»]، وكان في نيته عبور الدانوب مجدداً والاصطدام بالملك، الذي كان هو نفسه معسكراً على الدانوب على الضفة المقابلة، ولدى معرفته بهذا، وخوفاً منه فيما يمكن أن يأتي به الحظ، وخشية منه (غيزا) أنه إذا ماهزم هذه المرة، فإن هذا سيورط الباقي من القوات الهنغارية ويقودها إلى الدمار، لهذا كله قام بالاتصال بالامبراطور، وبحث شروط السلام، وإثر هذا وبناء عليه، عاد الامبراطور إلى بيزنطة واحتفل بالنصر، وقدّم للرب شكراً عظيماً.

وفي هذه الآونة، ولد له أول مولود، وكان ابنة رائعة الجمال من الأوغسطه [بيرثا] ايرين، وأطلق عليها اسم ماريا، واحتفي بها بمثابة امبراطورة(٣١).

١٢- وفيما الرومان منشغلين بهذه الأحداث، وصل روجر [الثاني] طاغية صقلية إلى نهاية حياته[١١٥٤]، وكان ابنه وليم [الأول] الذي تسلم الحكم واعياً تمام الوعي وعارفاً بجرائم أبيه ضدّ المملكة الرومانية، فارتأى أن عليه ارسال رسل إلى الامبراطور لتسوية خلافاتها، وبناء عليه جاء رجال، قام كل واحد منهم بالبحث مع دائرة من الدوائر الكنسية، وكانت مقترحات السفارة كما يلي:

لقد وعد بإعادة جميع الأملاك والأشخاص —الذين كما سلف في الرواية— كان روجر قد حملهم [في سنة١١٤٧] بالسفن من يوبويا Eu-boea وطيبة في بلاد الاغريق ومن كورنثا، ووافق على أن يخدم الامبراطور، وأن يكون جاهزاً حيثما أراد(٣٢).

غير أن الامبراطور رفض السفراء، وقام بإعداد اسطول من السفن، حمل عليه جيشاً تحت قيادة قسطنطين الذي كنيته أنجيلوس، والذي هو خاله، وأمره أن يرسو في مكان ما حول لاكونيا Laconia، وأن ينتظر

بقية الاسطول الذي كان وشيك الوصول، وبناء عليه أقلع من بيزنطة ووافته ريح طيبة، لذلك رسا عند رأس لاكونيا، الذي يعرف بشكل عام باسم مونبمباسيا (أي المدخل الوحيد) وذلك صدوراً من شكل المكان.

وعلى كل حال، علم الامبراطور، أن غيزا ملك الهنغار، الذي كان منزعجاً لما حدث من قبل، قد عزم على مهاجمة المدن الباريسترينية بشكل غير متوقع، وبادر الامبراطور مسرعاً ليصل قبل المحاولة [١١٥٢]، وهكذا عاد إلى شواطىء الدانوب بأقصى سرعة ممكنة له، ووقف أمام الجيش الهنغاري الذي كان معسكراً على الطرف الآخر، ولم يرغب أي واحد من الطرفين —لبعض الوقت— بالدخول في المعركة، خاصة وأن الرومان لم تكن سفنهم قد توفرت بعد، وتمكن الرومان بعد مضي عدة أيام من بناء أكبر عدد ممكن من القوارب الخفيفة، اعتماداً على المواد التي كانت متوفرة، وسحبوها إلى النهر، ولاحظ الملك الهنغاري ماكان يحدث، وكما ذكرنا، خشي أن يهزم للمرة الثانية فتدمّر مملكته، لذلك لجأ إلى طريق المفاوضات، وقام بارسال سفراء من عنده طلبوا ألا تعاقب هنغاريا بحرمانها من أكثر من عشرة آلاف شخص، وأن يسترد البقية من حشد الأسرى، وبموجب ذلك أعلن أنه سيبقى صديقاً إلى الرومان طوال حياته، وأنه سينتظم بين حلفائهم إلى الأبد، وبعدما عقد اتفاق السلام طبقاً لهذه الشروط، شرع الجيش الروماني بالعودة من هناك(٣٣).

١٣- هكذا كانت أحوال الأوضاع على الأرض، لكنها انتهت على البحر بالطريق المعاكس بسبب حماقة القائد [١١٥٤]، فقد علم أنجيلوس، أن أسطول وليم كان عائداً من الأراضي المصرية ونهر النيل، مشحوناً بالغنائم والثروات من هناك، فعزم على تحقيق انجاز كبير، ولهذا أقلع نحو البحر بقدر ماأوتي من سرعة، ليلتقي به، وذلك دون أن ينتظر وصول بقية الأسطول من بيزنطة، ومع أن الامبراطور قد اعترض مراراً على هذا، ونصحه بوساطة الرسائل وبين له أنه لاينبغي لقوة صغيرة أن

تدخل في صراع مع قوة أكبر منها بكثير، وأكد أن مامن شيء سيحول بين أنجيلوس نفسه وبين أن يؤسر من قبل البرابرة، وتقع الواقعة، ولايعود من هناك —كما يقول الناس— مخبر [Angelos] يخبر بما حدث، وأصغى أنجيلوس إلى هذا قليلاً، ولذلك دخل في معركة مع الأسطول الصقلي لحظة ظهوره.

واستدار الصقليون في البداية وانسحبوا في نظام جيد، لكنهم عندما أدركوا أن الرومان كانوا في فوضى عظيمة، وأنه من الواضح أن عدد سفنهم أقل عدداً مما لديهم، استداروا مسرعين، وعادوا مندفعين نحوهم، وحدث آنذاك أن الريح التي كانت ساكنة فوق السواري الرومانية، تحركت فجأة إلى زوبعة عاتية، وهنا قامت بقية السفن الرومانية، التي هي تحت امرة أنجيلوس آخر، كان أخاً للأميرال الرئيسي (كان يقود عدداً ضئيلاً من السفن) بالفرار بشكل فوضوي، أما بالنسبة لقسطنطين [أنجيلوس] الذي بقي في وسط الأعداء، فقد وقع في أيديهم، وهكذا نال جزاء حماقته، وبعدما فعلت السنة هذه الأفاعيل المغيرة، انتهت(٣٤).

١٤- وسمع الامبراطور أن الحاكم الهنغاري قد أعلن العصيان مجدداً، (كان لايستطيع تحمل مثل هذه المواجهات العدوانية) لذلك ركب الطريق عائداً إلى الدانوب، وبما أن الطرف الآخر كان مرعوباً لدى اقترابه، لذلك فتح باب المفاوضات حول السلام، وهكذا انتهت حربهما، وأشرقت ابتسامة منافع السلام [١١٥٣](٣٥)، وبعد وقت قصير —على كل حال— عندما هيأ ابن عمه أندرونيكوس مناسبة، قام غيزا مجدداً بمقاتلة الرومان، غير أن هذا حدث فيما بعد.

ففي ذلك الوقت [١١٥٢] أرسل الامبراطور أندرونيكوس هذا إلى كليكية وايزوريا، وذلك بعدما سماه قائداً أعلى للحرب هناك، لأن طوروس الأرمني، وكان رجلاً عالي المكانة، قد وقع في أسر الامبراطور

ـرب، وعندما قام الامبراطور بحملة على الحدود الايزورية [أي الأرمنية] عاد طوروس إلى كليكية هارباً من بيزنطة [حوالي١١٤٥]، وحاول إثر اعلانه العصيان أن يجعل المدن هناك تثور لتتخلص من السلطة الرومانية(٣٦)، ولهذا السبب أرسل الامبراطور أندرونيكوس، وبعث أيضاً بالقيصر [جون روجر] بغية الاقتران عن طريق الزواج بكونستانس، زوجة الأمير ريموند [صاحب انطاكية] الذي كان قد فارق الحياة،بطريقة أنا مقبل على حكايتها:

حاول البرابرة الذين يقطنون في تلك الأحواز احتلال إحدى القلاع بعد حصارها، وهذه القلعة قائمة على مقربة من حلب، وكانت تدفع الجزية إلى الانطاكيين، وقد حاولوا ذلك بعدما علموا بقلة المؤن فيها [١١٤٩]، وكان ريموند متفوقاً بالنشاط العسكري وفعالاً أكثر من أي انسان آخر، لذلك ما ان سمع بذلك حتى بادر على رأس القوات المتوفرة لديه نحو القلعة، ونظراً لانسحاب الأعداء ولعدم انتظارهم له، اكتفى بتزويد القلعة بالمؤن والعتاد، ثم كرّ راجعاً، وكان الوقت عصراً، ولذلك بدا له أن الأفضل هو متابعة السير، لأنه لم يكن هناك مكان قريب، يمكنهم بأمان الترجل والعسكرة فيه، وكان الذين معه قد أصيبوا بالانهاك الشديد بسبب الرحلة، فقد أرادوا العسكرة في أي مكان هناك، وقد أروه مكاناً محاطاً غالبيته بالمستنقعات، وبقيته مغلق بالتلال والشعاب البارزة هناك، ومع أنه كان عنيداً، فقد أعلن، وهو يشير إلى التل، «انه يخشى أن الأعداء إذا ماقاموا بهجوم ليلي، فسيجدون المكان مغلقاً ليس فيه منفذ للخروج لنا، ووقت ذاك سنكون غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا، وسنذبح مثل الشياة المحصورة في حظيرة»، وهنا قام واحد من الذين كانوا معه فألقى متسرعاً نحو الرجل بكلمات قاسية، وأعلن أن هذا التردد مصدره الجبن، وليس الحكمة، وسمح ريموند لغضبه وعناده أن يسيطر عليه فقال: «إنني أعرف أيها السيد النبيل، أننا

إذا مارحلنا من هنا وغادرنا هذا المكان، أنك لن تتوقف مطلقاً عن اتهامنا بهذا، لذلك سوف نعسكر هناك، مادام ذلك يبدو مناسباً لك، لكن انتبه لنفسك، ولاتكن عاجزاً عن التعبير بالأفعال عن الشجاعة التي أعلنتها هنا بدون حاجة إليها، ولاتخف ولاترتعب عندما تنقض الأعداء علينا من المكان الذي قمت أنا بذكره»، وما ان أنهى ريموند كلامه هذا حتى دخل إلى ذلك المكان، الذي كان مناسباً لفصله والاحاطة به كلياً، وبعد مضي قسم طويل من الليل، هاجمهم الأتراك من الاتجاه الذي ذكره وقتلوا خيولهم وقتلوهم هم أنفسهم، دون أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، أو حفظ ذواتهم(٣٧).

إنه في ظلّ هذه الظروف، وضمن هذه المعطيات ذهب القيصر جون إلى انطاكية[١١٥٢]، لكنه لم يحقق شيئاً مما جاء من أجله، (لأنه كان مسناً، ونظرت كونستانس إليه بدون سرور ورغبة) وعاد إلى بيزنطة، وعندما نزل به المرض، حلق شعر رأسه، ولبس اللباس الأسود الذي يرتديه [الرهبان](٣٨).

١٥ - وعندما جاء أندرونيكوس إلى كليكية[١١٥٢]، ووجد طوروس مقيماً في المصيصة، شرع بحصارها ومعه الجيش كله، وكان من الممكن له أن ينجز بسرعة شيئاً مفيداً، وأن يلقي القبض على المتمرد، بسهولة كبيرة، لولا أنه كرّس نفسه وأوقفها على اللهو واللعب في خيمته، وهكذا حبطت شؤون الرومان وهوت، لأن طوروس عندما تعرف إلى عجز أندرونيكوس، ولاحظ التوافه التي شغلته بلا فائدة، انتظر قدوم ليلة ظلماء بدون قمر، فرمى بأجزاء كبيرة من سور المصيصة، وقاد بشكل غير متوقع جميع قواته، وهاجم الرومان الذين كانوا غير مستعدين تماماً، وألحق بهم هزيمة شنعاء، وبعد مضي وقت طويل، علم أندرونيكوس بهذا، (لأنه كما ذكرت مارس اهمالاً كبيراً جداً)، فما كان منه إلاّ أن امتطى ظهر حصانه، وحمل وبيده رمحه، وأظهر أفعالا رائعة وقدرة عظيمة (لأنه

كـان كما ذكرت مـراراً [كذا] متفـوقاً على غيره بـالشجاعـة ولا ندّ لـه في ميدانها) غير أنـه عندمـا وجد نفسـه غير قادر على انجـاز أي شيء، انهزم بصعـوبة كبيرة، ووصـل إلى انطاكيـة، وفي أثناء ذلـك القتال، حـدث أن تعرض ثيـودور كونتـوستيفانـوس، الذي وصـل إلى مرتبـة سيباستيـو Se-bastoi ، لفقدان فـرسه برمية سهـم، وحرمانـه من رأسه بوسـاطة أحد المرتزقـة الرومان، الذي كان يكـن له عداوة قديمـة، لأن ثيودور كان —كما قيل— قـد طرد هـذا الشقي مـن البلاط الامبراطـوري منذ وقـت طويل انقضى بسبب سوء أخلاقه(٣٩).

١٦- لقد كـان هذا مـاوقع في كليكية في ذلـك الوقـت، وعندمـا عاد أنـدرونيكوس مـن انطاكيـة إلى بيزنطـة، لم تتأثـر مكانتـه في القصر، وعلى عكـس ماكـان متـوقعاً تمتـع بحقوق خطـابتـه السالفـة، وقـد قيل، بـأن الامبراطور قد استقبله على انفراد، ووبخه بمرارة، ووجه اللوم إليه لإهماله للشؤون العسكـرية، وأدان تهاونـه وتراخيـه غير المسوغ، وكـان —على كل حال— يبـدي نحوه في العلـن تشريفاً وتقـديراً فـوق الآخريـن، ويتحفه بأعطيـات فخمة، وبالفعـل قام فيها بعد بتعيينـه حاكماً لكل مـن نيسوس وبرانيتشيفـو Branitshevo ، وإضـافة إلى هـذا منحـه كـاستوريــا Kastoria [١١٥٣].

هل كـان أندرونيكـوس يسعى جاهـداً للثورة منـذ البدايـة، وأن ذلك كان حبيسـاً في نفسه؟!، فهذا مـا لاأستطيع تأكيـده، ولكن انطلاقـاً من الساعـة التي وضحـت فيها نـواياه السيئـة سوف أحكـي: عندمـا احتل الامبراطور مانـويل العرش الامبراطوري، أصبح أندرونيكـوس مسؤولاً عن كيف يمكن للرومـان تطويرتسليحهم من أجل المستقبـل، وكانت العادة بالنسبة لهم مـن قبل التسلح بترسة مستديرة، وأن يحمـل معظمهم جعباً، وتقديـر مصير المعركـة بالقسي، وقد علمهـم حمل [ترس] واحـد يصل إلى أقـدامهم، كما وعلمهـم استخـدام الرمـاح الطـويلة، وممـارسـة الفروسيـة

ببراعة، راغباً في جعلهم ينتقلون من الاستعداد لحرب إلى حرب، وغالباً ماعتاد على ممارسة الفروسية، وتطبيق مايشبه المعركة، وذلك بوضع تشكيلة أمام أخرى، والقيام بحملات برماح بدون أسنة، وأقاموا مناورات بالسلاح، وهكذا برع الرومان في حقبة قصيرة في الأسلحة الفرنسية والايطالية، ولم يعش الامبراطور نفسه نائياً عن هذه الصراعات والتدريبات، بل كان يصطف في الصفوف الأولى، يستخدم رمحاً لا قرين له في الطول والحجم، ثم إنه بالاضافة لما قيل ربطت راية ذات طول عظيم إلى رمحه هذا، ونظراً لأنها كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام أطلق عليها بالعادة اسم «أقدام ثمانية»، وقد قيل في الحقيقة انه عندما جاء ريموند إلى بيزنطة اندهش وظن أن في المسألة خدعة ما، علماً بأن ريموند هذا كان رجلاً يشبه هرقل الأسطوري، ولذلك اقترب من الامبراطور وسأل أن يرى الرمح نفسه والترس، ولدى حمله لهما، أدرك الحقيقة، وأعلن عن دهشته لما اكتشفه.

١٧- وعندما كان الامبراطور مرة مشغولاً في هذه الصراعات [الوهمية] في هرقلية السالفة في منطقة مسينا [بيلاغونيا —بيتولا الحالية](٤٠) أصيب جون بن أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل] مباشرة بجرح في إحدى عينيه، وذلك بطعنة من رمح ايطالي، وكان شاباً وسيماً ورشيقاً، وقام مانويل بترقيته إلى Protovestiarios ، ثم رفعه إلى رتبة الـ Protosebastoi (٤١) ، وقيل أثر هذا كثيراً على نفسية أندرونيكوس، فعمل منذ ذلك الحين بلا انقطاع بالتآمر والنشاط الخياني، وعندما كان بعد ذلك في القيادة في كليكية، ربح إلى جانبه ملك فلسطين وسلطان الترك، وبعدما عهد إليه بحكم نيسوس وبرانيتشيفو، كما ذكرنا من قبل، تعهد في رسالة بعث بها إلى الملك الهنغاري، أنه إذا ما أسهم في مساعدته على تنفيذ نيته باغتصاب العرش، سيتنازل في حال نجاحه في أغراضه، عن كل ادعاء بكل من برانيتشيفو ونيسوس، وذلك اعترافاً

بفضله، واحتياطاً منه أنه إذا ما تـمّ كشف هذه الأشياء، ولكـي لايكون موضع شك في المستقبل، قرر التحـول إلى اتجاه آخر، وبناء عليه أفشى إلى الامبراطور عن وجود مـؤامرة خيانية يدبرها بعـض الشخصيات القوية في هنغاريا، فهؤلاء اتصلوا به ليتملكوا عـلاقات صداقة معه، والذي قصده من ذلك أنـه يمكن وضعهم تحت سلطته بكل سهولـة، وكان الامبراطور —على كل حال— على دراية بما يدبر، فقد وصلـت إلى يده الرسالة التي وافـق فيهـا أنـدرونيكـوس على التعهـدات السالفـة الـذكـر مـع الحاكـم الهنغاري، ورغب مانويل في امتحـانه، فسمح له أن يفعل هذا دون تستر، وتصـور أندرونيكـوس مقتنعاً أن كـلّ نوع مـن الريبـة قد زال مـن حولـه بالنسبـة للمستقبل، فبعـث برسـل من عنـده إلى كل مـن ملكي الهنغـار والألمان ليجـذبهما نحوه ليقـدمـا حتى إلى تقـديـم العـون له في اللحظـة المناسبة.

وبعدما دبر أنـدرونيكوس هذا، عاد إلى بيزنطة [١١٥٤] متظـاهراً بأنه أتم ابرام المعاهدة بين الرومـان والهنغار، وظل الامبراطور متمنعاً عن الحاق الأذى به، ولاأدري هل كان سبب هذا حبه لـه وعنايته به (ذلك أنه كان معجباً به إلى أبعـد الحدود، لأنه كان من العمر نفسه مثلـه، وتشارك معه في النشأة والتعليـم، لابل في الحقيقة تـدرب معه على السباق والمصـارعة ورياضات أخرى كثيرة) أو كان في ذهنه شيئاً آخر.

عندما كان أيضاً مرة في هرقلية المسينيـة —والتي يدعوها الرومان الآن باسم بيلاغونيا متبعين بذلـك إحدى اللغات المحلية— ذهب الامبراطور في إحدى رحـلات الصيد الليليـة، حسبما كانـت عادتـه مراراً [١١٥٤]، وبعـث به النبـلاء المشرفون على تـدريباتـه الجسديـة ضد دب، وسلحـوه بكل ماهو محتـاج لمنازلة دب متوحش على الأقدام بوسـاطة الرمح، وروي أنه كـان بالـدرجة الأولى واضعاً على صـدره درعه، وكان بـالوقـت نفسه شاكـي السلاح تمامـاً، محترساً —كما قيل— ضـد مؤامرة يـدبرهـا اسحق

(أخوه) (٤٢) السيباتوكراتور، والـ Stratarchos الأكبر، علماً بأن اسحق لم ينجح بالنهاية في أكثر من الاستيلاء على الأختام الامبراطورية، التي كان الامبراطور يصدق بها عادة على المنح، هذا وهو لم يأخذهم بدون تسويغ، بل أخذهم لسبب، أنا مقبل على قصه:

بينما كان مقيماً في ميلانغيا في موضع اسمه ميتابول Metabole، ألقيت أثناء إحدى الولائم خطب أمام الامبراطور، وفي الوقت الذي أجمع فيه الخطباء على الثناء على أفعال الامبراطور، آثر اسحق مدح أبيه وتفضيل أعماله على أعمال أخيه، وكان الامبراطور مسروراً لما قاله، فقد كان يعجبه أن يكون أدنى من أبيه، وفي الوقت الذي بدت فيه كلمة اسحق مملة بالنسبة للآخرين، لم يقف في خطابه عند هذا الحد، ولئن كان معقولاً التفوه بمثل هذه الأشياء اظهاراً للاخلاص للامبراطور الراحل، وهذا شيء، أعتقد أن كثيراً من الرجال يعرف كيف يقوم به، ثم إن تقديم المديح من قبل الأحياء إلى الذين ليسوا على قيد الحياة، هو بالتأكيد برهان على المشاعر الطيبة نحوهم، غير أن اسحق أضاف إلى هذا أشياء من قوارص الكلام، وتكلم بمشاعر بغيضة نحو الابن، مما أدى إلى نشوب شجار واحتدامه، واندفع أندرونيكوس هذا يشتم السيباتوكراتور، وكان على وشك حرمانه من رأسه، لولا أن الامبراطور مدّ ذراعه، وقام ابن خاله جون دوكاس بادخال السوط الذي يغمز به بالعادة فرسه، تحت السيف الهاوي، فأنقص بذلك من تأثير الضربة وأضعفها وجعلها تصيب حنك أندرونيكوس، وأنقذ بهذه الطريقة، وذكرنا أن الامبراطور مدّ يده فوق أندرونيكوس، ولذلك أصيب، ولم تكن اصابته في الحقيقة اصابة قاتلة، بل جرح قطع اللحم قليلاً، وخلف ندبة على رسغه طوال الحياة، وعلى هذا أطفئت هذه الخصومة التي اشتد أوارها، وأبعده الامبراطور، وطرده من حضرته لبضعة أيام، واستجابة منه لما حكم به جون، فرض عليه غرامة أدنى مما تحدد بالقانون(٤٣).

ودعونا الآن نعود إلى حيث كنا من سياق الخبر.

١٨- وبما أن أنـدرونيكوس كـان يعرف أن الامبراطـور ذاهب في حملـة صيد تستمر طـوال الليل، قام بتسليح عـدد كاف من أتباعـه الايزوريين، الذين تقـدم لهم أن حلفوا له أنهم سيقاتلـون إلى جانبه ضد كـل انسان، وبعدمـا أخذ أسرع فـرس بين خيولـه، ذهب معهـم إلى البقعة المحـددة، ومركـزهم هناك بعيـداً قليلاً في المكان الأكثـر كثافة في الأشجـار، وأوقف فرســه، واقترب من خيمـة الامبراطور وهـو على ظهر بغـل، وهناك تـرجل، وتوجه يجري متقـدماً سيراً على الأقدام بكل هدوء وقد حمل مـدية في يده اليمنـى، وخشيـة منه أن يجري تعقبـه مـن قبـل أي انسان، فقـد ارتـدى معطفاً ايطالياً عوضاً عن معطفه العـادي، ولكن عندما لاحظ أنه شوهد، (لأن الذيـن كانـوا يحيطون بالامبراطـور النائم قد شهـروا سيوفهـم، وكان بينهم ابن اخت الامبراطور جون [الـ Protosebastos] فهو كان أول مـن رأى اقبال أنـدرونيكوس) وأدرك أنـدرونيكوس تماماً ذلك، فجلس فـوق الأرض، وتظاهـر بالقيام بـافراغ مـافي أحشائه، وبعـد وقت قصير انسحب، وبذلك أخفقت هذه المؤامرة هناك.

ولكن بعد مضي بعـض الوقت، جاء مـع مزيد من الايـزوريين، وأقبل في الليـل وهو شـاكي السـلاح لمهـاجمة الامبراطور، وعنـدما رفـع الخبر إلى الامبراطورة [بيرثا—ايرين] من قبل ألكسيوس، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الاستقرار في القصر (يـدعو الرومان هـذا المنصب Protostrator) (٤٤)، ذهب واحد مـن رجال الحرس مباشرة نحو الامبراطـور ليحذره من المؤامرة، ثـم أرسل اسحـق(٤٥) —وكان مـن أصل بـربري، ومحط الثقـة الخاصة والعنايـة من قبل الامبراطور— مع ثلاثمائة رجـل مسلح، لكن لم يكد اسحـق يصل إلى البقعـة حتى كـان الامبراطور قـد علم بمجـريات الأحداث، وبينما كـان البقية قلقين وحائريـن حول أنفسهم (لأنـه حدث أن كان معظمهـم ممتطين البغال) بين أن عليهـم تجنب الطـريق المبـاشر

الذي يقود إلى المعسكر والخيمة الامبراطورية، بل أشار بيده ليسيروا على الطريق غير العادي وغير المطروق، كما وتوجب عليهم عدم السير بشكل معلن، بل على شكل أفراد موزعين، وقال: «بهذه الصورة نبدو وكأننا بعض الأشخاص العائدين من جمع المؤن ومتوجهين نحو الخيم المرئية هناك»، وذهب الامبراطور على هذه الحالة غير هياب إلى خيمته، لكن حدث أن دباً متوحشاً قد اصطدم بجون السالف الذكر (البروتوسيباستوس) وعضه بأنيابه، وما ان علم الامبراطور بهذا حتى عاد نحوه، واتخذ الاجراءات المناسبة للعناية به، ثم غادر،وتصرف بذاته بشكل كريم كبير تجاه هذه القضية إلى حد أنه لم ينتقد أندرونيكوس حتى بنظرة، وتظاهر أندرونيكوس أنه لايعرف شيئاً عن المسألة، واعتنى عناية فائقة بالفرس الذي سلف وذكرته، وكان واضح التحامل بحديثه وآرائه ضد جون، وعندما سأله الامبراطور لماذا يفضل العناية بهذه الفرس قال: «من أجل انني عندما أحرم أشد أعدائي مرارة من رأسه، سوف أهرب عليه وأنجو»، وظهر بذلك وكأنه يشير إلى البروتوسيباستوس [جون]، وأعتقد [مانويل] أن الرجل كان مصاباً بعقله، ولهذا السبب فصله وأبعده عن حاشيته وأتباعه وأودعه السجن في القصر. [حوالي١١٥٥-١١٥٦]»(٤٦).

١٩- وهكذا أزيح من الطريق، لكن بالنسبة للملك الهنغار الذي لم يسمع شيئاً عما حلّ بأندرونيكوس، فقد قام بحشد قوى من التشيك، والساكسون ومن أمم أخرى، وتهيأ لحصار برانيتشيفو [١١٥٥]، وأعتقد أن الذي أثاره وحركه ماكان أندرونيكوس قد وعده به، ولدى سماع الامبراطور بذلك استطار دهشة تجاه ماسمعه، وتساءل حول مصداقية الهنغار، وعن السبب الذي حدا بهم إلى عدم مراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم مؤخراً، وتقرر لديه أن المسألة لابدّ وأن تثير بسرعتها الخوف، لهذا بادر على الفور بالذهاب نحو الدانوب، وإدراكاً منه أن أتباعه لن

يكونـوا مكافئين في القتال للجيش الهنغـاري (لأن القوات الرومانيـة كان كل منها باقياً في منطقته بسبب أن الدولة لم تواجه عدواناً من قبل أحد من أي اتجاه منذ زمن بعيد) قرر أن يعمل كما يلي: كان هناك مكاناً اسمه سميلس(٤٧) Smeles يمتلك خصـائص دفاعية معتبرة، لذلـك قرر الاستيلاء عليه، واتخاذه قاعدة لحملته ضد الهنغار.

ومن أجـل أن يقوم أهـل برانيتشيفـو بالوقـت نفسه بحـراسة مـدينتهم لصالحه، كتـب إليهم رسـالة أخبرهـم فيها أنـه سيصل إليهـم بعد وقـت قصير، وعهد بالرسـالة إلى واحد من جنوده، وأمره أن يـرمي بها إلى المدينة بعد ربطها على سهم، ونفـذ الجندي ماأمر به، غير أن الرميـة ذهبت أبعد مما هـو محتاج، ووقـع السهم في أيـدي الهنغار،فـاستولى عليهـم الانزعـاج ودبـت بين صفوفهـم الفوضـى، فـألقوا النـار في آلات دك الأسوار، وكـل ماكـانوا أعـدوه للحصار، وتـوجهوا نحـو نقطة عبـور الدانـوب، فوجـدوه فائضـاً (ذلك أن عـاصفة قد أوصلـت مياهـه إلى أعلى ارتفاع) فـأسرعوا بالتوجه نحو بلغراد.

وعرف الامبراطور بهذا، وعلـم أن بورج Boric` ، حاكم البـوسنة، وهي منطقة صربية(٤٨) —وكان قد التحـق بحلفاء الحكام الهنغار— قد عـاد إلى أراضيه، فـاختار الجزء الأعظـم شجـاعة بين الجيـش الذي كـان معه، وأرسلـه للاشتبـاك مع بـورج، وقاد هـذا الجيش بـاسيل، الـذي ورد ذكـره من قبـل، والـذي جاء مـن أسرة متواضعـة، لكـن الامبراطور عينـه Chartoularios (٤٩)، وذهب الامبراطور مع بقيـة الجيش، وتبعه لكن على مهـل، وكان بـاسيل، على كـل حـال، ناسيـاً، كما أظن، لماذا أرسلـه الامبراطور وليتحارب مـع من، وفيما هو زاحف بـالسرعة القصوى، اقترب من الجيـش المنغاري، واصطـدم بطلائعه، وردهـا إلى الخلف، ثـم انقض على وسـط القـوة الهنغـاريـة، وخطط لنيـل نجـاح كبير، وقـاتلهـم وهـم مذعـورين ورمى بهم في لجة الفوضـى، وهكذا حقق بسرعة شيئـاً لم يكن

مطلقاً في حسبانه.

ذلك أنـه خيّل للهنغار في البـداية أن الامبراطور، كـان هو الذي يـدير دفة هـذه المعركة، فهـربوا بشكل فوضـوي، وغرق كثير منهم في النهـر من الـذيـن تكاثـروا فـوق القـوارب أثنـاء جـوازه، لكنهم مـا ان لاحظـوا أن الامبراطور من خلفهـم ولم يصل بعد، وأن باسيل هو الـذي يقود الجيش، حتى تشجعـوا، واستداروا، وواقفوا الـرومان، وصحيـح أن الرومان كـانوا أقـل بكثير عدداً مـن الأعداء، مـع ذلك قـاوموهـم، وسقط العـديد مـن القتلى على الطرفين، واستمر الحال كذلك حتى بدأ البلغار —الذين كانوا بخـدمة ستيفـن بن غيـزا(٥١)، وكـانوا حلفـاء مـع الرومـان يقاتلـون إلى جانبهم— بالفرار، وسقط أثناء المطـاردة على الطريق التي تلت عن قرب جميع الهنغـار الذين كانـوا مع ستيفن مـع كثير من الرومان، وأنقـذ آخرون حياتهم بالهرب وكان من بينهم القائد باسيل.

وعنـدما حملـت هذه الأخبـار إلى الامبراطـور، وذلك بـالاضافـة إلى أن سكان بلغـراد كانـوا يفكرون بالثـورة والتخلص من الـرومان، شعـر بقلق عظيـم، فبعث بجـون كـانتـاكوزينـوس Kantakouzenos ليقوم أولاً بالاستقـرار بالمدينة التي اضطـربت بمشاعـر العصيان، وثانياً ليتـولى دفن أجساد القتلى الرومان، وليـدعو البقية من الفرار من حيـث كانوا منتشرين في المنطقة ومختبئين فيهـا، وكان مـانويـل على كل حـال غاضبـاً إلى أبعد الحدود بسبب ماحدث، وكان متحرقاً ومتشـوقاً للحاق بالهنغار، وعندما لم يـوافقه الـرومـان على هـذا قال: «لكـن أيها السـادة، إنـه عار عليّ، وأنـا أناضل في سبيل رفـاه الرومان، أن أتراجع أمام المصـائب»، وعندما سمع أن قوات الهنغار لم تكـن بعيدة عنه، تخلى عن المحاولة، وفي الـوقت نفسه كان كـانتازينوس قـد أكمل الأعمال التي أرسـل من أجلها، وعـاد، ومعه مربوط بـالسلاسل الناس من بلغـراد الذين كانـوا —كما قيل— يحاولون العصيـان، ثم تحرك مـانويـل من هنـاك وأمضـى الشتاء على مقـربة مـن

مدينة بيرهويا Berrhoia [ستارازاغورا Starazagora].

وفي الربيع[١١٥٦] عاد إلى هنغاريا، وذلك بعدما جمع قواتاً من كل اتجاه، ذلك أنه كان متشوقاً ومليئاً بالرغبة ليخترق البلاد إلى أقصى أجزائها، وفي هذا المقصد أقام معسكراً على شواطىء الدانوب مباشرة ومعه جميع قواته، ورست السفن التي جاءت من بيزنطة، هناك في أعداد كبيرة، وأقامت تنتظر القيام بحمل القوات المسلحة أثناء الجواز، ولدى ادراك الملك الهنغاري أن أموره كانت بالفعل في حالة صعبة، تحول نحو الرسل، فبعث إلى الامبراطور برجال كانوا ذوي مناصب عالية في بلاطه، ووعد باعادة الأسرى الرومان على الفور، وأنه من الآن فصاعداً سيطيعه في كل شيء يرغب به، وبدا الامبراطور في البداية ميالاً تماماً لرد الرسل ورفض عروض السلام، ثم تراجع نحو قبول مطالبهم، وأنهى السفارة بالاتفاق على الشروط المذكورة، وعلى هذا الأساس تمت إعادة جميع الأسرى الذين أخذوا —كما ذكرنا— في المعركة المتقدمة، ولقد أعيدوا إلى المعسكر الروماني، وأعيد معهم أيضاً الأسلحة والخيول وكل شيء كان من أسلاب المعركة، أما بالنسبة لما هلك من خيول وثيران، فلقد تمّ التعويض عنهم ببدائل حيوانية جمعت من السكان المحليين بين الهنغار، وبإنهاء الحرب على هذه الصورة، عادوا إلى الوطن.

ومن هذه اللحظة بدأت الحرب الايطالية وتحركت بشكل كبير، وهي الحرب التي كنتُ قد تحدثتُ عن بداياتها، وإذا ماعدنا قليلا إلى الوراء ننتقل للحديث عنها.

الكتاب الرابع

١- شغل فردريك —ابن أخي كونراد— منصب حكم الألمان، بعدما واجه كونراد منيته(١)، وكونراد هو الحاكم الألماني الذي سلف وذكرناه بما فيه الكفاية في روايتنا المتقدمة، وبما أن فردريك قدّر النبالة تقديراً عالياً، (بالنسبة للزواج كان أهم الأشياء لديه أصالة العروس، فالعروس الأصيلة كانت لديه مفضلة على كل شيء آخر) وقد سمع أن ماريا ابنة السيباتوكراتور اسحق [أخو مانويل] كانت متميزة بالمولد، ومتفوقة بالجمال، وقد بلغت سن الشباب في بيزنطة، فوقع على الفور في أسر الفتاة، وبعث بالرسل إلى الامبراطور، وطلب أن تخطب إليه لتكون زوجته، ووعد بالوفاء بكل ماوعد به عمه كونراد وهو معه، عندما كانا عائدين من فلسطين، ووعد كذلك بتقديم العون للرومان في الاستيلاء على ايطاليا، ولقد حملت سفارة فردريك هذه الشروط وطلبت الموافقة عليها(٢).

وقبل الامبراطور هذه العروض، وقام نفسه بارسال رسل إلى فردريك، وأمرهم بتأكيد الاتفاقات، وعندما جاء هؤلاء السفراء للحديث مع فردريك لاحظوا عدم وجود أي شيء صلب في نواياه، فعادوا دونما نجاح، وذلك بعدما أقنعوه بارسال سفارة ثانية إلى الامبراطور، وعندما رفضت أيضاً من قبل الامبراطور، أرسل الامبراطور رجالاً من الارستقراطية [١١٥٥] فيهم ميخائيل باليولوغوس، وجون دوكاس، وكلاهما قد وصل إلى مرتبة سيباستيو Sebastoi، وكان بينهم أيضاً الاسكندر صاحب [كونفيرسانو Conversano] الذي كان يحكم غرافينا Gravina فيما مضى، وهي مدينة ايطالية، لكن

عندما طرده روجر جاء ملتجئاً إلى الامبراطور(٣)، وعهد إليهم بكمية كبيرة من المال من الامبراطور عند سفرهم، وقد توجب عليهم أنهم إذا عرفوا أن فردريك مقيم في جنوب الألب أن يذهبوا جميعاً لمقابلته، أما إذا كان موجوداً في مكان أبعد، فعلى ميخائيل الذهاب إلى ايطاليا مع المال، وأن يذهب البقية إلى فردريك، وإذا ماعبر عن عدم اعتراف بالاتفاقية، فالمتوجب عليهم آنذاك أن يتقدموا بأنفسهم باعلان الادعاء بامتلاك ايطاليا،وكان هذا ماحدث بالفعل.

٢- كان لروجر [الثاني] طاغية صقلية ابن اخت اسمه [روبرت أوف] بازونفيل(٤) Bassonville ، وفي أثناء حياة روجر، كان يتولى ادارة حكومة ايطاليا [أي أبوليا]، وبعدما مات وانتقلت السلطة إلى ابنه وليم [الأول]، أنزل بازونفيل إلى مرتبة معاون لحاكم ايطاليا، حيث تولى رجل آخر حكومة ايطاليا، ورفض بازونفيل تحمل هذه الاهانة، فعزم على الثورة، وبناء عليه كتب إلى فردريك، ووعده بوضع ايطاليا كلها مع صقلية بين يديه، وفي الوقت الذي كان فيه فردريك أسير التردد والمصاعب عاد رسل بازونفيل مخفقين، وفيما هم على الطريق صدف أن التقوا بالاسكندر، وكان الاسكندر بدوره عائداً من بلاط فردريك بعد اخفاقه في تحقيق أي شيء كان قد قصد ذلك البلاط من أجله، وكان أثناء عودته من هناك برفقته [جون] دوكاس، وعندما تحدث رسل بازونفيل مع الاسكندر، وعلم الاسكندر السبب الذي توجهوا من أجله إلى بلاط فردريك، توجه إليهم بالخطاب يقول: «أيها الأصدقاء الأعزاء، على مقربة منا شخص يمكنه منح النجاح لسفارتكم»، وعندما رغبوا إليه في معرفة من هو، أجابهم قائلاً: «امبراطور الرومان»، وحدثهم عن كل شيء بانتظام، وأضاف بأن باليولوغوس، الذي كان عضواً من المجلس الروماني، والذي تمت [ترقيته](٥) إلى مرتبة الـ Sebastoi، كان موجوداً ومعه مبلغ كبير من المال، وقد جاء إلى هاهنا لاخضاع

ايطاليا لصالح الامبراطور.

وعندما سمـع رسل بازونفيل هذا، أوصلـوا إليه هذه الحقائق بـرسالة، فأبـدى رغبته في منـاقشة المسـائل مع الـرومان في بيسكـارا Pescara ، ولدى اطلاع باليولوغوس على هذه المستجدات، قام بدون تأخير بالابحار إلى بيسكارا ومعه عشرة سفن، واستولى وهو في طريقه على فيستي -Vies ti ، وآلت ملكيـة هذه المدينـة إلى الامبراطور، وهنا بـدا لبازونفيـل أنه من المفيد اللقـاء معه في فيستي، لذلـك أبحر عائداً إليها، فـالتقيا هناك، وبعدمـا تبادلا الأيمان حـول المسألـة قيد البحـث بينهما، انضم وقتهـا إلى عمليه الصراع(٦).

وكـان دوكاس قـد جمع قـوة، قـادها إلى خصـار قلعـة كـانت حسنـة التحصين، يتولى قيـادتها ايطالي اسمه بـراونتزوس Prountzos، وعندما هاجمها الرومـان، دفعوا بالأعداء من وراء الأسوار، وانقضـوا على الفارين، وهرب البقية إلى داخل الحصـن، لكن عندما أخذ الرومـان بإلقاء النار في أماكـن السكنى، وبنهب الممتلكـات والمقتنيات في البيـوت، شرع الناس بالنـزول وهم يهتفون بحياة الامبراطـور وينادون به سيداً لهم، وهكـذا بات الـرومان متملكين لها، وعنـدمـا وصلوا إلى مـدينة تحمـل اسـم القديـس المبجل هناك، وهو القديس(٧) Flaviano ، اندفع السكان جميعاً عبر الحقول، يسـألون ويرجـون عدم تعـرضهم للأذى، أو أي ضرر مـن الجنود الرومـان، ووافقوا على أن يـدينوا بـالطاعـة إلى الامبراطور وأن يفعلـوا كل شيء يرغـب به الرومـان، واستجاب لهم القائد الـروماني بكل لطـف، ثم زحف من هناك وكأنه يسير وسط بلـد صديق، وفيما هو على نية الانطلاق من هنـاك، جاء وليم أخو بـازونفيل، وكان صديقـاً للرومان منذ القـديم، جاء يحمـل رسالة من أخيـه يحث فيها دوكاس أن يطمئن نحـو المستقبل، لأن المنطقة الواقعة آنذاك أمامه باتت تدين بالطاعة له نفسه(٨).

٣- وكما ذكرنا من قبل بعدما استولى باليولوغوس على فيستي بموجب معاهدة، تابع زحفه نحو تراني Trani ، وعندما رأى شعب تراني الجيش الروماني، أرسلوا رسلاً إلى القائد الروماني وطلبوا منه المغادرة، ذلك أنهم كانوا لايرغبون في تسليم المدينة له، وأعلموه انه من غير الممكن له الاستيلاء على تراني إذا لم يحتل باري Bari أولاً، وبناءً عليه غادر من هناك مصطحباً معه ليس من أقل من عشرة سفن، وقصد باري، وذلك على الرغم من معارضة جنوده، (ذلك أنه كان بارعاً جداً، ولم يكن أدنى من أي انسان في الخبرة العسكرية) فهو كان مدركاً تماماً أنه لم يكن من السهل الاستيلاء على تراني، ولذلك رأى عدم اضاعة الوقت فيما لايفيد.

ومع هذا بدت باري مدينة مستعصية على الفتح، فقد أحاطت بها أسوار عملاقة، كما كان فيها جيشاً من البرابرة، وقف بعضهم بأسلحتهم فوق ووراء الدفاعات واندفع البقية، وكانوا حشداً لايحصى، من الأبواب نحوه، وتألفوا من المشاة والفرسان، في كامل السلاح، وكان البحر هائجاً بفعل عاصفة عنيفة هددت بجرف السفن، ومع أن أموره كانت محاطه بالمصاعب من كل اتجاه، هو لم يفقد الأمل، وبعدما تدبر أمره ونجا من الأمواج خلال عدة أيام، أبدى رغبته بانشاب القتال، ولأن الأمور لم تتيسر له كما كان يأمل فقد أرغم على التراجع فوراً (ذلك أن بعض الأعداء رماه بالحجارة والأخشاب وأي شيء كان متوفراً من فوق الأسوار، وغطى آخرون، كانوا على الأرض، السماء بزخات من النشاب) وابتعد عن مدى رماياتهم، وجرب أن يتخاطب معهم بلغة الكلام، فأخبرهم عن الأشياء الجيدة التي سيصنعها لهم على الفور إذا ماقاموا بتقديم مدينتهم إلى الامبراطور العظيم بدون قتال، وضمن لهم آمالاً عظيمة بالنسبة للمستقبل، وعندما سمع الذين كانوا بالمدينة هذا، اندفع بعضهم نحوه على ظهور خيولهم، وبعضهم على متن الطوافات، ودعوه

إلى الاقتراب من المدينة مشيرين إلى الأبواب المفتوحة، وخشية منه أن تكون المسألة —كما ثبت— خدعة، لجأ أولاً إلى الاختبار، فأمر لهذا الغرض إحدى السفن التي كانت معه أن تقترب من الشاطىء وكأنها تريد الرسو، لكن ما إن رآها الأعداء تقترب حتى صعد حوالي الخمسمائة منهم فوق الأسوار، ووقفوا وراء الدفاعات.

ولاحظ هذا الاكسندر [أوف كوفير سانو]، وخشية منه أن يلجأوا إلى السلاح ، خرج ذهباً من حافظته، واعتلى بسرعة ظهر السفينة، عارضاً الذهب أمام الذين كانوا في المدينة، وصاح بأعلى صوته: «على كل من يريد الثروة والحرية، أن يقدم إلى هنا ليتمتع بهم فوراً» وما كاد ينتهي كلامه حتى اندفع عدد كبير منهم نحوه من داخل المدينة، والتحقوا فوراً بجانب الامبراطور، وفور استقبال القائد الروماني واقسامهم يمين الطاعة، قام بدون تردد بقيادة الجيش ضد المدينة، وعلى هذا مامن شيء يخدع الناس أكثر من جاذبية الذهب، وعندما عرف بقية السكان ماحدث، وكانوا غير راضين عما وقع، بادروا مسرعين نحو القلعة، وما ان أصبحوا وراء أسوارها، حتى شرعوا بالقتال في سبيل [ممتلكاتهم]، وكان ما حدث بالفعل شيئاً يبعث على الدهشة، فمثير أن ترى الناس الذين كانوا متحدين منذ قليل بالأصل والهدف ينقسمون اليوم بوساطة الذهب، وينفصلون عن بعضهم كما وكأن بينهم أسوار، ومشاعر كراهية نحو بعضهم بعضاً. على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك.

وكان هناك قلعة أخرى عبر المدينة، قام في داخلها كنيسة القديس نيقولا، وفكر القائد بالاستيلاء عليها، فعمل كما يلي: وشح رجالاً بالأردية السوداء، وأمرهم بالنهوض عند الفجر والذهاب إلى الكنيسة، وعندما صاروا في داخلها أشهروا سيوفهم وقاتلوا، وبذلك اقتربوا من القلعة عند الفجر، وقرعوا على الباب، وافترض الذين كانوا بالداخل أنهم من الرهبان، فرفعوا مغاليق الأبواب، وسمحوا لهم بالدخول، وبهذه الطريقة

باتت القلعة بأيدي الرومان.

وصحيح أن هذه القلعة قد احتلت، فإن الذين كانوا بالقلعة الأخرى ظلوا صامدين، لقد وقفوا حتى اليوم السابع يواجه أحدهم الآخر، لكن عندما وصل بازونفيل إلى هناك على رأس جيش كبير جداً، سلموا القلعة إلى الرومان، وحدث إثر هذا أنهم لكراهيتهم نحو روجر ولحقدهم عليه تولوا هدم القلعة حتى الأساسات، وتخلصوا منها، مع أن القائد عارض ذلك بشدة، وعرض شراءها مقابل مبلغ كبير من المال، ومرد كراهيتهم لروجر، هو أنه تصرف نحوهم بشكل غير انساني، وذلك وفق عادة كل طاغية.

٤- على هذه الصورة جرت الأمور في باري، وبعدما استحوذ باليولوغوس عليها، عاد مبحراً نحو تراني، فاستولى عليها صلحاً، ثم استولى على جيوفينازو Giovinazzo ، وهي مدينة مشهورة وكان هناك واحداً اسمه رتشارد [صاحب أندريا Andria] وكان رجلاً مجرماً متوحشاً، كان يذبح الناس كذبح قرابين الضحايا، فإذا ما اختلف مع انسان حول أي شيء تافه، كان إما أن يأمر بتوسيطه، أو بحرمانه من يديه أو قدميه، وكانت مثل هذه العقوبات عادية جداً بالنسبة له، ولقد كان آمراً لقلعة أندريا، وعندما سمع أن الرومان يريدون الاستيلاء على جيوفينازو، حذرهم أولاً من فعل ذلك، ثم هددهم بأنه سيمنعهم من القيام بذلك، ولكن كما هو معلوم تجاهلوا تهديداته، واستولوا صلحاً على جيوفينازو، وخططوا للزحف على أماكن أخرى، ولذلك اتحد مع عدد آخر من الكونتات، ومع [أثكلتين Asclettin] حاجب وليم، الذي يقال له بالاغريقية لوغوثيت Logothete ، وقد ذهب معهم إلى تراني لاسترداد هذه المدينة بدون مقاومة، ولحق به جيش، تألف من ألفين من الفرسان، وحشد هائل من الرجّالة المسلحين.

وكـان الرومـان الـذين خلفـوا في داخـل تراني عـددهـم قليل وقـوتهم صغيرة جداً، ولـذلك كانوا مـرعوبين كثيراً، خوفاً منهـم على المدينة وعلى أمورهم، ولهذا بـادروا مسرعين إلى استدعاء دوكاس، موضحين له بـرسالة القدر الذي حاق بهم، وعندما تسلم الـرسالة تهيأ، وانطلق في اليوم نفسه، وأخذ الطريـق إلى تراني، ولدى وصوله إلى بقعـة اسمها روفو (٩) Ruvo، تقدم الناس الـذين كانوا هناك نحـوه، وقاموا بحث الجيـش الروماني على تملك مدينتهم بدون قتال، ورأى دوكـاس —على كل حال— أن التوقف هنـاك عديـم الفائدة، وخشي مـن أن ذلك سيسمـح لرتشـارد بالاخـلال بموازين القتال بدون معيق، ولذلـك تجاوز المدينة مؤقتاً، ومرّ دون وقوف، طالما أنـه سيكون بـإمكانـه الاستيلاء عليها مـؤخراً في الـوقت المنـاسب، وبادر ضد رتشارد بأقصى سرعة ممكنة.

وكان على الطريق مدينة ساحلية اسمها بارليتا Barletta، صدف أن كان القنصـل بها، وفيما دوكاس يتقدم نحوهـا، كان هناك قوة مـن جيش [أسكلتـون] قوامهـا ثلاثمائة فـارس مع فـرقـة من الـرجالـة تقوم بـأعمال الدوريـة، واصطدم دوكـاس فجأة بهذه القوة، فقـام بدون أن يفقـد وعيه تجاه الحادثة غير المتـوقعة، بكـل سرعة بتعبئـة رجالـه وصفهم على شكـل كتلة صلبة، وانقض عليهـم بهجوم فعّال، وبعدما قاومـوا لبعض الوقت، لحقت بهم الهزيمـة، وأنا غير قادر على وصف كيـف قاتل الرومـان هناك، وأظهركـل واحد منهـم أفاعيـل شجاعـة، فقد حمل دوكـاس وبيده رمحه، فطـرح أرضاً —كما قيـل— بطعنة واحـدة ثـلاثين رجلاً منهـم، وبعدمـا فقـدوا كثيراً من رجـالهم، هـربوا حتـى غـدوا وراء أبـواب بلدتهم، وقـام الرومـان الذيـن طاردوهـم، بالعـودة إلى المعسكر، وكـان النهار قـد مضى أكثره، وكانوا لم يعانـوا من أية خسائر باستثناء واحد من المرتـزقة الخيالة، وصحيح أنهم عسكروا هنـاك لإمضاء الليل، فقد ركبوا الطـريق مجدداً مع انبلاج الصباح.

وعندما علم رتشارد بالذي حدث، هرب من هناك بأقصى سرعة ممكنة، خشية أن يطوقه الرومان، ويحصل له كسر لايمكن جبره، وما ان وصل إلى أندريا، حتى مكث هناك، وبعدما أنقذ دوكاس الجيش الذي كان مع باليولوغوس، قام بالزحف خلف رتشارد، مع أن القوات التي كانت من حوله متفوقة على قوات الرومان بأعداد كبيرة، فقد كان الرومان ستمائة بلازيادة، وذلك فيما عدا الرجالة، الذين كانوا هم أنفسهم أدنى كثيراً من الأعداد الهائلة لقوى الرجالة التي كانت مع رتشارد. فقد تبع رتشارد ألف وثمانمائة من الفرسان مع جيش لايحصى عدداً من الرجالة.

وعندما سمع رتشارد أن الرومان يقتربون، قام بنفسه بقيادة جيشه والتقدم نحوهم، ولدى اقترابهم من بعضهم بعضاً، انقسم الرومان إلى ثلاثة أقسام، تعبأوا كما يلي:

وقف الكومان وحملة الأقواس من الرجالة في الأمام بصف متلاحم، ووقف دوكاس مع نصف الخيالة، وخاصة جماعة من الكومان في الساقة، بينما احتل بازونفيل مع الكونتات الآخرين وبقية الفرسان الأرض المتوسطة، وكان رتشارد غاضباً جداً، وغير قادر على تأدية أية براعة لها علاقة بالعلم الحربي، لذلك حمل والفرسان من حوله حتى وصل إلى مركز الجيش الروماني نفسه، وبذلك عطل حركة القتال وكاد يوقفها، ذلك أن الصف الأمامي للجيش الروماني الذي تألف من النبالة لم يستطع الصمود أمامه جتى ولا لمدة قصيرة، ثم مارس الضغط على بازونفيل، فأرغمه على التراجع نحو الخلف، ثم قاتل بعد ذلك الذين كانوا حول دوكاس، وهنا تطور قتال عنيد، وقتل عدد كبير ممن مع رتشارد، ولكن بما أنهم سقطوا وسط الضغط العظيم لم يعرف بذلك الجيش، وكان القتال عنيفاً جداً، وما كنت تسمع سوى أصوات قعقعة السلاح والضربات العنيفة على الترسة، وتطايرت أعداد لاتحصى من

النشاب في كل مكان، وأحـاقت المخاطر بكل مكان، حتـى حملت قوات رتشارد حملة عنيفة وضغطت بشدة فـأرغمت الرومان على ادارة ظهورهم، فدوكاس نفسه، سقط أرضاً بفعل طعنة رمح، وكاد أن يقع بالأسر.

ولكن العناية الربـانية تقود وتوجه جميع الشؤون البشرية وفـق ماتريد، فصحيـح أن الـرومـان وصلوا إلى هـذه الحالـة مـن سـوء الحظ، غير أنهم نجحـوا في النهايـة، ذلك أن دوكـاس نجـا فراراً إلى واحـد من الأسـوار المقامـة من الحجـارة، بدون ملاط أو إكسـاء، فلقد كـان من النـوع الذي يقف خارج أبـواب المدينة ليكون بمثابة عـلامة فارقة للمـروج، ولقد كان آمناً هناك، ثم جاء الرجالة الرومـان إلى عونه، وقذفوا بالحجارة على الذين كانوا مـن حول رتشارد، وهكذا تجمع هنـاك معاً كثير من الذيـن فروا من قبل، ولـدى ملاحظـة رتشارد لـذلك، انـدفع نحـوهم مـع ستة وثـلاثين فارساً، وقام واحـد من أهل تراني، وكان صاحب مرتبـة بين رجال الدين، بـالوقـوف فـوق مكان مـرتفـع، وقذف بكميـة كبيرة مـن الحجارة نحـوه، فأصابه على إحدى ركبتيه، فـألقاه أرضاً، وفيما هو منبطح على الأرض يئن من الألم، قام رجـل الدين هذا بتوجيـه قذيفة نحو رقبتـه، ولشعور رتشارد بالهزيمة بدأ يستعطـف بحرارة ليرحم ويبقى حياً، لكن رجـل الدين ألقاه على ظهـره، وطعن بمـدية في بطنـه، فشقهـا وأخرج منهـا أحشاؤه، مثـل اخـراج الطعام مـن الفم، وقـدم رتشـارد بذلـك مثالاً على وحشيتـه تجاه الأسرى التعساء، ثـم خرج أهل أندريـا وجاؤوا ومعهـم القـوات المسلحة إلى الرومان وتصالحوا معهم، وعاد الرومان، الـذين كانوا لايتوقعون النجاة مـن المخاطـر، إلى باري، تخفـق فوق رؤوسهـم علامـات النصر، فوجـدوا هنـاك كميـات وافرة مـن المؤن، فنقهـوا فيهـا واستراحـوا ممـا عانـوه مـن المتاعب العسكرية.

٥- وبعد مضي بعـض الوقت، بدا مفيـداً قسمة الجيش إلى شطـرين، شطـر يبقـى هنـاك مـع واحـد مــن القـادة، ويمضي القسـم الآخـر مـع

القائدالآخر ليقوم بالاغارة على القلاع المجاورة، ووقع اختيار القتال الخارجي على دوكاس، وكان هناك مدينة، يحكمها رجل عالي المكانة اسمه كاسترو، فقام دوكاس بتطويقها وحصارها بكل نشاط، لكنه مالبث أن لاحظ أنه كان يحاول المستحيل، وذلك بسبب أنه قام بعدة محاولات متكررة للاستيلاء على الأسوار (فتبرهن لديه انعدام الأمل بخرقها بالحجارة مع أنها ضربت مراراً بآلات الحصار)، فانطلق من هناك ساعة حلول الظلام، وبادر مسرعاً نحو مونوبولي Monopoli، عازماً على مهاجمتها بشكل مفاجىء، وصدف آنذاك أن كان شعب مونوبولي مرسلين جيشاً ضد الرومان، ليكتشف أولاً ماذا كان يجري هناك، وليصطدم بهم حيثما يكون ذلك ممكناً، وصدف أن التقى رجال مونوبولي بطلائع الجيش الروماني، ووقفوا وجهاً لوجه معهم، وعندما وصلت هذه المعلومات إلى الذين كانوا في الساقة، هرب غالبية الفرسان، وركضوا نحو المدينة، وحدثوا أهل المدينة وأخبروهم، بأن الجيش الروماني قد حان وصوله، ووقع كثير من الرجالة بالأسر، واضطربت المدينة لسماع هذا، ومع هذا قرر أهلها مقاومة الأعداء وهم على الحالة التي كانوا فيها، وبناءً عليه تقدم مايزيد على مائتي فارس ومعهم أكثر من ألف من المشاة، في حين لحق بهم حشد لايحصى عدده من حملة المقاليع، ووقفوا أمام المدينة.

وعندما كان الوقت مايزال نهاراً، توقف دوكاس، واحتفظ لنفسه بما يزيد على نصف الجنود، وأرسل البقية للقيام بنهب المناطق المجاورة، ثم استأنف زحفه بعدما قسم الجيش إلى نصفين، غير أنه بالواقع لم يشتبك مع رجال مونوبولي مباشرة، بل تظاهر أنه يقوم بالتجسس حول الأسوار، ثم تقدم قليلاً، مظهراً أنه يقوم بتفحص المدينة بالتفاصيل، ثم قام بدون سابق انذار، فأمر ثلاثين من رجاله بالانقضاض على الأعداء، واندفع هو إلى وسطهم، وأذهلتهم المفاجأة، فأداروا ظهورهم هاربين، وطاردهم، ولم يتخل عن ذلك حتى وصل خلفهم حتى أبواب المدينة، وقام بطعن

أحدهم بنفسه فألقاه أرضاً داخل الأبـواب، وبعدما قام باسترداد من كان وقـع من أصحـابه بـالأسر، غادر المكـان، وفي تلـك الأثناء كـانت القـوة الأخرى قـد قامت بالطـواف في المنطقة وعادت ومعها الأسـلاب، ثم انها عادت أيضاً مع دوكاس إلى باري.

وأثناء حدوث هذه الأشياء، جاء رسـل إلى القائدين الرومانيين مرسلين مـن قبل أسقـف روما، الـذي اعتاد الـلاتين على منحه لقـب بابـا(١٠)، ورغبـت السفـارة أن يـذهبا كـلاهما أو واحـد منهما إلى رومـا للبحـث في مسائل هـامة مـع الأسقف، ذلـك أنهما قالا بأنـه قد حشـد ماأمكنـه من قـوات وكـان يستعد للقتـال إلى جـانـب الـرومان، واستجـاب القـائدان الرومانيان لهذا المطلـب برسالة، كما أرسلا رجلاً اسمـه باسيلكوس، وكان من موظفـي ديوان الامبراطور، لكنه كـان آنذاك مرافقاً لهما، وأعطيـاه ذهباً لاستئجار فرسان من هناك.

وقام القـائدان الرومانيـان بالإعداد للحرب ضـد مونوبـولي، وحيث أن سكـان مونـوبـولي لم يمتلكوا الشجـاعـة للتصدي للـرومـان، فقد طلبـوا منحهم وقتاً محدداً، إذا لم يـأتهم خلاله أية مساعدة مـن أي مكان، فإنهم سيسلمون المدينة طواعية وبدون قتال، وتـمّ هذا، وقامت هدنة لمدة شهر منحت إلى أهالي مونوبولي.

٦- وفيما الـرومـان منشغلين بهذه المسـائل، كانـت القـوات الصقليـة تقاتل بـازونفيل، فقام هذا باستدعـاء القائدين الرومانيين برسـالة وطلب منهما القـدوم إلى مساعـدتـه بأقصـى سرعة ممكنـة، وعنـدما لم يلتفتـا إلى طلباته، كرر مـراسلته لهما، وتساءل عن المسألة نفسهـا، ورد عليه القائدان الرومـانيان في البدايـة أنهما لم يقدما إلى هناك مـن عند الامبراطور ليقـاتلا لصالـح بازونفيل (ثـم ان المعاهدة بينهما وبين بـازونفيل ليس فيهـا هذا) بل قدما بشكل محدد للاستيلاء على ايطـاليا لصالح الامبراطور، وأن ينالا

المساعدة منه، لقد أجابا بازونفيل على هذه الصورة، غير أنه لم يتوقف عن حثهما قائلاً بأنه مطوق بالمخاطر، وبعد تقدير للمسألة ذهبا من باري إلى مدينة بيتيتو Bitetto ، وكان الطريق يحتاج يوماً واحداً للرجل المسلح، هذا وكانت قد راجت شائعة تقول قبل هذا بأن بازونفيل قد خطط لخيانة الرومان لصالح رتشارد صاحب أندريا، عندما كان مايزال حياً، ولهذا السبب قرر الرومان أنه كان من الضروري ربطه بمزيد من الأيمان، وعندما تمّ تنفيذ هذا، عاملوه بدون المزيد من الريبة.

وأرسل الامبراطور في الوقت نفسه اسطولاً إلى ايطاليا، مشحوناً بفرسان من اللان(١١)، والفرنجة والرومان، وكان ايانـاكيوس Ioannakios الذي كنيته كريتوبلس Kritoples يقود اللان، أما الفرنسيون فكان يقودهم الاسكندر [أوف كونفيرسانو Conversano] وهو لومباردي [أي أبولي] المولد، لكنه كان موقفاً نفسه تماماً على خدمة الرومان وشؤون الامبراطور، وكان لجون الذي كنيته أنجيلوس القيادة العامة(١٢)، وعندما سمع قائد قوات وليم بهذا، وبأن جيشاً رومانياً كان يقترب منه، وهو يقوم بحصار أندريا وبنهب الأراضي هناك، ذهب مع جيشه كله إلى مدينة مولفيتا Molfetta ، التي كانت حصينة بما فيه الكفاية.

وعزم الرومان على اخضاع بوسكو Bosco ، وهي قلعة كانت تخضع إلى رتشارد المتوفى، وهي أقوى من أي قلعة أخرى، ومن الصعب جداً الوصول إليها، وكان هناك معرضاً هائلاً فيه كل نوع من أنواع الوحوش النادرة، لكل منها مقرّ خاص به، وذلك بهدف تيسر الصيد بالنسبة له كلما أراد، وقاد دوكاس عدداً قليلاً من رجاله وجاء ليتفحص المكان، وعندما اقترب منه، تشجع الذين كانوا في داخله، وتقدموا حيث انقضوا على وسط الرومان، فأوقعوا فيهم أربعة قتلى، غير أن اثنان من رجالهم سقطا، وتحول القتال إلى اشتباك بالأيدي، وبعدما اجتمعت

القوات الرومـانية، تمكنت من دفع الأعداء إلى داخـل موقعهم، وعبّر كثير من الرومان مع اثنين من اللان في هـذا القتال عن شجاعة ونبل، وانتهى القتال هنـاك، وقام دوكاس، عنـدما جاءت بقية القـوات باقامـة معسكر أمضـى الليل فيـه، حيـث قام في الفجـر بتعبئة رجـالـه، وزحف بشكـل نظامي، وفيها الهجوم مستمـر، قام الرومان بازعاج الذين كـانوا في الداخل بـالنشـاب والمقذوفـات مـن آلات الحرب، ودافـع الآخرون عـن أنفسهـم بفعالية ونشاط من وراء الشرافات.

وحدث آنذاك حدث جدير بالـذكر، فقد رأى اثنان من حرس دوكاس القلعة وقد تضررت مـن رميها بالحجارة وتهدمت، ومـع ذلك لم تستسلم، لذلك سترا رأسيهما بـالترسة، وحمل كل منهما بيده الأخـرى مشعلاً وقصدا الأبـواب لاحراقهـا، ولكن بها أن المواد كـانـت غير قابلـة للاحتراق، فقـد تراجعا مخفقين، وتجنبا —خـلافاً لجميع التوقعات— الأشياء التـي قذفت نحوهما من فوق الأسوار مثل زخات المطـر. وبعدما استمرت المعركة حتى غياب الشمس، تراجع الرومان إلى المعسكر، وذلك لأنهم لم يحققوا شيئاً.

وعلم قـادة وليم بهذا، فعقـدوا اجتماعاً للتداول حـول امكانيـة القتال ضـد الـرومان، وكـان رأيهم أن يجمعـوا قـواتهم، ويزحفـوا على المعسكـر الروماني، وعلم الـرومان بذلك فاستعدوا للتصـدي لهم، وكان تسعة من القادة يتـولون قيـادة الايطاليين، وكـان الحاجب هـو القائد العـام، وكان جيشهم كـامل التسليـح، وكانـوا يمتطون خيـولاً قويـة، ويحملون رمـاحاً طويلـة، ولدى وقوف الـرومان على هذه الأشيـاء، استولى عليهم الـرعب، وتسـاءلوا كيـف يمكنهم بجيـش صغير القتـال ضد قـوة جيدة التسليـح وهي لاتعدّ ولاتحصـى، ومع هذا وقفوا مصطفين على شكـل جماعات، في حين اقترح عليهـم القـادة أشيـاء كثيرة أوصلتهم إلى الشجـاعـة، ووقـف الجيشان لـوهلة دون مباشرة القتـال، ولكن عندمـا صدحت الأبـواق من الجانبين، وأعطيـت شارة الهجـوم، انقض الفـريقان على بعضهما، وأخـذا

يقاتـلان يداً بيد، وكـان بإمكانك أن تقـول إنه لا أشعة الشمـس ولاضوء النهار كـانا مشـاهديـن، فقد امتـدت سحابـة من الغبـار فوق كـل شيء وصعدت نحو عنان السماء، وارتفعت أصـوات الضربات وتصاعدت رنة السلاح.

وظل القتـال حتى منتصـف النهار متكـافئاً، لكـن الطليان شقـوا بعد ذلك طريقهم وذلـك بفضل تفوقهم العددي، وضغطوا على الـذين كانوا حـول دوكـاس، ولاحـظ دوكـاس بسرعـة المشكلـة، فـانـدفـع إلى وسـط تشكيلات العـدو، وهو يطعـن فيه على الجانبين، وتبعـه الرومـان بالهجـوم وهـم يصرخون، وهكـذا اشتبكت القـوات ثـانية، واحتـدم القتال واشتـد كثيراً حتى تمكـن الرومـان بشجاعتهـم من دفـع العدو إلى الخلـف، وفقد العـدو أثناء الفـرار مالايقـل عن ثـلاثمائة من فـرسانـه، وحشد لايحصـى عـدده من المشـاة، غير أن البقية نجـوا فراراً، وبعـدما نجـح الرومـان في هذا، تحولوا عائديـن نحو قلعة بوسكو، وبعدما تغلبـوا عليها، وجدوا فيها كميات وافرة من المؤن، وبعدمـا زودوا أنفسهم بمختلف الأنواع الجيدة، عادوا إلى باري.

٧-وبعد مدة وجيزة صاروا متملكين لـ «مونتبيلوسو Montepelo-so» وهي مدينة واسعة الشهرة، واستولوا على «غرافينا Gravina»، التي كان الاسكنـدر صاحب كـونفيرسانو يحكمهـا من قبل، كما واستـولوا على عدد كبير آخـر من البلدات والحصـون، ويضاف إلى هـذا أنهم استحوذوا على خمسين قـريـة، وهكذا ازدهـرت شـؤون الامبراطـور مـن كل جـانـب بشكل عظيم، لكن قواته كانت تتجنـب وليم وتبتعد عنه باستمرار، وكان هو في الحقيقـة، في وضع صعب، وراجت في ايطـاليا كلها أقاويـل تعلن عن أن الرومان لايقهرون، ثم إن الايطـاليين لاحظوا أن الرومان، الذين لم يعانوا من فنون القتـال لديهم منذ حقبة طويلة من الزمـن، كانوا ينتزعون كل مايمتلكون تقريباً ويحملون معهم جميع مقتنياتهم.

كانت الشؤون الرومانية تتحرك حتى الساعة مع التيار، لكن منذ ذلك الحين بدأ القدر يحسد بعض الشيء حسن حظهم، وحل مرض على باليولوغوس، ألهب الرجل بحمى حارقة، ولم يتوقف عن امتصاص نضارته الطبيعية وقواه، حتى تم ارغامه على أن يصبح أولاً بلا شعر(١٣)، ثم بعد مضي وقت حمله هذا المرض بعيداً عن بني البشر، وقبل وفاته لبس شعراً مستعاراً، وبدا وكأنه يتحسن، فقام بتوجيه دوكاس للهجوم على بقية المدن التي لم تكن قد دخلت في حوزة الرومان، وبعد هذا بثلاثة أيام، ساء وضعه كثيراً، وعندما علم دوكاس بذلك عاد إلى باري، فوجده قد مات، فأمر بوضع جسده داخل تابوت، وذلك بعدما جهزه وفقاً لما سمحت به العادات المسيحية والطقوس المتبعة، وإثر هذا قام بترتيب الأمور بشكل جيد في باري، وبذلك بات صاحب السلطة، والمشرف على القضايا بالنسبة للمستقبل.

٨- وهكذا فارق باليولوغوس الحياة، وكان رجلاً فطناً وبارعاً جداً في التعامل مع المسائل العسكرية، وقاد دوكاس جيشه وتوجه مباشرة إلى برانديزي، فقد كان متشوقاً بشكل خاص لأن يلحق بازونفيل به، ذلك أنه كان قد انفصل وابتعد للسبب التالي:

فهو قد ابتعد —إما كما أظن— ليعطي نفسه حجة للحصول على المرابح، أو كان بالواقع يعاني من قلة المال، فقد كان قد سأل باليولوغوس —عندما كان حياً— أن يقرضه عشرة آلاف قطعة ذهبية، فاقترح عليه على الفور أن يمنحه أربعة آلاف بمثابة أعطية من الامبراطور وليس ديناً، ورفض تماماً امداده بالباقي، فغضب بازونفيل لهذا، وانفصل عن الجيش الروماني، ولكن ما ان توفي باليولوغوس، وحل محله دوكاس في المسؤولية عن الأمور، حتى جاء بازونفيل إليه، فحصل على مبلغ المال الذي أراده، وشارك من جديد في الجهود العسكرية الرومانية.

وأخذه دوكاس معه وتوجـه نحو مسافرا Massafra وبرفقته بقية الجيش، وكان هناك مدينـة اسمها بوليميلون(١٤) Polymilion ، وكان فيها واحد مـن أتباع وليم اسمه فـلامنغ Flameng، وعندما سمع هذا بـاقتراب الجيش الـرومـاني، غادر المكـان وذهـب إلى تارنتـو Taranto ، واستولى الرومان على بوليميلون ونهبوا أحـوازها، فأثقلوا جيشهم بالغنائم، وذهبوا من هناك إلى مدينة موتولا Mottola ، التي كانت قائمة فوق مكان مرتفع، وكـانت قوية وجيدة التحصين من جميـع الجوانب، فقد قام على طـرف منهـا شعاب ووديـان جبليـة حقـاً يستحيـل الوصـول إليهـا، وأحاط بها من جانـب آخر نهر عميق يصلح للملاحة، لكـن بدا أن مامن شيء يمكنه أن يعيق الذين يبحرون بريـح طيبة، ومع أن موتولا بدت آمنة محصنة مـن جميع الجوانـب، فقد استـولى عليها الـرومان دون بـذل جهود كبيرة وفي وقت قصير، وذلك وفق طريقة سأتولى حكايتها:

لقد كانـت معنويات الرومـان عالية جداً نتيجـة لانتصاراتهم الماضية، وعندما شاهـدوا أهل المدينة ومصدر شجاعتهم هو طبيعـة المكان، وكانوا واقفين خارج الأبواب التـي كانت هناك وهـي مفتوحة من أجـل القتال، وقتـذاك حمل الرومـان وصعدوا الـرابيـة مسرعين، وتملكت الـدهشة أهـل المدينة لما رأوه من جـرأة، واندفعوا يقاتلـون قرب أبوابهم، وعندمـا انقض الجيش الـروماني عليهـم، لم تكن هـذه الأبواب قـد أوصدت، وهكـذا تمّ الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعدما أنجز الرومان هذا، انطلقوا من هناك.

وبعد وقت قصير، التقى بهم فلامنغ وهم يـزحفون، وقفز بعض الرومان أمام وحداتهم واصطدمـوا بالأعداء، وأظهروا براعة ومهـارات رائعة، لكن بما أنهم كانوا أقـل عدداً من خصومهـم فقد تراجعوا، وفي تلـك اللحظة اشتبك دوكاس ومعـه جميع قواته بقـوات فلامنغ وأرغموهـا على التراجع، ثم هاجموا مسافـرا فاحتلوها عنوة، واكتشف دوكاس وجـود كميات هائلة من المؤن والعتـاد مخزنة في القلعـة، وكان بينها سـلاح كثير ومالايقـل عن

مائتـي فرس، ولدى سماع أهالي تـارنتو بذلـك قام رجالهم بعدمـا جمعهم الحرفيون ومعهـم جيرانهم بتوجيه الاهانـات بشكل مكشوف إلى فـلامنغ، واتهموه أنـه بجبنه الشخصي سبب شجاعـة الرومان، ولم يستطع فـلامنغ تحمل هـذه الاهانـات، لذلـك أعاد جمع عسـاكره، ووقـف ينتظر الجيـش الرومـاني، لكن مـا ان أصبح هـذا الجيش مـرئياً مـن قبله، حتـى أصيب بالرعب، ولم يستطـع تمالك نفسه أو يسترد شيئاً من شجاعتـه، وقامت ثلة من الرومان بقتال أتباعه وهم منهزمون فقتلوا بعضهم.

وعنـدما أصبـح الـرومان على مقـربـة من تـارنتـو، تصوروا أن المدينـة لاترام، ولـذلك تـركوهـا عازمين على الوصـول إلى مونـوبولي، ونظـراً لقلة مـاكان بحـوزتهم من أسلحـة الحصـار، استدعـوْا —بـوساطـة رسالـة— الأسطول الـراسي في باري، للقدوم بـأقصى سرعـة ممكنة، وبذلـك يمكنه أن يحمل منهـا الكثير من الأشيـاء، وعبر الرومـان في الوقـت نفسه خـلال منطقة خصبـة، مليئة بأنواع كثيرة مـن المنتجات، لذلك أشبعـوا أنفسهـم بـأشيـاء جيدة، فقـد قيـل كـان بـإمكان الجنـدي شراء عشرة رؤوس مـن الماشية بقطعـة ذهب واحدة، وأن يشتري بالمبلـغ نفسه مائة وثـلاثين من الأغنام، ووجدوا هناك أيضاً بعض الرومان الـذين كانوا مودعين بالسجن منذ زمن طويل، فأطلقوا سراح هؤلاء المساكين وفكوا أغلالهم.

٩- ولـدى وصـولهم إلى مـونـوبـولي في اليـوم الخامـس، لم يخرج أحـد للتصدي لهم، (لأن الأقـاويل التـي راجت حـولهم أرعبت أهـل المدينة، وألجأتهم لـلاختبـاء وراء الأسـوار) لكنهـم وقفـوا شـاكـي السـلاح فـوق أبراجهـم، مستعدين للـدفاع عـن أنفسهم، إذا ما وصلـت الحملات إلى الأسـوار، ونصب البيـزنطيون معسكـرهـم، ومكثوا في مكـان موائم ليـس بعيداً جـداً عن المدينـة، وبما أن دوكاس كان قـد استدعـى الاسطول إلى مونـوبولي، فقد جـاء من باري، وأمـد عملية الحصار بما يكفـي من المؤن، ثم هاجموا الأسـوار بالقوى كاملـة، لكن بما أن السكان كانـوا يصبون على

أعدائهم أشياء كثيرة، فقد تمكنوا من ردّ المهاجمين الرومان وقتل بعضهم، وكان القتال قد بدأ بالصباح، وقد استمر حتى الليل، وبسبب حلول الظلام عاد الرومان إلى معسكرهم، وعين أهالي مونوبولي حراساً لحماية الأبراج وجعلوهم يتناوبون ذلك خشية أن يطمع الرومان فيلحقون الأضرار بالمدينة أثناء الليل، ولهذا أشعلوا الآلاف من النيران في كل جهة، وكانت الأبواب وأدوات النفير تزعق.

وعندما أخذت الشمس طريقها نحو الأفق الشرقي، وبدأ نورها يشع فوق سطح الأرض، خرج الرومان من المعسكر، وعادوا إلى القتال، وفي الوقت نفسه اندفع رجال مونوبولي إلى مواقفهم، وحملوا أسلحتهم، ومرة أخرى جرى صراع عنيف واشتباكات مع الرومان الذين كانوا يحاولون جاهدين شق طريق للوصول إلى الأسوار، لكن العدو المهاجم أمكن صده من قبل رجال مونوبولي، وبذل الرومان غاية جهدهم في هذه الظروف، ثم قام جيشهم فيها بعد بإلقاء النار في سفن أهالي مونوبولي التي كانت راسية هناك، وسببوا بذلك صعود لهيب عظيم.

وقام واحد من الجنود الرومان، واسمه هيكانتوس Hikantos بعمل رائع يستحق الحكاية والسماع:

كان يحيط بمدينة مونوبولي سور مزدوج، وكان السور الداخلي مرتفعاً جداً، وكان من غير الممكن ادراكه برماح الأعداء، في حين كان السور الآخر الذي استدار حول قاعدة الأول يساوي بالارتفاع ثلثه، وتسلق اثنان من رجال مونوبولي فوق هذا السور، وأخذوا يرمون نحو الأعداء ويحثون الآخرين للالتحاق بهم، ولاحظ هيكانتوس هذا، فقام بالهجوم برمحه فأمكنه اصابة واحد من الرجلين، فوقع فوراً على الأرض، وتبع هذا صدور صوت عظيم عن الجيش الروماني، وصار الصراخ هائلاً، ولايمكن تحمل سماعه، وأدهش ذلك الواقفين فوق الأبراج، وخيل إليهم أن

المدينة قد سقطت، فتخلوا عن الدفاعات وركضوا نحو مركز البلدة، ولولا أنهم أدركوا الوضع بسرعة، وعادوا فاعتلوا الدفاعات لسقطت المدينة على الفور بيد الرومان، وعلى هذه الصورة انتهى الهجوم الثاني على مونوبولي.

وبسبب معرفة شعب مونوبولي أنهم باتوا في مآزق مؤلمة، بعثوا برسالة إلى فلامنغ وسألوه أن يقدم إليهم بما أمكنه من سرعة، فأجابهم بأنه سيلحق بهم بعد وقت قصير مع جيش كبير، ليتولى طرد الرومان وابعادهم، وظلّ الرعب ساكناً داخل فلامنغ، وامتلأ بجبن لاحدود له عندما قدّر من سيقاتل، وضد من ستكون المعركة، وبناءً عليه عندما حلّ اليوم السابع، ولم يظهر فلامنغ من أي جهة من الجهات، وقتها استولى اليأس على شعب مونوبولي، وقنطوا من وصول المساعدة إليهم من أي اتجاه، لذلك بعثوا برسلهم إلى الجيش الروماني، مع عرض بتسليم المدينة وأنفسهم إلى الامبراطور العظيم، وأخبرهم دوكاس أن تعهداتهم لاتكفي في هذه الاتفاقية، مالم يقبلوا بوضع حامية فوقهم من قبل الامبراطور، وعندما وافقوا على هذا، جرى تحديد تاريخ لعقد الاتفاق [وابرامه وتنفيذه].

وقام بعض سكان مونوبولي (ممن كان غير راضٍ بما تمّ صنعه) باخبار فلامنغ بهذه الأشياء، وذلك دون معرفة الآخرين، وأثارت فلامنغ هذه الأخبار، فاختار مالايقل عن مائة من الفرسان المسلحين من بين أتباعه، وبعث بهم على الفور، وقال إنه سيلحق بهم بعد قليل، وتحت لوائه قوة معتبرة، وانتظر الذين وافقوا على هذه الأفعال وصول هؤلاء الجنود في ليلة استمر فيها هطول الأمطار من فوق، وأدخلوهم إلى المدينة من خلال باب جانبي، وبناءً عليه خططوا لحمل السلاح ثانية، وما ان وصلت هذه الأخبار إلى مسامع دوكاس حتى عدّ السفارة التي جاءته من مونوبولي خدعة، وقام على الفور بالتقدم على رأس جيشه زاحفاً من

المعسكـر، لكـن مـا ان أدرك أهـل مونـوبـولي أن المائة فـارس لايكفـون لعونهم، وبما أن الجيـش الرومـاني كان في حالـة استعداد للقتـال وحماسة أكثـر من قبـل، قامـوا وراسلـوا دوكاس ودعـوه إلى المدينـة ثانيـة عازيـن المشكلـة إلى آخريـن، سـارعوا إلى اقتراف الأعمال الحاليـة بـدون موافقـة جماعيـة، وأظهر دوكـاس رفضه في البـدايـة، وتمسك بـوجود خـداع كبير، وتعجـرف معلناً أن المسـألة قـد تقرر البـت فيها بـواسطة الحرب، ولكـن عندما ضغط عليه السكان أكثر، ورجـوه أن يعفو عنهم مااقترفوه من إثم، استجاب مؤخراً وقاد قواته إلى داخل المدينة.

وساعة استيلاء الـرومان على المدينة، وصلت تقارير تحدثـت أن فلامنغ بات على مسـافة قرابـة عشرين غلوة مـن المدينة [ميلان ونصـف الميل]، ومـا ان علم دوكـاس بهذا حتى بـادر إلى اختيار فـرسان مـن أتباعـه على أسـاس براعتهـم، وبعث بهم لاعتراض سبيـل فـلامنغ، وبقـي هو نفسـه بـالمدينة لـلاشراف عليها، غير أنـه عندمـا رأى فـلامنغ عـن بعد أعـلام الامبراطـور مرفـوعـة فوق الأسـوار، أدار ظهـره وعاد قبـل أن يتـلاقى مـع الفرسان الرومان، الـذين كانوا قد باتوا على مقربة منـه، ثم طارده الرومان وقتلوا كثيراً مـن أتباعـه، وأسروا مائة من فـرسانـه كاملي السـلاح، وحفظ فلامنغ من المخاطر سرعة حصانـه، فقد كاد أن يقع بالأسر، وبعدما حقق الرومان هذا النجاح عادوا إلى مونوبولي.

١٠- ولم يكـن دوكاس، الـذي لاحظ أن الحظ يبتسـم يوميـاً للرومـان قادراً على الـوثوق بـه كثيراً، بل كـان حذراً بشكـل معقول مـن انقلابـه، وكان يقول إنه مثـل شخص ساذج متقلب يتبع قوماً مسافـرين لابدّ من أن يعود أدراجـه، ويدعهم في وسط الطـريق، ولهذا كتب رسالـة بعث بها إلى الامبراطور، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«أيها الامبراطور العظيـم، إذا لم يكن قد بقـي أمامنا المزيـد من الصراع

في ايطاليا، فلن يكون هناك حـاجة لجيش آخر أو أي شيء آخر، وتعلمون أن كل شيء قـد سار بـالنسبة لنا حتـى هذا اليـوم وفقاً لما نبتغيـه، حيث سيطرنـا على معظم المدن الموجـودة، في ايطاليـا [أي أبوليـا] مع الموجـود على خليـج ايونيـا [البحر الأدريـاتيكـي]، ولقد كنـا نحن المنتصريـن في معارك عظيمـة بطريقة تليـق بعظمة امبراطـوريتك والعرق الـروماني، وبما أنـه مازال أمـامنـا صراعاً أعظـم، (لأن وليـم الـذي يتولى نهب صقليـة، لاشك منزعـج جداً بسبب تدمير أتبـاعه، وهو يقوم الآن بحشـد العساكر من كـل مكان، وقد قـام بانزال أسطول فيـه عدد هائل مـن السفن، على سطـح البحـر، وهـو عـازم على حـربنـا بـراً وبحـراً) علينـا ألاّ نستخـف باستعدادات الجزري [وليـم]، وألاّ نواجه هذه الحرب بسـذاجة، خشية أن نخسر سمعتنـا ونستعيـض عنهـا بـالعـار، ثـم إنـه مـن المتفـق عليـه أن النجاحات التـي تحققت على أيدي عدد قليـل من الرجال، لابـدّ من أن تكـون أعظم بكثير على أيـدي عـدد أكبر، ومـع هذا إن الاخفـاق يجلـب أضعافاً مضاعفة من العار، لأنـه كما علمتنا ياصاحب الجلالة إن الهزيمة تدلل على جهـل بالاستراتيجية لدى المهـزوم، ولذلك ينبغي حتـى لايقع شيء من هذا القبيل لنا، نطلب ارسال قوة بحرية أكبر مع جيش بري إلى هاهنا». هكذا كانت محتويات الرسالة.

وبما أن الأمور سارت بشكـل طيب لدوكاس في مونوبـولي، فقد انطلق من هناك بصحبـة قواته كلها، وبعدما استـولى صلحاً على أوستيني -Os tuni، هي مدينة واسعة الشهرة بقوتها، سـارع بالزحف نحو بلدة أخرى، هي بـرنديزي، التـي كان اسمها القـديم تيميسي، فلقد غير مضي الـوقت معظم الأسماء القـديمة وعسكهـا، وغيرها إلى أسماء تختلـف عن سـالفتها تمامـاً، أو تختلـف بعــض الشيء(١٥)، وعنـدمـا وصـل الـرومـان إليهـا [١٤نيسان١١٥٦] مكثوا هـادئين (لأن اليوم التالي كان يـوم عيد الفصح المسيحي) وخيّـل للذين كـانوا في المدينة أن مـرد هذا هو الخوف، لـذلك

قاموا بحملات متوالية ووصلوا إلى المعسكر، ووقتها انقض الرومان عليهم بدون ارادة منهم، لكن عندما دفعوهم إلى الخلف، عادوا إلى المعسكر.

وهكذا عاد الرومان إلى انشغالاتهم المتقدمة، يقدمون التبجيل للموسم المقدس، لكن واحداً منهم، واسمه توماس، أصله من أنطاكية، كان منذ زمن طويل قد أصبح من المتعلقين عن قرب بالامبراطور(١٦)، وضع عليه سلاحه، وتقدم من المعسكر على ظهر حصانه نحو السهل، وعندما بات قريباً من المدينة استدعى سادة القوم للنزول للقيام بمبارزة فردية معه، وكان هناك واحداً اسمه أنجيلو، مشهوراً بشجاعته، فعندما رأى توماس يطلب مبارزة فردية، صب سلاحه على نفسه وخرج إلى السهل، وسار حتى بات وجهاً لوجه مع توماس، ثم استولت الحيرة على الذين وقفوا على الجانبين ينظرون نحو رجلين متسلحين بشكل كثيف وعلى درجة عالية من الشجاعة، استعدا للمبارزة في ذلك المكان، كما لو أنهما في حلبة للصراع، وهمزا فرسيهما، بعدما شرعا رمحيهما نحو بعضهما، وخرق رمح توماس ترس ودرع خصمه ووصل حتى الجلد، في حين دفع أنجيلو برمحه فنفذ من خلال ترس توماس، وهو رافع إياه فوق رأسه، وكان هذا العسكري آنذاك قد رفع ترسه ليحمي المنطقة التي حول رأسه، وهكذا خرق الرمح البيضة وجرح جلدة الرأس، وإثر هاتين الضربتين المتبادلتين افترق أحدهما عن الآخر، فعاد واحد منهما إلى معسكر الرومان، ومضى الآخر عائداً إلى المدينة.

وعندما أكمل الرومان الاحتفال بعيدهم، زحفوا ضد المدينة، وعندما تقرر لديهم أنهم عبثاً يفعلون بقذف الأسوار بالحجارة (لأن الرجال القدماء الذين أبدعوا وسائل العناية بأعمالهم العامة، ربما كانوا أكثر تفوقاً في بناء المدن) توقفوا عن ذلك، وشرعوا برماية الحجارة مثل صحون طائرة، تحلق عالياً من فوق الأسوار، لتسقط بعد ذلك داخل المدينة، ولما

أطلقوا الـرمية االأولى، كان في المدينـة عجوز تعول وتـولول جيئة وذهـاباً، فأصـابتها على رأسهـا، فشطرت الـرأس، وحطمت كـل عظم مـن عظام أطرافهـا، وارتفع العويل والصراخ، واستـولى على الناس مظهر مـن جرى الاستيـلاء على مدينتهـم، ونـال هذا حتـى الذيـن لم يمتلكـوا الشجاعـة للذهاب لرؤية تلك المرأة التعيسة، ولدى متابعـة الرومان برماية أخرى ثم رمايـات، اعتقد كل واحـد من السكـان الخائفين أن الحجارة باتـت فوق رأسـه، لكـن ليـس وفـق الطـريقـة المحكيـة في الـروايـة المتعلقـة بـ«تانتالوس(١٧) Tantalus» ، وشعـر الجنـود الـواقفين للحراسة في الأبراج أن أهل المدينـة يخططون لادخـال الرومان، ولـذلك ذهبوا راكضين نحو القلعة، وفتح السكان الأبواب، وأدخلوا الرومان.

وإثر استيـلاء دوكاس على برنـديزي بـاستثناء القلعة، قسـم جيشه إلى قسمين، احتفظ بقسـم في المدينة لقتـال الذيـن كانـوا في القلعة، وأرسـل القسـم الثـاني للقيـام بأعمال جمع المؤن والغـلال، وهكـذا عملـوا، وقـام سكان المنطقة الخصبة المسماة هـاليتزيون(١٨) Halitzion بتقدير ماحـدث في برنديـزي، فقرروا الالتحـاق بالامبراطور، والاعتراف بسلطـانه لكن قوة صغيرة من الأعداء (كانوا من النورمان)(١٩) كانت تنتظر داخل الأحراش وتتربص بـالفرسان الرومان الـذين يرعون الخيـول، وعندما رأت هذه القوة الـرومان قد توقفـوا وناموا، قامـوا بسرقة خيولهم وسوقهـا بعيداً، ووصلـت الأخبار إلى الـذين كـانوا عـائدين مـن جمع المؤن، فبادر هـؤلاء الـرومـان مسرعين وقـامـوا بمطـاردتهم، فـاستردوا الخيـول، وأسروا معظـم الأعـداء، وكان وقتهـا بينهـم رجل ايطـالي عـالي المقـام اسمه سيكيريـن Sycheren [سيغر Siger ؟] قـد وقع بـالأسر، غير أنه بسبـب عـدم معرفتـه استطـاع أن يخدع آسره فـأطلق سراحـه مقـابـل منحة مـن الذهـب.

١١- وراجـت بين صفـوف الـرومان اشـاعـات تحدثـت عـن اقتراب

وصول وليم وهو يقود قوى عسكرية كبيرة برية وبحرية، وبناءً عليه أعدّ الرومان أنفسهم بقدر الامكان، ومكثوا من دون حركة، ولم يأت اليوم الخامس حتى وصل واحد من الفارين من جيش العدو، وأنذر الرومان وأعلمهم بأن وليم بات على مقربة منهم، ومن الممكن ايقاعه بالشباك، وعندما سمع القادة الرومان بهذا، عبأوا قواتهم وأعدوها للقتال، وارتؤي أن من المناسب أن يتولى بازونفيل وجون أنجيلوس اللذان كان برفقتهما مجمل قوات المرتزقة، القيام بالقتال البري على أن يرافقهما أيضاً الايطاليون الذين انضموا إلى صف الامبراطور، وبالوقت نفسه يقوم دوكاس بالقتال ضد الأعداء بحراً، وقالوا بهذا يمكنهم التعاون ومساعدة بعضهم بعضاً، وعند الفجر زحف دوكاس بخطوات سريعة نحو الشاطىء مع الفرسان المسلحين الذين يحيطون به، وجعل السفن تبحر على صف واحد، في حين كانت بقية القوات جاهزة للقتال براً، وقد تقدمت هذه القوات على تعبئة، ولم تكن السفن الصقلية، التي كانت على مقربة من المدينة، قادرة على دخول الميناء دفعة واحدة (فهذا الميناء كان عريضاً بما فيه الكفاية بالداخل، لكنه انتهى بما يشبه المضيق) ولذلك دخلت بالتعاقب، وانقسمت إلى مجموعات كل مجموعة مؤلفة من عشرة سفن.

ثم إن دوكاس خاف من عدد السفن الصقلية، بعدما رأى أن الاسطول الروماني كان صغيراً جداً بالمقارنة (لأنه تألف من أربع عشرة سفينة فقط) ولذلك خطط لشيء كان حسبما يلي:

لقد تدبر صنع رسالة كأنها قدمت من الامبراطور، تذكر بشكل محدد وشوك وصول قوة كبيرة برية وبحرية، وأن هذه القوات ستصل بالتحديد حوالي منتصف النهار، وعندما رفع من معنويات الجند وآمالهم خاطبهم قائلاً: «أيها الجنود، لقد تعهدت أننا سنحوذ النصر أولاً، خشية أن نتشارك ببركات النصر مع الذين سيلتحقون بنا مؤخراً ليشاركوا

بالصراع»، ومـع انهائه لكلامـه لاحظ هـذا القائد أن سفـن العدو بـدأت بالـوصول إلى داخل الميناء، فـأمر بانشـاب القتال، وهكذا بدأت المعـركة على الفـور، ولم يستطع الصقليـون تحمـل الـرمايـات الـرومـانية مـن البر والبحـر، ذلـك أنهم كانـوا عـرضـة للنشـاب من على الجانبين، ولـذلـك تراجعوا، وطاردهـم الرومان وقتلوا الكثير منهم، واستولـوا على أربعة سفن مع مـلاحيها، بعـدما اصطدمـت بالأرض، ومـرد هذا أن المجـذفين فيهم كانوا أكثر سرعة مـن اللازم، ولذلك اصطدموا بالشاطـىء، فكانوا فريسة جاهزة للقـوات البرية،وقتل في المعركـة مايزيد على الألفين مـن الأعداء، وسقـط أيضاً مـن الـرومان عـدد كبير، ولاسيما واحـد مـن الأعيان اسمـه سكارامـانكاس Skaramankas ، وكان مـــن الخاضعين مباشرة لإمرة دوكـاس فهو عندما شـاهد العدو يفكـر بالفرار، همز فرسـه، وأمسك بدفة مؤخـرة إحدى السفن التي كانت تحاول المغـادرة، وحاول بالقوة أن يمنـع مغادرتها، وبـذلك قـام بعمـل أوسع شهـرة من عمـل كينيغيروس القديم(٢٠) Kynegeiros ، ولدى تأثره بضربـات صدرت نحوه مـن داخل السفينـة، اضطر إلى تـركها تغـادر، لكن بها أنـه أعاق نجـاتها لبعض الوقت، فقد سبب أسرها من قبل الـرومان الآخرين الذين اندفعوا وقتئذ نحوها.

وما ان حقـق الرومـان هذا النجاح حتـى زحفوا ضد قلعـة برنـديزي، وذلك بعدمـا اخترعوا آلة اعتادوا على تسميتها «السلحفاة»، وقـد دفعوها حتـى القلعة، وعنـدما رآهـا الذيـن كـانوا واقفين فـوق الأسوار ضحكـوا بصوت مرتفع، ظـانين أن المقصود من هذه الآلة تدمير جـزء من منشآت السـور، وكان هـذا شيئاً غير ممكن التحقيـق تمامـاً، لأن الأحجـار كانـت شديدة التلاصق حتى أن السور بدا وكـأنه مؤلف من قطعة حجر واحدة، لكن عنـدما أوصـل الرومـان هذه الآلـة إلى الأسوار وألصقـوها بها، ولجوا إليها خـلال الليل، وحفروا على مقربـة من الأسـاسات، وأخـذوا الأوساخ

بعيداً، بعدما وضعت فيها ثم أفرغت من الجانب الآخر، وظلوا متابعين لعملهم حتى تجاوزوا آخر حجرة في الأساسات، ووصلوا إلى الأرض دونها، وهنا أزاحوا الآلة، فأوجدوا بهذا ثغرة واسعة، فشحنوها بالأخشاب حتى امتلأت، ودعموا بذلك جزء السور الذي صار معلقاً، وبعدما لاحظوا أن المدافعين من الداخل ظلوا متشبثين بمواقعهم، ألقوا النار في ذلك المكان، والتهمت النيران جميع المواد، وسببت انهيار السور هناك حتى الأساسات، وأدت إلى سقوط الذين كانوا وراء الشرافات، لكن البرابرة تراجعوا إلى السور الداخلي، ولم تضعف مقاومتهم.

١٢- وبينما كان الرومان مشغولين في هذه المسائل، حشد الامبراطور اسطولاً من السفن وبعث به إلى ايطاليا مع جيش بري، وتولى ألكسيوس ابن بنت الامبراطور ألكسيوس الأول(٢١)، قيادة هاتين القوتين، وكان آنذاك يشغل منصب الدوق الأعظم، [الأميرال الأعلى]، وأمره الامبراطور بحشد قوة أخرى ومن ثم الابحار إلى ايطاليا، لكنه أبحر إلى برنديزي دون أن يفعل ذلك، ومرد ذلك أن مجريات الأحداث كانت مخيفة للقيام بمثل هذه الرحلة، وكذلك خشية من المخاطر التي قد تحيق بهم من العدو.

وبدأ السعد منذ الآن فصاعداً باشاحة وجهه علناً عن الرومان، لأن روبرت صاحب [بازونفيل] بدأ بالتخلي عنهم، وذلك بعدما حارب حتى الآن إلى جانبهم، فهو عندما سمع بأن وليم قادم مع قوة كبيرة، وشهد أن الرومان عجزوا حتى الآن عن اخضاع قلعة برنديزي، تظاهر أنه ذاهب لجمع قوات تساعده في القتال هناك، لكنه لم يعد، يضاف إلى هذا أن الفرسان الذين جاؤوا من تخوم أنكونا Ancona ، طالبوا بأن يُدفع لهم في المستقبل ضعف ايجارهم السالف، وعندما أخفقوا في تحقيق مطلبهم غادروا، ولدى سماع وليم بهذا حشد قواته وزحف مباشرة ضد الرومان.

وشرع الرومان يخططون بشـأن كيفية ادارة الحرب، فقد رأى بعضهم أن الصحيح هـو الذهاب إلى باري، ومـن ثم الحصول على الأمن بـالتحصن بها، لكن هـذا لم يحز على رضا الآخرين، الـذين أعلنوا أنه سيكـون عملاً جبانـاً إذا ماانسحبوا، وتخلوا عما كـان في أيديهم، وبما أن هذا الـرأي بدا هو الصحيـح، ومن أجـل عدم ترك الـوقت يـذهب سدى، قـاموا ثـانية بمهاجمة أسـوار قلعة بـرنديـزي،وهدمـوا قسماً كبيراً منها بـوساطـة الآلات الحربيـة، ومع هـذا لم يستطيعـوا اقتلاع البرابـرة، فهـؤلاء قد تشجعـوا في البداية، وأقلعـوا بهجوم على الرومان، لكـن عندما ضغط الـرومان عليهم بشدة هربوا عائدين إلى الأسوار، ولـولا وقوع حادث عرضي أعاق الرومان، لأمكن الاستيـلاء على برنديـزي عنوة وبكل سرعة، فقـد كان الرومـان قد اعتلوا فـوق الأسوار، وأخـذوا يقاتلون الـذين داخـل المدينة مـن الأبراج، لكن عدداً كبيراً من الأبـراج التي كانت قد تضررت كثيراً من قبـل لرميها بآلاف الحجـارة، تساقطـت إلى الأرض وأوقعت معهـا كثيراً من الـرومان، ولهذا اضطر جيشهم إلى الانسحاب خائباً.

ولاعتقاد الصقليين أن وليم كان بعيداً، وضعوا خطة لتسليم القلعة إلى الرومـان وفق شروط، ولكن بما أن السعـد قد وعد بخدمـة الرومان لـوقت محدد، ولشعـوره أن هـذا الـوقـت قد انتهـى، فقـد تخلى عنهـم في وسـط المدينة، لأنه بينما كان الصقليون يخططون هكـذا جاءتهم الأخبار بأن وليم وصل، وبـات قاب قوسين أو أدنـى مع جيش كبير، ولـدى سماعهم بهذا تخلوا عما عـزموا عليـه، وصعدوا فـوق الأسوار، ورفعـوا أصوات سرورهـم عالياً، وأخذوا يحتفلون وكأنهم قد حققوا فعلاً طرد الرومان.

١٣- لقد كان هذا ماتحقق هناك، وزحـف وليم، الذي أقلع من مسينا مع كـامل جيشه، مبـاشرة نحو برنـديزي، وفي ذلك الـوقت كان اسطـوله راسيـاً قرب جـزيـرة على مسافـة جـد قصيرة مقـابل بـرنـديزي، وخطـط الصقليون لمهاجمة الرومان من الجانبين في وقـت واحد، وحال سوء التدبير

—كما أعتقد— مع ماقدر للرومان من هزيمة، بينهم وبين الهجوم البحري فوراً، وقبل أن يظهر وليم لهم ويقف ضدهم، فعندما قاتلوا ضد الطرفين، جلبوا الدمار للمصالح الامبراطورية، وكانوا قد انتظروا آنذاك وصول جيش من بيزنطة، وهكذا أجلوا الهجوم حتى وصوله المنتظر بسرعة، لكن عندما وصلت الأخبار باقتراب وليم، أرغموا وقتها على خوض المعركة ضد الطرفين معاً.

واختار الرومان رجلين مجربين بالقتال هما: يواناكيوس كريتوبلس Ioannakios Kritoples وبيرم(٢٢)، الذي كان من أصل تركي، وبعثوا بهما مع جورجيين ولانيين لمناوشة الأعداء عندما يلتقون بهم، وكان هؤلاء الأعداء قد أقاموا معسكرهم على بعد خمس وأربعين غلوة [خمسة أميال ونصف الميل]، وبعد ذهابهم إلى هناك هاجموا العدو وقاتلوه في الساقة، واشتبكوا عن قرب به وقتلوا بعض رجال المؤخرة، وساقوا أمامهم عدداً كبيراً من الخيول من قطار الأثقال، وبعدما انتزعوا منهم واحداً من أعلامهم، عادوا إلى برنديزي، غير أن الصقليين لم يأبهوا بهذا (بسبب أعدادهم الهائلة، لم تصلهم أخبار ماحصل)، وعسكروا بالفعل على مقربة من الرومان، حتى أن الذين كانوا يبحثون عن الأعلاف من الطرفين غالباً ماتصادموا مع بعضهم بعضاً، وخطط الصقليون للمعركة، وكان أسطولهم راسياً في الميناء على مقربة منهم، واقفاً بانتظارهم، إذن على هذه الشاكلة انشغل الصقليون.

وكان الرومان أقل عدداً من جيش العدو، وذلك بسبب الذين تخلوا عنهم من قبل، ثم لاستمرار تناقص قواهم لكثرة حالات الفرار، ولأن عدداً كبيراً من حلفائهم الآخرين قد هجروهم، وبشكل خاص قيام جماعة معتبرة من النورمان كانت مستأجرة من قبل الرومان بالالتحاق سراً بوليم، ولاحظ وليم ماكان يجري فقرر الامساك بالفرصة التي توفرت له تلك الساعة خشية أن تفوته بعد وقت، بسبب أنه إما أن يأتي روبرت

صاحب بـازونفيل لمساعدتهم (لأنه روي أنه جمع جيشـاً وكان عائداً) أو ان نجـدة بحريـة ستصل إليهـم مـن عند الامبراطـور، ولهذا صف وليـم جيشه على شكـل وحدات وتقدم، ونظـراً لأن روبرت قـد تأخر، إمـا عن قصد أو صـدفة، قام الـرومان بإعـداد أنفسهم والتهيـؤ بقدر ماهـو ممكن، ووقفوا في وجـه العدو، وكان مثيراً آنذاك أن تـرى قوة صغيرة من الـرومان استعـدت للقتـال مـع جميـع القـوات الصقليـة [٢٨-أيـار١١٥٦](٢٣) ووقف الجيشـان لبعض الوقـت دون التحام، ثم قفـز واحد من الفـرسان المرتزقة من بين صفوف الرومـان، ووقف بين الصفين، ودعا إلى من يبارزه وينازله بشكـل فردي، وهكذا بدأ القتال، وانـدفع كل فريق ضـد الفريق الآخر، وكان النزال قد بدأ عند الفجـر، واستمر القتال متوازناً لمدة طويلة، قاتـل فيها الـرومان بشجـاعة، ثـم إن الصقليين شقوا طـريقهم لتفـوقهم العـددي، ودفعوا بـالرومـان إلى الخلف، ووقـع كثير من الفـارين وأخـذوا أسرى، وشـق البقية طـريقهـم إلى المدينة بعـد كثير مـن الجهد والعنـف، وكان بينهم القـائد ألكسيوس [كومينوس]، أما دوكاس الـذي ترك خارج الأسوار، فلـم يتوقف عـن الضرب وتلقي الضربـات حتى جرى تطـويقه من قبـل الأعداء، وأخـذه أسيراً، لكن بعـد صراع طويـل، وعندمـا أسره الصقليون بات من السهولة بمكان إلقـاء الذين داخل المدينة في الشبكة، وكأنهم وقعوا في فخ.

إلى هذه النهـاية جلـب الأحمقان كومينـوس ودوكاس شهـرتهما المبكرة، وهكذا رجال هـذه الأيام: عاش بعضهم وهو مجرد مـن العلم العسكري، فقـاد المصالـح إلى الـدمـار، وعرف آخـرون بـالصـدفة قسماً مـن العلـوم العسكـرية، لكنهـم أخطأوا في الجزء الأهـم، ذلـك أن الاستراتيجية فـن، وينبغـي على من يمارسهـا أن يكون مـرناً ومـاهراً، وأن يعـرف كيف يقـوم بالتغيير بـالوقـت المناسـب أثناء كل مـرحلة مـن المراحل، فهنـاك أوقات ليـس من العـار فيها الفـرار، إذا سمحت المنـاسبـة بذلـك، ومرة أخـرى

المطاردة بـدون توقـف، كل ذلـك حسب منفعـة الفرد، وعنـدما يبـدو أن النجاح مضمون بـالبراعة أكثر منه بـالقوة، المخاطرة وقتهـا بكل شيء أمر مأسـوف عليه، وبما أن عـدداً كبيراً ومتنوعـاً من المسـائل يستهدف غـاية واحـدة هي النصر، فـالمسألـة هـي مسألـة خـلاف حول الطـريقة التـي يستخدمها المرء للوصول إليه.

وبما أن ألكسيوس لم تكـن لديه القـوات التي أمره الامبراطـور بجلبها، ولو أن الـرومان لاحظوا أنهم ليسـوا مساوين للصقليين، فحملـوا جيشهم على ظهر سفنهـم، واشتبكوا مع الأسطـول أولاً، لكانوا حققـوا النصر عليه بالقوة، ولكـانوا أيضاً سوغـوا بانتصاراتهم في البحر عمليـة انسحابهم من البر، حتى إذا ماحـانت الفرصة، نـزلوا ثانية على الأرض وربحـوا المعركة في ايطاليـا بقوات أكبر، لكـن بما أنهم احتفظوا بـأذهانهم بفكـرة التراجع الخسيسة، سقطوا في حمأة العار لتعرضهم للدمار مع جميع قواتهم.

١٤- لقـد كان هـذا ماوقـع هناك، وعنـدمـا سمع الامبراطـور بذلـك ظهرت عليه عـلامات الغضب، خاصـة بسبب أن هذا حصل بعـد عدد كبير من النجاحات المتقدمة، لأن الفـاجعة التي تقع بعد الأعمال المجيدة تجلب العـار، وتسبب هذه الأمـور بالعـادة الحزن الشديد بشكـل خاص، لأنها تفتقر كليـاً حتى إلى قليل مـن النجاح، ثـم يعقب ذلك دمـار لكل شيء، ولهذا كان حزيناً جداً، ومع هـذا لم يقهره الحزن، فبعث بألكسيوس [أكسـوكـوس Axouchos] الـذي شغـل انـذاك منصـب بروتوستراتور، إلى أنكونا، ليعمل ثانية في سبيل الاستيلاء على ايطاليا، ولو من البداية، لأن النـاس هناك كانوا قد أقسموا لـلامبراطور، أنهم مع عدم رغبتهم في قتال الملـك الألماني، سيتولون حماية أموال الامبراطـور والرومان الـذيـن سيبعثهـم إلى هنـاك مثـل حمايتهـم لأنفسهـم، لكـن لماذا اقتنـع الامبراطور بـالقيام بهذا، هذا مـاسوف أحكيه، فعندمـا كان من قبـل قائماً بحملة على كيركيرا، لاحـظ أن أمة البنـادقة كـانت مخادعـة وعنيدة، ولهذا

ارتأى أنـه من الأهميـة بمكان الاستيـلاء على أنكونـا، فبذلـك يمكنه أن يقلل إلى حدّ بعيد مـن عجرفة البنادقة، ويصبح سهلاً لـه من هناك شن الحروب في ايطاليـا، ولذلـك توجه ألكسيـوس إلى أنكونـا وحمل معه كثيراً من المال [١١٥٧]، وأرسـل من هناك إلى ايطـاليا [أي أبـوليا] قسطنطين أوتو، وأنـدريه كـونت إحدى المدن الايطـالية [روبي كـانينا Rupe Ca-nina] وكـان شجاعـاً جباراً، وممتلئـاً بـالاقدام، وحشـد ألكسيوس قـوة كبيرة من المرتزقة، فأخضع عدداً كبيراً من المدن للرومان(٢٤).

ثم حدث شيء كان كما يلي:

بما أن أسقف روما [البابا هادريان الـرابع] سلف له ووافق على تحالف مع وليـم، فعندمـا لاحظ هذيـن الرجلين [قسطنطين وأنـدريه] مـاضيان خلال منطقة روما، عارض ذلك بشـدة، غير أن بعض أعيان روما، الذين تقدم لهم الموافقة على اقـامة صداقة مـع الرومان (لأن الامبراطور مـانويل اعتـاد على التحـالف مـع عـدد كبير مـن هـؤلاء) أثاروا الشعـب ضـده، وطلبوا رايـة امبراطورية،وتلقـوها بتشريف عظيـم، وسمحوا عن طـواعية لكونتـوستيفانوس بتجنيـد كل من يـرغب بـذلك، ولغضب الأسقـف مما حدث وضـع الناس تحت الحرمـان [الكنسي]، وهو الشيء الـوحيد الـذي كـان بإمكـانه أن يفعلـه، قائلاً إنـه لايوجـد ما يجمـع بين روما الجديـدة [القسطنطينية] ورومـا القديمـة، ذلك أنهما انفصـلاعن بعضهما منـذ زمن قديم، «وبالحري علينا أن نقاتـل إلى جانب أمير الصقليين، وإنه لإثم إذا لم نذهب إلى عون الـرجل الذي هو عضو في جماعتنا، فضـلاً عن ذلك إنه الرجـل الذي يناضـل بصعوبة ضـد واحد أقـوى منه نفسه»، وقـام واحد ممن تـدبر شؤون الامبراطـور، بعدما خـاف من العقـوبة، بعكس مـواقفه، ومضى لـلانضمام إلى جانـب الأسقف، لكـن القائدان الـرومانيـان شداه بكـل عنف، وشهـرا به لخرقـه عهوده، وعلقـاه بطـريقة وحشيـة معدومـة المثال، فقـد علقا سلاحه وسـابغته وحصانه بـوساطة حبال، ربطـوها إلى

شجرة، وحشدا قوة بشكل علني ضد الأسقف حتى أرغماه على اعفاء الناس من العقوبات، وهكذا حظيت شؤون الرومان ثانية بحظ عظيم(٢٥).

واستولى الرومان حرباً على مدينة نالت اسمها من القديس جرمانوس [سان جرمانو، كازينو الحالية]، ووضعوا أيضاً ثلاثمائة آخرين تحت حكم الامبراطور، ومن الممكن قراءة اسم كل واحد من هؤلاء من قبل كل راغب، لأنهم مثبتين خارج القصر القائم جنوب [كذا] المدينة، وهو القصر الذي بناه هذا الامبراطور، وذلك بالاضافة إلى القصور القديمة [أي بلاشرين](٢٦)، وإذا كان قد دون هناك أكثر من أسماء هؤلاء، فتلك مبالغة فيها ادعاء باطل بطريقة مفضوحة من قبل الذين ادعوا مثل هذه الأعمال، كما هي الحال عادة مع العامة، وبسبب هذا سمعت أنا مرة الامبراطور نفسه يعبّر عن غضبه تجاه ذلك، هذا وأنا الآن لاأدري هل أزيلت هذه الأسماء أم ماتزال باقية.

١٥- وهكذا بدت الأراضي الايطالية وقد دنت من أن تصبح ثانية خاضعة للرومان، لكن ألكسيوس كومينوس ودوكاس وبقية القادة الرومان، الذين سيقعون أسرى في قبضة صاحب صقلية، دمروا القضايا ثانية[١١٥٨]، ذلك أنهم تعهدوا بأشياء كثيرة إلى الصقليين، لم تكن برضى الامبراطور، وبذلك استلبوا من الرومان أعظم الانتصارات وأكثرها نبلاً، فما الذي يمكن للانسان أن يوافق عليه، عندما تكون الأغلال ممسكة به، وهو سجين في زنزانات تحت الأرض؟ لقد فعل الصقليون هذا، وهكذا قام الرجال الذين كانوا هناك —وكانوا يتوقعون أن يقوم الامبراطور بصنع سلام مع وليم— بانتزاع المدن من الرومان وحرمانهم منها بكل سرعة.

وعندما سمع الامبراطور بهذا، وفهم الذي حدث، بعث برسائل إلى

صقلية، وكتب مايلي إلى الرومان الذين كانوا بالسجن:

«إنني أتساءل أيها السادة كيف يمكنكم متابعة ممارسة الدناءات في الأعمال، لأنكم هكذا قمتم من قبل بتدمير الانتصارات السالفة والرائعة، وجلبتم إلى أنفسكم القدر الذي أنتم الآن فيه، والآن، عندما كان آخرون متلهفون إلى أن يعالجوا بالحرب وبعون من الرب، ماقمتم من قبل بافساده، تقفون في الطريق، ألم يخطر ببالكم أن الصقليين يريدون بهذا إعاقة تقدمنا نحو الأمام؟ لأنه من هو الذي بين الايطاليين، سيسمع أن الأرض التي نمتلكها اليوم سوف ترد إلى وليم من قبلنا، من هو هذا الذي عندما يسمع بذلك، لن يثور علينا ويمضي مباشرة إلى التحالف مع وليم؟ لن يكون هناك من أحد، باستثناء الحمقى والذين بدون عقل، وهم كما يحدث كثر، أسألكم، أخبروني بحق الرب، متى بدت أرض آباءكم أكثر نبلاً بالنسبة لكم؟ متى، بعدما أصبحت ايطاليا وجزيرة صقلية موضوعة تحت سلطانكم، أم عندما كنتم أبطالاً متميزين تمّ انقاذهم بعبقرية من قبل أبناء قومهم، أم عندما تعودون إلى بيزنطة أبطالاً شجعاناً للرومان، ويكون ذلك بمثابة مشهد ترحيب بالنسبة لزملائكم؟ أو متى عندما نكون تخلينا عن لاشيء، وربحنا لاشيء، فقط حسبما تحدد أيمانكم لوليم، أو عندما نستدعيكم إلى هاهنا؟»،

لقد كان هذا ماكتبه للرومان، أما ماكتبه إلى وليم فكان مايلي:

«لاتظن أيها السيد النبيل، أننا سوف لن نلاحظ لماذا تمّ تدبير هذا من قبلك، مادام ليس من الضروري تقديم أعذار لما تمّ صنعه تحت الاكراه، وعلى هذا إن ماتعهد به هؤلاء المكبلين، والرجال المسجونين مرفوض من قبلنا كلياً ولانرضى به البتة، ولن يتوقف الرومان عن الحرب في ايطاليا حتى يضعوها مع الجزيرة كلها تحت سلطاننا كما كانت من قبل».

وعندما تسلم الذين كانوا يحيطون بوليم الرسالة، ردّوا عليها كما يلي:

«إذا ما كنتُ ترغب، أيها الامبراطور الجليل، أن تفرض عقوبات علينا بسبب الأخطاء التي اقترفت بحق جلالتك من قبل، فلقد عذبت ايطاليا فوق ماهو ضروري، فلقد استوليت على مالايقل عن ثلاثمائة مدينة في وسطها، بعضها لم يكن داخلاً في المملكة الرومانية منذ زمن طويل مضى، ولقد نلت شهرة لم ينلها غير جلالتك منذ أيام جستنيان، الامبراطور السالف للرومان، نحن نطلب منكم مقارنة ذنبنا (نعني عندما استولينا على كورنشا ويوبويا) مع الانتصارات الرومانية في ايطاليا، التي استولت منذ زمن طويل على ممتلكات كثيرة هناك ونقلت كثيراً من المقتنيات، وغالباً ما ملأت الأرض بثلاثة أضعاف من الدماء، ثم إنكم لم تقتصروا في عملكم على مجرد نهب الكثير من المدن بل حولتوها إلى رعية لكم. أيها أعظم بالنسبة لكم؟.

وإذا لم ترغب بقياس هذه الأشياء ضدنا، نحن الذين أدنى كثيراً النسبة لجلالتكم، إلتفت وعد بالذاكرة إلى الأباطرة القدماء، وقدّر معي إعات الرومان في الأيام الماضية، أم أنه لم يحدث أن قام أحد بتسبيب الاضطراب للمملكة الرومانية؟ أو لم تكن دولتك هي التي عانت كثيراً على أيدي شعوب الترك والهون [البشناق]، وفيما بعد على أيدي روبرت [غويسكارد] الذي عبر من ايطاليا إلى إيبيدامنوس Epidamnos [دورازو، حالياً دوريس] وناهض جدك [ألكسيوس الأول] بعدد كبير من المعارك؟ فلقد تمكن جدك بكل صعوبة، لابل نادراً ماتمكن من دفع روبرت من الأراضي الرومانية، غير أنك استطعت أن تسيطر تقريباً على كل مالدينا، وإذا ماكنت قد فعلت هذا انتقاماً لنفسك منا، فلقد حصلت على مافيه الكفاية من انتصارات، ولقد عاقبتنا بما فيه الكفاية.

وبما أنك أنت الذي دست ترابنا، ليس من العار أبداً قبول عروض السلم، كما أن ذلك لايتخطى الفخار أبداً، وإنك —في حال القبول— سوف تتسلم على الفور جميع الرومان، الذين وقعوا في أسرنا، مادام القدر

هـو الذي أعطـانـا مثـل هؤلاء الـرجـال العظماء، مـع أنك لسـت محقـاً بغضبك علينـا، لأنه ليـس من المعيـب للانسـان الذي يخوض الحرب أن يتخذ اجراءات ضـد أعدائه، هذا ويبقى أنك محق في اثـارة الحرب ضدنا ولسبب واحد، لكن مـاالذي اقترفناه من ذنب تجاه يوبـويا؟ لأنك —كما قلنـا— تجاوزت التوزيـع العادل، وعلى هـذا إذا ماكنـت راغباً في فـرض عقوبـات علينا بسبـب ماقمنا بـه في أراضيك، فلقد فعلنـا مايسـاويه في الدفاع ضد جلالتك، إنما إذا مـاأردت اثارة الحرب دوماً ضد شعبنا، لقد حان الـوقت لتقـدير هذا الأمـر فيما إذا كان مناهضـاً للقوانين الانسـانية، لأنه انسـانياً أن تقوم بقياس الحروب بـأسبابها، وربما يقول انسـان آخر ان تمضي أبعد فذلك عمل وحشي، لكن هذا لن يقال من قبلنا، نحن نطلب منك إبرام معاهدة وإنهاء هذه الحرب».

وبعدما استعرض الامبراطور هذه الرسـالة عدة مرات، وافق على ماقيل فيها، وعندمـا تسلم مانويل الأسرى الرومـان واسترد أسلاب الحرب التي كانت هناك، وحصل بالاضافـة إلى ذلك على أيمان أداها وليم أنه سيكون حليفه فيما يتعلق بقضايا الغرب، عنـد ذلك أنهى الحرب، وقام بعد وقت قصير بتشريف وليم بأن جعله ملكاً، حيث أنـه لم يكن قبل ذلك كذلك، واحتفظ نحـوه بعواطف جيدة، حتـى انه عندمـا استفرغ وليم ماكتـب له من حياة، واتصل أخـوه به [مانويل] وطلب تقديم المسـاعدة له ليحكم صقلية، لم يستقبله أبداً(٢٧).

١٦- وهكذا وصلـت الانشغالات الـرومانيـة في الحروب الايطاليـة إلى نهايتها هناك، وبما أن الشـؤون في آسيا كانت متحركة منـذ أمد، بينما كان الامبراطور مـايزال يتـابع الصراع في ايطـاليا، ولـذلك كـان مهمومـاً كثيراً بشأن المسائل هنـاك، لكنه كان مستغرقـاً كلياً بمشاكل ايطـاليا، ذلك أن سلطان الأتـراك(٢٨) كان قد استولى على كـل من مدينتي بـونورا -Pou noura وسبيلا(٢٩) Sibyla وكانتـا من قبل خاضعتين للـرومان، كما

أن طـوروس السالـف الـذكـر كان قـد استـولى على عـدد كبير من مـدن كليكية، وقـام في الوقت نفسه يغـي—باسان، الـذي كان مقدماً لـلأتراك وحاكماً لمنطقة كبدوكية، بالاستيلاء على أونايون Oinaion [أوني] وبوري Pourae [بـافـرا]، وكلتـاهما مـن مـدن بحـر بنطـش(٣٠)، وقـام الامبراطور بإرسـال ألكسيوس غيفاردوس [حوالي١١٥٨] ضـد السلطان، فاستطاع استرداد المدينتين المذكـورتين، ونجح الامبراطور في الوقـت نفسه في جهوده في جعل يغي—باسان يتخلى عن حملة ضد الأراضي الرومانية، وأن يغـدو حليفـه المخلـص، ومـن ثم خطـط ليقـوم بنفسـه بحملـة إلى كليكية.

وحـدثت آنـذاك في بيـزنطة الحوادث التـالية: كـان هنـاك لاوياً، مـن الذين نـدعوهم قسس، كان اسمـه باسيل، كان معهـودا إليه القيام بنشر وتفسير الكتابات المقـدسة للجماهير في أوقات الاجتماعات الـدينية في كل مكان، وقـد أراد أن يقوم بشكل علني بـذيء بالاساءة أثنـاء الطقوس إلى بعض الذيـن تخاصم معهم مؤخـراً، لاسيما ميخائيل السالـونيكي ونقفور الذي كنيته باسيـلاكيوس (أوباسيلاكس)، وكان واحداً مـن هذين الذي اسمـه ميخـائيـل آنـذاك أستـاذاً للبـلاغـة يتـولى شرح وعـرض الكلمات المقدسـة للأناجيل في كنيسـة آيا صوفيا، ونظـر إلى الآخر نظرة تقديـر من قبل رجال الأدب، خـاصة لبراعته في تأليف الخطابـات، وفي الحقيقة كان مدربـاً بشكل بارع في كثير مـن أقسام البلاغـة، وعمل هذان الـرجلان في هـذه الأشيـاء، وكانـا ينـزعجـان إذا مارأيـا انسـانـاً متقدمـاً في المعـارف العلمية، ومن ثم يقومان بالدس ضـدّ مثل هذا الانسان، وبذلك أصبحا الأسباب لمضار بالغة لحقت بهما وبكثير غيرهما.

لأنه عندما كـان باسيل يؤدي قداسه العادي في كنيسة الـرسول يوحنا اللاهوتي خارج المدينة، ذهبـا للاصغاء إليه، وبنوايا تآمريـة عدوانية مليئة بالشرور، لأنه عندمـا كان ماضياً في القراءة لواحـد من نصوص الانجيل،

يخيل أنـه أعلن أن ابن الـرب والروح كانـا واحداً، بدون تمييـز وأنهما تلقيا أضحية قـربان التعميـد مع الأب«٣٠»، وقامـا على الفور بـالتمسك بهذه العبـارة، وصارا يصعـدان وينزلان وهما يستهـزئان بها، قـائلين إن باسيـل أعطى طبيعتين [تتعلقان بحال المسيح]، إذا كـان واحد قد ضحى وتلقى الآخر الأضحيـة، ووافق آخرون ممـن احتلوا مكانة ونـالوا تقديـراً لعلمهم على هذا التفسير، وخاصة سـوتريكوس Soterichos الذي كنيته بـانتيـوجينـوس Panteugenos ، وكـان رجـلاً قـد تفـوق على الآخريـن في تلك الحقبـة في المعرفة وفي البراعـة الخطابيـة، وكان قـد نال عرش البطـركية في انطاكيـة، لكنه لم يكن رسم بعـد، ودافع سوتـريكوس عن عقيـدتهما ليس فقـط باللسان والفـم، ولكن بحشد كميـة هائلـة من الأدلة المنطقيـة، التي إذا عـرضت على شكـل حوار، تتملـك شبهاً عظيماً بـأفلاطـون، ووحد في تصنيفـه بين كثير مـن الأشياء المتنـاقضة، وبسبـب ذلك خضـع للخلع من العـرش البطركي هـو وكل الـذين تعاونـوا معه، وكـان ذلك عنـدما تـولى الامبراطـور الحكم على المسـائل موضـع الخلاف، واسترد باسيل مرتبته ثانية، ذلك أنه كـان قد فقدها من قبل، ومع هذا لقد خسرها ثانية في وقت متأخر، عندما اتهم أنه غير أرثوذكسي العقيدة «٣٢».

١٧- وما ان وصل هذا الخلاف اللاهـوتي إلى هذه الخاتمة حتى انطلق الامبراطور ضـد طوروس، ذلك أنـه عندما كـان مشغولاً —كما ذكرنـا من قبل— بشؤون الغـرب، قام هذا البربري الـذي كان ينتظر هذه الفـرصة، بالاستيلاء تقريباً على مجمل مدن كليكيـة، ذلك أنه كان أعظم مهارة من أي انسان في الامساك باللحظة المناسبة، وقادراً على تحريك القضايا.

لهذا السبـب ذهب الامبراطـور إلى آسيا، وكـذلك لأسبـاب أخرى أنـا مقبل على حكايتهـا: عندما كان ريمونـد صاحب أنطاكية قـد انتقل من بين الأحيـاء، أقدمـت زوجته كـونستـانس على منـح نفسها والممتلكـات الأنطاكيـة إلى الامبراطور، لكـن —كما سلف بنـا القول— عنـدما أرسـل

الامبراطور القيصر جون روجر للزواج منها، غيرت رأيها بموافقة عامة من الأنطاكيين، وارتبطت بالزواج[١١٥٣] بواحد اسمه رينودي شاتلون [أرناط]، ذلك أن الانطاكيين كانوا يخشون أنه عندما تتزوج المرأة من روجر سيصبحون تابعين للرومان ومن رعاياهم يدفعون الضرائب لهم، وعندما لم يستجب الامبراطور لما طلبه أرناط منه، حاول هذا أن يخيفه، وعرض كثيراً من التهديدات، وأكّد أنه يريد المال، وهنا قام بما يلي[١١٥٦]:

بعدما قام ببناء عدد من السفن، أبحر بها نحو قبرص، وقاتل الذين فيها بطريقة القراصنة، وحمل من هناك كميات هائلة من الثروات، وفي البداية تمكن ابن أخت الامبراطور جون (كومينوس البروتوسيباستوس) الذي كان آنذاك حاكماً للأرض ومعه ميخائيل براناس والذين كانوا متمركزون هناك للدفاع عنها، من رده والتعامل معه برجولة، ثم إنه عندما كان براناس يتولى مطاردته باندفاع لم يكن ضرورياً عند ليكوسيا (نيقوسيا)، تقدم جون للالتحاق به، فوقع الاثنان بالأسر بأيدي أرناط، وبناءً على هذه الأحداث زحف الامبراطور إلى كليكية(٣٣).

وعندما وصل إلى فريجيا الصغرى(٣٤)، اصطدم بالأتراك هناك، فهزمهم بالقتال، وقتل منهم كثيراً، وعاث فساداً بالمنطقة المجاورة التي كانت عائدة للترك، وفعل ذلك وهو مسرع نحو كليكية، متظاهراً بالحرب ضدّ الأتراك، فقد ارتأى أنه بهذا الأسلوب يمكنه أن يفاجأ طوروس وهو غافل، ومن أجل أن يصل بشكل غير متوقع، قام زيادة على ذلك بالعمل كما يلي:

أمر ألكسيوس كاسيانوس Kasianos ، الذي كان يحكم آنذاك منطقة سلوقية بأن يقوم بحشد القوات المحلية وأن يكون مستعداً، ثم اختار الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه وبادر مسرعاً إلى سلوقية، وأمر

بقية الجيش الروماني الذي بقي في بعـض الأماكن حول أضاليا، أن يعتني بخيوله، لانتشار مـرض كان مؤثراً بشكل خاص على المخلـوقات النادرة، فقد هاجم حوافر الخيول وسبب لها قروحاً مؤلمة.

وعنـدما وصـل إلى سهـول سلوقيـة(١١٥٨) لم تكـن القـوات جاهـزة حسبما كان قد أمـر (لأن ذلك كان قد أهمل من قبـل ألكسيوس) فتحول نحو شيء آخر، ذلك أنـه كان متشوقاً لالقاء القبض على طـوروس بكامل قواه، وقـام بارسـال ألكسيوس أمـامه حتى يتمكـن بشكل مـا من اعـاقة طوروس، الذي التقى به هناك، في حين قام هو [مـانويل] بالزحف خلفه وهو يقـود قوة لم تزد على خمسمائة رجل مسلـح، وكان هذا الطاغيـة سيقع بسرعـة أسيراً بأيـدي الرومـان، لولا أن القـدر تـدخل بشكـل غير متوقـع وأنقذه، ذلـك أن واحداً مـن المتسولين [الحجـاج] الذيـن كانـوا بأعـداد كبيرة من الأجنـاس اللاتينية، ذاهبين إلى فلسطين، وكانـوا قد عانـوا أثناء تجوالهم بـالجبال والحصـون ولم يدعـوا شيئاً لم يحتـاجوه بحشـودهم، وقـد التقى هذا الـلاتيني بالامبراطور، وحصـل منه على قطعة ذهبية، ثـم بادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى طوروس وحذره من دنو الامبراطور، ولدى سماع طوروس بهذا اندهـش، غير أنه لم يفش الأخبار إلى أحـد من الناس باستثناء توماس وكوركيس اللذان كـانا مقربين منه، وسارع بالفرار ملتجئاً من مكان إلى آخر.

ودخـل الامبراطـور إلى كليكيـة، غير أنـــه لم يعثـر على طـوروس في أي مكان، وقد تمكن من الاستيلاء على حصـن لاموس [على اللاموس جي]، وكـان جيـد التحصين، ومـع ذلـك أخذه بـدون قتـال، ثـم استـولى على كستراموس وعين زربـة،وهي مـدينةواسعـة الشهرة، وزحـف نحو الأمـام فعاث فسـاداً في المنطقة وأخضع لـونغينياس Longinias وجميع المنطقة المحيطة بها، وعبر يريد طرسوس التـي كانت حاضرة تلك الدولة، فاستـولى عليها بسهولـة، وقام بارسـال بعض عسـاكره إلى تلي [توبـراكل

Toprakkale تـل حمدون] وهـو حصـن حصين جـداً، فـوضعـه تحت سلطة الـرومان(٣٥)، لكن كيـف استولى على طـرسوس التي لم يكـن من السهل الاستيلاء عليهـا بآلاف الحملات، كيف فعل ذلـك في يوم واحد، هذا ما أنا مقبل على حكايته:

لم يرغـب الامبراطور بـالإقامـة طويـلاً هناك، لـذلك تـوجه نحـو مدن أخرى، غير أنه أرسل ختنه ثيـودور باتاتزس Batatzes ليتولى حصـارها، وقبـل أن يصـل ثيـودور إلى المدينة، تخيـل الـذيـن وقفوا فـوق الأسـوار أن الامبراطـور هـو الـذي يقترب منهم فـأصـابهم رعـب منقطـع النظير، حتى أنهم ألقوا بـأنفسهم من الأبراج، فمات هـؤلاء الأشقياء ميتة تعيسة، وبهذه الطريقة تمّ على الفور الاستيلاء على المدينة.

١٨- وهكـذا تمّ الاستيـلاء على طـرسـوس، ولاحظ طـوروس وأرنـاط هذا، فلم يتجـاسرا على التوجه نحو الامبراطور رسـلاً لنفسيهما، لأنهما كانا يعرفان عظيم مـا اقترفاه من ذنوب، ولهذا آثرا بعث بعـض الرسل من بين الأعيـان(٣٦) إليه، مـع أمـل أن يصـالحهما الامبراطور ويغفـر لهما، ونظـراً لاخفـاقهما فيما ابتغياه، وافـق أرنـاط، الـذي طوقتـه المصـاعـب من كـل الجهـات، على تسليـم قلعـة أنطـاكيـة إلى الامبراطـور، إذا مـاعفـي عـن جرائمه، وكان من حيث المبدأ مدركاً لسوء مشاعر أسقف أنطاكية نحوه، وهو رجل مـن بني قومهم أقامـوه راعياً لأنفسهم، وأعطوه لقـب بطريرك، وكان قد نشب نزاع بينه وبين أرناط للسبب التالي:

لقد شعر أرناط —كما ذكرنا مـن قبل— بفقر شديد، فقرر نهب قبرص، والتقى أرناط بالبطـريرك على انفراد، وحيث أنه كان يعلـم أنه ثري جداً، فقد طلب منه منحه بعض المال، وبما أنه لم يكن قادراً على الحصول على أي مبلغ منه، قام بانتزاع ثياب البطريـرك وأخذ منه أرديته، ثم قام بضربه بالعصـا مراراً، وبما أن الموسم كـان فصل الصيـف في ذروته، قام بـدهن

جروح البطريـرك بالعسل، وتركـه يحترق بالشمس، وهكذا استقـر الذباب والبعـوض والدبـابير والنحـل وكل حشرة مـاصة للـدمـاء، حول جسـده العاري تمامـاً، ومصت دمه، وأمـام هذا العـذاب استسلم الرجـل، ووافق على التنـازل عـن جميع ثـروتـه إلى أرنـاط، وقـام أرنـاط حتى ينـال رضـا [البطريـرك] بجعله يـرتدي جميـع ملابسـه المعتادة، ثـم أركبه على ظهـر حصـانه وقـاده خلال المدينـة، وقد سـار إلى جـانبه وهـو ممسك بـالحزام المتدلي من سرجه، ومـع أنه فعل هذا، فقد كان البطـريك أكثر غضباً على أرنـاط، وبات ينتظـر الفـرصـة لينتقم منـه، وقـد كتـب مراراً وتكـراراً إلى الامبراطـور وعرض عليـه القيـام بخيانـة أرناط لصـالحه، وعنـدما رفـض الامبراطور هذا العـرض (ولأنه كان يؤثر الـربح بوساطة الحرب لابـوساطة الخيانة) تخلى عن هذه المحاولة.

ولـدى معرفـة أرناط بهذا، قـام بالـوعـد بالأشيـاء السالفـة الذكـر إلى الامبراطـور، وعندمـا لم يأذن الامبراطـور بقبول ذلـك، تصرف أرناط وفـق الأسلوب التالي:

رفع الغطاء عـن رأسه.. وشمر عن ذراعيه حتـى المرفقين، وسار داخل المدينة حافيـاً مع حشد من الرهبـان، ثم ظهر أمام الامبراطـور، وقد لف حبلاً حـول عنقه، وحمل سيفـاً بيده الأخرى، وأقيمـت دكة رائعـة هناك، ووقـف أرناط بعيـداً عـن الخيمة الامبراطـوريـة، وكـأنه غير متجـاسر على الاقتراب منها، بينما اقترب من الامبراطـور حشد من الرهبـان —الذين لم يكونوا رهباناً— وكلهم حفاة، ورؤوسهـم عارية، وجثوا على ركبهم، وهـم يبكون والـدموع تنحدر مـن مآقيهـم، وقدمـوا نحوه أذرعتهم، وفي البـداية رفض الامبراطور، لكن فيما بعد استجاب لكثـرة الرجاءات، فأمر الأمير أن يتحرك نحـوه، فمشى نحوه بـالأسلوب الموضح من قبـل، فغفر له ذنـوبه وتجاوز عن آثامـه العظيمة، وفي الوقت نفسه ربط أرنـاط نفسه بعدد كبير مـن الأيمان تعهـد بها بـأشيـاء كثيرة، منهـا أنـه سيعمـل وفقـاً لارادة

الامبراطور، وسيقبل بشكـل خاص بالعادة القديمـة في ارسال أسقف إلى أنطاكية من بيزنطة.

وفي الحقيقة استولـت الدهشة على الذين كانـوا حضوراً، لاسيما هؤلاء الذيـن جاؤوا رسـلاً من دول آسيا: مـن خوارزم، وزوزن، وأقبـاط، وجميع ميديا وبابـل، اللتان يعرف حاكمها باسـم السلطان الكبير(٣٨)، ومن نور الدين أتابك حلب، ويغي—باسان مقدم الترك، ومن أباسغاي Abas-gai ومـن الايبيريين [الجورجيين] لابـل حتـى مـن الفلسطينيين [الـدول الصليبيـة] ومن أرمـن ماوراء ايـزوريـا [أي مملكة أرمينيـا السالفـة شمالي بحيرة وان].

١٩- لقـد كان هـذا مـاوقـع هناك، وقـام بلـدويـن [الثالـث] ملـك فلسطين بمراسلـة الامبراطور وطلـب الالتقاء للتبـاحـث في بعـض الأمور الهامة كما قال، لكن العمل هو المسوغ والمطلـب، فقد كانت عينه متمركزة على إمارة انطـاكية، التي وقعـت على مقربة منـه، ومع ذلك هـو لم يعرف كيف يمكنه نيلها، وبما أنه لم يكن قـد عرف بعد شيئاً عما حدث لأرناط، فقـد أشار على الامبراطـور ألا يطلـق سراح أرناط أبـداً، فعنـدما لايكـون أرناط مـوجوداً يمكنـه التعامل مـع الانطاكيين وجعلهم بمثـابة رعيـة له، لاسيما وأنهم كـانوا قـد أنقذوا مـن قبله، أو على الأقـل يمكنه أن يفـرض نفسـه على الذيـن كانـوا يرفضـون أن يحكمـوا من قبـل الفريقين [أرنـاط ومانويل](٣٩).

ومـا ان فـرغ بلـدويـن من التخطيـط لهذه الأشيـاء، حتـى وصـل إلى أنطـاكية، وخـاطـب الانطـاكيين مخادعاً لهم بتـذكيرهـم كيـف جاء مـن فلسطين مـن أجل منفعتهـم، وأنهم مـدينين له بفضـل عظيـم، وعندمـا وافقـوا على ذلـك، طلبوا مـرة ثـانيـة مـن الامبراطور استقبـالـه، ولادراك مانويل لنوايـا الرجل، فقد رفض في البداية، مدعيـاً أن بلدوين لن يتلقى

التحيات الرسمية المناسبة، ولاالترحيب، إذا كان سيتباحث معه بينما هو غارق في وسط الأعمال العسكرية، لكن مانويل وقد رأى بلدوين قد ازداد اصراراً والحاحاً بالرجاء حول المواضيع نفسها يومياً، وافق أخيراً، وأمره بالقدوم، وعندما توجه للقاء الامبراطور، وخرج من المدينة أحاط به الانطاكيون، ورجوه أن يبذل المستطاع من أجل مصالحتهم مع الامبراطور ورضاه عنهم.

وحدثت في الوقت نفسه أشياء كانت كما يلي في معسكر الامبراطور:

كان هناك واحداً من أمناء سر الامبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستيبيوتس Stypeiotes ، وكان ستيفن هذا من المقربين بشكل خاص من الامبراطور ومعهود إليه بوظيفة الدوادار، وهي وظيفة رئيسية، ولكن عندما برهن هذا التعيس أنه سيء النوايا نحوه ومختل فقد لسانه مع عينيه، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل مايفعله الأنبياء، أن مدة حياة الامبراطور قد شارفت على الانتهاء، وأعلن أنه يتوجب على الشيوخ الرومان إعطاء السلطة إلى واحد ليس في شرخ الشباب ومتلىء بالفخار، بل إلى رجل مسن أصيل، قد تجاوز مرحلة الشباب، من أجل أنه عندما تجري مناقشته، أن يتولى توجيه أعمال الدولة بشكل ديموقراطي، وهكذا انقضت الأمور بالنسبة لثيودور، وحدث أيضاً بعد ذلك أن رجلاً اسمه جورج وكنيته بيرهوجرجس Pyr-rhogeorgios ، وكان مسؤولاً عن الأبواق الامبراطورية، وكان يدعى عادة بـ Primikerios البلاط(٤٠)، هذا الرجل اختلف مع الامبراطور حول مسائل هامة وكبيرة، ومع أنه تمتع ثانية برضاه عنه، ولم يعان من أية أضرار، لكنه فقد وظيفته فقط.

٢٠- ولدى معرفة الامبراطو باقتراب الملك أرسل بعض الأعيان إلى أحد الأماكن، وأرسل البقية لاستقباله، والسير خلفه بأفضل طريقة مميزة،

كما وبعث ابن ختنه لتقديم التحيات له ولتشريفه بالشكل اللائق حتى يصل إلى حضرة الامبراطور، ثم شرّفه مانويل ورحب به بطريقة تليق بعرش داوود، لكن بلدوين تصرف بشكل آخر فيه عجرفة مردها إلى شعوره بأهميته، أو لما جبل عليه من رعونة، ذلك أنه عندما وصل إلى الخيمة الامبراطورية يحيط به حملة الصولجان الامبراطوري والارستقراطية الرومانية، ترجل من على ظهر حصانه حيث كان من عادة الامبراطور أن يفعل ذلك، وتقديراً من الامبراطور وفهماً لتفاخره غض النظر عن كثير من هذه الأشياء التي تتعلق بمكانته، ومع ذلك أولاه الأهمية، وتوجه إليه بالخطاب، وقدم له مقعداً منخفضاً ليجلس عليه، وتحادث معه، وكرّمه بدعوته إلى مائدته.

وبعدما عقد أرناط هذه الاتفاقيات، لم يرض الأنطاكيون بارسال قوات فرضت عليهم لمساعدة الامبراطور في الحرب، لأن قواتهم القديمة قد اضمحلت وزالت من المدينة، وكذلك لم يعجبهم ارسال أسقف إلى انطاكية من قبل بيزنطة، ولهذا السبب جاءوا يشتكون إلى الامبراطور، وتدخل بلدوين لدى الامبراطور حول هذا، ولاحظ بلدوين أن هذه المطالب لم ترفض بشدة لذلك جعل الرسل يلقون بأنفسهم على قدمي الامبراطور، وتفحص الامبراطور وفكر حول أي الشرطين فيه كرامة أعظم للرومان، وسمح لهم مانويل على الفور بالاسهام بقوات أقل، (لأنه ينجم عن طلب شيء يتجاوز طاقات الانسان في كثير من الأحيان مصاعب جمة، ويكفي على العموم تقديم شيء رمزي للدلالة على التبعية والخضوع في الوقت نفسه) غير أنه قال: لايمكن قبول الأسقف من أي مكان غير بيزنطة، وقبل الانطاكيون هذا بكل سرور، وعادوا إلى المدينة.

٢١ - (أ)(١٤١) وهكذا ختمت مسألة أرناط هناك، وعزم الامبراطور بعدها على مهاجمة طوروس، وهرب طوروس في البداية إلى مكان مهجور في جبال طوروس، ثم إنه عندما تدخل بلدوين لصالحه لدى الامبراطور،

جاء إلى المعسكر الروماني بمثابة تابع تائب، ورحب به الامبراطور، وأدخله ضمن الرعايا الرومان، وهكذا ألغى الحرب.

وبما أن الامبراطور كان مقبلاً على الدخول إلى مدينة أنطاكية [نيسان١١٥٩]، خاف الانطاكيون —كما يبدو— من أنه حالما يتم السماح للقوات الرومانية بالدخول إلى المدينة، فإن هذه القوات ستحاول طرد الانطاكيين منها، وهكذا لم يعرفوا كيف يصرفون الامبراطور عما عزم عليه، فاخترعوا بعض الأعذار الزائفة، وقدموها له، وكانت هذه الأعذار أن بعض الأشخاص من المتهورين من بينهم قد تآمروا انه عندما يدخل الامبراطور المدينة مجرداً من السلاح (لأنه لم يكن غير ذلك لائقاً) سيتولون بعض الأعمال الخيانية ضده، وفهم الامبراطور الخدعة، فأعلن لهم أنه لن يحدث شيئاً من هذا القبيل، وأوضح بجوابه للذين كانوا من حوله كيف أن ذلك لم يكن ممكنا، ليس فقط لأن الملك كان سيقوم بالاستعراض أمام الامبراطور، بعيداً عنه وهو مجرد من السلاح، بل لأن أرناط مع آخرين سيحيطون بالامبراطور ممسكين بلجام فرسه وبأطراف سرجه، وذلك أثناء سيرهم على الأقدام مجردين من السلاح، وستحيط بالوقت نفسه بالامبراطور وتتولى حراسته جماعة كبيرة من حملة الفؤوس من البرابرة [الحرس الفريجي]وذلك وفقاً لما جرت عليه العادة.

وهكذا رفض هذه المعاذير، لكنه عندما كان على دخول المدينة، لبس درعين فوق بعضهما، معتمداً على قوة جسده وقدرته على التحمل، ولبس فوق الدرعين رداءً مزيناً بالأحجار الكريمة لم يكن أقل وزناً مما كان تحته، كما وضع على رأسه تاجاً وأشياء أخرى اعتاد عليها الأباطرة، وأنا مندهش حول هذا الأمر، فبعدما احتفل بالنصر بالطريقة التي اعتاد عليها في بيزنطة، ووصل إلى كنيسة بطرس الرسول ترجل بكل سرعة ورشاقة، ثم لما عاد لامتطاء صهوة حصانه، امتطاه بقفزة واحدة، وكأنه مجرد تماماً من السلاح.

واستقبله هنـاك أسقف المدينـة، وقد ارتدى الثيـاب الكهنوتيـة، وكان معه جميع رجال الـدين، وقد حملوا في أيديهم صلبانـاً، كما حملوا الكتابات المقـدسة، وانـدهش الأجـانب والغـربـاء عندمـا رأوا بالاضـافة إلى هـذه الأشيـاء أرناط ومعـه أعيان انطـاكية يـركضـون على أقدامهـم من حـول الحصـان الامبراطوري، وكـان بلدويـن، وهو رجـل متوج، يسير في عـرض بعيـداً، وهو على ظهـر حصـانـه، لكن بـدون شـارات وعـلامات، وبعـد الانتهـاء من احتفـال النصر هذا وفـق هـذه الطريقـة، بقي الامبراطـور في المدينة مدة ثمانية أيـام، ثم غادرها، وأظهر الانطاكيـون تذللاً كبيراً نحوه، وذلك أثنـاء اقامته في قصر أرنـاط، حتى انه مـامن أحد عـرض قضية أو شكوى أمام المحكمين المحليين للبت بها، بل أمام الرومان.

٢١- [ب] وبعدمـا نجح في هـذه المسائل، استعـد الامبراطور لقتـال نور الـدين، لكـن بما أن نور الديـن قد عـرف بزحفه ضـده، قام بـاطلاق سراح واحـد من الايطـاليين، هو ابـن [كـذا] صنجيل(٤٢)، مـع الرجـل الذي كـان يتولى قيـادة الفرسان في فلسطين، الـذي يطلق عليـه اللاتين اسم مقدم الداوية(٤٣)، وكانا من الـرجال الأعيان، وبالاضافة لهما أطلق سراح عدد كبير من النبلاء ومـن العامة، فقد أطلق نور الـدين سراح ستة آلاف من الناس العـاديين الذين كان قد أسرهـم مـن بين صفوف الجيش الألماني والفرنسي أثنـاء زحفهما في آسيا [الحملـة الصليبية الثـانية]، ولقـد فعـل نـور الـدين هـذا كلـه، ووافـق بـالاضـافة إلى ذلـك على مسـاعـدة الامبراطـور في حروبـه في آسيا، وتقبلـه مانـويـل حليفاً على قـاعدة هـذه الشروط، ومن ثم تخلى عن أغراضه في حربه.

لكن بعد مضي وقت قصير عزم الامبراطـور على إلغاء الاتفاقية، لكنه لم يتوصل إلى مااستهدفه، كما سيتضح معنـا فيما يلي من أخبار: فبدون معرفة من نـور الديـن قام حشـد من المسلمين بصنـع كمين أوقعوا مـن خلالـه أضراراً بالـرومان الـذين كـانوا يقـومون بجمـع المؤن والأعلاف، وعنـدما

سمع الامبراطور بما حدث أقام كمائن في أماكن مناسبة هناك، وقام عند الفجر بالهجوم على المسلمين، وهم لايتوقعون ذلك.

وبعدما تولى طرد المسلمين، رغب بالقيام بالصيد، فتوجه لهذا الغرض إلى السهول العليا من سورية، وهو أمر مرعب، السماع به في تلك الأوقات، ومضى أمامه عدد من الرجال لايزيد عددهم عن الستة، لاقامة الفخاخ أمام أجحار الحيوانات، وقبل أن يقطع هؤلاء مسافة طويلة التقوا بأربعة وعشرين من مقاتلي الأعداء، وقد اشتبكوا معهم، وحاولوا بالخداع جذب بعض الرومان نحو جيشهم، الذي كان من ورائهم، وما ان رأى الصيادون هذا حتى ألقوا بأنفسهم في مجرى نهر كان أمامهم، وسبحوا عبره، وتوجهوا إلى الامبراطور كي يخبروه بما نزل بهم، ولم ينزعج الامبراطور لسماعه هذا الخبر، بل قال: تعالوا أخبرونا أين هو العدو؟ ومع أن الآخرين كانوا يرتجفون ومضطربين كثيراً، فقد أطلق الامبراطور العنان لفرسه وحمل على الأعداء، وظهر فجأة جيش لايحصى عدده من المسلمين كان مرابطاً هناك في تلك المناطق، وانقض الامبراطور دونما توقف على وسط عدد كبير من الرجال المسلمين، وكان اندفاعه شديداً، وقد تمكن من دحرهم، ولم يتوقف عن المطاردة حتى التجأ العدو المهزوم إلى داخل حصون كانت قد شيدت هناك، وقد امتلأ السهل بجثث القتلى، ولهذا السبب، أراد عندما عاد إلى المعسكر، أن يقوم —كما ذكرنا— بإلغاء الاتفاقية مع نور الدين، لكن بعض الأخبار التي وصلته من الغرب، والتي تحدثت عن اضطراب شديد هناك، حالت بينه وبين تنفيذ مارغب القيام به.

وفي هذه الآونة انكسر ذراع بلدوين للسبب التالي: فلقد شارك الامبراطور في الصيد، وكان مساهماً في التمارين، وقد تولته الدهشة تجاه الامبراطور من جميع الجهات، وهكذا رغب في أن يعرف هل هو مقدّر في أعماله، وأراد أن يظهر أنه مكافىء للامبراطور في حملاته، وفيما هو منشغل

في نشاطه الرائع، انزلق فجأة مع حصانه، وأصيب —كما ذكرنا— بذراعه، وتولى الامبراطور على الفور تضميدها، وقدم له مايلزم من عناية، لذلك فك الرباط بعد أيام قليلة.

وتفوق الامبراطور في هذه المسائل على عدد كبير من الناس الذين انشغلوا طوال حياتهم في فن المعالجات الطبية، وفي الحقيقة رأيته وسط عدد من الرجال المدربين يعالج الجروح، ويقدم الأدوية والعقاقير للمرضى، كما أنه أسهم كثيراً في علم المعالجة والإبراء، الذي ظلّ مجهولاً لوقت طويل، ولايُعرف أي عقار يصلح للدهن وأيها يصلح للشرب، وذلك مع أشياء كثيرة يمكن لأي راغب أن يجمعها من المشافي العامة، التي تدعى بالعادة «بيوت الضيافة»، لابل قدم أكثر من هذا كله.

ثم ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وارتحل على أقصر الطرق، فانطلق من بامفيليا، وقاد جيشه من خلال وسط ليكونيا، مع أن السلطان قد عارض ذلك بكل شدة، وعندما اقترب من مدينة لاراندا Laranda [قرامان] (٤٤)، غادرها الأتراك الخائفون وفروا منها، حيث خيّل إليهم أن الرومان سيقومون على الفور بالهجوم على قونية، لكن عندما لم يلحق بهم أدنى أذى على أيدي الرومان، استردوا شجاعتهم، وجلبوا كميات من المؤن وقدموها لهم، وزودوهم بها، بيد أنه كان من غير الممكن بالنسبة للأتراك التخلي كلية عن الكراهية التي جبلوا عليها، وهكذا عندما وصل الرومان إلى كوتيايون Kotiaion [كوتاهيا] قاموا بمهاجمة بعض الذين تخلفوا عن بقية الجيش، وقتلوا عدداً منهم وأخذوا البقية أسرى، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة،وبعدما احتفل بانتصاره العظيم، وقدم الشكر للرب على انتصاراته، عاد إلى قصره(٤٥).

٢٢- وجرى تذكيره بعد أمد قصير ليأخذ الثأر وينتقم من الأتراك لأعمالهم الحمقاء التي مارسوها ضده، فقام بحشد جيش في سهول

كيبسيلا Kypsella [إبسالا في تراقيا]، وكتب بالوقت نفسه إلى حاكمي المناطق الرومانية في آسيا، يأمرهما بمهاجمة الأراضي التركية في وقت محدد: واحد من جانب، وآخر من جانب آخر، وبما أن هذا قد وقع بالفعل، فقد أدى إلى إلحاق أضرار عظيمة بالأراضي التركية، وعندما وصل الموسم إلى الانقلاب الشتوي، عبر الامبراطور المضيق وجاز إلى آسيا، ووصل إلى دوريليون عبر نهريها الذي يدعى أحدهما باثيس Ba-thys [موتاليب ديري أوساريسو Muttalip Dere-Sarisu] وذلك من قبل السكان المحليين، واسم الآخر ثيبريس Thybris [أوتمبريس وحالياً بورسول جي]، وبعدما اجتاح المنطقة المجاورة بأكملها، طرد حشداً كبيراً من الناس مع كميات من مختلف أنواع الحيوانات، وبعدما عرف الأتراك بما لحق بهم من أضرار، شرعوا يظهرون على شكل فئات وجماعات، وأرسل الامبراطور إحدى التشكيلات الرومانية لتتولى نهب المنطقة الممتدة أمامها، وقام هو نفسه بالصعود إلى المناطق المرتفعة في تلك المنطقة مع قليل من أتباعه، وأمرهم بالنفخ بصوت مرتفع بالأبواق الامبراطورية، ساعياً من وراء ذلك إلى إلقاء الرعب بين الأعداء، حيث سيتصورون أن الامبراطور يقود بنفسه أعمال القتال.

وكما حدث دوماً، في ايقاعه مذابح عظيمة بين صفوف هؤلاء البرابرة، كلما ظهر بشكل غير متوقع بالنسبة لهم، فقد ظهر كالصاعقة، وقيل إن آلافاً قد ذبحوا منهم، لابل إن عشرات الآلاف من الرجال المسلحين وغير المسلحين قد فروا غير مبالين بالعار، وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامعي، بدت لي لايمكن تصديقها، مثلما، لايمكن تصديق أفعال [نقفور الثاني] فوكاس ويوحنا الأول تزمكس، اللذان لم يكونا بين الأباطرة القدماء، أو أعمال أباطرة آخرين كانوا مشهورين لشجاعتهم ومن الممكن مقارنتهم بهما، لأنه فوق المعقول أن تتم هزيمة آلاف من قبل رجل واحد، وأن يتم التغلب على أعداد كبيرة من الرجال المسلحين

تمام التسليح بوساطة رمح واحد، ولهذا، كان كلما أقمت في البلاط وسمعت بصوت مرتفع عن أعمال الامبراطور هذه، كنت أنصرف من الاجتماع وأنا فاقد لصوابي، لأن أخلاقي لاتتماشى بشكل طبيعي مع الاطراء الكبير، كما انني لاأسمح بارادتي بمرور عبارة واحدة باستثناء العبارات الصادقة وليس الاطراء الكاذب، واعتدتُ أن أدع هذه الأشياء لتنسج ولتصنع باستمرار في العاصمة وداخل القصر، وبين الذين يشغلون الوظائف العالية، وذلك حتى تصل الحقائق إلى ناظري، وهذا ماحدث عندما صدف أن وجدتُ نفسي وسط الأعداء، ورأيت عن قرب قريب الامبراطور وهو يتولى مقاومة وحدات تركية كاملة، وسيتولى التاريخ وصف هذه الأشياء في اللحظة المناسبة، ودعونا الآن نتابع السير نحو ماهو قائم أمامنا.

وكان الامبراطور في أعالي تلك المنطقة، في حين زحف الجيش الروماني نحو الداخل، واصطدم بشكل غير متوقع مع القوات التركية، وبما أن الصراع بدأ يداً بيد، وبما أن القوات الرومانية بدأت تشعر بالضيق، عندما علم الامبراطور بذلك سارع بأقصى مايمكن، دون أن يرتدي درعاً، ودون أن يحمي جسمه بأي شيء آخر باستثناء ترس، وانقض بسرعة وسط الأعداء، وقام بأعمال رائعة عبّر فيها عن قوة جبارة، حيث كان يضرب بسيفه كل من اقترب منه، وعندما شرعوا بالهرب، لم يضع وقته، وقام بمطاردتهم إثر تزويد يده برمح، ودون أن يلتفتوا نحو الخلف هربوا بعيداً، وحقاً من غير الممكن تصور جيش كبير بهذا التعداد قد تمت مطاردته من قبل رجل واحد، لأن الخوف الذي حلّ بهم أغلق تماماً أعينهم، لكن عندما لاحظوا الحال الذي كانوا به، أخذ كل واحد منهم يهزأ بالآخر ويعيره بالجبن، وهنا انعطفوا فجأة، ووقفوا مواجهين له، لكنهم والرعب مازال يقودهم، امتنعوا عن الاندفاع نحوه والانقضاض عليه بأنفسهم، غير أنهم أفرغوا ماكان بجعبهم من سهام أطلقوها عليه،

ولـذلك كـان يحول ترسـه من جـانب إلى آخـر، يدفـع بذلـك عن نفسـه الرمايات، ويحمي جسده من السهام.

وكـان بين الأتراك واحـداً شجاعـاً وفرداً نشيطـاً، وعندمـا رأى ما مـن واحـد بين هؤلاء جميعـاً تصـدى للامبراطـور بـالقتـال، كان يغلي غضبـاً، فتناول سيفاً من أيدي واحد من أتبـاعه، واندفع ليضرب الامبراطور، لكن الامبراطور أمسكـه من شعره وأخـذه أسيراً، وأخذ معه ثـلاثة آخريـن من الأعيان، وعنـدما وجد البقية أنفسهـم غير قادرين على مواجهتـه، غادروا المكـان فراراً، وعـاد الامبراطور إثـر ذلك إلى المعسكـر ومعه أسراه هـؤلاء، ولدى ادراكه أن الشتاء جاء قاسياً جداً، قرر العودة إلى بيزنطة(٤٦).

٢٣- وفي ذلك الـوقت تماماً [أوائل ١١٦٠] كـان في ثغر بيثينـا، حيث كان قـد أسكن مـن قبل الأسرى الـرومان مـن فيلوملنيـون [كان اسمهـا فيليا] (٤٧)، وتعـامل هناك مـع الرسل الذيـن جاءوا من عنـد السلطان، وعندما لاحظ أنـه لم يكن لديهم شيئاً جاهزاً لإعلانـه، صرفهم، وهددهم أنهم مالم يعملـوا متماشين مع ارادتـه سيقوم الفـرسان الـرومان بعـد وقت قصير باجتياح أراضيهـم، ونهب كل شيء بشكل أسوأ حتـى مما تم الآن، وبعدما أمضى بعـض الوقت في أوغسطي Augouste ، انطلق من ثم من هناك (من قرية دعيت آنـذاك محلياً باسم رتزيون Rhitzion)، وقد استقبلـه السكان المحليـون عنـدما عبر إلى الطـرف الأقصـى من [خليـج أستاكينـوس Astakenos] ، وذهـب إلى الشاطـىء المقابـل، وزحف من هناك راكباً الطريق المار بـالمدن الساحلية، ووصل إلى فيلادلفيا، وقام من هناك —بعدما أعدّ عدته— بمهاجمة الأراضي التركية (٤٨).

وكـان الرسـل الأتراك يسيرون عبر سهـول دوريلايـون Dorylaion ، حيث كـانوا يجهلون تمامـاً أخبار حملـة الامبراطور على قومهـم، ذلك أنهم كانوا واثقين أنـه كان مقيماً في أحواز مدينة بيـزنطة، وعندما كـانت أخبار

الحملـة الـرومـانيـة لاتتعـدى الاشـاعـات في كـل مكـان [شتاء ١١٦٠-١١٦١]، شعر الأتراك بالبـداية أن الأمرلايصدق، غير أنهم عندمـا سمعوا عنهـا من عـدد كبير من شهـود العيان، حـركوا جيشهـم، وبادروا مسرعين للتصـدي لها، لأنه لم يحدث أن عـانى البرابـرة من قبـل مثلما عانوه الآن من خسائر بالمال والعتاد، وظناً من الامبراطور أن الأتراك مازالـوا لايعرفون شيئاً عما فعلـه، قدّم أمامـه بقية الجيش الرومـاني، وسار خلفهـم مع عـدد قليل مـن الرجـال، وسمع الـرومان أن الأتـراك كانـوا يزحفون بقـوة، وقد انزعجوا لذلك واضطـربوا كثيراً، لاسيما لأن الامبراطور لم يكـن معهم، غير أنـه مالبـث أن التحق بهم، ذلـك أنه سمـع بزحـف الأتراك، فـاستردوا شجاعتهم، وزحفـوا بحماس أكبر، وبما أن الوقـت كان آخر النهـار فقد تـرجلوا من على ظهـور خيولهم، وقدمـوا للخيول طعـامها المعتاد، واستراحوا لبعض الوقت، ثم استـأنفوا انطلاقهم، وكان الليل قد حلّ، لذلك ركبوا الطريق وساروا عليه مستخدمين ضوء المشاعل.

وصنعت المشاعل كما يلي:

بـاثبات أقـداح معـدنيـة على قاعـدة تشبـه الصحـن، وهذه الأقـداح المعدنيـة مثبتة نحو الأعلى، وهي منفصلـة، وتتضاءل صعوداً مـن العرض إلى أن تصبح مدببـة، ويثبتون على الصحن شوكة معدنيـة أخرى، تختلف عن البقية، بـأنها في أولها سميكة ثم تغدو مـدببة، وبعدما يتـولون ربطهم صعـوداً حـول بعضهـم بـربـاط مـا، يصبحـون أشبـه بقـاعـدة مشعـل، ويـربطونهم على رأس رمـح، ثـم يأتـون بقطع مـن الكتـان جرى قصهـا طـولانياً، يجعلـونها تمتـص ما أمكـن مـن دهن الخنـزيـر(٤٩) ثم يلفـونها بعنايـة، ويثبتون كـل منها فـوق إحدى النقـاط المدببة للشـوك المعدنيـة، وهذه عنـدما كـانـت تشعـل كانـت تعطي ضـوءاً ساطعـاً، يصدر عنهـا، فيكون الحال بالنسبة للعساكر أشبه بضـوء النهار، وماقلناه هذا يكفي عن المشاعل.

وكان الثلج يتساقـط بغزارة، وهكذا اختفي الطريق تماماً، وتاه الجيش الـرومـاني، وأضـلّ الطـريـق، وكـاد أن يقـع في منطقـة خطـرة، لـولا أن الامبراطور شعر بالخطأ، فحمل بيده مشعلاً، وتحرك ذهاباً وإياباً، وفي هذا الاتجاه وذاك، حتـى عـرف الطريـق، ومـن ثـم قـاد الجيش عبر الطـريـق الصحيح، وعندما وصـل الجيش إلى قرية سماها السكان المحليـون باسم ساراباتا ميلونوس(٥٠) Sarapata Mylonos حتى شرع بالعمل على جمع المؤن والأعـلاف، وكان اسـم الـذي تولى حكـم جميـع تلك الامـارة (اسمه سليمان) (٥١)، وقـد سمع بـالأخبار التـي انتشرت في كل مكـان، ومع ذلك كـان متردداً في تصديق ماقيل، لـذلك بعث بابـن أخيه واسمه بوباكس (٥٢) (أبـوبكر)، الذي غالباً ماكـان قد رأى الامبراطور، وأمره أن يقترب ماأمكن من الجيش الرومـاني ويتجسس أخبار الامبراطور، وعندما رأى أبو بكـر الامبراطور ترجـل على الفور من على ظهـر حصانه، وخـاطبه بعبودية ولـدى معرفة مانـويل الرجل مـن كان ومن الذي أرسلـه قال له: «قل مايلي لسليمان:

أنـت الـذي تـرغـب الآن في معـرفـة مـن الـذي يتـولى نهب الأراضي التركية، اعمـل كما لو أن النار قد ألقيـت على بيتك، وأنت لم تقـم اعتباراً للطريقـة التي يمكـن أن تتغلب بها عليهـا، والذي عليـك هوأن تبحـث جيداً لتعرف من أيـن جاء أصلها، ومن الذي أشعلها، لايجوز لـك الرغبة بالتخفـي وراء جبنك بالتظـاهر بالجهل، وكـأنك قابـع تحت ردائك، لأنه من غير المنطقي أن يعفي التظاهر بالجهـل مستخدمه من الملامة، والمنطق العام يعرف شيئـاً واحداً رائعاً فقط: إن الشجـاع وقت المخاطر هـو الذي يوازن بين الأمور، وهـو إذا لم يتمسك بهذا يفقد كل شيء، وفيما عـدا ذلك فـإن عذرك لا مكـان له، حسنـاً، لقد أدركـت، أنك لاقيـت الذي أنـزل القوارع بالأتراك، فإذا ماكنت ترغب بالتصدي له، لاتمتلك عذراً، [أن لا تفعل ذلك]».

ومـا ان أكمل كـلامه هكـذا حتى أعـاده، وبعـدما تـولى نهب ماوقـع أمامه، وعرضه للهدم، والتخريـب، ركب الطريق عائداً، لكن حدث أولاً شيئاً لايمكن أن يصدق، لأنـه قيل بأن الجيش الروماني لم يكـن فيه أكثر من ستين رجلاً مقاتلاً، بيد أنه عندمـا باتت أمور الرومان في وضع خطير جداً، تمّ انقاذهم بشكل غير متوقع، ولقد تجمع الأتراك بأعداد كبيرة، كما أنهم امتلكوا أجزاء مـن الأراضي زادت تفوقهم، وكان الأتراك يـرمون من الأعلى، لذلك آلموا الرومـان ايلاماً شديداً، وأرغموهـم على التجمع مع بعضهم والتكتـل، ومع هـذا لم يكن الأتراك على درايـة بشجاعـة هؤلاء، ذلـك أن طبيعـة المكـان لم تكـن مـوائمـة لمرورهـم، ثـم أحـاق الخطـر بالامبراطور نفسه، لأن بعـض الذين كانوا يتولون حـراسته أخذوا يتبددون خفية، ومع أن الامبراطـور في هذا الوضع الخطير، لم يتخـل عما اعتاد عليه من الشجاعة ، قام بابعاد جون قريبـه بالمصاهرة(٥٣)، الذي غالباً ماورد ذكره مـن قبل، وكـان قد اقترب منه، وكـان متشوقـاً لتزويـده بترس (لأنه كـان آنذاك مجرداً مـن السلاح)، قـائلاً بـأنه كـان من غير الممكـن لترس واحد أن يكون كافيـاً لحماية جسدين، وتمكن الرومـان بعد صعوبات جمة من الجواز خلال تلك المنطقة، وعندمـا أصبحوا في منطقة أعرض وأوسع، سمحت للخيـول بالتحـرك وللرجـال بفرصـة البرهنة على قـوتهم، فرددوا عـالياً صرخـة الحرب، ومدوا رمـاحهم وأشرعـوها بـاتجاه العدو، وانقضـوا عليه، فـردوه إلى الخلف، وذبحـوا عدداً كبيراً مـن أفراده، وعـادوا جالبين معهم جميع أسلاب كل من طردوه، وصحيـح أن كثيرين قاتلوا بشجاعة، فقـد تفـوق الامبراطور على كـل الموجـوديـن، فما مـن واحد تقـدم عليـه بالاشتباك مع العدو، ومامن أحد قام بمثـل ماقام به من أفاعيل شجاعة، ولقد عاد الامبراطور إلى بيزنطة بعد نجاحاته هذه.

٢٤- وبعدمـا نزل بـالأتراك مـانزل مـن فواجـع، قرروا رداً على ذلـك إلحاق الأذى بـالرومـان، وحزمـوا أمرهـم واستغلـوا وقتهم فـاستولـوا على

فيليتا(٥٤) Phileta ، وهي مدينة شرقية، ثـم هاجموا أيضاً بشكل غير متـوقع لـوديكيا في فـريجيا الصغـرى، وألحقوا بها أضراراً كبيرة وكـادوا يدمـرونها، وساقـوا أمام سيـوفهم كثيراً مـن السكان مـن الشبان فما فـوق حيـث اتخذوهم أسرى، وفي الحقيقـة كان عـدد الأسرى كبيراً وتكوّن مـن حشود لايمكن عدّها.

وعنـدمـا سمـع الامبراطور بهذا غضـب غضباً عظيماً وتـألم كثيراً، وود ــلو أنـه كان ممكنـاً ــ أن يجوز على الفور إلى آسيـا ويشرع بقتال قـونية، لكن لما كان يعلـم أن هذا يحتاج إلى وقت موائم لتنفيذ مثـل هذا العمل، ولاستعدادات أعظم للحرب، فقد قرر التخلي عن الفكرة والابتعاد عنها.

ووضـع في ذهنه أن يقـوم بجمع قـوات مـن كل اتجاه، ولـذلك بعـث بجـون كـونتوستيفـانـوس إلى فلسطين [أوائل١١٦٠] كـي يقابـل الملـك بلـدوين، ويجلـب معه مـن هناك الـرجال الـذين جرى الاتفاق حـولهم بمـوجـب تحالفهم الـذي قضـى بتـزويـد الامبراطور بما يطلبـه، وأن يقـوم كذلك بتجنيد وحـدة من المرتزقة،وأمر أيضاً أرنـاط أمير أنطاكية أن يشرع بأقصـى سرعة ممكنة بـالتحرك مع القـوات التي من حـوله، وكذلـك أمر قادة الأرمـن آنذاك وهـم: طوروس وتيغـرانيس وكـريسافيـوس الكيلكي، والذيـن يدعـوهم النـاس كوغ فـاسلي(٥٥)، وهـم قـادة قوات عسكـرية، لكنهم كانـوا قد التحقوا متطوعين منـذ أمد بعيد بالامبراطـور وصاروا من رعـاياه، وحشـد مـن الشرق بهذه الطريقـة جماعـة كبيرة، واستـدعى مـن الغـرب الفـرسان الليغـوريين [أي اللـومبـارديين]، كما واستدعـى زوبـان العظيم صاحب صربيـا مع القواد الذين كانـوا تحت أمرته، واكترى كثيراً مـن بين السكيـزيين من بين القبـائل التـي عـاشت حـوالي تـاروس [أي تاروس سكيزيـا أو الروس]، ولم تقتصر استعداداته للحـرب على هذا فقط وبهذه الحدود، بـل كـان يعـرف أن بين الأراضي التـي وقعـت في أيـدي اللاتين المستـولين على فلسطين، كانـت جزيرة رودس، وقـد استأجـر من

هناك جماعات كثيرة من الفرسان المرتزقة، ومن أجل المؤن والخدمات الأخرى أمر بجلب أعداد لاتحصى من الثيران مع عرباتهم من قرى تراقيا(٥٦).

وقام بهذه الاستعدادات، وفي الوقت نفسه أراد أن يحول عداوة السلطان نحو بني جلدته وقرابته، فكتب إلى أخيه شاهنشاه الذي كان يحكم غانغرا Gangra وأنكيرة غلاطية [أنقرة]، وإلى صهره يغي—باسان الذي كان يحكم كل من قيصارية [قيصاري] وأميسيا [أماسيا] مع مدن أخرى هامة قائمة في أراضي كبدوكية، وبعدما جعلهم يشكّون بالسلطان، بات على وشك انجاز الاستعداد للحرب، وعلم السلطان بهذا كله، وبما أنه لم يكن قادراً على مواجهة كل هؤلاء الذين ثاروا ضده بتحريض من الامبرطور، تخلى عن ملكية عدد من المدن، خاصة المدن التي احتلها منذ وقت وجيز بعد بذله لجهود كبيرة، تخلى عنها لصالح الذين عاشوا على مقربة من أراضيه، وكتب إلى الامبراطور وسأله العفو عنه، ووعد أنه إذا ما حظي بذلك فإنه سيتولى إعادة الأسرى الرومان، حيثما كانوا مختفين في مملكته، وأن البحث عنهم هو مسؤوليته وعمله.

وبينما هذه الأمور قيد التجربة، حدث شيء ما كان كما يلي: عندما كان جون [كونتوستيفانوس] منطلقاً من فلسطين [خريف١١٦١] مع الفرسان، اصطدم بجيش تركي زاد على العشرين ألفاً من الرجال المقاتلين، ولقد فوجيء بالبداية، ولذلك توجه مسرعاً مع أتباعه إلى رابية كانت قائمة هناك، واتخذا موقفاً، ومن ثم بعث الحماس في الجيش كله، وانقض على الأتراك، وبما أن حملة الرومان كانت شديدة جداً على الأعداء، والقتال كان قاسياً، فقد شرع الأتراك بالتراجع، وهنا سقط عدد كبير منهم، كما وسحق الفرسان كثيراً تحت أقدامهم، وحدث أن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين حققوا انجازات وقاموا بأفاعيل جديرة

بالتـدوين، ودللـت على شجاعتهم، لكـن في ذلك الصراع أبـدى القائد ماتفـوق به على الآخرين شجـاعة واقدامـاً، وعاد جون بعد هـذا النجاح يحمل معه إلى الامبراطور غنائم نصره.

وعنـدما سمـع السلطان بهذا، تملكـه الغضب والأسـف، ولعن نفسـه لتسرعهم هذا الـذي جاء في غير وقته، ولم يزعجـه ماحدث لأتباعـه بقدر مابقي أمـامه وعليه مواجهته بسبب زحـف الامبراطور ضده، ولهذا تصرف وكأن البيزنطيين يهددون الـذين لم يستعدوا بعد، وبناءً عليه سـارع بزيادة عروضه المتقدمة بـأشياء إضافية وبتقدمات أعظم، فوعـد بإعطاء الرومان سنوياً قوة حليفـة بناءً على الطلب، كما ووافق على أنه مامـن تركي سوف يدوس بقـدمه الأراضي الـرومانية بـدون إذن من الـرومان، وإذا مـاحاول أحد من بقية الامارات التركية إزعـاج الرومان وتسبيب الأذى لأراضيهم، فإنه سيعلن الحرب عليه، ويباشرها ضـده فوراً، ولسوف يعيق بكل وسيلة أي عمل تـآمري مهما كان مصـدره ومنشأه، وسيكون على استعـداد لفعل أي شيء يـأمر بـه الامبراطور بـدون تردد، ووافـق على إعادة إحـدى المدن التـي كـانـت تـابعـة من قبـل للـرومـان، غير أنها وقعـت تحت السيطـرة التركيـة، واقتنـع الامبراطور بهذه الأشيـاء، فـأخـذ عليه العهـود والمواثيـق المغلظة، فأنهى عمله العسكري، وعاد إلى الوطن.

ولـدى معرفتـه بخبر أن الكومـان قد عبروا الـدانوب، لنهـب الأراضي الرومانية، تحول عـن الطريق الذي يقوده إلى بيزنطـة، وزحف نحو مكان الجواز قرب مدينـة أبيدوس، حيث قامت بلدة سـاحلية صغيرة في منطقة تراقيا، أعتقد أنها نالـت اسمها من كالياس Kallias ، وكان قائداً للأثينيين(٥٧)، وعبر من هنـاك، وأسرع في زحفه ضد الكومـان، أما هؤلاء فـإنهم حزمـوا أمتعتهـم بسرعة وغـادروا المكـان، عندمـا سمعـوا بزحـف الرومان، وحدث هذا حتى قبل أن يصل الامبراطور إلى الدانوب.

الكتاب الخامس

١- هكذا سارت الأمور هناك، وبما أنـه لم يبد في الأفـق أي شيء من أي اتجاه يهدد المملكة الـرومانية، فقد تـوجه الامبراطور إلى إحـدى القرى الواقعة على مقربة من بيزنطة للاستراحة، وكان اسمها لونغوي Longoi، وبينما هـو مقيـم هناك، حلّ اليـوم الأخير مـن حياة الامبراطـورة [بيرثـا] إيرين، وكانت امرأة، حسبما ذكرت مـن قبل، تفوقت كثيراً على الأخريات في ذلـك الحين، بـالحكمـة،وصـواب الرأي، والـرحمة تجاه الـذيـن كـانـوا بحاجـة(١)، وكـانـت أمـا لابنتين، كـانـت أكبرهـن [مـاريـا كـومينا البروفيروجنيتا Prophyrogenita] قد بقيـت حية وأقـامت مـع أبيها، أما الثانية فقد فارقت الحياة بعد قليل من اكمالها لعامها الرابع.

وبينما كانت تصـارع ضد مرضها، عاش الطفل مـع ذلك، ومهما يكن مـن أمـر فقد استـدعـت أوضـاع الغـرب الامبراطـور إليها، وقـد خلـف الامبراطور مسـائل بيته الخاصـة خلفه، وزحـف ليعالـج المشاكـل هناك، ذلك أنـه سرت وقتذاك أخبـار أفادت أن فردريـك ملك الألمان، كـان قد حـرك جميـع شعبه لمهـاجمة الأراضي الـرومـانية، ولهذا السبـب، وبسبـب، انقضاء أجل غيزا ملـك هنغاريا(٢)، ذهب إلى سارديكا، وقـد تأخر هناك مافيه الكفاية، لأنه أولى اهتماماً كبيراً مسـألة السيادة في هنغاريا، ولأن ما روي عن الألمان لم يكـن يقيناً وأصيـلاً بعد، ودعـونا الآن نبين لماذا رغـب الامبراطور في الادعاء بحق لـه في حكم هنغاريا، فلقد كان لغيـزا أخوين هما: لازلـو Laszlo ، وستيفـن [أسطفـان]، وقـد اختصما معـه، وأنـا لاأعرف لماذا أصبحا مكـروهين كثيراً منه، وبعد نفي طـويل، لأحدهما في مكان وللآخر في مكان آخر، تـوصلا إلى الامبراطور، وحضرا بين يديه، وقد

تزوج ستيفن ابنة أخـي الامبراطور، ماريا ابنة اسحق السيباتـوكراتور، التي كانـت —كما ذكرت— فـائقة الجمال، وبقي الآخـر بدون زواج، وعنـدما توفي غيزا استـدعى قانون العـدالة، واحداً من الأخـوين إلى السلطة (لأن القانـون بين الهنغار قضى بـذهاب التـاج دوماً إلى الأخوة الأحيـاء) وكان الامبراطور راغباً بشـدة في اعادتهما إلى أرض أجدادهما، ذلك أن غيـزا قام قبل وفاته بتجـاوز العادة الوطنية، وحول المنصب الملكـي إلى ابنه، وكان الهنغار من بعض الجوانب يدينون بهذا القـانون، وخائفين من جانب آخر من قـدوم الامبراطور، فـانتزعوا المنصـب من ستيفـن ابن غيـزا [اسطفان الثـالث] ومنحـوه إلى لازلـو [الثـاني] الذي كـان واحـدا مـن الأخويـن، وأعطـوا ستيفـن، وأعني بـه الأخ الأكبر، منصـب أوروم Urum ، وكان معنـى اسم هذا المنصب بين الهنغـار أن صاحبه سيكـون الخليفة في تولي السلطة الملكية(٣).

٢- هكـذا سارت الأمـور بـالنسبة لـلأخـويـن، ووصلت المسـائل إلى خواتمها، وإثر هـذا تابع الامبراطور زحفه إلى فيلبه، وهي مـدينة مقدونية، وكان هـدفه إنهاء المشاكـل في صربيا، ذلـك أن بريميسلاف، الـذي كان يحكم البـلاد آنذاك، كان —كما سلـف بي القول مـن قبل— قد حـدثته نفسه بـالثورة، لأنه يمتلـك روح الاستقلال، وأنـه بعدما أوشـك أن يفقد سلطانه لهذا السبـب، وذلك على يدي الامبراطور، رأى الـرحمة مجدداً أمام ناظـريه، وبقي في [منصبـه] نفسه(٤)، ثم إنه لم يقـم الآن وزناً لاتفاقـاته وأيمانـه، وتورط ثـانيـة بالعصيـان، وقـام الامبراطور الـذي فهـم الرجـل، بتنحيته من منصبـه، وأقام مكانه أخـاه بلوس Belus ، وعطفاً منه على مصيره، قـام بنفي بـريميسلاف، حتـى لايحدث ضرراً مرة ثـانية، غير أنـه أعطاه منطقـة خصبة جـداً، وجيدة للرعـي من قبل الحيـوانات، وبعـدما عاش بلوس في منصبـه لوقت قصير ممجداً، تخلى عـن الملك، وهجر أرض آبائه، وذهـب إلى هنغاريـا، ولقد عاش هنـاك لوقت طـويل، غـادر بعده

هذه الحياة، وأمر الامبراطـور باستدعاء آخر الاخوة الذي كـان يدعى ديسا Desa وكان يحكم منطقة دندرا، وهي منطقـة خصبة ومكتظة بالسكان، وتقع على مقربة من نايسوس(٥) Naissos ، وبعدما تلقى مانويل منه يمين الـولاء، والوعـد أنه سيحتفـظ طوال حيـاته بنقـاء بشرط الطاعـة، وذلك بالاضـافة إلى تخليه نهائياً عن دنـدرا لصالح الرومـان، وهي منطقة —كما ذكرت— كانت خصبة، قام بمنحه لقب «زوبان العظيم».

٣- وحوالي هذا الـوقت [١١٦٢] حدث أيضاً أن جـاء السلطان قلج أرسلان(٦) [الثاني] متطوعاً وباختياره إلى بيـزنطة ليتوسط لدى الامبراطور بشـأن مسـائل مفيدة لـه، وهـذا شيء هـائل، وفوق العـادة رائع، فمثلـه لاأعرف أنـه حدث للرومـان من قبل، فهل تقـدم لأحد من بين الأبـاطرة العظـام أن ظهر رجـل في بلاط الـرومان على شكـل عبد، مـع أنه يحكـم أراضي واسعة شـاسعة، وهـو سيد لعـدد كبير من القبـائل، ولكي أصـف الاحتفالات والرسوم التي تمت لمن يود أن يسمع:

فقد نصبـت دكة رائعة، ووضع عليهـا عرش، ارتفع ارتفاعـاً كبيراً عن الأرض، وكـان مشهداً جـديراً بـالملاحظة، ولقـد صنع كـل شيء فيه مـن الذهـب، لكن كميات كبيرة من أحجـار الياقوت والـزفير كانت مرصـوفة على جميع أطرافه، كما أنه لم يكن بـإمكان أي انسان احصاء عدد اللآلىء، فقد وضع عـدد كاف منها حول كل جـوهرة، وكانت مثبتـة في الفراغات المناسبة، فقد كانوا ذوي استدارة كاملـة، ويشعون اشعاعاً أشد بياضاً من الثلج، وكـان العرش مليئـاً بمثل هذه المشعـات، وتفوق بـالروعـة القسم الأعلى الذي يمتد فوق الرأس، عن البقيـة، بقدر مايتفوق الرأس على بقية أعضاء الجسد المرتبطة به، وجلس عليه الامبراطـور، وملأ المكان بالفخامة لحسن تـوزيع جسده، وقـد التف بثوب أرجـواني، وكان شيئاً رائعـاً، وقد رصع الثوب من الـرأس حتى الأسفل بالياقوت والـلآلىء المشعة، لكن في الحقيقة ليس بـدون نظام، وإنما طرّز ببراعة حـرفية رائعة، فقد رسـم الفن

على الثوب منظراً أصيلاً لمرج جميل، وتدلى من رقبته إلى صدره سلسلة ذهبية نظمت جواهر تميزت في الحجم والألوان، وكان فيها ياقوتة لونها وردي، لكنها أخذت شكلاً يشبه شكل تفاحة، وأرى إنه من غير الممكن الكتابة عن الترصيعات التي كانت فوق رأسه، ووقف على كل طرف من طرفي العرش —تبعاً للعادة— فريقاً من الرسميين، انتظم وفقاً للأسرة والرتبة فذلك حدد مكان كل واحد منهم، وعلى هذه الصورة كان فريق الاستقبال الامبراطوري الرسمي:

وعندما وصل قلج—أرسلان إلى وسط هذا الفريق، كانت الدهشة مستولية عليه، ومع أن الامبراطور قد حثه على الجلوس، فقد تمسك في البداية بالوقوف وتشبث بذلك، لكنه وقد رأى الامبراطور يتابع الضغط عليه، جلس على مقعد منخفض،كان متواضعاً جداً إلى جانب العرش المرتفع، وبعدما قال وسمع ماهو مناسب غادر إلى المقر المعين لسكناه داخل القصر.

وبما أن الامبراطور قد ازداد عظمة وعلت مكانته بسبب نجاحاته، فقد أعدّ العدة لإقامة استعراض موكب نصر من القلعة نفسها إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، وكذلك ليسير معه في الاستعراض، ومع هذا لم ينجز ماعزم عليه، لأن [البطريرك] لوقا(٧)، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل اللاهوتية عارض هذا العمل، قائلاً لايجوز للرجال غير الأتقياء المرور في ثياب كهنوتية مكرسة ومزينة، ثم إن شيئاً آخر قد حدث ليحول دون تنفيذ المسألة، ففي الهزيع الأخير من الليل هزّ الأرض فجأة زلزال عظيم، وهنا لاحظ البيزنطيون أن رأي لوقا قد تمّ تجاهله وتخطيه، لذلك أعلنوا أن المشروع مضاد لارادة الرب، ذلك أن الناس يولون بشكل طبيعي اهتماماً إلى المسائل الحاضرة، ولايبحثون في أي شيء بعيد المتناول، وعلى كل حال أعطت خاتمة المسألة شرحاً لما حدث، لأنه بعد مضي كثير من السنين أصبح قلج—أرسلان قليل الاهتمام بارتباطاته

نحو الامبراطور، مما سبب قيام الرومان بالهجوم على الأتراك بكامل القوى، ولبعض الصدف وقع الجيش في مشاكل ومصاعب أرضية، ففقد كثيراً من الارستقراطية، وبات على شفير المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور كان موجوداً، وقد نظر إليه على أنه كان متفوقاً في فن الحرب براعة على بني البشر(٨)، لكن، كما سلف وقلت من قبل: هذه الأمور ستتم روايتها فيما بعد من قبلي، وقد تم اصطحابه إلى القصر الواقع إلى الجنوب [كذا] من المدينة، وقد استقبله الامبراطور بمائدة رائعة، كما وعامله معاملة ودودة تامة(٩)، ثم أغراه بسباق للخيل، ووضع تبعاً للعادة النار في بعض القوارب والمشاعل التي زودت بسائل قابل للاحتراق، وقد أدهش هذا الرجل تماماً، لاسيما منظر ميدان السباق، فهناك تظهر بشكل خاص عظمة المدن، وبعدما أمضى قلج—أرسلان الوقت الكافي في بيزنطة، وتولى تأكيد الاتفاقات الماضية بأيمان اضافية، عاد إلى بلاده، وكانت شروط الاتفاق كما يلي:

أن يكون خلال حياته كلها معادياً للذين يرعون العداوة ضد الامبراطور، لكن أن يكون صديقاً للذين يتخذون موقفاً معاكساً، فهؤلاء يحظون باحسانه، وسيعطي إلى الامبراطور من بين المدن التي استولى عليها المدن الأعظم والأكثر أهمية، ولايحق له إبرام أي اتفاق سلام مع واحد من الأعداء مالم يكن ذلك بتوجيه من الامبراطور، ولسوف يقاتل بمثابة حليف مع الرومان بناءً على طلب، وسيقدم مع قواته كلها للمشاركة بالحرب سواء أكان الصراع صراعاً شرقياً أم غربياً، ولن يسمح لأي واحد كان يخضع لسلطانه، لاسيما الذين يعيشون ببراعة من أعمال اللصوصية ويدعون بالعادة باسم التركمان، بالقيام بالحاق أي أذى مهما كان نوعه بالأراضي الرومانية، ولن يمرر ذلك بدون عقوبة، وقد وافق على هذه الأشياء، وتعهد الذين رافقوه من الأعيان، أنه إذا ماحاول عدم مراعاتها، سيمنعونه من محاولة ذلك بكل ماأوتوه من قوة.

وكان هذا ماتحقق في بيزنطة، وقد عبرت الأخبار [الذلك] من قبل من أوروبا إلى آسيا، وارتأى قادة القبائل هناك أنه لن يكون من صالحهم إذا ماتعامل الامبراطور مع السلطان، فبعثوا برسلهم يرجون أن يتصالحوا مع السلطان، واستمع إليهم مانويل بروح الصداقة، وقد ترك كل شيء لاختيار السلطان، فبعث بهم إليه، وكان كما سلفت الاشارة مقيماً في القصر، وما ان مثلوا أمامه للمناقشة، حتى سألوه برجاء أن يتخلى عن عداوته نحوهم، وأقنعوه أن يتوسط لصالحهم لدى الامبراطور، وتبعاً لذلك جلب مانويل هؤلاء المستعطفين إلى جانبه، واتخذهم أصدقاء، ومنذ ذلك الحين استقر السلام في مملكة الرومان.

٤- وبما أن الامبراطورة [بيرثا] —ايرين كانت قد غادرت هذه الحياة، والامبراطور لم يكن بعد قد صار أباً لطفل ذكر، لذلك فكر آنذاك بزواج ثانٍ، وكانت هناك فتاة في طرابلس في فينيقية [لبنان]، لاتينية المولد، لكن ذات جمال متميز، لذلك أرسل لخطبتها [١١٦٠] السيباتوس جون كونتوستيفانوس وايطالي اسمه ثيوفيلاكت Theo- phylact ، الذي أطلق عليه رجاله لقب اكسوبيتوس(١٠) Ex ou- bitos ، ورأى الرجلان الفتاة وأعجبا بجمالها، وبما أنه لم يكن هناك مايعيقهما مطلقاً، قاما بدون انتظار بالصعود إلى ظهر الغليون للسفر بها، وحدث —على كل حال— أنهم وهم على نية الاقلاع والسفر، حلّ مرض شديد بالفتاة، وباتت في الحقيقة بوضع خطير جداً، ولذلك أخذا يؤجلان سفرهما ومغادرتها كل يوم إلى الغد، وأمضيا الأيام بدون عمل، ينتظران أن تتحسن حال الفتاة وتتحرر قليلاً من الوجع حتى يمكن توقع المغادرة، لكن لحكمة خفية كانت المعاناة تعاودها من جديد، وعندما اضطجعت كان جسدها يرتجف ويرتعد بشكل شديد، فقد استبدت الحمى بها، وتبع ذلك فقدانها وتلاشيها، فالبريق الذي علا طلعتها، والذي أشرق جمالاً، مالبث أن تغير إلى ظلام، وكان كل من يراها يبكي

حزناً على هذه النضارة التي ذوت في غير وقتها، وهكذا كانت الفتاة في حالة سيئة، وهي ماتزال مقيمة في بلدها وقبل أن تصعد ظهر السفينة وتبتعد ولو قليلاً عن طرابلس، حلّ بها فيضان مضاعف هناك، وهكذا بقيت السفينة مجدداً في طرابلس، وجاءها هناك المزيد من الأمراض، ولم تغادرها البتة، ونظراً لتكرار حدوث هذا الأمر، سبب ذلك قيام كونتوستيفانوس بتفحص القضية وإعادة النظر بها بدون توقف، وفي حزنه وأساه كان يستبدل الفكرة بواحدة أخرى بدون توقف، وأخيراً دخل إلى إحدى الكنائس هناك، واستخار هل من المفيد أن تخطب الفتاة إلى الامبراطور، وأجابه الهاتف المقدس بقوله: «العرس جاهز، لكن الذين تمت دعوتهم لايستحقون الدخول»(١١)، وعندما سمع هذا، فهم المعنى، لأن أقاويل راجت هناك، وصلت مسامعها، أفادت أن الفتاة ولدت من زواج غير شرعي، وهو شيء يمكن أن يسبب العار بشكل خاص، لذلك تخلى عن المسألة وانطلق عائداً إلى بيزنطة(١٢).

وكان لأرناط أمير أنطاكية ابنتين كانتا آنذاك فائقتي الجمال، وفي سبيل رؤيتهما أرسل الامبراطور باسيل الذي كنيته كاماتيروس Kamateros والذي كان آنذاك قائداً للفريجيين [Akolouthos]، وعندما وصل أنطاكية مسرعاً، وجدهما معاً جميلتين، غير أن ماري بدت له الأكثر جمالاً، وتبرهن أن استقصاء هذا الرسول كان صحيحاً، واعتاد البيزنطيون في أيامنا على القول، أنهم لم يعرفوا مثل هذا الجمال من قبل، لكن هذا حدث فيما بعد، وبما أن القرار آثر ماري، فقد علم الامبراطور بذلك،فبعث بأعضاء من الأرستقراطية إلى أنطاكية للقيام بخطبة الفتاة له، هم: ألكسيوس [كومينوس] ابن ابنة الامبراطور ألكسيوس الأول، وكان آنذاك هو الدوق العظيم، ونقفور برنيوس، وكان من أنسباء الامبراطور من خلال ابنة أخيه، وقد أصبح سيباتوس، وكان بينهم أيضاً أندرونيكوس كاماتيروس، الذي شغل آنذاك منصب إبأرك(١٣)

Eparch ، وكان أيضا مـن أقرباء الامبراطور، وقد عـدّ جديراً لأن يصبح سيباستـوس، ولقد رأوها، وأعجبوا بها أيما اعجـاب، وصعدوا ظهر غليون، واصطحبوها بكل حفاوة إلى بيزنطة.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر أبيلايوس Apellaios ، الذي يطلـق عليـه الـذي يتكلمـون بالـلاتينيـة اسـم كـانـون الأول [١١٦١]، وبعدما نقلت بشكل رائع إلى كنيسة آيا صـوفيا الواسعة الشهرة، تم عقد قرانها هنـاك، وكان مـع لوقـا الذي كـان على رأس كنيسة القسطنطينيـة، صفـرونيـوس بطـريـرك الاسكنـدريـة، وأثنـاسيـوس بطـريـرك أنطـاكيـة [ثيوبولـس]، وقد وضع يديـه عليهما، حسبما كانت العادة آنـذاك بالنسبة للمسيحيين، وبعدمـا أعلنها الامبراطور أوغسطه عـاد إلى القصر، واحتفل هناك في مقامه العالي بولائم رائعـة، وأقام الموائد للشعب في جميع طرقات المدينة، ودعـا في اليوم التـالي البطاركـة إلى مائدتـه، وبعدمـا رحب بكـل واحد منهـم بوساطـة كميات هائلـة من الـذهب، ودعهم عـائدين، وفي الحقيقـة قام قبـل صنعـه أي شيء آخـر بإهـداء الكنيسـة مـائة وزنة مـن الذهـب، وبعد وقت قصير متّع الشعـب بسباق للخيل، ورغـب في عدم إهمال أي شيء يجلب المسرة(١٤).

٥- وكـان هذا مـاحدث في بيـزنطة، وحـدث أنـه بعدمـا توفي لازلـو صـاحب هنغـاريـا [١٤-كانـون ثـاني١١٦٢]، أن أصبـح أخوه متملكـاً للسلطة بـاسم [اسطفـان الرابع]، وقـد بدا عبوسـاً وظالماً بشكـل منقطع النظير بالنسبة للشخصيـات الرئيسية، لذلـك أبغضه الهنغار كثيراً وازدروه، وكانوا على وشـك خلعه وانتزاع السلطة منه، واضطرب ستيفـن أمام هذا الحال، فتـوجه ثـانية يستنجـد بالامبراطـور، وقـام الامبراطور عنـدما حـلّ الاعتدال الـربيعي [ربيع١١٦٢] بـالمبادرة مسرعـاً نحو فيلبه، وقـد مكث هنـاك مع الجزء الأعظـم مـن الجيش الـروماني، وعهـد بقيـادة قطعة مـن الجيش إلى ابن أخيـه ألكسيوس كونتوستيفانوس، وبعـث بها إلى هنغاريا،

وحدث —على كل حـال— في هذا الوقت أن اعتقد ستيفن أنـه تصالح مع الهنغـار وبالتالي ليس بحـاجة لهذه القطعة، ولهذا السبب عـاد الجيش الـروماني إلى وطنـه، لكـن وقـع في ذلك الحين أن ثـار الهنغـار ثـانية ضـد ستيفن، واتهموه بأشياء كثيرة، وأصروا على أن الدولـة الهنغارية قد تدمرت تماماً في ظلّ حكمـه، ولهذا حشـد الامبراطور جيشـاً مـن جديـد، غير أن ستيفن الـذي شعر بـالمخاطـر من البـداية، جـاء لاجئاً إلى إحـدى المدن القريبة من الدانوب، والتي كانت خـاضعة منذ وقت طويل مضى لحكم الامبراطـور، وتابـع هذا السير إلى سرديكـا، وهناك التقـى الامبراطور، وقـد تأثـر الامبراطور كثيراً بما حـدث، وعطف على الـرجل لما نـزل به، فـأعطاه المال، وزوده بما يكفي من قوات، تولت اصطحـابه عائداً إلى عرش آبائه، وقـاد هذه القـوات ألكسيـوس كونتـوستيفـانوس، المتقـدم الـذكر، وسـار الامبراطور خلفها، وعلى بعد قليل منها.

وعندمـا وصل نيسوس، ورد إلى ذهنـه خطة وهو معسكـر هناك، في أن يقوم خـلال جوازه بحلّ المشـاكل في الصرب، لأن ذلك المكـان كان على الطريـق إلى كل من هنغـاريا والصرب، ولابدّ للانسـان من الدخـول من احداهن إلى الأخرى مـن هناك، فقد كان ديسا، الذي كـان وقتذاك يحكم الصرب كتقدمـة له من الامبراطور، كـان ما أن أصبح مسؤولاً عـن البلاد قد نسي حتـى الاتفاق، وادعـى مجدداً الحق في ملكية منطقـة دندرا، فقـد ثار ضـد السلطة الرومـانية، وكتـب إلى الألمان، عازماً على أن يقـرن نفسه بعروس مـن هناك، وفعل كـل شيء كان مضاداً لرغبـات الرومان، ثـم انه عندما استدعاه الامبراطور للالتحاق بـه في الحملة ضد الهنغار، ظهر نائياً، وعنيداً، معللاً ومدافعاً، بـآمال عظيمة، وثابر على تقديم الوعـود بالوصول في المستقبل، ولـذلك عنـدما وصل الامبراطـور إلى نيسوس، حيـث هناك طريقـان، يقود أحـدهما إلى الصرب، والآخر إلى الدانـوب وهنغاريـا، أقام معسكره في وسـط الطريـق بينهما، ولدى شعـور ديسا بـالخطر الـذي حام

فوقـه، جمع ماحضر لديـه من عساكر، ووصـل إلى المعسكر الرومـاني، ولقد عامله الامبراطور بعطف، وأضفى عليه من التشريف كل ماهو لائق.

وعلى كل حال، مامن إثم أعظم عـاراً من لسان غير ملجوم، لأنه ما ان تصـور ديسا أنـه مامـن أذى نجم عـن حماقتـه السالفـة، حتى صعّـد غايـاته وقـرر الاقدام على إحـداث ضرر إلى الرومـان أعظم مـن ذي قبل، ومع هـذا فقد أبقى المؤامرة سريـة، وهكذا يغدو بـالعادة افتراض الجودة في أعظم النـاس إثماً، العمل المادي لكل جـرائم عظيمة، لأنه جـاء بعد وقت قصير رسل إلى الامبراطور من لدن أمة الهنغـار، لكن بالصدفة حدث أن التقـوا بديسـا، وقـد سئل كـالعـادة من قبلهـم كيـف سارت أمـوره، فـأجابهم بـدون تحفـظ، بأن أمـوره سارت بشكـل جيـد، وهي تستحـق تقديـم الشكر لـه من قبل ملكهـم الذي سماه بشكـل مكشوف «المولى»، ولدى معرفة الامبراطور بذلك، استدعـاه إلى المحاكمة بدون تردد، وعندما أدين، بما أن التهـم ضده وازت المخففـات وجهاً لـوجه وأظهـرت خيانـة الرجل، قـرر مانويل التحفظ عليه بـأمان بدون إهانته، وقـد أحاط خيمته بخندق، وأبقاه مطوقاً بشكل متواصـل، وهكذا منه نال المكان اسمه وهو معسكـر ديسـا (لأن العوام هكـذا أطلقـوا بـالـدارجة هـذه التسميـة على الخنـدق) وأرسلـه بعـد أمـد قصير إلى بيـزنطـة، واحتفـظ بـه أسيراً في القصر(١٥).

كـان هذا مـاحدث هنـاك، ورأى الامبراطور الـذي كان يتبـاحث مـع الرسل الذيـن وصلوا من عند الهنغار، أنهم لم يقدموا شيئـاً أصيلاً، لذلك أمرهـم بمغادرة المعسكـر الرومـاني على الفور والعـودة على الطريـق الذي جاءوا عليـه، وهكذا غادروا المكـان، وعندمـا وصل الامبراطور إلى مـدينة بلغراد، عسكـر هناك، وهي مدينـة —كما سلف القول— قد قـام الجيش الرومـاني ببنائهـا، وذلك بعدمـا هدمـوا زيغمنون Zeugminon ، وقد شاركهم في عملهم ذلـك عدد من الهنغار، وكانت في الحقيقـة لعبة حظ،

تهزأ باستمرار، نحو الشؤون البشرية، ويمكن للمرء أن يضحك نحو الذين أزالوا الأبنية، وهم يرون المعمرين ثانية، وأعتقد أنه من هذه الأشياء بات استخدام كلمة حظ شائعاً جداً بين الناس، وعندما يكونوا غير قادرين على فهم الأسباب لأعمال التدبير، وعلى أساس مابدا لهم صحيحاً، نراهم يعزون المصائب إلى الحظ، ولندع كل واحد يفكر ويتكلم حسبما يرضيه حول هذا، ولكن دعوا الرواية تنعطف نحو مسألتها المبكرة.

وعندما وصل الامبراطور إلى بلغراد، ولاحظ أنه من غير الممكن بالنسبة لستيفن [اسطفان الرابع] أن يحكم بلاد الهنغار (لأنهم كانوا قد سارعوا إلى تنصيب ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ثانية) انصرف نحو شيء آخر، وكما تقدم الذكر، كان يرغب في أن يستحوذ على هنغاريا، التي قامت وسط الأمم الغربية، ولذلك عزم على أن يربط بالزواج بيلا الذي كان ابن غيزا تاليا لستيفن، بابنته ماريا، فأرسل إلى هنغاريا جورج الذي كان باليولوغوس Palaiolagos من حيث المولد، والذي كان آنذاك يتولى إمرة الحرس الامبراطوري الأجنبي، وكان قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي Sebastoi ، وأمره أن يبحث في مسألة رباط الزواج، ثم أخذ هو نفسه الطريق مجدداً نحو بيزنطة، وبعدما ناقش الهنغار المسألة مع باليولوغوس، سلموه مسرعين بيلا، وبكل سرور عينوا له الأراضي التي كان والده قد خصصها حصة له عندما كان على قيد الحياة، وحمله باليولوغوس معه، ومعه الاتفاقية المذكورة، وجاء إلى بيزنطة، ونظر الامبراطور بإيثار نحو القضايا المتعلقة برباط الزواج، وأعيدت تسمية الشاب، فبات اسمه ألكسيوس، وبات ينادى بلقب «دسبوتس Despotos» [أي سيد](١٦١).

٦- وهكذا توافق وصول بيلا إلى بيزنطة مع هذه البداية في الافتراض أن كل شيء كان يسير على مايرام في الغرب، لذلك أولى الامبراطور بعد

اهتمامه إلى آسيا، وبعدما أثير بها حدث، تحول عنها بسبب الشؤون الغربية، والذي دعاه للتوجه إلى آسيا هو أن نور الدين، الذي كان حاكماً لكل من حلب ودمشق، وكلتاهما من أهم مدن سورية، قد ابتسم له الحظ وكان لصالحه، فحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى التي شربت ماء نهر الفرات، كما واستولى على كثير من المناطق التي لايستهان بها، ووقع في قبضته عدد عظيم من الأمراء هناك، وقد احتفظ ببعضهم أسرى، وكان بينهم جوسلين حاكم الرها(١٧)، وقتل آخرين في المعركة، ونذكر من هؤلاء: ريموند أوف بواتو، الذي قدمنا حوله مادة كافية في الروايات المتقدمة، وكان رجلاً يشبه الهرقلات الأسطوريين في القوة والقدرة، وكذلك بلدوين الذي كان وقتذاك حاكماً لمرعش، وتابع تقدمه، فاصطدم في القتال مع دوق كليكية، الذي كان اسمه قسطنطين، وكنيته، كالامانوس Kalamanos الأصغر(١٨)، وكان بهي الطلعة، وفعّالاً في الشؤون الحربية، وكان في البداية قد هزم هزيمة ساحقة على يد الأصغر، ووقع في مصيبة لايمكن النهوض منها، ثم حدث أن أسره، وأسر أرناط أمير أنطاكية، كما وكان بينهم أيضاً حاكم طرابلس الفينيقية، وكان قسطنطين عندما ربح منه المعركة، لم يكبح نفسه، بل اندفع بشكل أحمق، وانخرط بدون توفيق في أعمال المطاردة، فكان أن وقع بالأسر، وهكذا هوت مصالح الرومان [آب١١٦٤] (١٩)، وهزم نور الدين أيضاً طوروس في المعركة، وعلل نفسه بآمال الاستيلاء فوراً على أنطاكية، ولهذا كله كان الامبراطور في البداية قلقاً تجاه ماوقع، وعزم على الجواز إلى آسيا، واغتنام الفرصة، وعندما كان على نية الاسراع إلى هناك مع جميع قواته، حدث أن منعته مشاكل الغرب من جديد.

وبالنسبة للملك الجديد [اسطفان الثالث] قام مجدداً باغتصاب ميراث بيلا، ثم عمد إلى خرق المعاهدة علناً، يضاف إلى هذا أن ستيفن [اسطفان الرابع]، الذي سلف للهنغار أن طردوه من منصبه، استطاع أن

يتسلـل عائداً إلى هنغـاريا مـن خلال أنخيلـوس Anchialos ، وعزم على استرداد السلطة [١١٦٣]، وتـولى السعي لـذلك بشكـل سري، لكن بانـدفاع بـدلاً من أخـذ الحيطة، وربـح في أثناء تجوالـه إلى جانبـه بعض الهنغـار، وعندمـا علـم ستيفن [الثـالـث] بهذا اندفـع نحـوه ومعه جميـع جيشه، ولهذا بعـث الامبراطور إلى كليكية جيشاً كـافياً للدفاع عنهـا، وقام بالزحف عائداً إلى الدانوب، وعبر السافـا، ومركز قواته مقابل تيتليون Ti- telion [تيتـل على التيسـا Tisa] (٢٠)، عـازمـاً على استرداد ميراث الأجـداد إلى بيلا، ولينقـذ ستيفـن [الرابـع] مـن المصـاعب التـي تـواجهه، فقـد كـانت قـواتـه تتبـدد وتتشتت، وكـان بـالحقيقة في وضـع صعب، بسبب أن الهنغـار كانوا في كل منـاسبة ذاهبين للالتحاق بـالملك [اسطفان الثالث]، وأرسـل الامبراطور أندرونيكوس بن كونتـوستيفانوس، الذي سيصبح بعد وقت قليل دوقاً أعظـم، مع جيش، فتولى انقاذ ستيفن من وسط المصاعب.

وانطلق الامبراطور من تيتليـون مع قواته كلها، وتابـع زحفه إلى الأمام، أما بالنسبة لستيفن [الثالث] الذي اغتصب السلطة، فقد وجد نفسه غير قـادر على التصادم مـع الامبراطور بقـوات متكافئـة، ولهذا زحف أولاً مـع القوات المحيطـة به إلى مكان ما وقـع في الجزء الأقصى من هنغاريـا، ثم إنه بعدما قام بجمع قوات حليفـة، بادر مسرعاً للتصدي للرومان، ووصل الامبراطـور إلى مكان يـدعى بيتريكـون Petrikon [بيتروفارديـــــن Petr؟ovardin]، وعسكـر هنـاك، وهذا المكـان هـو الحد الأقصـى للـوصول إلى داخـل هنغاريـا، وبعدمـا وصل إلى هنـاك، كتب مـايلي إلى ستيفن [الثالث]:

«لقد قدمنا يابني لالإثـارة الحرب ضد الهنغار، بل لاستعادة أرض بيلا ـــأخوك ـــ وهو ليـس شيئاً انتزعناه بقوتنـا، بل إنه مامنحتـه أنت وأبوك من قبـل، منذ زمن طويـل، وكذلك لننقـذ من المصاعب عمـك ستيفن،

المرتبط بربـاط الزواج بجلالتنا، وإذا كان تبعاً لارادتـك الحرة أصبح بيلا صهـرنا، وهـو شيء كنـتُ قـد وافقت عليـه مـن قبـل، لماذا سارعـت إلى التخلي عن صـداقتنا، بعدم قيـامك بـاعطائه أرضه؟ وإذا كنـت تعارض الزواج وشيئـاً آخر يبـدو بالنسبـة لك صحيحـاً فيما يتعلق بـه، اعلم اننـا سنمتنع عن الضغط عليك أكثر».

٧- كان هذا مـاكتبه الامبراطور، أما الآخر، فكـان —كما ذكرت— قد حشد قـواتاً حليفـة من الألمان والسيـزيين من تـاوروس [تاوروس سيـز أوروس]، وتعايـش مع أمة التشيك منـذ أن قدم إلى عنده حاكمهـا ومعه جميـع جيشه، وهـذا الحاكم هـو الذي ذهـب بالحملـة مع كـونراد ملـك ألمانيا، عنـدما —كما حكيت من قبـل— انطلق نحو آسيـا، ولهذا السبب أصبح ملكاً تحت سلطانه.

ومع هذا فكلاهما قد غشا: الـذي منح اللقب والذي قدم الشكر، لأن لقب امبراطـورية كان قـد اختفى من روما منـذ زمن طويـل مضى، ولأن منح السلطة قد انتقـل —بعد أغسطس الذي يدعى أغستـولوس، وذلك اشارة إلى سنه الصغير عندما وصـل إلى السلطة— إلى أودوفاكار Odov-akar ثـم إلى ثيـودورك حـاكـم القـوط، وكـانـا معـاً طـاغيتين [أي مغتصبين]، ولأن ثيودورك دعا نفسـه طوال حياته ملكـاً وليس امبراطوراً، وذلك حسبما روى بـروكوبيـوس، وتعيش رومـا منذ أيـام ثيودورك، لابـل قبل ذلك بقليل، حتى الآن في حالة ثورة، مع أنها استردت مراراً من قبل بليزاريوس ونـرسيس، قائدا الرومان في أيام جستنيـان، ثم انها تحولت إلى مرتبـة ليست أقـل من العبـودية تحت ظـل الطغاة البرابـرة، الذيـن حملوا ألقـاب ملوك في مضـاهاة لثيـودورك الملـك الأول والطاغيـة، وبما أنهم لم يدعـوا المقام الأعلى، وهـو مقام الامبراطـورية، مـن أين يحق لهم الاقتراح بالنسبة لأنفسهم مناصب [الملكيـة] التي —كما سلف وقلت— صدرت عن الجلالة الامبراطورية بمثابة تمييز(٢١).

ولم يكن هـذا وحده كـافياً بالنسبـة لهم، فاغتصبـوا —مع أنـه لايليق بهم— أعلى منزلة للسلطـة وأضفوا على أنفسهم لقب الامبراطـور، وتحتاج هذه الحماقة وفقدان العقل الشرح:

أسرعوا الآن بالاعلان أن الامبراطورية في بيـزنطة تختلف عن تلك التي في رومـا، ولدى تفحصي لهذا، تسبـب ذلك لي مـراراً بالبكـاء، فلقد بيـع الحكم في روما، مثل قطعة مـن المتاع، إلى البرابرة، وفي الحقيقة إلى العبيد، ولهذا إنهالاتستحق أسقفاً، وأكثر من هذا إنها لاتستحق حاكماً، لأن الذي صعـد إلى عظمة الامبراطـور ركض على الأقـدام بشكل غير لائق بنفسـه مماشاة لـلأسقـف الراكـب، وكـان مثل سـائسـه(٢٢)، غير أن الآخريـن يـدعونـه امبراطـور، مقـدرين أنـه كـان مسـاوياً وبـالـدرجـة نفسها مـع البازيلوس [الامبراطور البيزنطي].

[وبالنسبـة للبابا:] كيـف لك ياسيدي النبيـل، ومن أين وقـع لك أن تعامـل امبراطور الـرومان مثـل سائس؟ لكنـك لاتعرف مـن أين، وأنـك أسـأت إلى لقب أسقـف، في حين زيـف هـو [الامبراطور الغـربي] لقـب امبراطور، لأنـك إذا لم توافـق على أن عرش الامبراطوريـة هو في بيـزنطة، وهو عرش روما، من أين أصبحت مستحوذاً على مرتبة بابا؟

هنـاك قسطنطين واحد فقـط، وهو المسيحـي الأول بين الأبـاطرة، ولـه سائغ منحه هذا اللقب، كيف يمكنك أن تـرحب بجزء منه بايثار، وأعني بذلـك العرش البابـوي، وغاية العظمـة، لكن تـرفض قبول بقيـة السيادة الامبراطوريـة، عليك إمـا أن ترضـى بكلا النـاحيتين أو ترفـض النواحـي الأخرى أيضاً.

غير أنه يقول:

أنـا يمكنني أن أعين أبـاطرة، نعـم، هـذا فيما يتعلق بـوضع الأيـدي،

وكذلـك فيما يتعلق بالتكـريس، فهـذه مسائل روحية، لكـن لافيما يتعلق بمنح امبراطـوريات واختراع مثل هذه الأشيـاء، ومادام بإمكانـك تحويل الامبراطوريات، لماذا لاتقوم أنت نفسك بتحـويل الامبراطورية القائمة في روما؟ لكـن عندمـا يرسـم واحد آخـر شيئاً مـا، على الذي وقتهـا يمتلك الكنيسـة بينكـم أن يعتـاد رغم ارادتـه على احترام مـراسيمـه(٢٣)، لقـد وقعـت —على كل حـال— في مصيـدتك، وتفعـل بشكـل مُقنع أشيـاء متعـارضة، هـؤلاء الـذين لم تـرض قبول طلبهـم واستقبـالهم، منذ وقـت قصير، عندمـا كنت تتصرف بشكل صحيـح نحو الامبراطـور، لأن ذلك لم يكن ممكناً، لكن أن تدرجهم الآن بين سواسك، لاأعرف كيف ذلك، ولا كيف تتقبلهم بمثابـة أباطرة، إنك تدرك أن الذي بوساطتـه ومن خلاله، ومنه ادعيت العـرش البابوي، لايمكن أن يُطـابق مع البربري، والطـاغية والعبـد، إنـه يقول: أنـا أرغمـت، إننـي تحت الضغط، إن عـذرك ليس مسوغـاً، لقد تخليت مـن قبل، لكن ليس قبل وقـت طويل مضـى، عن هذه الأشيـاء إلى الامبراطور مـانويـل، وإذا ما رغبـت بانكـار ذلك، فـإن الـوثائق التـي تلقـت توقيعـك في الأسفـل تعلـن ذلك، وفي الحقيقـة إن القضية هي مزحـة، وخدعة سخيفة ودنيئة، وحسب طريقـة الذي يراهن على مضي الوقت، لقـد لزمت بخط تبدلات الحظ(٢٤)، ولقـد تشعبنا مع هذه المسألـة أكثر مما يتوافق مع الـروايات التاريخية، لذلك لنـدع الحكاية تعود إلى مسألتها السالفة.

٨- بعدمـا قام ستيفـن [الثالث] هكـذا بالاستعـداد، أسرع بالـزحف ضـد الـرومـان [١١٦٤]،وعنـدمـا كـان الامبراطـور في داخـل الأراضي الهنغارية، جاء النـاس الذين كانوا هناك على شكـل حشود للترحيب به، وضموا كـلاً من الذيـن كانوا مـدرجين بين رجال الـدين، الذيـن التفوا بأردية صوفية، وحملوا بأيديهم الكتابات المقدسة، والذين كانوا من العامة والناس العاديين، وقد غنـوا بشكل جميل جداً، مزموراً نظمـه ببراعة واحد

ممن كان بيننا، ونصه هو كما يلي: «أيها المولى، يامن ساعدت داوود المتواضع»، وهكذا، وبعدما مرّ الامبراطور بهذه المناطق، أسرع لعبور الدانوب، وذهب محاذياً لجزيرة كانت هناك(٢٥)، فقد عزم على الزحف نحو الداخل.

ثم إنه عندما كانت القوات الرومانية تعبر، حدث أن واحداً من القوارب، امتلأ حتى حوافه بالبضائع والسلاح وبأكبر عدد ممكن من الرجال،وعندما لم يكن بعيداً عن الشاطىء، جنح إلى أحد الأطراف، ولذلك تدفق الماء إلى داخله، أما بالنسبة لبقية الجيش الروماني من الذين صعدوا إلى السفن وكانوا محمولين على وجه النهر، والذين كانوا مايزالون واقفين على اليابسة، فإن بعضهم قد استولى عليه الخوف من الخطر، وبعضهم الآخر كان مهملاً، ولذلك أهملوا القضية، ولم يبق سوى القليل أمام السفينة حتى تغرق وتذهب إلى القعر مع جميع رجالها، لولا أن الامبراطور قفز إلى الماء، وقصد على قدميه نحو السفينة، وذلك في وقت كان فيه التيار يدور بعنف عظيم، وشكل بعضاً من الطين هناك، كان من الصعب جداً تجاوزه، وقد وضع الامبراطور كتفيه تحت المركب، وأوقف بذلك لحظة الخطر، وأعطى بذلك الفرصة للآخرين للقدوم لمساعدته، فقد خجلوا من غيرته، فذهبوا إلى مساعدة الذين كانوا وسط المصاعب، وأنقذوهم من الخطر، ولذلك حصل الامبراطور على احترام عظيم لانسانيته.

ثم إنه بعدما عبر الامبراطور الدانوب من مكان أكثر ارتفاعاً، أسرع نحو مدينة اسمها باغاتزيون Pagatzion [باكس أوبج] —وهذه المدينة هي مطرانية شعب سيرميون Sirmion ، وهناك يسكن أسقف الشعب— وجاءت حشود من السكان خارجة من المدينة للخدمة بمثابة حرس هناك(٢٦)، وهكذا عسكر هناك، لكنه علم في اليوم التالي أن ستيفن [الثالث] كان يقترب آنذاك، فاستعد فوراً

للمعـركة، واستـدعى واحـداً من الـرومـان، كان يعـرف اللغة التشيكيـة، فطلب منه أن يخفي نفسه ويتسلل إلى معسكـر العدو، وعندما يصبح على مـرأى من ملـك التشيك أن يخاطبـه كما يلي: «إلى أين أنـت مسافـر؟ أي حملة أنت قـائم بها مع الجيش الذي تحت امرتك؟ أو انـك لاتعرف أنك تتجرأ برفع يديك ضد الامبراطور العظيـم؟ إنه مرعب بالنسبة لأي انسان أن يقف ضده في المعـركة لأسباب كثيرة، دون أن نذكـر أن مخاطرات المرء مزدراة من قبـل هؤلاء الهنغار، الذيـن أعطوا بيلا ميراثه ثـم أخذوه، لأنهم يعاملـون أيمانهم وكأنها مـزاح، فلو أن الانسـان يتعامـل مع فـرد خاص، وحدث مثل هـذا، بخرق اتفاقيته، هـل يمكن أن يمر ذلك بـدون عقاب بوساطة القانون، فهل ياترى يمكـن للهنغار الذين عملوا ضد معاهداتهم مع مثل هذا الامبراطور، أن يبقوا بـدون عقاب؟ لايمكن هذا، وعلى ذلك أوليسـت الحرب المثـارة من قبـل الامبراطـور عـادلـة؟ إن نتيجة المعـركـة ستكون دومـاً وفقاً للعدالة، وقـدر هذا: إنك قـدمت بمثابة عبـد متشوق للقتال ضد سيد، وبمثابة عبد يحمل النير بدون إكراه، (وإذا لم يكن الأمر كـذلك، سيكـون مـن الطبيعي هنـاك سبب مثـل الكـراهية لسيـد) وفي الحقيقة كتابـع متطوع (ولاؤك [Lizion] يدلـــل على هذا) (٢٧) إذا كان ماصنعته في بيزنطة من قبل، عنـدما انطلقت إلى آسيا مع كونراد، إن لم يكن ذلك قد أفلت من ذاكرتـك، وإذا كانت نتيجة الأمور متوقفة على قـرارك، اختر مـاسيكـون مفيداً لـك ولجميـع التشيكيين، الأسـف قـادم، والمنافع بالعادة قليلة جداً لمن يمارسه».

هكذا تكلم، وأجـابه فالديسـلاف [الثاني] (كان هذا هـو الاسم الذي أطلـق عليه) (٢٨) حسبما يلي: «أيها السيـد النبيل، نحـن لم نأت إلى هنـا لاثـارة الحرب ضـد امبراطـور عظيـم (ولا أن نكـــون بـذلـك متجـاهلين لاتفـاقاتنـا نحوه) بـل أتينا للـدفاع عـن ستيفن هـذا الذي لحقـه الضرر بشكـل غير عادل مـن قبل عمـه الشقيق، الـذي كان قـد طرده أولاً مـن

أرض آبائه ومن ميراثه، ثم إنه عنـدما استرد الحق إليه، هاجمه الآخر، وعزم على أن يستعيد بـالقوة المنصب الذي كـان قد فقده لسـوء حكمه، ولهذه الأسباب جئـت لأطلب من الامبراطـور ولأرجوه في أن يقوم بحمايـة طفل يتيم، ولكـن إذا كان تـمّ صنيع شيء ما لـلاضرار بالامبراطـورية مـن قبل ستيفن الأصغر (لأنني علمت أن مـامن شيء من الأرض العائدة إلى بيلا نفســه قد استـولى عليه) سنقـوم بـأنفسنا بعمـل الـوساطـة ولسوف يقـوم بالتنـازل عن الأرض على الفـور، ويجهد بكل سبيـل بالعمـل للتكفير عن أخطائه»، لقد كان هذا ماقاله، ثم أعاد الرجل.

وعـاد الرجـل إلى المعسكـر الـروماني، وأوصـل إلى الامبراطـور الجواب، واستمع مـانويـل إلى هذه الكلمات ليس بـدون سرور، ومع ذلـك لم يكن قادراً على تصـديقهم كلياً، وشعـر بالقلق خشيـة أن يكون فالـديسلاف لم يكن قد عبّر عن نواياه الحقيقية، بل يـوجد خلفهم شيئاً من الخيانة، فقام بـارسال بعـض أعوانـه إليـه، وأمر أن يتـم تـأكيد الاتفـاقية بيمين، وقـام الطرف الآخر بـدون تردد بفعل ذلك على الفور، ولم يكتف بـذلك، بل زاد التأكيد بأيمان اضافية على ماكان قد تعهد به من قبل، كما تقدم وذكرنا.

وبعد قليل بعث ستيفن رسلاً إلى الامبراطـور، أعاد بوساطتهم الأرض، وطلب مـن الامبراطور ألاّ يسمـح لعمه ستيفـن [الرابـع] القيام بمهـاجمة هنغاريا(٢٩)، وقبل مانويل هذه الشروط، وبناءً عليه أنهى الحرب، وذلك بهدف الجواز إلى الأراضي الـرومانيـة، ونصـح ستيفـن [الرابـع] بمغـادرة هنغاريا، لأنه علم من خلال التجربة بأن أبناء جلدته لايرضون به، لكن بما أنه لم يكن قادراً على اقنـاع الرجل قال له: «إنني الآن مغـادر، فبعدما استرددت أرض بيـلا، لم يبـق مـن سبـب مسـوغ للصراع، إلا سبـب غير عادل، واعلم أنك ستتعرض للخيانة على الفور لصالح أعدائك، وإذا ما كنت ترغب فإننـي أبرهن لك وأريك الحقائق حتى أمام نـاظريك، يوجد هنا ابن أخيك ستيفن، وهو مشابه لـك تماماً بالمظهر، إلى حد أنه يصعب

على الـذين ينظـرون إليك عـن بعد تمييـز أحدكما عـن الآخر، قـم بعدمـا تلبسه سلاحك بـأمره بأخذ جيشك، والزحف ضـد الأعداء، وابق نفسك مختفياً في مكان ما هاهنا، وستعلم على الفور كيف سيعاملك الهنغار».

وهكـذا دخـل [ستيفـن الـرابـع] إلى إحـدى السفـن، وأقلـع دون أن يُلاحـظ إلى مكان ماعلى شـواطىء الدانـوب، بينما بادر ابن أخيـه ستيفن والهنغار من حولـه للاشتباك مع الملك ستيفن، ولكن حتـى قبل أن يواجه الجيشان أحدهما الآخر، بادر الهنغار الذين كـانوا مع ستيفن بإلقاء القبض عليه، وأسرعوا بتسليمـه إلى الملك على أنه ستيفن الأكبر، وانتهـت خطيئة الهنغار عند تلـك النقطة، لكن عندما علم الامبراطـور بهذا، أرسل ينصح ستيفـن [الـرابـع] قـائلا: «يكفـي أيها الـرجـل، وكما أنـه مـن الخطـر أن تنسحب بدون حاجـة، كذلك من الحماقة أن تكون جسـوراً بدون حاجة، تبصر أنك في مـرتين كنت قادراً على أن تعلـم كم من الشرور جـاءت من كـل منـاسبة، ولاتحاول مـرة ثـالثـة، أيها السيـد النبيل، لايمكـن بسرعـة اصلاح الأمور وتـرميمها حسبما ترغب». لقـد كان هذا ماقـاله الامبراطور لكن الآخر أجابه: «بدلاً عن ذلك، يشعر الهنغار الآن بالخجل، لانغماسهم بالخيانة»، وهكذا تبدلت الروح التـي استولت عليها الشهوة مرة، وأوقفت كل نقاش في اتجاهها.

وبعدمـا رفض قبول [المساعـدة] لهذه الأسباب، ترك الامبراطـور هناك نقفور كالـوفيس Chaloupheś مع جيش لمصاحبـــة ستيفن، وليتولى معالجة كـل مايمكـن أن يحدث، وعاد هـو نفسه إلى الأراضي الـرومانيـة، وبعد مضي مدة وجيـزة [١١٦٤] علم الملك الهنغاري أن ستيفـن مايزال في هنغاريـا، فقام بجمع المزيـد من القـوات، وبادر مسرعاً لتقـدير مصير كـل شيء بوسـاطة القتـال، وحدث في الـوقت نفســه أن عدداً كبيراً ممـن كانوا مع ستيفـن [الرابع] تخلوا عنه والتحقوا بالملـك، وهكذا تركوه مجرداً من كل جانب، وعندما علم كـالوفيس بهذا، عرض عليه خطة قضت أن

يقوم بمغادرة هنغـاريا وأن يأتي إلى سيرميون، وبما أن تلك المنطقـة كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور، فسيكون ممكنـاً له —كما قال— أن يقوم بما يريده دونما اعاقة، ولكن بما أن الرجل رفـض بثبات، فقد خطط كالوفيس ونفذ الخطـة التاليـة: لقد تظـاهر أن رسـالة وصلـت إليه مـن الامبراطور، فزحف نحو الـدانوب من أجل مقابلة الـذين حملوا الرسالة إليـه، والذين كانوا لخوفهم من الهنغار مقيمين في مكـان ماعلى محاذاة الدانوب، وعندما وصل إلى هناك، عبر ومضى إلى سيرميون، وبعـد وقت قصير وصل ستيفن إليه ملتجئـاً وذلك بعـدما كاد أن يـؤسر من قبل الأعـداء، وعندمـا سمع الامبراطـور بهذا أرسـل جيشـاً معتبراً إلى سيرميـــون، لكـي يتـولى —مـن جهة— حماية المنطقـة (لأنه عامل الهنغـار بشيء عظيم من الريبـة، وكان يخشى أن يثـوروا ثانيـة)، ومن جهة أخـرى بحجة تـأمين الأمن لأتبـاعه، ولبذل الجهـد في سبيل سـلامة ستيفن، وقـاد هذه القـوة ميخائيـل الذي كنيته غـابراس(٣٠) Gabras ، وبما أنه كـان زوجاً لإحـــدى بنات أخيه فقد حمل لقب سيباستوس.

وحمل الامبراطور ذراع القديـس بروكوبيوس، الذي كان قـد أخذه من سيرميـون، وأعاده إلى بقيـة الجسد في الكنيسـة في نيسوس، وكـانت هـذه الذراع قد فصلت عن بقية الجسد منـذ وقت طويل مضى للسبب التالي: كانت أمـة الهنغار قد استولـت مراراً على الأراضي الرومانيـة، وكان هؤلاء الهنغار قـد استولوا على سيرميـون قبل حكم ألكسيـوس كومينوس بـوقت قصير، وبعـدما استعبـدوا كثيراً مـن مدن الـدانـوب،وصلوا إلى نيسـوس، فـوجدوا هنـاك جثة الشهيـد المقـدس، وقدروا —كما أعتقـد— أنه كـان عملاً غير انسـاني القيام بحمل الجسد كلـه، ولذلك اكتفوا بقطـع الذراع ومـن ثم غـادروا، وعنـدما وصلـوا إلى سيرميون، تـركـوا الذراع هنـاك في كنيسـة الشهيد ديمتريـوس، التي كـان قد بنـاها الـذي حكم في متقـدم الأيام مقاطعة اليركيوم Illyricum ، وعندما اكتشف الامبراطور

الـذراع هناك، حملهـا، وعاد بها —كماذكـرنا— مسرعـاً ليضمها إلى بقيـة الجسد.

٩- كانت هـذه الأشياء قد حدثـت وأنجزت من قبل الامبراطـور ضد الهنغار في ذلك العام، كما أنه أرسل ألكسيـوس ابن الدمستق [أكسوكوس Axouchos] الذي كـان —كما ذكرنا— قـد تولى مـراراً منصب البروتونوتاريوس Protonotarios ، أرسلة إلى كليكية، مع حملة معتبرة، وعيّنه قائداً عـاماً مسؤولاً عن الصراع هنـاك(٣١) [١١٦٥]، ذلك أن نـور الديـن أتابـك حلب، كـان قد ارتفـع شأنـه نتيجة الانتصـارات المتقدمـة، فبات يحدوه الأمـل في أن يسيطر حـالاً على أنطاكيـة، وكذلـك كان طـوروس المتسلط على الأرض هنـاك، قد استـولى غدراً على كثير مـن المدن الإيـزوريـة مما كـان خـاضعـاً للامبراطـور، ذلـك أنـه كان معـاديـاً لأنـدرونيكـوس يـوفـوربينـوس Euphorbenos ، ابـن عـم الامبراطور، الـذي كان آنذاك حاكماً لكليكيـة، فقد اتهمه طوروس بـأشياء كثيرة، ولامه بشكل خاص لقتله [١١٦٢] أخيه ستيفن [سديفان].

لقد كان هذا ماحدث هناك.

وكانت قـوة فردريك ملك ألمانيا تتقدم لحظـة فلحظة وتتصلب كثيراً، لأنه تدبـر أشياء كثيرة ومتنوعة في سبيل استقرار الـدولة، ولاسيما في سبيل تأمين المال، وهـو شيءلم يكن بالعـادة من قبـل، فقد استولى على ميـلانو، وهي مـدينة شهيرة [١١٦٢]، وهـزم أمة الليغـوريين أو اللومبـارديين، ثم تابع المزيد من التقدم، فزحـف إلى أقصى أجزاء الغرب، وهذا الذي كان من قبل غير قادر على الحاق الهزيمـة أثناء القتال بالذين كـانوا على مقربة منه، استطاع إثـر ذلك الاستيلاء على المناطق البعيدة كثيراً، فـأخضع روما نفسها في الحرب(٣٢)، ولهذا شعر الامبراطـور مانويل نفسه بـالقلق، وأخذ يبحث عـن الوسيلة التـي يوقف بها تقـدمه، خشية أن يجعلـه نجاح غير

متوقـع يقدم على الالتفـات ضد الأراضي الرومـانية، التـي نظر إليهـا منذ زمن طويـل مضى بأعين جشعة، ولهذا أرسـل سراً بعض الأشخاص غير المعروفين إلى الأمـم هناك، وإلى المقيمين داخـل خليج إيـونيان Ionian [البحر الأدرياتيكي]، وأمـرهم بتذكيرهم بجشع فردريـك الذي لاينتهي، وليثيرهم لمقـاومته، وبعـث إلى شعب البنـدقية نقفـور كالـوفيس مـع مال ليكسب مشاعر أولئك الناس نحوه، وليوجه الأمور هناك لصالح الرومان.

وكان فـردريك بعدما أخضـع روما قد أحدث تغييرات كثيرة، خـاصة بازاحـة الاسكندر [الثـالث] عن عـرشه، ذلك أنـه كان الأسقـف هناك، ووضع مكـانه أوتـافيانـو(٣٣) Ottaviano وبذلـك كان يمكنـــه —كما أعتقد— جعل نفسه مسـاوياً بالمرتبة امبراطور الرومـان، لأنه مامن أحد —باستثناء امبراطـور الرومان— مخول بتسمية أسقف لرومـا، وعندما أزيلت هـذه العادة بسبب اهمال أبـاطرة بيزنطـة، مامن واحـد أقدم على إقامة أية أسقف في روما، بل كان ذلك يتم من خلال مجمع ديني خاص يضم حكـومة الكنيسـة وأعلى رجال الكهنوت رتبـة [يعني الكـرادلة] في روما، وكـان فردريـك، قد رنـا بناظريـه من قبـل نحو منصـب امبراطور، ولدى توليه تعيين الأسقـف، بدا وكأنه يمتلك مسوغـات هامة ومعطيات لنيل هذا المنصـب، فلقد كسب إلى جانبـه عدداً من الأساقفـة، وظهر أنه مقبل على نيـل مايأبـدعه من خـلال مجمع ديني، أمـا بالنسبـة إلى الملوك الآخرين، فقد بدا هذا أمراً ليس مـرضياً، لكن مامن واحد كان قادراً على مـواجهة فـردريك، الـذي صعد إلى أعلى درجـة من القـوة، باستثنـاء أن الامبراطور كان قادراً على اعـاقته بالمال وبطرق مبدعة أخـرى لخدمة هذا الغرض، فقـد أعاد تثبيـت الاسكندر على عـرشه، غير أن هـذا حدث فيما بعد.

وعندما وصـل كالوفيس إلى ايبيـدامنوس Epidamnos ترك معظم المال الذي عهد به إليه هناك، ومضى إلى البنـدقية بوساطة سفينة، لاقت

ريحاً طيبة [حوالي١١٦٦]، وعندما جاء ليتحدث إلى الدوج في تلك المنطقة [فيتالي ميشيلي الثاني] وإلى بقية الأعيان وسط ذلك الشعب، خاطبهم قائلا:

«لايفكرن أحد أيها السادة أنني قدمت إلى هاهنا من عند الامبراطور خوفاً، أو خشية أن المشاعر الطيبة لديكم نحو الامبراطورية الرومانية يمكن على الاطلاق أن تتخلى عنها نباهتكم، فأنتم لستم أدنياء بمثل هذه الدرجة، ولاغير جديرين بأصلكم، ولم يخطىء الامبراطور في رأيه فيكم، لكن بما أنه —باستثناء الخاضعين لسلطانه— مطمئن تجاه حسن نواياكم، قرر أن يمدّ عواطفه الملكية الأمينة نحوكم، وبما أنه من العار استغلال الرعايا المزدهرين، ورفض انقاذ الذين يعانون من المصاعب، ولأنكم مع آخرين ممن يشارك في المشاعر الطيبة للامبراطور قد تعرضتم للخطأ من قبل فردريك، الذي لشدة رغبته بالسلطة قد جهد أن يغير بدون توقف ماتقرر منذ زمن بعيد وصار عادة، ولهذا أرسلني إليكم، كما ترون، لأزودكم بكل شيء يمكن أن ترغبوا بالحصول عليه منه، فبمساعدة الامبراطور توليتم بأنفسكم الصراع ضد فردريك في ميلان، وأنتم تعلمون كيف انتصرتم عليه، ولهذا بات يحمل الحقد على الامبراطور، وثقة منه في نجاحه غير المتوقع يطلب شيئاً غير لائق، إنه يطلب أن يحمل لقب امبراطور الرومان، وهو لايعلم أن نجاحات الحظ غير المتوقعة تتبدد بالعادة بسرعة وتختفي، لأنها لم تقم على قاعدة ثابتة، إن هذه هي الأسباب التي جئت من أجلها إليكم، ويتوجب عليكم مراعاة التنفيذ الفعلي لما وافقتم عليه مؤخراً عندما راسلتم البلاط الامبراطوري، فلقد قلتم إن مدن الليغوريين [أي اللومبارديين] المجاورة ستساندنا إذا جاء أحد من بيزنطة ليشارك في المهمة معكم، وهذا —كما ترون— قد وقع». هكذا تكلم نقفور، ورحب البنادقة بكلماته، وتعهدوا بتنفيذ كل شيء، وفي الحقيقة انضمت كريمونا وبادوا وكثير من المدن

الشهيرة الأخرى في ليغوريـا إلى الامبراطور، وكان هذا مـا أنجزه الامبراطور في ايطاليا، لكن ليس بشكل مكشوف، فقـد كان مايزال يرغب في اخفاء كراهيته نحو فردريك.

١٠- واستـولى [اسطفـان الثـالث] ملـك الهنغـار مجدداً على سيرميـون وانتـزعهـا مـن الـرومـان وتمسـك بها، وادعـى ملكيـة زيغمينـون نفسهـا [١١٦٥]، وعندما علم الامبراطور بهذا كتب له كما يلي:

«أيها السيـد النبيـل، انـك لاتتصرف بشكل عـادل، فقـد استخففـت بـالأيمان التي سلـف أن أقسمتها لجلالتنـا فيما يتعلق بسيرميـون وأماكـن أخرى، وخرقتها، (ويحتاج البرهان على ماقمـت به إلى كلام طويل) وما لم تقم بالانسحاب بسرعـة مما ليس عائداً إليك، فإنـك لن تحقق شيئاً كثيراً بالاستيلاء على سيرميون لأنك سوف تعاني من ذلك قريباً، وذلك عندما تجتاح القوات الرومـانية بلادك كلها من جديد بقـوة السلاح، فهل نسيت كم مـن آلاف المرات قد انتزعـت هنغاريا من أبيـك، عندما تخاصـم منذ زمن بعيد مـع الدولة الرومـانية؟ الاعتذار عما اقترف هو سبيـل خلاصك: فكر بهذا وإلا فـإنك لن تستفيـد حتى من اعتـذاراتك المتقدمـة، وسيف العدالة التي شحـذ من قبل خلال عدد كبير من السنـوات تحول بالحقيقة لأن يكـون مظلماً، خـلال عدد مساو مـن السنـوات، لكنني أعتقـد أنـه لايمكـن للمرء أن يتجنـب حده قبـل الآخـرين»، هكـذا كانـت كلمات الامبراطور وعباراتـه، لكن ستيفن أهمل هذه الكلمات، ورجـع إلى الطريق نفسه، ولهذا استعـد الامبراطور بكـل وسيلة لقتـاله، لابـل حتى رغـب في إعادة اعطاء العـرش إلى عمه الشقيق ستيفن [الرابع]، وهـذا أمر لم يفكر به من قبل.

ووصل بـالحقيقة إلى دولة روسيـا رجل اسمه مـانويل، يعـود بنسبه إلى الكومنيني [حوالي١١٦٥] ليـذكر حاكمها بالاتفاقية التي كـان قد عقدها

من قبل مـع الامبراطور وأكدها باليمين، بـالاضافة إلى لومه لصـداقته مع ياروسلاف Iaroslav [أوسموميس Osmomys] حاكم غاليشيا، لأن ياروسلاف خـرق تعهداته نحو الرومان في عـدد كبير من المسائل، ولاسيما في استقباله أندرونيكـوس والاحتفاء به بشكـل ينم عـن الصداقـة، وعن أندرونيكوس هـذا سوف نتحدث ملياً، فقـد جاء إليه ملتجئاً بعـد فراراه مـن السجن في القصر، حيـث كان مسجـونـاً —كما أعتقد— لمدة تسع سنوات، وفيما يتعلـق بالحقائق حـول فرار أندرونيكـوس، هذا ماسـأحكيه الآن:

١١- وكان في وقـت متقدم مضى قـد فرّ مـن السجن بطريقـة رائعة، لكـن القدر كما أعتقـد كان مـايزال يتطلـب العقـوبة لما كـان قد اقترفـه، ووضع دون جهـد هذا البـائس في أيدي مطـارديه، فقـد روي أنه عنـدما وصل إلى نهر سانغـاريوس Sangarios [ساكـاريا Sakarya] اضطر بسبب البرد الشـديد إلى الدخـول إلى كوخ حقير، لكـن مالبث أن لـوحظ من قبل الرجال هناك، لأنه كـان بطبيعته دائم الحركة، وبدا حاداً إلى حد مـا ومخيفـاً، وبسبـب أن الحركـة الداخليـة ظهـرت كما أعتقـد، وبـاتـت مسمـوعة في الخارج، قـام الفـلاحون بتطـويقه، وعلى الـرغـم من انكـاره وتأكيده أنه ليس أندرونيكوس، ربطـوه وذهبوا إلى بيزنطة، وأخذوه معهم، ومرة ثانية تولت القيود والزنزانة حبسه.

ثم قام أخيراً بطبـع المفاتيح على الشمع، وأرسلهم مـع أحد المساجين إلى زوجتـه وابنه[١١٦٤]، وبـاستخـدامهم لبعـض المتآمـريـن الآخريـن صنعوا المفاتيح من الحديد وأرسلوهـم له، وبعدما استلمهم، وعند غروب الشمـس، وهـو وقت كـان متفقـاً عليـه، وبعد أن انتظـر غيـاب الحراس خرج، وكان هناك سـاحة ما، لها سور، فهناك كان مسجـوناً، وكان هناك، بحكم أن المكان نادراً مـاطرق، بعض الأعشاب التي نمت بكثـافة وطول شديـد، فركـض هناك، وخبأ نفسـه مثل الأرنب، بـإلقاء نفسـه في أصغر

بقعة ممكنة، وبما أن الوقت بات ليـلاً، كان على حرسه الليلي المعتاد القيام بتطويق السجـن، وقام الذي عهد إليه من قبـل الامبراطور بالاشراف على ذلـك بمركـزة الحرس، وهزّ بيـده القضبان، حسـب عـادته اليـومية قبيـل ذهـابه إلى الفـراش، وكان هـدفه تفقـد الـوضع ومعـرفة فيما إذا كـان أي تخريـب قد وقـع، وعنـدما لم يجد أي تخريـب على الاطـلاق، ترك المكـان وذهب إلى النوم، وكان أندرونيكـوس قد خشي أن يجد كلادون (كان هذا اسم الرجل) البـاب مفتوحاً فيشرع على الفور بالبحث عنـه، أغلق الباب وغادر بسرية وأمان.

وعندما حلّ منتصف الليل، ذهب إلى أقصـى جزء من الساحة هناك، حيث نهايـة السور المشرف عليها، ولم يكن السـور مرتفعاً جداً هنـاك، بل مايكفـي فوق الماء هنـاك، وكان البحـر عندمـا يرتفـع بقوة الـريح غـالباً مـايضربه بمائه بعنـف، وربـط هناك حبـلاً قصيراً وأمسـك به وتـدلى إلى الشاطـىء، وهناك واجهه الحظ لـوقت قصير بوجـه عبوس، ثم ابتسـم له وأطلقه وتعطف عليه، ذلك أنه كان خجولاً بعض الشيء، ويمزح كما هو واضح، فقـد كان هناك واحداً مـن الحرس الذين اعتادوا على الاقـامة في الأبراج،وكانوا يـداومون الحراسة بالصراخ من أحدهـم إلى الآخر بالتناوب مـع التفوه بـالكلمـة المتفق عليهـا، فعنـدمـا رآه هذا الحارس اقترب منـه وطلب منـه أن يعلن عـن هويتـه، فأجابـه السجين بأنـه كان واحـداً من الذين يقفون في القصر عند الـ Papicas (٣٤)، لأسباب مالية، وقال له: «إذا تركتنـي أذهب، فهذا سيكون معروفاً وفضـلاً منك نحوي»، وفيما هو يقول ذلك سحـب التميمة من حول صدره وأراه إياهـا، وعندما رأى الآخر (الذي كان فلاحاً ويتصـارع بشكل مستمر ضد حقائق الفقر) الـذهب يلمـع أمـام عينيه، أخـذ التميمـة وترك أنـدرونيكـوس يذهـب، ووصل بالوقت نفسه إلى القارب الذي كـان موضوعاً بالقرب من المكان، وكـان معدّاً لنقلـه، وحملوه بـالقـارب، وأوصلوه إلى البيـت، وهناك فكـوا

القيود التي ربطت قدميه، ثم قـام مجدداً بالصعود إلى ظهر سفينة، أقلعت به، وأبحرت إلى خارج الأسوار، وهناك وجد الخيـول التي كانت معدّة من أجله، فامتطى أحدها وغادر هاربـاً، وهكذا بعدما هرب أندرونيكوس من السجـن، مضى إلى روسيـا، والآن ينبغـي أن تعود روايتنـا إلى مـوضوعهـا المتقدم.

١٢- وللأسباب السـالف ذكرها جـاء مانويل إلى بـلاط بريميسلاف، وطلب منه قوات حليفة للرومـان، لأنه بعث إليه وإلى روستيسلاف الذي كـان أيضاً حـاكماً في روسيـا للبحـث في عقد تحالـف(٣٥)، وفي الحقيقـة نجـح في غـرضـه، وكـانا على درجـة عـاليـة مـن السرور لأن الامبراطـور استخدم مثل هـذا الرسول وبعثه إليهما، وقد وعدا بتلبيـة كل شيء يطلبه الامبراطـور، ولم يغفـل الامبراطـور بهذه المنـاسبة يـاروسـلاف [صـاحـب غاليشيـا] بل أثـاره للحرب ضد ستيفـن بعدة وسـائل وسبل، فقـد كتب إليـه كما يلي: «إننا لـن نقلد انعـدام عواطفـك نحونـا، باهمالـك الشروط والمعاهـدات التي أقسمـت عليها مـن قبل، بـل سأضـع أمام نـاظريـك حقائق أذاه بسبب أنـك تخاطر في أن تغضب وتثار إلى أقصـى الدرجات، قدر أنك مزوج ابنتك إلى ملك هنغـاري ضعيف الأخلاق ومريضها، وفي الحقيقـة غير ثـابـت في أغـراضـه: فهـو لايقـدم أي احترام على الاطـلاق للعدل والصـدق، وأعتقد أن أي شيء يمكن بسهـولة أن يصنع مـن قبل انسان مهمل بالطبيعة، ويعمل بشكل عـام ضد القوانين، وبناءً عليه لن يتزوج ستيفن مـن ابنتك، ولن يفعل أي شيء قـانوني نحوها، لابـل حتى إذا تزوجهـا فإنـه سيعاملها مثـل إحدى الماشيـات في الطريـق، لأنه على هذه الصورة سبـب المضار لجلالتنا، وبلا حياء لم يرع أيـاً من الأيمان التي أقسمها منـذ زمن وجيز، بحجـة المزاح، قدّر مـايمكن أن يفعله لـك من أعمال غير انسانية»، وأصغى بريميسـلاف(٣٦) إلى هذه الكلمات بنوع من السذاجة البربرية، وكان على الفور عظيـم الغضب، وقد عدّ صهره عدواً،

ووافق على مساعدة الرومان الذين كانوا يقاتلونه بأي طريقة ممكنة.

ويوجـد في روسيا مدينة اسمهـا كييف، كانـت متفوقة على كل مـدينة موجـودةهناك، وقـد عدّت بمثابـة عاصمـة لاهوتية لتلـك الدولـة، وجاء إليها أسقف من بيزنطة، وكانـت تدعي السلطة على البقية، لأنهم ألصقوا بها شرفـاً خاصـاً ومنزلـة عاليـة، ووافق حـاكم هـذه المنطقة على مبـاشرة الحرب ضد ستيفن، وأكّد معاهدته بالأيمان(٣٧).

وفي الـوقت الـذي حدث هـذا فيـه، علم فـردريك ملـك الألمان، أن الامبراطور يعـارض بشدة أعمالـه في الغرب، لـذلك قـرر ازالة خـلافاتهما، وأقام سـلاماً مـع الرومـان، واتفق هـو شخصياً مـع الامبراطور على اثـارة الحرب ضد ستيفـن، ولم يشأ هنري، الـذي غالباً مـاقلنا [كذا] أنـه تزوج من ثيـودورا ابنة أخي الامبراطور، أن يكـون غائباً عـن هذا الصراع(٣٨)، وكان هناك أيضاً جيشاً كبيراً من الكومان والصرب الـذين كانوا من رعايا الـرومان، وقـام السلطان، طبقـاً لموافقته بـارسـال قواتـه الحليفة، وهكـذا تجمعت قوة جبارة من كل جانب.

وجاء في الوقـت نفسه فالديسـلاف —وكان من الشخصيات الـرئيسة في روسيا— ملتجئاً إلى الـرومان ومعه أولاده وزوجته وقواته كلهـا، وقد تمّ منحـه ممتلكـات على طـول الـدانــوب، وهـي الممتلكـات التـي سلـف للامبراطور أن أعطاها إلى اللاجىء فـاسيليكا بن جورج، الذي كان يتمتع بمكانة رئيسية بين الزعماء في روسيا(٣٩).

ووافق البنـادقة أيضـاً آنذاك على مساعـدة الرومان بـاسطول فيـه مائة سفينة حـربية للصراع بـالبحر، وبذلـك جددوا معاهـداتهم السالفـة مرة ثانية، وبالاضـافة إلى هذا قدموا تعهدات بالمحافظـة على معاداة فردريك ملك الألمان وبقيـة المناطـق الغربية طـوال حياتـه إذا ماأثـار الحرب ضد الرومان.

١٣- هكذا سارت الأمور فيما يتعلق بالغرب، وكان بلدوين [الثالث] ملك فلسطين الذي تزوج ابنة أخي الامبراطور(٤٠)، قد هلك وزال من بين البشر [١١٦٣]، ولأن حياته انتهت دون أن ينجب ولداً، انتقلت الملكية إلى أخيه [عموري الأول]، وفور اعتلائه العرش بعث إلى الامبراطور يسأل الحصول على عروس من بين الرومان، واستهدف بالوقت نفسه معرفة موقفه فيما يتعلق بالوضع في أنطاكية، وبحكم أن الانطاكيين كانوا بطبيعتهم خرقة للأيمان، قد عادوا إلى بلدوين في فلسطين، وتمكنوا بذلك وبتدبير أمورهم بأنفسهم وفق ارادتهم، تمكنوا من تأمين حكومة مدينتهم(٤١)، وكان عموري يعرف أن المدينة كانت خاضعة إلى الامبراطور، لذلك ارتأى أن يتعرف إلى الأمور منه أولاً، وقد أجابه مانويل كما يلي: «بالنسبة للطلب المتعلق باقامة وشائج القربى بالزواج، وبما أنك ترغب بالحصول على عطفنا، إن مطلبك سيلبى قريباً، لكن فيما يتعلق بمدينة أنطاكية، فقد كانت قديماً تابعة ضرائبياً إلى الرومان، وهي الآن خاضعة لجلالتنا، وسيكون من غير الممكن مادمنا أحياء بالنسبة لك أو لأي انسان آخر أن يمارس أية سلطةعليها، وعندما سيتلقى شعب أنطاكية العقوبة من جلالتنا بسبب كفرهم تجاه الرومان، سيعرفون وقتها مع من تجرأوا على الاختصام»، لقد حوت رسالته هذه المواصفات، وحيث أن عموري قد خاب أمله بالنسبة لأنطاكية، زاد بذلك من ضغطه في سؤال الامبراطور حول رباط زواج، وقام بعدما تزوج إحدى بنات [جون كومينوس] البروتوسيباتوس، بدوره أيضاً بالتعهد بالقسم إلى الامبراطور، مثلما فعل أخوه بلدوين من قبل.

وبما أن الامبراطور لم يكن قد أكمل بعد استعداداته للصراع الذي أمامه، خشي كثيراً على مدينة زيغمي Zeugme ، التي كانت محاصرة من قبل ستيفن [الثالث]، وأرسل قبل أن تنشب الحرب الشاملة في جميع المناطق، جيشاً متميزاً لمساعدتها، وكان تحت قيادة الأميرين

ميخائيل غابراس وجوزيف برينيوس، وكان تحت قيادتهما آخرين من أكثر المتميزين بين الرومان، منهم جون الذي كنيته أنجيلوس، وكان رجلاً صاحب خبرة عسكرية، وجون ايسس [عيسى] (٤٢)، وهو تركي من حيث المولد، شارك الرومان في النشأة وطرائق الحياة، ورغبة من الامبراطور في ضمان المدينة أكثر، ملأ عدداً كبيراً من السفن بالجنود والمؤن، وأمرهم بالابحار عبر طريق الدانوب، بغية تزويد الشعب في داخل المدينة بالضروريات، وذلك حتى يتمكن هو نفسه من الوصول إلى هنغاريا مع الجيش كله.

وأضاع الهنغار كثيراً من الوقت حول أسوار [زيغمينون]، وبعدما حاولوها مراراً أدركوا أنهم كانوا يحاولون شيئاً مستحيلاً (لأن السفن الرومانية التي كانت راسية على مقربة من شاطىء نهر الدانوب، قدمت الكثير من المساعدات إلى الرومان في الداخل، يضاف إلى هذا أنها نقلت الرجال الذين عانوا من الجراح أثناء القتال، وعوضتهم برجال أصحاء الأجساد)، أما الهنغار أنفسهم فقد جمعوا عدداً من المراكب، وذلك قبل وصول قوة غابراس وبرينيوس إلى هنغاريا، وبادروا مسرعين مندفعين ضد السفن الرومانية بهدف اغراقها، وبالتالي الانتصار في المعركة بسهولة، ومع ذلك فقد تبرهن أنهم أقل شأناً بوساطة هذه المحاولة، وكانت سفنهم أقل سرعة من السفن الرومانية، لأنها لم تبن ببراعة، ولأنها تتسع بشكل غير اعتيادي في الوسط، وعندما انطلقت عبر النهر، قام الرومان الذين شكلوا نمطاً من صفوف الاقتتال، باعتراضها وسط المجرى، ورموها مراراً بالنار بوساطة النشاب، وقد أعاقها هذا، فبعض السفن دخلته المياه، وانسحب البقية إلى مقربة من شاطىء النهر وبذلك تجنب الخطر، لكن إحدى السفن، وكانت مليئة بالرجال الذين شغلوا مناصب قيادية بينهم، أصبحت فريسة للرومان عندما أصابوها بالنار الاصطناعية.

وبما أن الهنغار كانوا غير موفقين في هذه المحاولة، فقد تحولوا إلى شيء آخر، فقد أفسدوا بوساطة المال بعض الهنغار الذين خدموا ستيفن [الرابع]، وأقنعوهم بتقديم شيء مميت للرجل، ولذلك جرى الاستيلاء على المدينة، وغدت سيرميون مجدداً خاضعة للهنغار [نيسان١١٦٥]، ولم يتعرض الرومان والهنغار الذين كانوا في الداخل، والذين وقفوا إلى جانب ستيفن [الرابع] للأذى، لأنهم تخلوا عن المدينة بشروط على هذا الأساس، وبعدما انتصر الهنغار على جثة ستيفن، لم يقدموا للميت الطقوس المقدسة، ولم يروا أنه يستحق تقديم أي شيء قانوني آخر، وكل مافعلوه أنهم رموا الجثة أمام أبواب المدينة، وجرموها بابقائها غير مدفونة، ثم تحركوا فيما بعد بدافع طبيعي، فنقلوها إلى كنيسة الشهيد ستيفن، ووضعوها في قبر(٤٣).

١٤- عندما سمعت الامبراطورة بهذا، أصيبت بمرض خطير، أما هو نفسه فقذ تجاوز ذلك كالعادة بحماس شديد، وانطلق نحو الحرب، ولدى وصوله إلى سرديكا، عاصمة الإليريين، جمع جيشاً هناك، وانطلق مع آخر أيام حزيران [١١٦٥] وذهب إلى الدانوب، وفيما هو ذاهب للجواز، عمل كما يلي: مركز الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه والذي كان مستعداً للقتال أمام كرامون(٤٤) Chramon وهي مدينة هنغارية، معطياً بذلك توقعات بأنه سيقوم بالعبور من هناك، وبناءً عليه عندما لاحظ أن القوات الهنغارية تمركزت في الجانب الأقصى المقابل، انطلق إلى بلغراد، وقام عند الفجر بالابحار عابراً من هناك(٤٥)، وبذلك قسم العدو إلى عدة أقسام، ذلك العدو الذي خطط لمواجهته موحداً.

واستبد بالرومان حالة من الرعب الشديد، وهم يقومون بالعبور، ولدى ملاحظة الامبراطور نفسه ذلك، قام كما تجرأ غالباً من قبل، بدخول عبارة قبل الجميع وأسرع نحو الشاطىء الآخر، وبناءً عليه خجل الجيش الروماني لدى رؤيته اندفاع الامبراطور، فتابع السير نحو المراكب، وعندما

رأى الهنغار أن الامبراطـور قد عبر، تخلـوا عن تشكيـلاتهم، وانسحبوا، ثـم انه لدى رسـو الامبراطور على الأرضِ العدوة قفز أكثر ممـا ينبغي (لأن عدم عمـق الماء، لم يسمح للسفينـة بـالرسـو على أرض جـافة)، وتجاوز حـده، فلوى إحدى رجليـه بشدة، ولم يرغب في التخفيف من حماسـه، بل سارع إلى إحـدى فجـوات النهـر، حيـث أمضـى النهـار متـألماً، وازداد القسـم المجروح من الرجل انتفاخاً وتورماً(٤٦).

وركـض عدد كبير مـن البرابـرة الذيـن كـانوا متمـركـزين في زيغمـي Zeugme وغادروا الأسوار، واتخذوا موقفاً أمـام [الرومان]، لكن ما ان رأوا الامبراطور، حتى أسرع كـل واحد منهم سابقاً الآخر بـالفرار، وبشكل فوضوي وبصخـب شديد اندفعـوا مسرعين للدخول عائديـن إلى المدينة، ولم يتجـرأوا على الخروج منها، ثـم استعد الـرومـان للحصار، وأنشبـوا في اليوم الثـالث القتـال، وملأ البرابرة الـذين دافعـوا من فـوق الأسوار الهواء بصراخهـم، وبأصـوات غير مميـزة، واستمروا بـالـرمي وتلقـي الـرمايـات، واستهلك بهذه النشاطـات ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، ولم يـربح خلال ذلـك لا الـرومـان ولاالهنغـار، ولقـد تملكتنـي الـدهشـة تجاه أشيـاء كثيرة صنعت أثناء هذا الحصـار، وكان من الصعب عليّ تصديق التقـارير التي تحدثت عـن اقدام الامبراطور، لولا اننـي كنت حاضراً وشاهـداً لما حدث، لأنـه عندمـا بنى الـرومان بـرجـاً خشبياً، وعـزموا على نقلـه نحو المدينـة ليقاتلـوا البرابرة المتمركـزين فوق الأسـوار يداً بيد، طلـب أن يصعد البرج قبل بقية الرومان قائلاً: «أيها الرومان إنكم تستحقون شكري أكثر من أي انسان آخر، إذا لم تعيقـوا صعودي»، ومع هذا لم تتحقق رغبتـه، فقد منعه القادة الرئيسيون الذين صحبوه بالقوة.

وقام بـالدوران حول الأسـوار، بحثاً عن مكـان يكون مناسبـاً للهجوم، ونظراً لانعدام الحجـارة أمر بطم الخندق الذي طوق المدينـة، وكان عميقاً وعريضاً بالفضلات وأخشـاب الحرق، وذلك بهدف تمكن الآلات الحربية

من العبور، لكن مامن شيء كان قد أنجز نحو السيطرة على المدينة، ذلك أن الهنغار، مع أنهم تعرضوا لضغط حاد من قبل العساكر الرومان، كانوا يصرخون أكثر من ذي قبل، وكانت لديهم آمال بأن الجيش الهنغاري الآخر كان على وشك الوصول إليهم.

١٥- وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور معلقة على هذا الشكل، عاد الكشافة الرومان وجلبوا أخباراً تحدثت عن قرب وصول جيش كبير، وقد شوهد الغبار يتصاعد في معظم أجزاء الهواء، وأكد واحد من كبار شخصيات الهنغار، ممن التحق بالرومان واسمه فاساس(٤٧) Vasas، أن الملك الهنغاري لم يكن بعيداً، وهو يقود جيشاً يفوق الحصر، لاسيما بعدما التحق به الكومان وجيش روسي، بالاضافة —كما قال— إلى أن أمير التشيك قد عاد معه بكامل قواه، وعندما سمع الامبراطور بهذا، دعا إلى اجتماع ضم كبار الشخصيات، بهدف النظر في كيفية معالجة الوضع الحاضر، وقد خاطب المجتمعين قائلاً: «أيها السادة الرومان، إن النظام الطبيعي للأمور لايكفي بشيء واحد فقط، أي لايكفي أن يكون الانسان شجاعاً، بل ينبغي ألا يقاتل باندفاع أزمات لايمكن تجاوزها، وأعتقد بشكل خاص، أنه عظيم الأهمية بالنسبة للمرء أن يتعلم قليلاً فقليلاً السيطرة على الذات، ثم، بما أن تلك الدولة كانت ناجحة لبعض الوقت فيما مضى، بدوران غير متوقع للحظ، بشكل بات الأمر فيه صعباً بالنسبة للدولة الرومانية لمواجهته، علينا لهذا ألا نفكر أنه يكفي بالنسبة لنا اذا ماقمنا بالقتال فوق ترابها، بل علينا أن نستخدم ماهو موائم لكل مناسبة، وأن نقوم بالعمل الضروري والمفيد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولاتفيد السياسات المعتادة ولاتناسب —كما أعتقد— للنجاح ولعدم النجاح، أما مايتعلق بالمملكة الرومانية —مع أنها لم تعد تتمتع بسعدها القديم الجيد— لكن (أقول بعون الرب) سوف تتمتع بحظ أعظم بفضل جهودنا كأبطال لها، وسيسيء إلى أمجادها اساءة تامة لدى تجنب

ملك الهنغار، الذي قيل إنه يقترب مع جيش محلي كبير، ومعه أكثر من ذلك قوات من المرتزقة جمعها بالمال، وعلى هذا إنه في سبيل الاحتفاظ بكل من الشهرة التي تحولت نحو الأحسن، والقوة التي ينبغي أن تنجو سالمة، علينا التشاور حول الجيد والممكن». لقد تكلم الامبراطور على هذه الصورة.

وارتأى بعض الرومان الذين كانوا بالاجتماع أن المناسب هو المغادرة والعسكرة عند سافا، حيث من هناك يمكن مواجهة الأعداء بدون خسائر، وكان آخرون غير مسرورين بذلك، وارتأوا أنه أفضل لهم ترك الحصار، والتوجه لمقاومة الأعداء الوشيكي الوصول، بكل قواهم، ولم يوافق الامبراطور على أي من الرأيين، ولذلك وصم أحدهما بالجبن، والآخر بالحماقة فقال: «من الممكن اننا عندما نترك الحصار أن تتشكل قوة أكبر من الحالية، مع مايكفي من المؤن، يمكن نقلها إلى الهنغار الذين يشكلون قوة الحامية في المدينة»، وبدا الأفضل له أن يترك الجزء الأدنى نشاطاً من الجيش مع قوات الحشم بعد تسليحها هناك قرب المدينة، تحت قيادة بعض الضباط غير المهمين، في حين تذهب بقية القوات معه نفسه لقتال الهنغار الآخرين، وبما أن هذا الرأي هو الذي أخذ به، استعدوا للانطلاق في اليوم التالي.

لكن عندما لم تصلهم أيه تقارير محددة، تسلحوا عند الفجر، وقادوا ثالث محاولة ضد المدينة، ومن جديد نشب القتال، ودافع الهنغار من فوق الأسوار عن أنفسهم ضد جيش الرومان بالحجارة والنشاب وأي شيء توفر لهم، وتمكن الرومان أكثر من قبل من لغم أساسات الأسوار، ودمروها ورموها بالحجارة من المنجنيقات، وكثيراً ماسمعت أصوات التشجيع والتحريض من على الجانبين، وكان هناك صراخ، وأصوات مرتفعة جداً، ثم سمع صوت هائل متميز، عندما لاحظ الهنغار أن بعض الرومان كان يستخدم عتلات عند الأساسات، فتصرفوا كما يلي:

كانت هناك حجرة كبيرة مرمية داخل الأسوار، فوضعوها فوق عوارض كبيرة من الخشب وربطوا حبالهم بالخشب، وسحبوها نحو برج خشبي صغير كانوا قد شيدوه فوق الأسوار، واستهدفوا من وراء ذلك رمي الحجرة على الرومان الذين كانوا هناك، وعندما وصلت الحجرة البرج لم يستطع تحمل وزنها (لأنها كانت كبيرة جداً)، وفجأة تحطم البرج الخشبي، وسقط نحو الأرض مع عدد كبير من الهنغار، الذين لم ينج واحد منهم من الخطر، ومرة ثانية ارتفع الصوت الهادي، وحمي وطيس القتال أكثر، ثم لاحظ الامبراطور أن واحداً من الرومان كان يرمي بشكل دقيق جداً، فركض نحوه، ورفع ترسه أمامه بهدف ابقاء الرجل وحمايته من النشاب.

١٦- وعندما لاحظ الهنغار أن أمورهم كانت بالفعل في وضع صعب، راسلوا الامبراطور وترجوه أن يقبل تنازلهم عن المدينة له شريطة مغادرتهم دون أن يلحقهم أذى، وقال بالبداية بالرفض حتى يقوم غريغوري وبقية الزوبان لديهم بربط حبال حول رقابهم وأن يقدموا إليه عراة الأقدام والرأس، وأعاد الرسل حاملين هذه الشروط، وزاد الروم من ضغطهم وقاتلوا بحدة أكبر حتى استولوا على المدينة، وبعدما باتت مُستولى عليها بالكامل، وصل غريغوري مع بقية قادة الهنغار إلى الامبراطور بحالة مزرية، تتوافق مع الشكل المطلوب، لابل جاءوه على شكل متسولين، وأقاموا مناحة، ورفض مانويل لبعض الوقت النظر إليهم، وعلى كل حال، تدخل بينلا فيما بعد، وبناءً على طلبه منع اعدامهم، غير أنه أرسلهم إلى السجن.

واندفع الرومان بغضب شديد إلى داخل المدينة، وذبحوا الناس هناك مثل الأغنام، مما جعلني أبكي تعاطفاً مع الحياة الانسانية، فكم من الشرور المؤسفة ربط هذا العرق نفسه بها عن طواعية، وحملت الأشياء الثمينة والثياب والمصنوعات الفضية، ونهبت بضائعهم، وقام حتى

المقاتلون العراة وغير المسلحين بحزم كل واحد منهم نفسه بسلاح العدو، ثم وجدت امرأة عجوز تعيسة، كانت مصابة بسهم خرق قاعدتها، فلماذا حدث هذا، هذا ماسأحكيه على الفور: عندما كانت المدينة غير مستولى عليها بعد، وقفت على أعلى الأسوار، ورمت بالقاذورات نحو الأسفل، وصدف انها سحبت ثيابها، ودارت حول نفسها، عارضة مؤخرتها على الجيش الروماني، وهي تغني ببعض التفاهات بلا نهاية، وفكرت في أن تلقي سحراً تربطهم به، غير أن واحداً من العساكر أطلق سهماً نحوها أصاب مؤخرتها ونفذ إلى المكان الموجودة فيه القناة التي تحمل البراز.

وشبيه بهذا، وجد واحد من الرومان كان يعاني من السجن، ذلك أنه مسجوناً في زنزانة سيئة وبلا ضوء للسبب التالي: عندما أخذه الهنغار أسيراً، ولأنه كان معروفاً ببراعته بالرماية، أرغموه على الرمي على الرومان من خلف السور، وكان هذا العمل مضاداً لرغبته، ومع ذلك سمح بذلك عن ذكاء، وعمل على ألا يصيب أحداً، وعندما لاحظ الهنغار هذا، ضربوا الرجل مراراً على ظهره، ووضعوه في سجن محكم الاغلاق.

وهكذا أخذت زيغمي ثانية، ووقتها عمل بعضهم أعمالاً شجاعة بارزة، غير أن أندرونيكوس لم يكن أقلهم(٤٨)، لأنه عندما رأى الرومان يتسلقون الأسوار بوساطة سلم، ذهب إلى أندرونيكوس ابن عم الامبراطور، وكان موضوعاً تحت قيادته، وذلك بعدما عاد هذا الأخير من روسيا واستقبل بكرم من قبل الامبراطور، وطلب أندرونيكوس من قائده أندرونيكوس أن يسمح له بمحاولة التسلق، وعندما سمح الأخير له، ذهب إلى هناك مسرعاً،وعندما حاول اللاتين الذين كانوا قادمين من الخلف جاهدين الذهاب متجاوزين له، اعترضهم بثبات، ولم يرغب أن يفقد فخاره، وبينما كان هذا يحصل، انكسر السلم بشكل مفاجىء، ووقع أرضاً، غير أن أندرونيكوس [دوكاس] تمسك بشجاعته المعهودة، ولدى

رؤيته بعض الرجال يعتلون سلماً آخر جلبوه، ركض وصعد عليه. وهكذا مضت الأمور هناك.

وكان الملك ستيفن [الثالث] قد وثق بـأمن المدينة، (لأنه بالاضافة إلى أشياء أخرى كانـت هناك قناة مغطاة تزودها بالماء من الـدانوب، وكانت من قبل مكشوفة للهواء حتى وصولها إلى المدينة، ثم جعلت تحت الأرض من قبل الامبراطـور، عندما كان متحـالفاً مع ستيفن [الـرابع] الأخير) ولم يصدق الملك خبر سقوط المدينة ولم يكن قـادراً على تصور سقوطها بمثل هذه السهـولة والاستيلاء عليهـا من قبل الـرومان، وانتقل الامبراطـور من هناك بسرعـة، واسترد السيطرة على حصـن آخر، أسكنـه بسرعة كثيراً مـن الهنغار من سيرميون، ممن يعرف عـادة باسم كاليسيو Chalisioi ، (وهم كما قيل هـراطقة يجارون في عقيـدتهم الأتراك ويـوافقونهم)(٤٩)، ومـا ان علم [ستيفـن] بالأمر الـذي حلّ تماماً بمدينـة زيغمي، حتى بعـث رسلاً إلى الامبراطور، وكـانوا رجالاً مـن الارستقراطيـة، ومعهـم واحد ممـن شغل منصـب أسقف، ووافـق على إعادة تسليـم سيرميون إلى الـرومان، وذلـك بالاضافة إلى دلماشيا كلها.

وعنـدمـا رأوا الامبراطــور، تلفظـوا بها أمـروا بـالتلفــظ بـه، وتعطفـوا الامبراطور ورجوه الاقلاع عن غضبه، ورفض بـالبداية قائلاً: «أيها الرسل، إنه بالحقيقة لأمر جدير بالتقـدير، لو ظنّ حقاً أن هناك إعادة لهذه الأشياء التي سلبـت من قبـل، إننا الآن نمتلك سيرميـون، وأعدنـا الاستيلاء على زيغمي، كما اننـا الآن سادة دلماشيا، نحن سـادة هذه الأماكن كلهـا معاً، فالـذي تريدون اعطـاءه قد حرمتـم منه، وبنـاءً عليه هل هنـاك سيرميون أخـرى؟ أو هل هنـاك زيغمي أو دلماشيـا أخرى، جئتـم لاعطائنـا؟!، إذا كان موجوداً، أرونـا إياهما حتى نقوم بتسلمهما على الفور بأيـدينا الفارغة، عـارفين اننـا لـن نستطيـع أخذهما وضمانهما بـالنسبـة لقـوتكـم (لأنكـم لاتهتمـون مطلقـاً حـول خـرق القانـون)، إننـا —بفضـل مـن الـرب—

محتفظين بها بوساطة قوتنا، مثل هـؤلاء، وإذا كانت هذه الأشياء موجودة تحت سيطرتنـا، فما من شيء قـد بقي لتتحـدثوا عـن اعطائه، فحـول أي شروط ستكون الاتفـاقية؟، أو مـاالذي سيكون هنـاك لتبادلـونهم معنا؟»، هكذا أجـابهم في البداية، ثم غير عقلـه وقال: «لكن عليكم بعـد هذا أن تعلموا أننـا نرغـب في أن نقيم سـلاماً معكـم بمثابـة هديـة منا إليكـم، لأنكـم مسيحيين، اقـدموا، وأقسمـوا»، وكـان هـذا مـاقالـه الامبراطـور، وبعـدمـا أقسمـوا حـول كـل شيء، غـادروا، ثـم عـاد الامبراطـور إلى بيزنطة(٥٠).

١٧- وسلم جون دوقاس، الذي أخضع دلماشيا، هذه البلاد إلى نقفور كالوفيـس، وكان ذلك بناءً على توجيـه من الامبراطور، وقد تقـدم لمانويل ارسـال [دوقاس] إلى هنـاك مع عسـاكر لـلاستيـلاء عليها إمـا بالقـوة أو بالاتفـاق، وذلك بسبـب أن الهنغار كـانوا قـد عينوا هـذه البلاد بـواسطة المعاهـدة وجعلوهـا ميراثاً لبيـلا، ولدى مـروره ببلاد الصرب خـرقها، وفي مـدة وجيزة تحولـت سلطـات البلاد كلهـا إلى أيـدي الامبراطور، ومـدّت فوقها بالكامـل، ثم أصبحت تروغير Trogir وسيبنيك Sibenik تحت السيطـرة الـرومانيـة، وذلـك بـالاضافـة إلى سبلـت Split ودولة كاتـزيكوي Katzikoi وديوكليا Dioklieia، وهي مـدينة مشهـورة سلف أن بنيت مـن قبل الامبراطور الرومـاني ديوكليشيان Diocletian، وكذلـك سكراديـن Skradin وأوستروفيكا Ostrovica وسولين So-lin، والمدن الأخرى كلهـا القائمـة في دلماشيا، وكـان عددهـا كلها سبـع وخمسين مدينة. على هذه الشاكلة سارت الأمور في دلماشيا.

وعاد الامبراطور —كما قلنـا— إلى بيزنطة، فقاد موكـب نصر من القلعة حتى كنيسة آيا صوفيا الكبيرة، واحتفـل هناك بالصلوات والشكر، وأتحف رجـال الكهنوت بشيء مـن الذهـب وصـل من الجزيـة التي أرسلـت إلى الرومان من سيرميون، وإثر هـذا استراح بالقصر، وكاد يفوتني أن أذكر، أن

عربة مـوكب ذلك النصر كانت قـد صنعت من الذهـب الخالص، وكان من المفترض أن يـركب بها الامبراطور، لكنه لم يـركب، جزئياً بسبـب عدم رغبته بـالتباهـي ولتواضعه، ومـن جانـب آخر بسبب انـه عندمـا جلبت الخيول التـي كانت ستجر العـربة، وربطت بـالمقاود كانت جموحـة جداً، وخشي من خطر انقلاب العربة.

ولم يمض وقت طويـل حتى علم [مانويل] أن كـل من الصرب ودولة الهنغار كانـا ثانية يجهدان [في سبيـل الثورة]، لذلك بـادر مسرعاً إلى هناك لاستباق القتـال، لكن مـا إن سمعوا بقدوم [مـانويـل] حتى أقلعـوا عن أعمال العدوان، وحافظوا على المعاهدات بشكل تام.

الكتاب السادس

وشرف الامبراطور أنـدرونيكوس —الذي عـاد كما ذكرنا مـن روسيا— وأولاه كل أنـواع العطف وقـدم إليه كميـات من الـذهب، وبعـث به إلى كليكيـة ليعالـج الأمور هنـاك ويحقق الاستقـرار[١١٦٦]، ومن أجـل أن يتمكـن مـن الانفـاق والبذخ، منحـه ضرائب قبرص، ومكـث في المكـان المعين له قليـلاً من الوقـت، ثم قام بجعل فيليبـا [الأنطاكية] خطيبـة له وزوجة، وهذا شيء لايسمح به قانوننـا لأنها كانت أخت الامبراطورة، ثم تركها بدون أي سبـب، وتحول إلى فلسطين [أوائل١١٦٧] آخذاً معه كثيراً من أمـوال الامبراطور التـي فرضها كضرائب وجبـاها مـن أراضي كليكية وقبرص.

والتقى هناك بثيودورا ابنـة السيباتوكراتور اسحق، التـي —كما ذكرنا— تزوجت من الملك بلدوين [الثالث]، والتي بعدما توفي وآلت السلطة إلى أخيه، عاشت كـأرملة في عكا، ولأنها كانت قريبته، غالبـاً مازارها، وعقد محادثات خاصة مع المرأة، ومع الاستمرار بـذلك أصبح مرتبطاً بها بشكل غير اعتيادي، بحـب غير قانوني وغير مقـدس، وبعدمـا جامعها وعـاشرها حملها معـه وذهب معها إلى أراضي المسلمين، وحملـت منه وأعطتـه طفلاً فيما بعـد، ثم إنـه بعـدما مـرّ بعدد كبير مـن البلـدان الأجنبية، دخـل إلى الأراضي الشرقية للإيبيريين [الكـرج=الجورجيين]، وذهب ثانية بعـد وقت قصير إلى الأتـراك وبصحبته المرأة، وقـام هذا الـرجل التعيـس من هنـاك بغـارات كثيرة ضـد الأراضي الرومـانيـة، وأخـذ عـدداً كبيراً من الـرجـال الأسرى، وحـول أسلاب الحرب إلى الأتـراك، ولهذا حكم عليـه بالحرمـان من قبل الكنيسة(١).

٢- وحدث في حوالي هذا الوقت [١١٦٠-١١٦٦] بحث بين البيزنطيين حول عقيدة المسيح، للأسباب التالية: كان هناك شخص اسمه ديمتريوس، وهو روماني المنحدر، جاء من لامب Lampe، وهي قرية آسيوية [قرب أتراميشن Atramyttion] (٢)، وقد درس —كما أعتقد— قليلاً من الثقافة العامة مع شيء من التعليم العلماني، ولكنه أمضى بالعادة وقته حول العقائد المقدسة، وتحدث بشكل مستمر بحماقات لانهاية لها، وبما أنه أرسل مراراً رسولاً إلى الغرب وإلى الشعوب الإيطالية، عاد من هناك بكثير من الحماقات، وتورط في أشياء غريبة، ولم يستطع بشكل خاص الاقلاع عن العبث والانشغال فيما يتعلق بطبيعة الرب، وهو موضوع غير مسموح بالخوض به إلا للمختصين ورجال الدين الرئيسيين وبالدرجة نفسها للأباطرة بحكم منزلتهم ومكانتهم.

وإثر عودته في تلك الآونة من الأراضي الألمانية، أكد أن الشعب هناك قد اتخذ بشكل واضح موقفاً خاطئاً، وكان في إحدى المرات يتحادث مع الامبراطور، فأثار مثل هذه المسائل، وعندما سأل الامبراطور عما يعنيه هذا، قدم لدى اجابته عرضاً كاملاً لعقيدته، وجاء كلامه كما يلي: «هم يتجرأون على القول إن الشخص نفسه [المسيح] أدنى من الرب، ومساوياً للرب الذي أوجده»، وعندما قال الامبراطور: «لكن لماذا؟ أولسنا ندعوه رباً وانساناً»؟، فقال: «نعم»، فقال الامبراطور: «إذن نحن نوافق على أنه أدنى بالنسبة لناسوته، ولكنه مساوي بالنسبة للاهوته، ونسمع أن المخلص يقول هذا الشيء نفسه، حيث قال في أحد الأماكن «أبي أعظم مني أنا»(٣)، وإذا لم يتوجب تطبيق هذا على الطبيعة [اللاهوتية] (لأن ذلك لن يكون موائماً بالبتة) عندما من الضروري توجب تطبيق هذه المقولة على [انسان] آخر، وقد قيل إن كل منهما لايمكن التفكير به، ولذلك إن عقيدة النوع البشري سليمة، وذلك حسبما عرف جلالتنا منذ وقت طويل»، وقال الآخر —على كل— ثانية: «ومع

ذلـك إنهم يتكلمون بشكـل مكشوف بـدون تقـوى»، وعلى هذا الشكـل أنهيا المنـاقشة، لكـن بعد وقـت قصير وضع ديمترـيوس أفكاره في كتـاب قدمـه إلى الامبراطور، وقـال له مانـويل: «إذا كان مـن الممكن دفـن هذه الأشياء تحت الأرض، ادفنهـا على الفور، خشية أن تكون بها سبـب تدمير كثير من النـاس، لأنه بالنسبـة للرأي القـائم الآن، أنا متمسك بـه بشدة، ولاأعتقد أنه سيكون بإمكان أي كان أن يزحزحني عنه بسهولة».

وعلى كـل حال أصبـح الآخـر أكثر جـرأة، ونقـل أفكاره وأوصلهـا إلى النـاس: إلى الأفـراد، وإلى الجماعـات، ثـم أوصلهـا إلى عـدد كبير مـن الأساقفـة، وإلى الذين يشكلـون طبقة اللاويين الذيـن ندعوهـم شمامسة، وعندما وجد كثيريـن يوافقونه، تنفس الصعداء، وتكلـم بشكل مكشوف ضد الذين كانوا بشكل ما أقل اهتماماً بـه، وقام بتطوير وتوسيع مناقشاته إلى حجم كبير، ولم يكن هناك أي واحد لم يتكلم آنئـذ عنها وقام بالبحث والاستقصاء حـول أي عمل حـدث أن قام به، وعنـدما علـم الامبراطور بهذا تردد، ثم اتجه نحو عرض المسألة أمـام مجمع ديني للنظر فيها، وعامل القضية بشيء من الحذر، فلدى مـلاحظته أن الغالبية كانوا تقـريباً يميلون نحو موقـف ديمتريوس، استقبلهم واحداً واحـداً، ثم اثنين اثنين، ثم على شكل جماعة كبرى، ولقـد تفحص الذين قالوا، وبـذلك استطاع أن يحول كثيراً منهم إلى العقيدة الأخرى الصحيحة، وذلك لأنهم كانوا غير قادرين على المناقشة ضده.

ومع أنه لم يكن لديه خبرة في تداريـب المنطق، استطاع بذكائه وبسعة ثقافتـه أن يتفوق على كـل واحد عـاش في أيامنـا، ولم يكن هنـاك انسان ينكر هـذا، ليس فقـط بين الذيـن تعايشـوا مع الامبراطـور عن قـرب (مما يدفع المرء إلى التشكيـك بأنهم يمالئون) لكن حتـى من قبل الذيـن كانوا معروفين مـن قبله، وكان إذا مارغـب في شرح شيء ما، كان يقدم عـرضه بحكمة غير اعتيادية، مع وضوح وبساطة بـالعرض، ولم يكن هاماً بالنسبة

له نوع الفلسفة التي اعتمد البحث في المسألة عليها، سواء أكانت طبيعية أو لاهـوتية، أو مـن أي نـوع آخر، ذلـك أنـه شغل نفسـه كثيراً بـالثقافـة اللاهوتية وغير الـدينية، مع أنه بالكاد كـان بإمكانه توفيرالوقـت لانشغاله المستمر بالأعمال العسكرية، وهكذا نجح بذكائه وبقدرته الطبيعية —كما قلنا— فربح إلى جانب موقفه عدداً كبيراً ممن قابله.

في البـداية لم يكـن هنـاك مـن أحد ليس مشـاركـاً في الموقف ضـده باستثناء لوقـا، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل الـلاهوتية، غير أنه لم يتجرأ على الكلام بحـرية، ومعه ليس أكثـر من ستة من الشمامسـة، ولدى ملاحظة البقية أن كثيراً منهـم تخلوا عن مواقفهم اللاهوتيـة إثر المناقشات الفردية مع الامبراطـور، ولتوقعهم انه بعقله الرائع ولسـانه البارع سيتمكن من جذب عدد كبير منهـم إلى نفسه من خلال المقابلات الفـردية، لذلك اتخذوا قراراً بعدم الالتقاء بالامبراطور فـردياً أو بشكل خاص: «ومن يفعل ذلك سيكون الآن، وكـذلك بعد موته خـاضعاً للحرمان الكـامل»، فهذا مـاقـالوه لـدى عقـدهـم اجتماعـات في بيوت بعضهـم، لاسيما في بيـوت الشخصيات البارزة بينهم.

ولم يكن الامبراطور عـارفاً بهذه الأمور، إلى أن دعا يوثيمـوس إلى زيارته زيارة خاصة، وكـان آنذاك أسقفاً [مطراناً] لني بـاتريا Neai Patrai [هيباتي قرب لاميـا](٤)، فسأله عما قيل، ورغب أن يـدرس العقيدة معه، غير أنه أغلـق شفتيه ولزم الصمـت، وعندما سـأله الامبراطور عـن سبب صمتـه، أجابـه في أن وضـع أمـامه الحكـايـة كلهـا، فغضب وأقـدم على تهديـده [مـع أنـه اعتـاد في جميـع الظـروف أن يحافـظ على هـدوئه وألا ينفعل]، لقد هـدده في رميه من فوق شاهق، إذا كـانوا يعملون على تغيير العقيدة الصحيحـة المتعلقة بالـرب، واتهمه بـذلك، لكنه مـالبث أن غيّر عقله قائلاً: «بناءً عليه إنك ستقوم أولاً بفهـم من أنت وكيف تفكر حول الرب، أنـت الذي رميت بـالشكوك حولي، (لكـن مع انني أهنـت، إنني

أكبح نفسي، خشية مني أن أقوم بعمل ما بالوقوف ضد الأرثوذكسية، ذلك أن هناك عددا كبيراً من الكتب الجيدة مقابل السيئة لنقل مترادفات الأمور المؤكدة التي ينطلق منها كلا الفريقين)، سلح نفسك حتى تكون قادرا على مبارزتي، فأنا دون الآخرين، سوف أتصدى لك، ليس بقوة السلاح، بل بفعالية الكلمة، لأنه بغيض بالنسبة لي أن أقهر من هو أدنى مني، وهذا العمل هو شاهد، وكما ترى، إنني مع أنه من الواضح قد تعرضت للاهانة، إنني موقف انتقامي، ومع هذا ينبغي ألا تستخف بهذه المسائل وتزيحها جانباً، لأنه من الذي يحجر عليك؟ من الذي أزال حريتك بالكلام؟ متى طردت من قبلي وأنت تتكلم أمام المنبر؟ ماالذي سأربحه إذا ماقمت بالدفاع عن عقيدة فاسدة؟ ثم إنه خشية مني أن أسيء إلى عقيدتي بكلمات، وهو شيء حدث لكثيرين بينكم، (في الحقيقة انني لم أعتقد قط بمثل هذه الأشياء) يبقى تماماً إنه ينبغي عليّ ألا أخون عقيدتي المتعلقة بالرب، ومع هذا إذا ماتحدث انسان ماتبعاً للكتابات المقدسة، وكان قادراً على أن يغير رأيي، لن يكون مخجلاً بالنسبة لي قط تغيير آرائي، وأبق هذا الشيء محتاطاً بشأنه: أن لايكون الرب موضع سؤال، ولهذه الغاية تحملت أنا نفسي، مراراً كثيرة الاهانات».

هكذا مضت الأمور هناك، وبعد مضي عدة أيام، قدم عدداً كبيراً من الكتب تحدثت بوضوح حول هذا الشأن، ووضع القضية أمام مجمع ديني للبحث فيها [١١٦٦]، وأخذت أعداد كبيرة من الفئات المتصارعة تتملص من لحظة إلى أخرى، حتى بات الجميع مع الرأي نفسه مع البطارقة الآخرين، ووافقوا على أن الامبراطور قد جمع أهداف الكتابات المقدسة، ومع هذا كانوا غاضبين جداً على لوقا، واستخفوا به وأهانوه، ونادوا بخلع هذا الانسان وطرده من عرشه، لعلمهم أنه عالج المسائل بشكل لامعرفي تماماً، واعترفوا أنهم هزموا بوساطة موقف لوقا، لأن هذا الموقف عرض قبل موقف الامبراطور، ولأنهم هزموا من قبلهما [البطريرك

والامبراطـور]، أرادوا تـوجيـه التهمـة حـول أمـور أخـرى، وهنـا لاحـظ الامبراطـور —كما أعتقد— أنهم يقـاتلون لـوقا بـأسباب مـوبوءة، فقـال: «دعوا هـذا يبقى سريـاً لبعض الوقـت، فعندمـا تظهر محصـلات القضية الحالية، سنقـوم بتفحص هذا الأمـر، ولسوف نطبـق عليه مايستحقـه من جزاء».

وهكذا هـزمهم على أساس هـذه القواعـد، وتمّ الاعلان عـن استمرار العقيـدة وصحتها، وأمـر الامبراطـور بكتابتهـا، ثم أمـر بعـد ذلك بنقـش النص على حجـر، وضعوه بكل سرعـة في آيا صـوفيا على يسار الـداخل، وهكذا تحقق لهذا البحث نهايته(٥).

ولقد فكـرت دوماً حول هـذه الأشياء، فـوجدت أنه لايمكـن لانسان حي أن ينجـو من اللـوم عندمـا يعبث في طبيعـة الرب، ومـع هذا إننـي مصاب بالدهشة بشأن مـا روي لي فيما يتعلق بهذا الامبراطور، فقد حدث مرة، عندما كان يبحث بهذه المسألـة (لأن القضية ظلت تناقش بين أخذ ورد لمدة ســت سنــوات) جــاء إليه واحــد مــن المتعلقين بــالبيــت الامبراطوري، وروى إليه بكـل هدوء أن الامبراطورة عانـت من اجهاض، وأن ماأسقطته كـان ذكراً، وهنا لم يظهر عليه أي أدنى تـأثر بماروي له، ولم تبد آلامـه على مظهره، بل ظـلّ مصغياً متنبهاً لما كـان يقال، لكن عنـدما انتهى البحث حول المسألة المطروحـة، انتصب قائماً، ثم ألقى بنفسه على أقدام الكهنـة، وقال: «أيها الآبـاء المقدسين، وصلنـي للتو خبر مـن جناح النساء يقـول: إن طفلاً ذكـراً —وهو أعظم آمـالي— قد ولـد في غير وقته، إننى أطلب من قداستكم، الدعـاء إلى الرب، افعلوا ذلك، أرجوكم، وإذا كنت قد تبنيـت في هذا الصراع المقدس الجانب الخاطـىء، ليجعل الرب ذريتي تلـد مجدداً في غير أوانها، مهما كان نوع المولـود، ولأحرم مـن التمتع بنيل آمالي، لكن إذا كـان موقفي يرضي الرب، ليمنحني هـذا الأمل بعد وقت قصير»، ومـا ان أكمل حديثه، حتـى نهض من على الأرض، غير أن

كل واحـد من الآخـرين ركع ودعـا إلى الرب ورجاه والـدموع تنهمـر من عينيه، وعلى هذه الصـورة غادروا، هذا ولم يمض وقت طـويل حتى رزق الامبراطور ولـداً ذكراً، وكـان قطعة مـن النعمة، ووردة مـن الطبيعة، هـذا وإنـه في اللحظة المنـاسبة سيكـون ممكناً لـروايتي أن تصـف أي نوع مـن الأشخاص كان(٦).

وهكذا وعلى هذه الشاكلة انتهت هـذه الخلافات، وبما أن لوقا لم يقدم ضده أي اتهام جديـر بالملاحظة، فقد بقـي على عرشه، لكن جـون الذي شغـل المنصب الـديني الـرئيسي في كيركيرا Kerkyra ، وواحد من الرهبـان، الذي كانوا يلقبـونه بـ«إيرينيكوس Eirenikos» اللذان ظلا متمسكين بعقيدتهما القديمـة، قد تعرضا للحرمان، وطـردا واحداً تلو الآخر من التنظيمات الكهنوتية(٧).

٣- ثم تحركت الأمـور من جديد، تلـك الأمور التي عرفـت الاستقرار، فقـد أرسـل ملك الهنغـار دايـونيسيـوس(٨) Dionysius ، وكان واحداً من الارستقراطيين في بلاطه، وصاحب خبرة حربية نالها من خلال عـدد من الحروب، أرسلـه للاستيـلاء على سيرميـون بوسـاطة جيـش كبير [١١٦٦]، وعندمـا علم القـادة الرومـان بذلـك، وضعوا خططهـم حول المسألـة، غير أن الخطط التي تشـاوروا حولها لم تنجح، لأن المتشـاورين لم ينظروا إلى مـاكان مفيداً للـرومان، بل نظـروا إلى كيف يمكن لأحـدهم أن يخدع الآخر، خاصة كل مـن الميخائيلين: الذي كنيته غبراس، ورتبته دوق تلك المنطقـة، وبرانـاس الذي تولى منفصـلاً قيادة الجنـد، فكلاهما كـانا مقاتلين، لكن برانـاس كان بالحري هو الأقوى، وعندمـا بدا للمشتاورين أن الأفضل مهـاجمة دايونيسـوس ليلاً، انطلقـوا وزحفوا بكـامل القـوات، وعندما وصلـوا إلى معسكر دايونيسوس، وجـدوه فارغاً تماماً مـن الرجال، لـذلك بـدأوا يشعـرون بالخوف، لأنـه في أراضي العـدو، إذا كان المكـان مهجوراً،وخـدماتـه المعتادة مفقـودة، ذلك كـان كافيـاً للتأثير على الـروح

المعنوية للجند.

وفي محاولة منهم لتتبع آثـارهم، تقدموا نحو الأمام، وقـد تهيأ لهم انجاز شيء بسرعة، لـو أنهم هاجموا الهنغـار على الفور، وبما أن ضـوء النهار بـات واضحاً، فقد رآهـم الهنغار، وبدأ فرسـانهم بإنشاب القتال ضـد المعسكر الـرومـاني (لأنهم كـانـوا منطلقين مـن أجل الـرعـي)، ولـذلـك شكلـوا صفوفهم، وهاجموا الذين اعتادوا على الـوقوف أمام الخيم، ولدى ملاحظة الهنغار أن الرومان كـانوا يركضون بلا نظام وفي فوضـى عظيمة (لتعرضهم لهجوم الهنغار الذيـن كانوا خيالة، فإن الجزء الأكبر منهـم قد تفرق) حملوا [الهنغار] عليهم وبعدمـا أرغموهم على ادارة ظهورهم، كانـوا قادرين على مطاردتهم وسوقهم أمـامهم حتى أدخلوهم في وسط قطعة رومـانية كانت قادمـة من المؤخرة، واضطرب أمـر هؤلاء، وانعطفوا بغية الانسحـاب، ثم انهم هربوا بسرعة كبيرة، معتقدين أنهم هـوجموا من قبل قوة أكبر بكثير من الجيش الذي رأوه معهـم، وبدا لهم، لأنه في مثل هـذه الظروف يستطيع فقط قلة من الناس فهم واستيعاب الحقيقة.

وبما أنهم كانوا هاربين بكل سرعة فقد أصـابهم الإعياء، ولذلك توقف القائدان لبعـض الوقـت ومعهما الرايـات وقليلاً مـن أتباعهما، ظـانين أن الرومـان سيتجمعون ثانية، لكـن بما أنه لم يلتحق بهما أحـد من أي اتجاه، أدارا أيضاً ظهـريهما، وحدث آنذاك أن استدار بـراناس وطعن واحـداً من الأعـداء برمحه، في حين تـابع القـائد الآخر فـراره، وهنا ظهـرت بوضـوح قضيـة خلافهما المتقـدم في الاجتماع، لأنـه عندمـا عـاد بـراناس والتحـق بغابـراس الفار، سخـر منه وقـال مستخفاً بـه: «ثم انـك توافـق معي أيها السيباستـوز كما تعلم أنني قـاومت الأعداء، وقـاتلتهم بـالرمح»، وعنـدما وافق الآخر، تابع يقول:

«لكـن بحق رأس الامبراطـور، إنني لم أرك إلاّ أثنـاء التراجع»، وهكـذا

كان ذلـك اليوم فريـداً بالنسبة للـرومان دون أن يحقـق لهم مرابح عـامة، لكن بذلك يمكن للمرء أن يرى باعجاب، أنه تولى القيام بكل مهمة.

ولم يقتل المطاردون الهنغار عدداً كبيراً من الـرومان، ولم يأخذوا كثيراً من الأسرى، لأن رعباً عظيماً استـولى على الرومـان، ويمكن استخـلاص ذلك ومعرفته ممايلي:

قـام فرد مـن وحـدات المشاة بـالفـرار طوال الطـريـق حتى التجـأ إلى زيغمي، ولم يوقفـه طوال الطريق أحـد من الرومان، وهكـذا رحلوا ببطء، ثم عزم دايـونيسيوس على اعلاء أهمية مـاقام به، فجمع أجسـاد عدد من الذيـن قتلوا، وأقـام نصباً كبيراً فـوقهم، مقـدراً أن حجم المذبحـة يمكن تعويضه بحجم الصرح(٩) المقام.

لقد سارت الأمـور هنا هكذا، غير أن الامبراطور أثاره التهـديد، ورغب في حرب الهنغـار بنفسه، ورغـب أولاً في عرض قـدرات الرومـان أمامهـم، فخطط في سبيل ذلك كما يلي:

أرسل إلى الـدانوب ألكسيـوس [أي بيلا أخو ستيفـن ملك هنغـاريا] الـذي كـان قـد زوجـه مـن ابنتـه، ومعـه قـوات كثيرة، كـان ألكسيـوس البروتوستراتور يقودهـا واستهدف من ذلك اعطاء الهنغار تـوقعاً أنه سوف يهاجمهم مرة ثانيـة عبر المناطق المعتادة، وأمر بالوقت نفسـه ليو الذي كنيته بـاتاتـزس Batatzes ، الـذي كان يقـود قـوات من الخارج ضمـت أنـواعاً كثيرة كـان مـن بينها الـ«الفلاش Vlachs» الذيـن كانـوا —كما قيل— مستعمرين من شعب ايطاليا، أمره بالانقضاض عن طريق المناطق القريبـة مما يعرف بيوكسين Euxine البحر [الأسود] حيث لم يتقدم لأحد من قبل أن هاجمهـم، وهكذا وصل ألكسيوس [بيلا] والجيش الرومـاني الآخر إلى الـدانوب، فأدخلـوا بذلك الـرعب إلى قلـوب الهنغار، خشية أن يقوموا بـالجواز من هناك، وفي ذلك الوقت كان باتـاتزس، يوجه

ضرباتـه من ذلك المكان حيـث تولى نهب كل شيء بـدون رحمة، واجتاح كل شيء واجهه، ثم تـولى قتل عدد كبير جداً من الناس، ولم يكـن الذين أخذهم أسرى أقـل عدداً، يضاف إلى هذا أنه عندمـا عاد إلى الامبراطور، ساق أمامـه قطعاناً من الماشية والخيـول مع كل نوع من أنـواع الحيوانات الأخرى.

ورغبـة من مـانـويل في انـزال ضربـة ثـانية بهم، أرسـل ثـانية جيشـاً ضدهم، وأمـره أن يقاتل من أماكـن أكثر علواً الهنغار الذيـن عاشوا على مقـربة مـن روسيا، وقـاد هذه القـوات أندرونيكـوس لامبارداس ونقفـور بترإليفاس مـع عدد كـاف من الآخـرين، ومـع هذا جُعـل جون دوكـاس السـالف الـذكر مـراراً مسؤولاً عـن الجميع، وبعـدما مـروا خلال بعـض المناطق المتعبـة والوعرة، مضوا مـن خلال مناطق كـانت خالية تمامـاً من النـاس، ثـم انقضوا على هنغـاريـا، ولقـد استـولوا على كثير مـن القـرى المكتظة بـالسكان، وجمعـوا كميات عظيمـة من الغنـائم وقتلوا كثيراً مـن الناس، لكن الـذي أخذوه من الأسرى كان أكثـر، وعندما باتـوا على نية العودة من هناك أقاموا صليباً من النحاس كتبوا عليه العبارات التالية:

هنا قامت العصبة الأرسية Ares والايطالية

بذبح عدد لايحصى من قبائل العرق البانوني Pannonian

عندما كان مانويل النبيل يحكم روما الشهيرة

فخر الملوك الحكماء من الكومينيين(١٠)

٤- وبينما كـان هـذا يحدث، جـاء هنـري دوق النمسـا ومعـه زوجتـه ثيـودورا ابنة أخـي الامبراطـور، إلى ساردیكـا، وذلـك مـن أجل مصـالحة فردريك، ملـك ألمانيا مع الامبراطور، ولمطلـب إقامة هدنـة في الحرب مع الهنغار [١١٦٦]، لأنه —حسبما تقدم ورويـت— كاد فردريك أن يقترب

مـن فقدان حكـم روما، وذلـك منذ أن بـدأ الامبراطـور نشاطـاته ضـده، لاسيما عنــدمـا وافــق أسقـف رومــا على العــودة إلى الاستخـدامــات القديمـة(١١)، وقد وعد فـردريك بـأشياء كثيرة ضد ارادتـه، لأن الناس هبوا هنـاك لحمل السـلاح والقتال ضده، نتيجـة للضغوط الصـادرة عن الامبراطـور، ولـذلك حـدث قبـل وقـت قصير، أنه رغـب في كسـب ود الامبراطور، ذلك أنه كـان في ضيق شديد، ولذلك كتب لـه وتناقش معه، بطريقة ودودة، وأعلـن —كما ذكرنا— عن موافقته على التعـاون معه ضد الهنغار.

وعندمـا —على كل حال— تحولـت اتفاقية مـانويـل مع البابـا بشأن الحكـم في روما إلى الافـلاس، بسبب أن الامبراطـور أصرّ على بقاء عـرش روما في بيزنطـة، رفض البابا قبـول هذا، وطلب بحكم رومـا لنفسه، هنا استرد فردريـك مكره وخداعه، وأظهـر من جديـد دهاءه، وبالنظر لعـزمه على غزو الأراضي الـرومانيـة، بدأ بحماقـة بربـرية، بتـوزيعها بين أتبـاعه، ولأنه لم ينجح من قبل في خططه الأخـرى، بسبب معارضة الامبراطور له، فقـد لجأ إلى استخـدام سفـارة هنري وأوتـو صـاحـب وتلسبـاك Wit-telsbach، وخطط بالتظاهر بالصداقة أن يقنع الامبراطور بالتخلي عمّا كان يقـوم به ضـده، فبذلك يمكنـه أن يستعد بسهـولة للحـرب ضد الرومان، وقدر الامبراطور جهود هنري وعاملة بشكل لطيف ، ووافق على طلبه مـن أجل هـدنة في الحرب ضـد الهنغار، لكنـه لم يتوصـل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بفردريك، وعندما كـان هنري في طريق عودته إلى بلاده، أقنع ستيفن —الذي رفض الزواج مـن فتاة روسية— أن يتزوج من ابنته، ولقد حدث هذا بالفعل.

ولم يمـض وقـت طويـل حتـى خطـط الهنغـار إلى سلبنا دلماشيـا مـن جديـد، فأرسلوا قـوى مختلفة إلى هناك، كما وبعثـوا الذي يحمل رتبـة بان Ban (١٢)، بينهم (ويعني هذا الذي سيمتلك السلطة بعد الملك في

الدولـة)، وبعدما أخفقوا بـالتغلب على الرجال الـذين كانوا هنـاك قتالاً، انسحبوا، لكن بعـدما حملوا قسراً معهم كالوفيـس [الدوق] وجعلوه تحت سلطانهم، أما كيف حدث هذا لنقفور[كالوفيس] فسأحكيه فيما يلي:

فهو عندمـا علم أن القوات الهنغارية كانـت تحارب تلك المنطقة، جمع قليلاً مـن جيشه، وخـرج من مدينـة سبلت، غير أنـه ماان زحـف قليلاً، حتى تخلى عنه أتبـاعه قليلاً قليلاً، وسببـوا بذلك وقوع الـرجل أسيراً بكل سهـولة في أيـدي الأعداء، فقـد طوقـوه بعـدما قـام بأعمال فيهـا بطولـة وشجاعة، وأخذوه أسيراً.

٥- عنـدمـا سمـع الامبراطـور بهذا، عاد إلى بيـزنطـة، عـازمـاً على أن يغزوهم في الربيع بحملة أكبر، وفي الحقيقـة هو لم يكن قادراً على الذهاب إلى هنـاك في موسـم الحملات التـالي، فقد أعـاقه قطعـة من سـوء الحظ، ماالذي كانت هذه؟ الرواية التالية سوف توضح ذلك:

مضـى شتاء [١١٦٦-١١٦٧]، وعنـدما زال الطـل أوقف نفسـه على بعض التمارين المفيدة، وهي تماريـن اعتاد الأبـاطرة وأبناء الأبـاطرة على ممارستها منذ وقـت طويل مضى، وكان عدد من الشبـاب يقومون بتقسيم أنفسهم بـالتساوي، ثـم يرمـون بكرة من الجلـد تقارب بـالحجم تفـاحة، وكانوا يلقونها على بقعـة مستوية، تبدو لهم مناسبة عندما يتـولون قياسها، وحيث أن الكرة كانت تمكث ملقـاة على الأرض في الوسط وكأنها جائزة، كانوا يطلقون خيولهم نحوها بسرعة كـاملة، ويتوجه كل واحد ضدّ الآخر، ويمسك كـل واحد منهـم بعصا ذات طول منـاسب تنتهـي على شكل شعب فـارغ، مقسم في الـوسط بوسـاطة أوتار لحميـة، جفت مـع الأيام، وتـداخلت فيما بين بعضهـا بعضـاً لتشكل مـايشبـه الشبكـة، وكان كـل جـانب يسعـى بسرعـة عاليـة جـداً لجرف الكـرة ولنقلها أولاً إلى الطـرف الآخر، الذي يكـون قد عين لهم منذ البدايـة، وكلما جرفت الكرة بـوساطة

العصا، ووصلت إلى إحدى النهايتين، فقد عدّ ذلك انتصاراً للطرف الذي أوصلها، وكانت هذه الرياضة خطيرة جداً ومرعبة، فقد كان من الضروري لكل مشارك بها أن يتحرك على ظهر مطيته إلى الأمام وإلى الخلف، وكذلك أطرافه يمنة ويسرة، وأن يقود فرسه ويجعله يدور حول نفسه، وأن يساهم في كل نوع من السباق، مما احتاج إلى عدد كبير من أنواع الحركات وذلك مسايرة لحركات الكرة.

وكان الامبراطور مغرماً بهذا النوع من الرياضة، لكن حدث أن كبا حصانه ووقع فوقه على الأرض بكل ثقله، وتحمل ثقل الحصان فوقه وجهد كثيراً للقيام من سقطته، غير أنه لم يكن قادراً على أن يبعد الحصان عنه، بعد أن بات تحته، فقد قبع فوقه —كما ذكرنا— بكامل وزنه، ولذلك جرح جرحاً بليغاً في طرفه، وكذلك بذراعه الذي التوى بشكل سيء بسبب من ردائه، ولقد تحمل ذلك كله بشجاعة، مع أنه تألم من ذلك آلاماً شديدة جداً، وعندما تجمع حوله عدد كبير من الناس، نهض مسرعاً، وقفز على ظهر حصانه ثانية، وقام ببعض الدورات بشكل بطيء بما فيه الكفاية، وذلك حتى شعر بآلام مبرحة فمضى إلى الفراش، وإثر ذلك قهره الوجع وغاب عن وعيه، ولم يعد يتذكر الغد، ثم ماقيل ومافعل.

هكذا كانت الأوضاع، لكن بعد مضي يومين تحسن، فذهب إلى أباميا(١٣)، ثم انه بسبب الرحلة —كما يبدو— ومتاعبها، عاد التورم ثانية، ورجعت إليه نوبات الآلام، وقد أمضى عيد الفصح [٩نيسان١١٦٧] في سيليمبريا [سيليفري]، وعندما شعر بالتحسن ذهب إلى فيلبه، وتباحث هناك مع رسل جاءوا من عند الهنغار، وعندما رأى أنهم لايمتلكون شيئاً مفيداً لتقديمه، سوى أنهم كانوا يجهدون بكل وسيلة للحصول على هدنة ولتعليق الحرب، قام بصرفهم وإعادتهم خائبين، غير أنه بعث معهم واحداً من الرومان، ليتقصى حول كالوفيس،

وليهـدد [اسطفان الثـالث] انـه إذا لم يحترم الاتفاقيـة ويحافظ بـاستقامـة عليهـا، سيكون مـن الممكـن رؤيـة الامبراطور والجيـش الـرومـاني ثانيـة، ووصل إلى سارديكا، وقام هناك بتجميع قواته.

٦- وعندما كان مقيماً هناك وقعت واقعة كانت كما يلي:

كان ألكسيوس الـذي شغل منصب بروتـوستراتور —كما أشير إلى ذلك مراراً من قبـل— يعمل في سبيل ثورة، فـأدين بعدما كشـف أمره، وحلق شعر رأسه، وبعـدما جرى وضعه بين الـرهبان، اقتيد بعيداً إلى واحـد من الأديـرة الجبليـة، التـي انتشرت بـأعـدادٍ كبيرة في جبـل بـابيكيـون Papikion على نهر ستريمون Strymon [ستروما]، وقد أقام هناك بعض الوقت ثم توفي.

لكن لماذا، ولأي سبـب وصل هـذا الانسان إلى هـذا النصيب، دعـونا نوضح ذلك الآن: عنـدما كان قد سافر فيما مضـى إلى كليكية، وذلك إثر تعيينه قـائداً عاماً للحـرب هناك مـن قبل الامبراطور، قصـد السلطان في قونيـة، وكسب بشكل سري صداقتـه، وتباحث معه حـول أشياء كثيرة في اتجاه القيام باغتصاب العرش، وقد تسلم منـه رسائل، وبعث إليه بأجوبة كتبـت حول اتفـاقيتهما،، وبعد هـذا توجـه إلى كليكية، ثـم عاد لبعـض الوقـت فيما بعد إلى بيـزنطة، وهنـا عندمـا عزم على تـزيين مسكن لـه في الـريـف بمـواد تجميليـة لجدرانـه، لم يصـور على هـذه الجدران المفـاخـر الاغـريقية القـديمـة، كما انه لم يصـور أفعـال الامبراطـور، والأشياء التـي حققهـا في الحروب أو في صيـد الحيوانـات، كما جـرت العـادة بالغـالـب للذين شغلوا مناصب حكومية عالية.

فلقد نـازل [مانـويل] وقاتـل بشكل طبيعـي وحوشـاً كثيرة، بشكل لم نسمـع لـه بنظير بين بنـي البشر، وخشيـة منـي أن أبتعـد عـن أحكـام المؤرخين، دعوني أذكر فقط بعـض انجازات مانويل وبراعـاته، ففي وقت

كان في حوالي الانقلاب الشتوي، حيث تراكمت كميات من الثلوج على الأرض، إلى حد لم تكن فيه الوديان والشعاب الجبلية مغطاة فقط، بل الأجساد كانت أقرب إلى التجمد بسبب شدة البرد، وحدث في الحقيقة أن جميع الحيوانات التي لم يتوفر لها مكان تختبىء به، أن خرجت من الأماكن الكثيفة، واندفعت فوق الثلج على شكل جماعات، ولقد كانت قطعان من الطيور غير قادرة على استخدام أجنحتها (لأن الجليد ربط فيما بينها وأمسك بها مثل القيود، مثلما كان من الممكن رؤية ذلك في حالات صيد الطيور) وكذلك سارت على أقدامها بدلاً من أجنحتها، وباتت عرضة للصيد من قبل الوحوش والانسان وذهب الامبراطور للصيد في إحدى المناطق الشرقية، التي اسمها داماتريس(١٤) Damatrys

وبينما كان مشغولاً بنشاطاته، واجهه وحش جبلي كبير، ولم يكن هذا الوحش أسداً، ولم يكن فهداً، ذلك أن حجم الأسد وشكله يمنع هذا التشبيه، لقد كانت له طبيعة مضاعفة، فلقد تجمع فيه كل من الفهد والأسد، وهكذا كان أسداً وفهداً معاً، كان وحشاً مخيفاً فيه صفات مزيجة، لقد كان مرعباً في شجاعته، مقداماً في ارعابه، وكل السمات التي تعود إلى كل من الأسد والفهد فيه اجتمعت، لقد كان هذا الوحش على هذه الشاكلة، وهربت غالبية الذين كانوا حول الامبراطور عندما رأوه، لأن منظره كان غير محتمل بالنسبة لكثير من الناس، وعندما بات قريباً، لم يكن هناك من أحد للتصدي له، لكن أثناء فرارهم، سحب الامبراطور سيفه الذي كان مسلحاً به، واندفع نحو الأمام ليضرب الوحش، وأصابت ضربته مقدمة رأس الوحش وظلت ماضية حتى وصلت إلى الصدر، فهكذا كان الامبراطور في الصيد.

وفي عودة إلى الموضوع الذي استطردت منه، أهمل نقفور، هذه الموضوعات، وبدلاً عن ذلك أثبت شواهد تخلّد أعمال السلطان العسكرية، وبجنون صوّر بشكل علني في مسكنه، ماتوجب عليه أن

يخفيه في الظلام، وعلم الامبراطور بهذا، ومع ذلك غالباً مااستقبله في مباحثات خاصة، وسمع منه نصائحه، وكان راغباً في أن يبعده عما كان يسعى إليه، لكن هذا الرجل تمسك بشدة بخطته، وغالباً ماكان يدعو إلى الاجتماع به رجلاً، من أصل لاتيني، غير أنه كان ساحراً ومتفوقاً في أعمال الخداع، وكان يتحادث معه بشكل مكشوف، ويخططان لمؤامرات مرعبة، وتمركزت المؤامرات حول كيفية ابقاء الامبراطور بدون وريث، وقد اعتاد على أن يتسلم كثيراً من العقاقير من هذا الساحر لتستخدم لهذه الغايات، ولم يتوقف هذا التعيس عن ممارسة هذه الأشياء، ولذلك لامه الامبراطور من جديد، وبين جنونه، وتظاهر بالأسف، غير أنه ظلّ هو نفسه، لأنه بعد مضي بعض الوقت، عاد من جديد إلى ذلك الساحر، وأخذ يبحث معه المسألة نفسها.

ثم انه التقى بقسطنطين دوكاس، الذي كان نفسه متزوجاً من ابنة أخي الامبراطور(١٥)، فقال:

«سيدي النبيل، إذا كان يوافقك أن نتشارك بهدف واحد، اعلم أنه مامن أحد سيكون قادراً على قهرنا»، وطبعاً هو لم يقل هذا بشكل واضح تماماً، إنما بشكل يمكن فيه تمييز هذا واستخلاصه منه، والتقى كاسيونوس مرة بألكسيوس، بعدما لاحظ أنه أخفق بدون قصد وانكفأ عندما كان في حملته في هنغاريا مع بيلا، وشرع في اثارته فيما يتعلق بهذا الموضوع، وبعد ذلك استقبل ألكسيوس الرجل على انفراد فقال:

«هل تعلم لماذا أبعدت نفسي كثيراً عن الحروب؟ لأنني أمتلك شفقة كبيرة على بني البشر»، وعندما انتقده الأخير على هذا القول، قال بدون وجل من أي شيء يمكن أن يحدث: «إن الامبراطور يرغب في تدمير القوات الرومانية، فقد أمرني أن أندفع وأتقدم بقوة في المعركة، لكن إذا أبقيت ماسمعته مني سراً، ستكون صديقاً لنا»، هكذا قال وأكثر، لكن

كاسيونوس أخبر الامبراطور بذلك.

لقد كان هذا ماحدث من قبل، لكن ماأوصل الأمور إلى الانشغال الكامل كان شيئاً هو كما يلي:

كانت هناك قوة من الكومان اكتريت للعمل مرتزقة في خدمة الرومان، وقد سببت هذه الفرقة في البداية بعض المشاكل التي تعلقت بالدفع إليها، ثم تمّ ارضاؤها، لكن البروتوستراتور التقى بالكومان سراً، وأقنعهم بالمال بالتظاهر بالعودة إلى أرض آبائهم وانهم عند منتصف الليل، يقومون بمهاجمة خيمة الامبراطور بحشدهم، وينشبون القتال، وكان هذا في الحقيقة ماتقرر وخطط له، غير أن صبياً صغيراً من الذين كانوا يخدمون في خيمته، ذهب بعدما عرف بالمؤامرة مسرعاً إلى الخصي توماس، الذي كان يحظى آنذاك برعاية الامبراطور العاليّة، وحذره من الخطة، وحمل الخصي الحكاية كلها إلى الامبراطور، ثمّ قدم إليه الطفل، وكان الامبراطور حتى الساعة رافضاً أن يصدق ماقيل له، حتى جاء الفجر، وبدأ الكومان بالانسحاب بدون سبب، واستطاع الامبراطور اقناعهم ببعض الوعود، وعندما نجح في ابقائهم، أرسل بعضاً منهم لاعتقال ألكسيوس بالحال، وبسرعة قصوى بات الشقي سجيناً، ثم أمر الامبراطور بعد ذلك بعض الأعيان بالقدوم إليه، واستدعى جون دوكاس، وميخائيل الذي كان المتحدث باسم [الهيئة؟]، وذلك بالاضافة إلى الخصي توماس، وكذلك نقفور الذي كنيته كاسباكس Kaspax وهو الذي كان قاضي الأحوال السرية، وقد وجهوا إلى ألكسيوس ثلاث تهم، وأمروه بالرد على أية واحدة منها هو قادر أن يدافع فيها عن نفسه، لكنه عندما سمع التهم، أقرّ بجرمه في الجميع، ورجاهم أن ينزلوا به العقوبة الصحيحة التي يستحقها، لكن بعد حلق شعره، وحضوره القداس، أشفق الامبراطور عليه، واكتفى بحلق شعره وجعله راهباً(١٦).

٧- بـالنسبـة لألكسيـوس انتهى مصيره وقـدره هنـا. وبما أن القـوات الهنغاريـة كانـت تعبر باتجاه سيرميـون، قام الامبراطـور بارسـال قوات إلى هناك، كـانت تحت امرة عـدد من القادة الرومـان، وخاصة أنـدرونيكوس ابن أخي الامبراطـور، الذي كان يكنى بـ «كونتوستيفانـوس»، وقد سماه الامبراطور قائداً عامـاً للأعمال الحربية، وقد تم توجيهـه كيف يقوم بصف الرجـال، وأين ستكون المعـركة، كما لو أن الأمـر رسم عل صـورة، وهكذا قام أنـدرونيكوس بعـدما جـاز السافا، وبـات قريبـاً من معسكـر الهنغار بالتصرف كما يلي: لقـد أدرك أن ارسال جـواسيس وكشـافة —كما جـرت العادة— إلى جيـش العدو، لن يكـون مجدياً، غير أنـه أمر بعض الـرومان الذيـن تقدموا أمـام الجيش الروماني أن يحاولـوا وهـم عائدون جلـب عدد من أفراد العـدو معهم، وتنفيذاً لأوامره، عادوا ومعهم واحـد من الأعداء، وسأله كونتوستيفانوس عن وضـع الامدادات لدى الهنغار الذين قدموا إلى سيرميون، وعن خططهم، وأجابه هذا الـرجل بصدق وأوضح له كل شيء حيث قال:

«بيننا سبعة وثلاثين قـائداً يتولون قيادة هذه القوة، لكـن دايونيسيوس له السلطـة عليهم جميعاً، وعدد الجيـش كله خمسة عشر ألف رجـل فيهم فرسـان مسلحون، ورماة، وفـرسان خفـاف، وهم شجعان جـداً، يعتقدون أن الرومان لن يستطيعوا الصمود أمام أول حملة لهم.

وعنـدمـا سمـع أنـدرونيكـوس هـذا، تـرك الـرجـل يعـود ليروي لدايونيسيـوس، أن الامبراطور الذي لم يستطع تحمـل الأذى الذي ألحقوه بالـرومان، قد تعهـد بانـزال العقوبة المنـاسبة بالهنغـار بيده، وقـاد الجيش الرومـاني، وهو شاكي السـلاح، إلى خارج المعسكر، وجـرى صفه كما يلي: أمر الكـومان مع معظم القـوات التركية وقليل من الفـرسان الذين قـاتلوا بالرماح، أن يشقوا الطـريق، ثم تقوم كل الوحدات الرومـانية بالهجوم من على الجناحين، وهـي القوات التي كـان يقودها كوغ فـاسيل وفيلوكـالس،

وذلك بالاضافة إلى الـ «تاتيكيوس Tatikios » الذين يلقبون بـ «أسبيتس Aspietes »، وزحف من خلفهم الرجالة وقد اختلط بهم النبالة ووحدة مسلحة من الأتراك، وتقدم خلف هؤلاء، وزحف من على الجناحين جوزف براينيوس وجورج براناس مع أخيه ديمتريوس، وقسطنطين أسبيتس السيباستوز، ثم تلا هؤلاء أندرونيكوس الذي كنيته لامبارداس Lampardas الذي كان كاتب الامبراطور، و....(١٧)، مع نخبة من القادة الرومان والألمان والأتراك، وزحف وراء هؤلاء القائد أندرونيكوس [كونتوستيفانوس]، ومعه عدد كبير من الرجال الجديرين بالتقدير، الرجال الذين اعتادوا على الانضواء تحت قيادة الامبراطور عندما كان يذهب إلى الحرب.

وايطالين من قوات المرتزقة، وكذلك صربيين، ساروا خلفه، حاملين الرماح وترسة عريضة، وهكذا شرعت صفوف الرومان تأخذ طريقها نحو المعركة، وعندما وصلوا إلى المكان الذي أقام فيه دايونيسيوس النصب التذكاري، ترجلوا من على ظهور خيولهم، وانتحبوا بحرقة، وعاهد أحدهم الآخر، أن كل واحد منهم سوف يموت في سبيل ابن بلده وقرابته.

وعندما علم دايونيسيوس أن الرومان كانوا يقتربون، امتلأ شجاعة، وأمر الهنغار بكل قحة بأن يرفعوا كؤوسهم ويشربوها بصحة الرومان، فرفعوها، وشربوها مسرعين، ثم توجهوا نحو أسلحتهم، وأخذوا صفوفهم حسبما هو معتاد، فقد كان من عادتهم دوماً أن يملأ الرجال النخبة بينهم الصفوف المتقدمة، وكان الامبراطور المدرك لهذا الأمر والعارف له منذ زمن طويل، قد وجّه أندرونيكوس أن تكون صفوفه في الاحتياط، وهكذا عندما باتوا على مقربة من بعضهم بعضاً، أمر أندرونيكوس الوحدات الأمامية أن تطلق نشابها نحو الهنغار، وعندما رآهم الهنغار حملوا عليهم، فقاموا بالفرار، لكن ليس نحو الخلف، إلى الجيش الروماني، بل بالحري

نحو الجناحين، وهكـذا انقسموا على كلا الطرفين، وبذلـك ترك الهنغار في مكان فارغ في الـوسط بين الصفوف المقاتلة، لكن لـدى حملتهم على بقية ساقـة الرومـان جعلتهم يـديرون ظهورهـم ويهربون بـأقصى سرعـة حتى وصلوا السـافا، وصمد أخيراً اثنتان مـن الوحدات الـرومانية التي كـانت على اليسـار، وكانتـا تحت قيادة كـوغ فـاسيل وتـاتيكيوس، غير أن البقيـة جرفت جـانباً، وقام ديمتريوس برانـاس، الذي ترك مع ثمانين مـن أتباعه الـذين تفـرقوا، بـالالتحـام مع العـدو، وقد سقـط هنـاك بعدمـا ناضـل بشجاعة، ونال ضربـة قاتلة على وجهه، وحدث أنه بعـدما سقط أن أخذ أسيراً، وحمل إلى المعسكر الهنغاري، أمـا أخوه جورج، الذي أرعبـه تفوقهم العددي، فقد افتقر إلى الشجاعة من أجل الصراع.

وهكذا تحول الجنـاح الأيسر للجيش الـروماني إلى الفـرار، لكن الجنـاح الأيمـن قـاتل ميسرة الهنغـار، وصـدّ العـدو بشكـل واضح نحـو الـوراء، وعندما لاحظ دايونيسيوس هذا، فكر في مهـاجمة الذين كانوا حول القائد أندرونيكـوس، وبدأ الخوف على كـل حال يستـولي على كثير من أتبـاعه، وهم يقـودون خيولهم، ولاحـظ دايونيسيوس ذلـك. فلامهـم لجبنهم، وفي الوقت نفسـه، رجاهم بالبقاء هنـاك، وذلك خشية منه أن يجعلـوا خوفهم ظـاهـراً للرومـان، وتفهـم أنـدرونيكـوس لامبارداس الـذي كـان يحدث، وخشية منه أن تقوم الحشود التي مـع دايونيسيوس، إذا ماتحولت إلى جهة أخـرى، أن تقوم بـالانقضاض على القـائد أنـدرونيكوس، لـذلك قـرر أن عليه الالتحـام بدايـونيسيوس أولاً، ولـدى اصطدامهـم ببعضهم بعضـاً، ارتفع الضجيـج، وسمعت الأصوات في كل مكـان بسبب تحطم الـرماح على الترسة، وسقـوطها على الأرض، ومـع أن الصفوف التـي كانـت تحت إمرة برانـاس الآخر وجورج جاءت لمساعـدة الرومان، فإن هـؤلاء الرومان تولاهم الانهاك.

وعندمـا لاحظ القائد أنـدرونيكوس هـذا، وخشية منه أنـه إذا ماانهزم

الذين كانوا مع لامبارداس بشكل حاد، فإن الصراع كله سينصب عليه، لهذا اندفع نحو العدو بشدة، وقام بحملة هائلة، ونتيجة لذلك سقط للوهلة الأولى ثمانون من الرومان، لكن أكثر منهم كان الذين سقطوا من البرابرة، وتمكن الرومان، بفضل شجاعتهم، وثباتهم أثناء القتال، وقدراتهم الخارقة، تمكنوا أخيراً من صدّ العدو، وارغامه على الفرار، ووقعت مذبحة بين صفوف الأعداء، بلغت حداً مخيفاً، لدرجة أن السهول هناك غطيت بجثث القتلى، لأنه عندما انقصفت رماحهم، وتكسرت سيوفهم، حطم الرومان رؤوس هؤلاء الأشقياء بحرابهم، ثم تمّ الاستيلاء على رايتهم، وكانت كبيرة جداً، حملها هؤلاء البرابرة على عربة، كما واستولي على حصان دايونيسيوس مع كامل سلاحه، ونجا هو نفسه من المخاطر بصعوبة، أنا غير قادر على وصفها، أما بالنسبة للبرابرة الذين فروا ووصلوا إلى النهر، فقد تولى أسرهم الاسطول الروماني، وجرى أسر خمسة من كبار قادتهم الذين يدعون «زوبان»، وأخذوا وهم أحياء، ومعهم حوالي ثمانمائة من العساكر، وكان بينهم أعداد كبيرة من النبلاء والرجال الأعيان، وسقط في هذا الصراع عدة آلاف، ولم يكن بين الرومان من لم يكن بطلاً، قام بأعمال مجيدة، لكن تميز بينهم بشكل خاص جون كونتوستيفانوس، وأندرونيكوس لامبارداس.

وعندما اكتمل نجاح الرومان هكذا، وكان الوقت يقارب منتصف الليل، عاد جند الجيش الروماني إلى المعسكر، يقودون معهم الأسرى الهنغار، وجلبوا حوالي الألفين من الدروع، ولم يكن من الممكن احصاء الخوذ والترسة والسيوف التي غنموها، وعسكروا على هذه الصورة تلك الليلة، ثم حملوا أسلحتهم عند اشراق الشمس، وتوجهوا نحو المعسكر الهنغاري، فوجدوه فارغاً من الرجال، لذلك نهبوه وعادوا، وعرفت الحرب ضد الهنغار نهايتها هناك(١٨).

٨- وصرف الامبراطور عنايته إلى أسوار القسطنطينية، التي تدمرت

بفعل الزمن في كثير من الأجزاء، وعندما عانت العاصمة من قلة المياه، قام بتنظيف الأقنية بكل عناية، ولدى ملاحظته أن الأقواس القديمة التي حملت الأقنية الناقلة للمياه إلى بيزنطة، قد سقطت منذ زمن طويل، وأنه سيكون من الصعب جداً إعادة بنائها، وأن ذلك يحتاج إلى وقت طويل، قام بعدما تفحص المكان الذي لم يكن على مسافة كبيرة من بيزنطة، وكان اسمه بيترا(١٩) Petra ، ببناء خزانات تحت الأرض، وقد أقيمت في منخفض وسط التلال على كلا الجانبين، ولهذا كانت ذات سعة كبيرة، ولوجود مآخذ كثيرة لها، وفجوات فقد تلقت المياه التي نزلت إليها من خلال منحدرات وفتحات، وكأنها آلاف الأقنية، ونقلت هذه المياه إلى المدينة، بوساطة الطرق العادية التي كانت قائمة تحت الأرض.

واجتث الامبراطور من عادات الاتحاد الروماني، واحدة كانت من أكثرها ارعاباً، وهي عادة تفتقر ولو إلى القليل من الشرعية، فما الذي كانته هذه العادة؟ هذا ماسوف أرويه الآن:

سببت حاجة الانسان للبقاء حياً ابداع أشياء كثيرة في طرق حياته، ولاسيما ارغام الكثيرين على التخلي عن حرياتهم وتأجيرها، حتى بعض الذين ولدوا من أسر كريمة —فكيف بك بالناس العاديين— خدموا أجراء لدى الذين كانت أوضاعهم أعلى، ومراتبهم أرفع، فكم هي كثيرة الشرور التي سببها الجشع الانساني؟ وكان الذين يتسلمون هؤلاء التعساء بعد شرائهم لخدماتهم يعاملونهم معاملة أشخاص شروهم بالفضة، وكان ايجار اليوم المدفوع مقابل الاكتراء، يعادل شراء انسان حر، وبذلك كان علامة على سوء الحظ، وود الذين تحملوا متاعب هذه العبودية لو يستطيعون رفضها، وعاملهم الذين اكتروهم وكأنهم عبيد آبقين، وفرضوا عليهم العقوبات لجرأتهم، ثم كان الحال مثل حكاية ايسوب Aesop، التي قعد فيها الأسد مريضاً في عرينه، ومضت الحيونات إليه: وهكذا

مضى في إثر الرجال الأحرار أعداد كبيرة، لكـن الذين خرجوا عبر الطريق نفسـه لم يكونـوا أبـداً، وعلى هـذه الصورة المرعبـة كـانـت هذه العـادة، ورغب الامبراطور في اجتثـاثها من وسط الدولـة، لذلك أصدر كتـاباً حرر فيه الـذين كـانوا بشكـل طبيعي أحـراراً، لأنه رغـب في أن يحكم رومـاناً أحراراً، وليس رومانا أسرى.

ورسم الامبراطـور في السنة الخامسـة عشرة لحكمه بـألا يعتدي انسـان على الـديرة في بيـزنطـة، وذلك بـالنسبـة لممتلكـاتها التي بحـوزتها في أي مكان [آذار١١٥٨]، وأكّد هـذه التقدمة بوثيقة، دعيـت بشكل عام لأنها ممهورة بختـم ذهبي بــ "l'Chrysbull"[الوثيقـة الممهورة بـالذهـــب]، ولهذا السبب مـامن واحـد من الـرهبان يمكـن أن يرى قـابعاً أمـام باب المحكمة، لأنـه لم يعد هنـاك من سبـب يدعـو أحداً مـن رجال الحكـومة للمثول أمام القانون معهم، هكذا باتت الأمور(٢١).

بما أن القانون عـزل عدداً كبيراً من المجموع العام للأيـام، مثل: الأيام التـي يحتفـل بها بـذكـرى تضحيات الـرب وذلـك مـن قبـل المسيحيين، وكذلك الأيـام التي تخلّد الرجـال العظام [أي القديسين]، فقد نتـج عن ذلك أن القضايا القانونية داخل الـدولة بقيت معلقة بدون نهاية، ولذلك رأيت رجالاً أصبحوا شيوخاً دون أن يبت بقضـاياهم، لابل مات بعضهم والقضايا معلقة، غير أن القانون الجديـد [آذار١١٦٦] ألغى هذه الفوضى ونفاهـا من داخـل الدولة الـرومانيـة، لأن المرسوم الامبراطـوري قضى ألا يشغل الاحتفال بـأي عيد كل النهار، وقضى أيضاً بعـدم السماح للقضايا بجرها من يوم ليوم وتأخيرها، وجـرى تحديد الأيام التي يتوقف النظر فيها بالقضايا القانـونية، بالأيام التي جلب فيها الرب شيئـاً نافعاً لبني البشر، وتركت بقية الأيـام كاملة للنظر في الأعمال القانونية، ففـي الأعياد تـمّ منع النظر بـالقضايـا صباحـاً، لكن توجـب أن تفتح المحـاكم أبـوابها طوال مابعد الظهر، مع السماح بالدخول إلى كل من أراد(٢٢).

ونقل الامبراطور إلى بيزنطة أيضاً الحجر المقدس، الذي كان منذ وقت طويل مضى في أفسوس [عرب سوس]، ووضعها هناك مع بقية الآثار المقدسة[١١٦٩]، فما هو هذا الحجر، وكيف وصل إلى بلاد أفسوس ومن أين؟ إن هذا ماسوف أحكيه الآن:

لقد كان بالنهاية تضحية المنقذ على الصليب، وعندما تسلمته أمه، مددته منكباً على وجهه، حسبما كانت العادة، وكان ذلك على هذا الحجر، وانكبت فوقه، وندبته بعمق، وهذا كان أمراً معقولاً، ووصلت الدموع التي انحدرت من مآقيها بسبب بكائها، إلى الحجر، وبقيت هناك دون أن تجف، وكان شيئاً اعجازياً، ثم كان —كما قيل— أن أخذت مريم المجدلية الحجر، وأبحرت تريد روما، حتى تلتقي بالقيصر تابيروس، من أجل أن تتقدم بشكوى ضد بلياط واليهود لأن يسوع قد قتل ظلماً، وعندما توقفت لسبب ما في أفسوس، تركت الحجر هناك، ثم غادرت وذهب إلى روما، ومنذ ذلك الحين إلى الآن والحجر موجود في أفسوس، وعندما حمل من هناك، ووصل إلى منطقة داماليس Damalis للعبور به من هناك إلى القسطنطينية، خرجت مسيرة رائعة من بيزنطة استقبلته، وضمت المسيرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وجميع رجال الدين والرهبان، وتقدم قبل ذلك لوقا، الذي أدار الكنيسة، وكذلك الامبراطور، كل على انفراد، دون بقية الرسميين، وقام الامبراطور بالحقيقة برفع الحجر، ووضعه على كتفه، فهو قد اعتاد على التواضع أكثر من اللازم في مثل هذه الحالات وعبر عن تواضع عظيم وتعبد كبير(٢٣).

٩- نجت مصر في تلك الأيام من مخاطر الاحتلال من الرومان، وبرهنت على قدرتها على الاستمرار والبقاء حية، بطريقة أنا مقبل على شرحها: كانت فيما مضى تشكل جزءاً من المملكة الرومانية، وقد زودت هذه المملكة سنوياً بمبالغ ضخمة جداً، وعندما تعرضت آسيا بشكل حاد للغزو، وسيطر عليها العرب آنذاك، تمّ الاستيلاء على مصر، ووقعت

تحت حكم المشـارقة، وتطلع الامبراطـور بشكل كبير لاعـادة السيطرة على مصر، لاسيما بعدمـا نجح في استرداد كثيرمـن المناطـق في الشرق لصالـح الرومان، ولهذا الغرض بعث إلى مصر رسلاً، أمـرهم أن يذكروا تلك البلاد بعادتها القديمة بدفع الجزية، التـي تزن كثيراً، والتي جرت العادة بوصولها إلينـا، وإذا مارفضـت مصر، فإنـه يعـدها بـأنـه قبل مضي وقـت طويـل ستتعرض للحـرب، فلقد كان هذا مـاحمله الرسـل، ولأن المصريين رفضوا هذا بفعاليـة، بنى الامبراطور أسطولاً مـن المراكب، وناقلات الخيـول، مع عـدد كبير جـداً مـن السفـن الحربيـة، وحمل جيشـاً على هـذا الأسطـول، وأرسـل بـه إلى مصر[١١٦٩]، وتـولى قيـادة هـذه الحملـة أنـدرونيكـوس كونتوستيفـانوس السالف الذكـر، والذي كان قد أصبح منـذ زمن الدوق الأعظـم [الأميرال العظيم]، وأبحـر الأسطـول مسرعاً إلى مصر ووصـل إلى هناك في أقـرب وقت، وبعـث إلى فلسطين، فاستدعـى الملك الـذي كان هنـاك [عموري الأول] لـلالتحاق بـالـرومان والمشـاركة في هـذا الصراع، حسبما قضت المعاهدة.

وبالنظر لتأخـر الملك، وخشية من أندرونيكوس، أن يبـدد الوقت هناك بلافائدة، قـرر انزال الجيش إلى اليابسـة، وقد استطاع بلا جهـد الاستيلاء على مدينـة تنيس(٢٤) Tenesion ، وقام بغارات نحـــو الأمام، فاستولى على المنطقة، وعندما وصلـت الأخبار باقتراب وصول الملك، نقل ساحة الحرب إلى دمياط، وهي مدينة مليئـة بالسكان وغنية جداً، وخاض الرومان هناك معارك مخيفة، لكن بدون نجاح، لسبب أنا مقبل على ذكره:

لقد تمّ الاتفـاق بين الامبراطور والفلسطينيين الذين شـاركوا في الحملة على مصر، أن يتسلـم الرومـان نصف حصـة من البـلاد المستولى عليهـا، وللفلسطينيين البقية، ولهذا بما أن الـرومان وصلوا أولاً إلى مصر، قـام الملك فقرر خيـانة التأخـر عن الحرب، ففي هـذا الحال في الوقت الـذي يتحمل فيه الـرومان جميع المخـاطر، يأتي هـو بالنهـاية، ويصير ممكناً لـه الاستيلاء

على البلاد بدون جهـد، ولأنه وصل متأخراً، أجّل القتـال بشكل مستمر، ونصح الرومان بفعل ذلك، وفيما كـان الرومان لايهتمون إلاّ قليلاً بكلماته، خـاضــوا يـومياً صراعـات بطــوليـة، ولسـتُ على درايــة فيما إذا كـان الفلسطينيـون —كما قلت— قـد رغبوا في أن يتحمـل الرومـان مسؤوليـة المخاطرة، حتى يمكنهم التمتع بـدون جهد بالنصر، أو أنهم كانوا يخشون من استيـلاء الامبراطور بشكل كامـل على مصر ولايريدون ذلـك، إن هذا مالاأستطيـع قولـه، ويقال إن الذيـن كانوا في داخـل دمياط قـد أفسدوا الملك بالمال، وأقنعوه بفعل ذلك.

ولدى ملاحظة الرومان أنهم غير قادريـن لوحدهم على متابعة الحرب، انسحبوا وعادوا إلى بيـزنطة، وفي الطريق فـاجأتهم عاصفة، ففقـدوا عدداً كبيراً من السفن، وهكـذا حظيت الحملة الرومـانية على مصر بهذه الخاتمة، وخشية من أهـل مصر، أن تأتي حملة رومانيـة ثانية ضدهـم، أرسلوا رسلاً إلى الامبراطور، وأعلنوا عـن موافقتهم على ارسال مبلغ محدد مـن الذهب سنوياً إلى الرومان، ورفض الامبراطور السفـارة، وأعاد الرسل بدون نجاح، ذلك أنه كان عازماً على الاستيلاء على البلاد بأكملها من جديد(٢٥).

١٠- وقدم في الوقـت نفسه ملك فلسطين إلى بيزنطة ليتقـدم بمطالبه إلى الامبراطـور [١١٧١] وحصـل على مـاطلبــه، ووافـق على عـدد مـن الأشياء الكثيرة، بما في ذلك خضوعه للامبراطور حسب شروطه(٢٦).

وأمر في ذلك الـوقت الامبراطور مانويل بـايداع البنادقة الذيـن عاشوا في بيـزنطة وبقيـة الأراضي الـرومانيـة، في السجـن العـام، وأمر بمصـادرة ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة، وذلك لسبب أنا مقبل على حكايته:

قامـت أراضي البنادقـة على الجزء الأقصى مـن خليج يـونيان [البحـر الأدرياتيكـي]، وتمتد بعيداً عـن الساحـل، على شكل حزام بحـري، مثل شاطىء رملي، وغالباً مايتقدم البحـر خلال النهار، مما يجعل الملاحة ممكنة

خلال ذلـك الوقـت، ثم يتراجع ثـانية، جاعـلاً الأرخبيل لايمكـن عبوره لابالسفـن ولامن قبـل الناس، وهـذه الدولـة فاسـدة الأخلاق، لاتعـرف الخجل ووقحـة أكثر مـن سواهـا، لأنها مليئة بـالبحارة الـرعاع(٢٧)، وبما أنها قدمت فيما مضـى قوة حليفة إلى الامبراطور ألكسيـوس الأول، عندما قام روبـرت كويسكـارد الواسـع الشهرة بـالعبور مـن ايطاليـا إلى دورازو [دورس الحالية]، وحاصر ذلـك المكان [١٠٨١]، وقد تلقوا مقـابل ذلك تعويضات، ولاسيما بمنحهـم مساحة محددة في بيزنطة، وهي بـاتت تعرف بشكل عام باسم الامبولون Embolon [الحي](٢٨)، وكانوا هم دون سواهم من بين الايطاليين الآخريـن والتجار البيزنطيين، لايدفعون في حيهم أياً من العشور عن تجارتهم للـرومان، وجعلتهم ثرواتهم الهائلة التي حصلوهـا من ذلك المصـدر بسرعة متعجـرفين، فقد اعتادوا على معـاملة الناس مثل العبيد، ولم يقتصر تصرفهم هذا على العـامة، بل تجاوزوا بذلك نحو الـذين حازوا على مجد مـرتبة سيباستوس، والـذين تقدمـوا نحو أعلى المناصب الرفيعة بين الرومان، فلهؤلاء وجهوا الاهانات.

وغضب الامبراطور جون من هذا السلوك فطردهـم من الدولة الرومانية [١١٢٢]، ولذلـك رغبوا وتشـوقوا لـلانتقام من الـرومان، وبعـدما قـاموا بإعـداد أسطول من سفنهم، أغـاروا على الأراضي الرومانية واستـولوا على كيوس، ونهبوا جزيـرة رودس الشهيرة وكذلك لسبوس Lesbos، وتوقفوا عنـد الأراضي الفلسطينيـة، فحـاصروا صـور واستـولـوا عليهـا، وأقنعـوا سواهـم بالتعـاون معهم، ومـارسوا حملـة من القـرصنة في البحـر لم تعرف الـرحمة على الجنـس البشري [١١٢٢-١١٢٥]، ولهذا تقبلهـم الامبراطـور على أسـاس الشروط المتقدمـة، ثم رقـاهم إلى مـزيد مـن المجد والفخـار [١١٢٦](٢٩).

إن الـرغبة الصـادقة التـي بدت أنها نـاجحة، أمكـن للحماقة ازالتهـا ومحقها، ولهذا وجهوا ضربـات قاسية لعدد كبير من أبناء الأسر الـذين كان

بعضهم أقرباء الامبراطور عن طريق الدم، وقاموا بشكل عام باهانتهم بشكل وحشي، حتى في أيام الامبراطور مانويل تابعوا ذلك ولم يكونوا أقل في ممارسة الأعمال نفسها، واتخذوا لأنفسهم زوجات رومانيات وسكنوا مثل الرومان الآخرين في بيوتهم خارج منطقة السكنى الممنوحة إليهم من قبل الامبراطور، ولم يستطع الامبراطور تحمل هذه الأشياء، لذلك شرع بايقاع العقوبات بهم بسبب أعمالهم السيئة، ولقد عُرف البنادقة القدماء باسم «البرجوازية» وذلك نقلاً عن اللغة اللاتينية، ذلك أنهم تعهدوا بالحفاظ على طاعة الرومان، ماداموا يعيشون بينهم لأن اسم [برجوازية أو مواطنين] يفسر هكذا، وقد ميز الامبراطور بين هؤلاء وبين البنادقة الذين جاءوا إلى بيزنطة للعمل بالتجارة.

وقبل مضي وقت طويل، ثار البنادقة ضد اللومبارد [أي الجنويين]، ذلك أنهم كانوا غاضبين منهم، ولذلك دمروا بيوتهم إلى الأساسات، وألحقوا بهم أذى كبيراً [١١٧٠]، واستدعاهم الامبراطور إلى مجلس القضاء، وقضى عليهم بإعادة بناء بيوت اللومبارديين، وأن يعيدوا إليهم على الفور ما أخذوه منهم، غير أن البنادقة لم يرغبوا في فعل أي من هذه الأشياء، وهددوا بالحاق الضرر بالرومان، وذكروه بالذي فعلوه عندما كان الامبراطور جون مايزال حياً، وعندما فهم الامبراطور هذا، قرر ألاّ يتأخر بالعمل، ولأنه عزم على أخذهم في اليوم نفسه ووضعهم داخل الشبكة، بعث برسائل إلى جميع الأراضي الرومانية، حيث حدد للذين تولوا الحكم في تلك المقاطعات الساعة التي توجب عليهم فيها إلقاء القبض على البنادقة، وهكذا حدث في وقت واحد أن ألقي القبض على البنادقة الذين كانوا في بيزنطة، وكذلك على الذين انتشروا في أقصى زوايا الأراضي الرومانية، وقد تلقتهم السجون ومعها الديرة [١٢آذار١١٧١].

وبعد مضي بعض الوقت، وبما أن السجون اكتظت بمثل هذه الحشود، تجرأ البنادقة (لأنه يبدو أنه مامن شيء أصعب من هزيمة

الناس اليائسين) تجرأوا على عمل مايلي:

بعدما قدم كل واحد نفسه بمثابة ضمانة للامبراطور من أجل الآخر، كانوا قادرين على الخروج من السجون، وكان بينهم رجلاً كان متميزاً من حيث الأسرة ومن حيث الثروة، فابتاع نفسه من الخزينة مقابل مبلغ كبير مع سفينة ذات حجم كبير، لم ينزل مثلها قط في ميناء بيزنطة، ولهذا عهد إليه الامبراطور بالعناية بها، فتآمر مع البنادقة أنهم عندما يصعدون إلى ظهرها، سوف يبحرون بها ليلاً نحو بلادهم، فتوافقوا على هذا الاقتراح، وعندما هبت ريح مناسبة، قفزوا إلى ظهرها، وغادروا هاربين، وما ان علم الرومان بهذا حتى طاردوهم، وباتوا على مقربة منهم في مكان قرب مضيق أبيدوس [الدردنيل]، وهنا عزموا على احراقهم بالنار الاغريقية، لكن بما أن البنادقة كانوا على دراية بطرائق الرومان، فقد قاموا باجراءات جريئة، وذلك بأن نقعوا بعض الأقمشة بالخل، ولفوا بها جميع السفينة، وبما أن الرومان كانوا غير قادرين على النجاح (لأن النار التي قذفت باتجاه المراكب، إما وقعت أبعد مما هو ضروري، أو انها لم تصل إليها، لابل حتى وإن وصلت صدت بوساطة الأقمشة وانطفأت في الماء عندما سقطت) عادوا مخفقين:-

وبعدما مضى وقت ليس بطويل على وصول البنادقة إلى بلادهم، بنوا أسطولاً، وقاموا بمقاتلة الرومان [١١٧١-١١٧٢]، وهاجموا أولاً يوريبوس Euripos [أي يوبيا]. لكن عندما صدوا سارعوا إلى جزيرة كيوس، وسبب صدهم أن الامبراطور مركز حاميات من الجند كافية في تلك المدن، ولدى وصولهم إلي كيوس سحبوا سفنهم وربطوها هناك، ثم تقدموا لنهب الموقع، وعلى كل حال لقد واجهوا هناك قوة كانت قد عبرت إلى الجزيرة، لأن الامبراطور كان متوقعاً ماحدث، وعندما وقعت الاشتباكات، فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم، وأداروا ظهورهم وتراجعوا نحو سفنهم، وفكر الامبراطور بقهرهم بالقوة، ولذلك خطط لارسال قوة

عسكرية، وبحـرية ضدهم، لكـن كان هناك واحداً، اسمـه هرون، شغل منصـب أكولاوثـوس Akolouthos [قـائد حرس البنـادقـــة]، وكـان والحق يقال شخصـاً مقامـراً ومغامـراً، غير أنـه كان دومـاً معاديـاً لشؤون الامبراطور، وقد اعتقـل مراراً بسبب سوء أفعاله، وأديـن لتكريس نفسه لأعمال شيطانية، لكـن هذا حدث فيما بعد، عندما تنـاولت العدالة المجـرمين، أمـا الآن، فـإنـه بسبب اقـدامـه على افشـاء الخطـة إلى دولـة البنادقة، جلب الاخفاق لمشروع الامبراطور.

وأبحـر الأسطول الـرومـاني ليصـل إلى ماليـا Malea (وهذا رأس [للبلبونيز] يفصله عـن جزيرة كيوس رحلة عدة أيـام) ليكمن هناك منتظراً البنادقة، وكان البنادقة يتوقعون أن يتـم صدهم ثم طردهم بوساطة الرجـالة الرومـان الذين —كما قلنـا— كمنوا لهم فوق الجزيـرة، واشتبكوا معهم من مواقـع متفوقة، ثم إنهم بسبب تغلب الـرومان عليهم في القتال على الجزيرة، وبذلـك عانوا من خسـائر عظيمة نزلت بجيشهـم، وبسبب أنهم علموا أن الأسطول الروماني كان على الطريـق نحوهم، قاموا في آخر النهار بمغادرة الجزيرة، ووصل الأسطول الـروماني عند الفجر إلى ليسبوس Lesbos، وعندما سمعوا أخبار ماحدث قاموا بمطاردتهم، غير أن [الأسطول البيزنطـي] لم يكن قادراً على تقريـر الأمور في معركة تصـادمية، لأن العـدو تابـع فـراره ولم يتـوقف، وتمكنـوا مـن قهـر الكثير من سفنهـم الحربية واغراقها مـع جميع ملاحيها، لكن البقية وصلت هـاربة إلى بلادها وبالنظـر لنقص الرجـال لديهم، فروا مـرعوبين، حيـث انه عندمـا حدث واصطـدمـوا مـع جماعـة مـن أهـل إبيـدامنـــوس Epidamnos [دورازو] لم يستطيعوا أسر واحد منهم بالقوة(٣٠).

وحصد البنادقـة نتيجة تبجحهم ورعونتهـم، وأراد الامبراطور أن يسخر من تفريطهم فكتب إليهم كما يلي:

«أظهرت دولتكم منذ زمن بعيد جهالة عظيمة فيما يتعلق بما ينبغي صنعه، لأنكم عندما تقاطرتم من قبل على الأراضي الرومانية بمثابة آفاقين كنتم وقتها، والحق يقال، قد استولى عليكم الفقر، ومع هذا أظهرتم استخفافاً عظيماً نحو [الرومان]، وكانت لديكم مطامح كبيرة لخيانتهم لصالح أعدائهم، ومن فضول القول أن نعدد ونذكر ماهية أوضاعكم الحالية، وتذكروا أنكم قد طردتم بحق وعدل من أراضيهم، وعبثاً فعلتم حين قررتم أن الصراع معهم سيكون على مستوى واحد، فأنتم دولة لاتستحقون من حيث القدم هذا الاسم، ولقد بتم الآن تتمتعون أخيراً ببعض الشهرة، لكن ذلك على حساب الرومان، مع أنكم لاتماثلونهم في القوة، لنتأمل هذا، لقد بتم مضحكة من كل جانب، فكيف حدث هذا؟ إنه لايمكن حتى بالنسبة للنخبة بين الدول، في أي مكان، على الاطلاق، إثارة حرب ضد الرومان دونما عقوبة»، هكذا كتب إليهم الامبراطور، وبهذه الشدة، وبما أنهم كانوا غير قادرين بعد على القتال مع الرومان بوساطة أسطول كبير، قاموا منذ ذلك الحين بالتربص والانتظار، ونشطوا كقراصنة حتى عانوا من ضربة ثانية(٣١).

وهكذا سارت هذه الأمور، وبدأت الأحوال في كليكية تصبح في أوضاع سيئة، لأنه بعدما قضى طوروس أجله [١١٦٨]، استولى أخوه مليح على المنطقة، وبدأ يتصرف بشكل لم يكن أقل سوءاً من أخيه، نحو الرومان، وجرى اختيار ميخائيل براناس أولاً حاكماً للكليكيين [حوالي ١١٦٠-١١٦١]، ثم جاء بعده أندرونيكوس الذي لقبه يوفوربينوس، وقد ذكرنا من قبل أن كان ابن عم للامبراطور [١١٦٢]، ولكن بما أنه لم يحقق شيئاً يستحق الذكر هناك، فقد باتت أحوال الايزوريين منهارة، ولذلك تتابع الحكام بكثرة، وخلف أحدهم الآخر بالحكم، وكان بينهم قسطنطين، الذي كنيته كالا مانوس، متميزاً، ومع ذلك لم يحقق شيئاً [١١٦٣-١١٦٤ وثانية حوالي ١١٧٣]، وكان

كـالامانـوس بالحقيقـة هو الّـذي أزعـج الأرمن في كثير مـن الطرق، وقـد أصيب بجرح كبير في إحدى المصادمات(٣٢).

وجاء في هذه الآونـة [هنريّ الأسد] دوق السكسون، وهـم شعب كبير العدد ومزدهر، إلى بيزنطة، ومعه حـاشية عظيمة، وذلك من أجل مصالحة ملك ألمانيا [مـع مانويل] (لأن كل واحد منهما حمل شكـوكاً عظيمة تجاه الآخر)، وبعدما أنجز ماجاء منْ أجله، غادر عائداً [١١٧٢](٣٣).

وفي هذه الآونة، تطلع الصربيون نحو الثـورة(٣٤)، وذلك بعدما ضغط عليهم البنـادقة كثيراً في هـذا الاتجاه، وبما أن ستيفن [اسطفـان الثالـث] الذي حكم هنغاريا، قد غادر هذه الحياة [١١٧٢]، فقد أصبحت الأمور هناك مليئـة بالغليـان، وتنبه الامبراطور للمخـاطر، فـذهب إلى سـارديكا، وعندما كان مقيماً هنـاك، راسله الهنغار، وسألوه ارسال بيـلا، ليكون ملكاً عليهم، لأنــه بعدما مـات ستيفن، تطلع معيار العـدالة نحوه، وكـان بيلا قـد أفرد مـن قبـل ليكـون صهراً لـلامبراطـور —كما ذكـرنا في الـروايـات المتقدمة— ولكن بما أن قـانون القرابة كان يمنع ذلـك، فقد تزوج أخت الامبراطـورة، وبناءً عليـه، تمتـع، بعـدما تـمّ إعـلانـه قيصراً، بأعلى رتبـة عرفتهـا بيزنطة آنـذاك، ثم كان بعـدما سماه مـانويل ملكـاً، أن أرسله إلى هنغاريا مع زوجتـه، إنما بعدما تعهد بالأيمان أن يرعـى مادام حياً ويحافظ على كـل مـافيـه فـائدة لـلامبراطـور وللـرومـان، ورافقـه إلى هنـاك ممثلاً للامبراطـور، ومساعداً لـه في عمله: جون [كـومنينوس] البروتوسيبـاتوس، مع آخرين من الأرستقراطية(٣٥).

وبعـدمـا ثبـت الامبراطـور أركان بيـلا بـالسلطـة، انصرف نحـو دولـة الصرب، وكان متشوقـاً للانتقام منهم بسبب تسرعهـم وحماقتهم، وحدث أمر، أنـا نفسي تتملكني الدهشة نحـوه، هو أن الجيش لم يكن قـد اكتمل اجتماعه، ومـع هذا قام الامبراطور بغـزو تلك البلاد ومعه آلاف قليلـة من

الجنود، على الـرغم من كـون البلاد بـلاد منحدرات وشعاب، وقـد زحف الامبراطور نحـو الأمام ليقـاتل الـزوبان العظيـم، ومع أن هـذا جمع حول نفسه حشوداً هـائلة من القوات الحليفـة من كل جانـب، فقد هرب على الفور، لأن الرعـب استولى على روحه، وأرسل رسلـه إلى الامبراطور، وسأل أن يحظـى بعفو الامبراطـور عن أعمالـه الشريـرة، وعندمـا أخفق في اقنـاع الامبراطور بهذا، سـأل عما إذا كان ممكناً لـه أن ينال اجتماعاً بـالامبراطور، دون أن يلحقه أذى أو ضرر شخصي.

وبنـاءً عليـه، عنـدمـا وافـق الامبراطـور، جـاء واقترب مـن فسطـاط الامبراطـور وهو مكشـوف الـرأس والـذراعين حتى المرفقين، وكـان حـافي القدمين، وقـد ربط حبـلاً حول رقبتـه وحمل سيفاً بيـده، وقدم نفسـه إلى الامبراطـور ليفعـل به مـايشـاء وليعـاملـه حسبما يـرغب، وعطـف عليـه مانـويل، وألغـى التهم المثارة ضـده، وبعدمـا نجح الامبراطـور على هذه الصورة، غـادر بلاد الصرب، وكان برفقتـه الزوبان العظيـم(٣٦)، وحدث في هـذه الأثنـاء أن ألقـي القبـض على هرون، الـذي ذكـرتـه مـن قبـل، وسملت عيناه للأسباب التي تقدم ذكرها.

١٢- هكذا مضت الأمـور في الغرب، لكن آسيا عانت مـن المصاعب ثانيـة، لأن نور الديـن أتابك حلب، والسلطـان الذي حكم ليكـانيا [أي قلج أرسـلان الثاني صـاحب قونيـة] ومليح مقدم الأرمـن، وحاكـم أنقرة وبقيـة غالشيـا وافقوا على شيء واحـد، وهو القيـام بحملة ضـد الرومـان [١١٧٣](٣٧)، ولهذا زحف الامبراطور مسرعاً مـن الغرب وعسكر في أحد الأماكن حول فيلادلفيا.

وفيما هو مشغول بهذا، جـاء الألمان والبنادقة وحاصروا أنكـونا، بعضهم بالبحـر، والبقية بوسـاطة جيش بري [١١٧٣]، وكـان واحداً من الـرجال بينهم [كرستيـان أوف مينز] الذي حمل رتبة أسقف، هو الـذي تولى قيادة

الألمان، وبعد مضي بعض الوقت على الحصار، نقصت الحاجيات في أنكونا، وبات من المتوقع سقوط المدينة خلال وقت قصير، وعلى كل حال، كان هناك امرأة، ذات أصل ايطالي [ألدرودا فرانجيبين Al-druda Frangipane كونتية بيرتينورو Bertinoro]، وكانت أكرم من أي واحد آخر، ولاسيما الرجال، ونظراً لأنها كانت محرومة من زوجها، فقد حافظت على حياة نقية منذ ذلك الحين فصاعداً، وعندما علمت بحقائق الأمور المتعلقة بأنكونا، وأنها باتت على شفير الهاوية، امتلأت غيرة (لأنها حافظت على صداقتها مع الرومان)، وبادرت مسرعة لمساعدة المدينة من منفذ من داخل ممتلكاتها، وبحكم أنه لم يتوفر لديها مايكفي من ضروريات الحرب، أوقفت أولادها [أي ممتلكاتهم] وبذلك قدمت كميات كبيرة من الذهب، وكتبت إلى أهل المدينة، وقالت إنه ينبغي عليهم أن يحافظوا على شجاعتهم عالية، وألا يتخلوا عن أنفسهم إلى العدو، وعندما علم شعب أنكونا بهذا، ازدادت شجاعتهم وخططوا لمهاجمة الأعداء، وما ان لاحظ الأعداء ذلك حتى بادروا إلى تقليص انتشارهم، وفي الوقت نفسه، قامت بعدما عينت قائدة للمدينة، بتوحيد رجال أنكونا مع جيشها، وعندما تمّ الهجوم، لم يستطع الألمان الصمود أمام المهاجمين، فهربوا أمام حشود امرأة وفقدوا العديد من رجالهم، وكاد قائدهم الأسقف أن يقع بالأسر، لولا أنه نال السلامة بالفرار، وما كان منها إثر هذا إلاّ أن تحولت ضد البنادقة، الذين حاصروا المدينة —كما ذكرنا— وهاجموها من جهة البحر، وبعدما تغلبت عليهم بالقتال، عادت إلى المدينة، وهي تهلل باسم الامبراطور العظيم، مع هتافات مديح له(٣٨).

وخطط الامبراطور الذي كان معسكراً —كما ذكرنا— في فيلادلفيا، لايجاد طريقة يتمكن فيها بسهولة من ابعاد البرابرة المذكورين عن بعضهم بعضاً، وفي الحقيقة كتب إلى سلطان قونية، ووبخه لقلة وفائه،

وسأل عن السبب الذي أدى به إلى اعلان الحرب بشكل مفاجيء ضد الرومان، ولقد تعلل بعدد كبير ومتنوع من المعاذير وقال إن خليفتهم(٣٩)، وهو أعلى رجال الدين بينهم، كان غاضباً منه، لأنه وافق على هذا الحد من الصداقة مع الرومان، ولقد كان هذا ماقاله، وقد أعاد الرسول فارغ اليدين، وعندما سمع الامبراطور بهذا، رد على ذلك بارسال سفارة ثانية، وكتب إليه هكذا:

«إذا كان قد بدا لك منذ بعض الوقت الذي مضى أن تتحد مع الآخرين من أتباعك، في سبيل مهاجمة الرومان، تخل عن حماقتك وتسرعك، وأقم حرساً على بلادك، لأن الجيش الروماني سوف يصل إليها خلال خمسة عشر يوماً»، وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة، ارتجف قلبه رعباً، وتخلى عن خططه، وبحث في شروط للسلام من أجل المستقبل، وبالنسبة للفئات التركية التي لم يتأكد لديها أمر المؤامرة، انفصلت، لأن شطراً كبيراً منها تخلى عن السلطان والتحق بالامبراطور(٤٠)، ولقد ازدادالامبراطور فخاراً بهذا النصر الذي ناله دون بذل للدماء، وقام إثر ذلك بأخذ طريق العودة إلى القسطنطينية.

وعلم بهذا ملك فلسطين مع أمير أنطاكية، فامتلآ لذلك بالشجاعة، وتحركا ضد برابرة حلب، وألحقا بهم أضراراً بالغة(٤١).

١٣- وقام الامبراطور في هذه الآونة، فصنف بنفسه الخطاب الذي سيلقيه في المجلس، ولم يصنفه بالتعاون مع العاملين(٤٢)، الذين اعتادوا على املائه وكأنه من عند الامبراطور، وكانت مقاصده عميقة التفكير، انطلقت من روح على درجة عالية من النبل، وقد زود الخطاب بما فيه الكفاية من الأفكار، وجُهز بعدد كبير من الحجج المنطقية، وكانت صياغته نقية، وأسلوبه بسيط، وباختصار لم يكن مزوقاً، بل كان طبيعياً، يعبّر بوضوح عن كاتبه، فلقد كان الامبراطور، كما قلت مراراً، شخصاً

لايمكن مقارنتـه بأحد في القدرات الطبيعية، فلقد لاحظـت أنا شخصياً، عندمـا ناقشت معـه مراراً كتابـات أرسطو، أنـه تمكن بشكل طبيعـي من حل الكثير مـن المسائل العميقـة المختلف حولها، وهـذا أمر أعتقـد أنه لم يتهيأ مطلقـاً، وكان ممكناً لأي واحـد آخر، ولقد تمكـن ببساطة رائعـة من توضيح عدد كبير من النقاط في الكتابـات المقدسة، التي بقيت حتى الآن بدون حـل، أو أنها لم تفسر تفسيراً صحيحاً، وفي الحقيقة يبدو لي أن كتـابة هذه الأشياء هنا، معارض لأحكام التأريخ.

الكتاب السابع

١- لقد كان هـذا ماأنجزه الامبراطور مانويـل حتى الآن في القارتين، وسأقدم فيما يلي تسجيلاً لما حلّ به، عندما كان في حملة في آسيا، ذلك أن قلج أرسـلان، الذي ورد ذكره كثيراً فيما مضـى من روايـات، والذي زوده الامبراطـور بكميات كبيرة مـن المال، حسبما قلـت [كـذا]، قد ارتقـى إلى درجة عالية جـداً من القوة، وكان قادراً على حرمـان عدد كبير من الحكام من إمـاراتهم، لاسيما أنه حجـر على شاهنشاه، الـذي كان أخـوه، وصدرا عن الأصل نفسه، وكان يحكم غانغـرا وأنقره، وهما من مدن غاليشيا، فقد وضعهما تحت سلطته، وبما أنه لم يكن قـادراً على قتله، اضطره للتجول بين جميـع الـدول وبنـي البشر بمثابـة غـريـب وأجنبـي، كما أنـه لم يُعـد إلى الامبراطـور أياً مـن المدن التي كـان قد استـولى عليها، كما أنـه لم يرغـب بتنفيذ أي من بقية الأشياء، التي كان وافـق عليها فيما مضى، ولقد عامل جميـع الناس بتكبر ورعـونة، ولم يكـن منضبـط الرغبـات، ولدى تفحـص الامبراطـور لهذا وتقديـره له غضـب غضباً شـديـداً، وكان مـزعوجـاً تجاه القضية، لكن بما أنه شغل عن هذه الأشياء بمشاكل الغرب، لم يرغب في اثارة الذين كـانوا في آسيا، وعندما لم تبق هنـاك أية حروب في الغرب، ولم يظهر بالأفق القريب أي شيء من هـذا القبيل، لأنه كان ناجحاً هناك في كل شيء، قام بحشد قوة كافية، وقرر الجواز إلى هناك(١) [آسيا].

وما أن سمع قلج أرسلان بهذا حتى بعـث برسله إلى الامبراطور، معلناً موافقتـه على القيام بتنفيذ مختلـف القضايـا تبعاً لارادته، وطلـب أن تقوم القوات الرومـانية المنوي ارسالها إلى آسيـا، بالعسكرة بالمدن التـي يختارها الامبراطور، وهو سيقـوم شخصياً بالالتحاق بالقوات الـرومانية في الصراع

من أجـل هذا المقصـد، وبعدمـا تسلم الامبراطـور هذه [الـرسالـة] بعث ألكسيوس بتراليفاس ومعه جيش وصـل تعداده إلى ستة آلاف، وعهد إليه بمبلـغ مـن المال، اعتقـد أنـه يكفـي لـلانفـاق على الحرب، وعلى هـذا الأسـاس انطلق ألكسيـوس نحـو آسيا، وعنـدمـا سمـع قلج أرسـلان أن الجيـش الـرومـاني بـات قـريباً، أنـذر المدن التـي مـازالـت لم تقهـر مـن قبله،وعرض عليهـا الاستسلام قبل وصول جيش الامبراطـور، وادراكاً من هذه المدن أنها لـن تستطيع مقـاومة كل مـن الجيشين الرومـاني والتركي، تخلت بدون رغبـة له، وما ان كسب السلطة على هـذه المدن، حتى رفض التخلي عن أي منها وتسليمها إلى الرومان.

وكان الامبراطور لهذا السبب مزعـوجاً، وعزم على الانطلاق نحو الحرب فوراً، لكـن بها أن شؤونـه لم تسمح له (لأن ربيـع [١١٧٥]، كان قـد مرّ، وهو الموسـم الموائم بشكل خـاص للأعمال العسكـرية، وكـان قد خطـط ليقـوم بأشيـاء متنوعـة مفيدة للـرومان، وعلى الخصـوص بناء مـدن حيثما رغـب، اضافـة إلى المصيصة، وهـي مدينـة شرقيـة، كانـت تسعى آنـذاك للالتحاق بـه، وكان لهذا سيكون سهلاً للـرومان الاستيلاء عليها) لـذلك عمل حسبما يلي:

أرسل إلى بافـلاغونيا ميخائيل الـذي كانت كنيته غابـراس، وهو رجل —كما قلت مـراراً— قد ارتقـى إلى مرتبة سيبـاستوي، وكـان خبيراً ممتازاً بالأعمال العسكـرية، وأخـذ معه شطراً مـن جيش، وكـانت البقيـة سيتم حشدهـا من قـرى قامـت هناك حـول طرابـزون وأوينانيـون Oinaion ، ومدن بنطش، وبعدما قام بجمعها، أمره [مانويل] بالسير إلى المصيصة.

وحدث في الوقت نفسه حادث كـان كما يلي: كان لجون كانتاكوزينوس —الذي تحدثنـا عنه مـراراً في الروايات المتقـدمة— ولد اسمـه مانـويل، بهي الطلعة وسيماً، وكان متفـوقاً بالقوة على جميـع قرنائه وأتباعـه(٢)، وقد

تورط في أعمال ممنوعة [أي خيانية]، ولهذا وجه إليه الامبراطور في البداية النصيحة، محاولاً منعه من التورط بمثل هذه الأشياء، ولكن عندما تمسك بتهوره، دون أن يكبح نفسه، أمر به الامبراطور إلى السجن، وقد حدث [أمر ما] هو طبيعي بالنسبة لبعض الذين في وظائف عليا، (عندما يحاولون في كثير من الحالات جذب انتباه الامبراطور لهم ونيل عطفه)، فعندما وصل إلى السجن حرموا الفتى من عينيه، وذلك خلافاً لارادة الامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بهذا، غضب كثيراً، وأقسم أن هذا اقترف بحق الفتى دون معرفته، ومع هذا فقد تحمل الآلام، لأنه لم يعرف كيف يمكنه تسويغ معاقبة الذين فعلوا ذلك.

٢- وكنا قد ذكرنا أنه قد بعث ميخائيل [غابراس] إلى المصيصة، وقام هو نفسه بجواز مضيق داماليس [البوسفور]، وتوجه مباشرة إلى ميلانغيا Melangeia [١١٧٥]، وبعدما قام بحشد قوة كافية من بيثينا والريندكوس Rhyndakos ، توجه إلى سهول دوريليون Dor-ylaion ، بهدف شحن الحصون الرومانية هناك بالمؤن، مادام السلام مازال قائماً، وأيضاً بهدف تشجيع الذين كانوا معادين للسلطان، وكان هذا هاماً بالنسبة له، وذلك بالاضافة إلى إعادة بناء دوريليون.

وكانت دوريليون فيما مضى مدينة عظيمة مثل أي مدينة في آسيا، وتستحق اهتماماً كبيراً، فقد كانت تهب عليها نسمات لطيفة، وامتدت السهول حولها، وكانت ناعمة جداً، وتقدم منظراً على درجة عالية من الجمال، وكانت هذه السهول خصبة جداً تنتج كثيراً من الأعشاب وتعطي قمحاً رائعاً، وكان هناك نهر، جميلاً أن تراه، حلواً أن تتذوق مياهه، يجري في وسطها، وفيه كميات هائلة من الأسماك التي تسبح فيه هناك، ويصطاد السكان الكثير الكثير ولايعانون من النقص، وكان في هذه المدينة أبنية جميلة بُنيت في أيام القياصرة المتقدمين من الميليسينوي Melissenoi ، كما وكان هناك قرى مكتظة بالسكان وينابيع دافئة،

وحمامات ذوات أعمـدة وقناطـر، مما يحقق البهجـة ويجلبها للنـاس، وكان بالعـادة أن يعطي المكان وفـرة من المنتوجات، لكـن عندما وصـل هجوم الأتـراك على الأراضي الـرومـانيـة ذروته، هـدمـوا المدينـة ودمـروا حتـى الأساسات، وجعلـوها خالية مـن السكان، وباد هناك كـل شيء، ولم يبق هناك أدنى أثر من عظمتها الماضية، هكذا كانت هذه المدينة(٣).

وكان في تلك الآونـة حوالي الألفين من الأتراك المتجـولين، معسكرين حسب عوائدهم حولها، وبعدما قـام الامبراطور بطردهـم من هناك، وضع حاجـزاً أحاط بـالمكان ليس بعيـداً عن المدينة، وأعـدّ العدّة لبنـاء أسوار هناك، وهكذا بُنيت المدينة بسرعة، ممثلـة في داخلها خطة المدينة القديمة، مع سور يحيط بها، وله أبعاد متساوية مـن كل جانب، ولم تكن بعيدة عن رابية اصطناعية شيدت فيما مضى لبنـاء قلعة عليها، واعتاد الامبراطور أن يخرج يوميـاً من هنـاك مع عـدد قليل مـن الرجـال، ويكمن، ويفـاجىء الأتراك وجهـاً لوجه وبـذلك قتل عدداً كبيراً منهـم، لابل حتى إنـه قتل بعـض الشخصيات البـارزة بينهم، لأن كثيراً مـن الأتراك لم يتـوقفوا عـن القدوم من المنـاطق الداخلية، والتهـور بالغارة بقصد اعـاقة أعمال البناء، ثم قام الامبراطـور أيضاً بارسال شـاهنشاه، الذي سلف لي ذكـره، والذي جـاء فيما مضى بمثـابة لاجـىء إلى الامبراطـور، لقد بعـث به إلى مـاوراء أراضي قونية، وذلك بعـدما زوده بالمال، ورافقه أيضاً جيش عنـدما ركب الطريـق إلى بافلاغونيـا، ولكنه لم يذهب بعيـداً، لأنه اصطدم بقوة تـركية كانـت تنتظره، قتلت كثيراً مـن الرومان الذيـن كانوا معـه وحصلت على غنائم كـافية،ونجا شاهنشـاه بكل صعوبـة، وعاد إلى الامبراطور مرعـوباً، وهكذا انتهت أعمال هذا الـرجل دوماً بنهاية سيئة، فهذا مـاكان قد صنع في دوريليون.

ووصـل ميخائيـل غـابراس مـع جيشـه إلى المصيصـة، ووجهت إليـه الدعوة من قبل الذين كانـت المدينة في أيديهم للدخول إليها مباشرة(٤)،

ونظراً لوجود قوة أخرى بعث بها قلج أرسلان للغرض نفسه كانت معسكرة هناك ليس بعيداً عن المدينة، أعوزته الشجاعة للدخول، ذلك أنه حمل في نفسه ريبة عظيمة نحو الذين كانوا بالداخل، وكان يخشى أنهم يخططون لمؤامرة ضده، ولهذه الأسباب أرسلوا رهائن إليه، وقدموا عن طواعية القلعة إلى الرومان، لكن بعض الخوف استولى على الرجل فجأة، مما دفعه إلى الانسحاب لعذر أو آخر، حتى ان الذين كانوا في المدينة باتوا يخشون أنه عندما سيتولى قلج أرسلان على المدينة، بسبب تأخر الرومان وتقاعسهم الطويل، سيصبحون في وضع يكرهون فيه بشكل دائم سيدهم المستقبلي، وقاموا، بدون معرفة من حاكمهم، بالتخلي عن المدينة إلى الأتراك، وانطلق ميخائيل من هناك وعاد إلى الأراضي الرومانية، دون أن يتذكر الرومان، الذين —كما قلنا— كانوا في القلعة، أو يتذكر سواهم من الآخرين.

وانتهت على هذه الصورة الأعمال في المصيصة، وعندما علم الامبراطور —الذي كان مايزال مقيماً حول دوريليون— بما حدث، بعث بالخصي توماس إلى قلج أرسلان، وقد ضغط عليه بطلبه إعادة المصيصة، واتهمه بإهمال أيمانه، وهدده أنه إذا لم يتوقف عن إلحاق الأذى بهذه الطريقة بالرومان، لسوف يعاني بعد وقت ليس بالطويل من انتقام عادل، لكن من كان توماس هذا، إن هذا ما سأوضحه فيما يلي:

لقد ولد في جزيرة ليسبوس Lesbos ، وجاء من أسرة مغمورة، وبالنظر إلى أن لديه صنعة جديرة بالتقدير، فقد ذهب إلى بيزنطة، وأخذ يمارس صنعة قطع عروق الناس [حجام]، وبذلك كسب نفقات معيشته، ولكن يبدو أن مامن شيء على الاطلاق لن يكون مفيداً عندما يكون الحظ مواتياً، فصحيح أن توماس مارس أدنى الحرف مكانة، لكن ببراعته أصبح عظيماً مثل أي رجل آخر في البلاط الامبراطوري، وبعدما حصل على مبلغ كبير من المال في وقت قصير، غادر بعد مضي

عـدة سنوات هـارباً إلى فلسطين مـع أموالـه، لكن بما أن الأمـور لم تمض هناك بما يتـوافق مـع رغباتـه، عاد ثـانية إلى الامبراطـور. إنما بعدمـا لاقى العطف منه والرعـاية، برهن فيما بعد أنه غير مُـرض، ولهذا ألقي بالسجن في القصر، وهو السجـن الذي يعرف بـاسم الفيلي [أي العاجـي]، وهناك أمضى بقية حيـاته، لكن هذا حـدث له فيما بعد، المهم أنـه ذهب آنذاك إلى السلطـان —كما قلنا—، وبما أنـه لم يمتلك الـرغبـة في تنفيذ أي مـن هذه الأشياء التـي جاء من أجلها، فقـد عاد فارغ اليديـن إلى الامبراطور، وكاد في ذلك الوقت أن يتمكن الأتراك الـذين تربصوا له على الطريق أن يقتلوه(٥).

٣- وتمكن الامبراطـور في مدة أربعين يوماً مـن تشييد المدينة، وبعـدما أحـاطهـا بخندق أسكـن فيهـا كثيراً مـن الرومـان، وتـرك حـامية كـافيـة لحمايتها، غادرهـا وعسكر في منطقة حول ريندا كوس، وبعـد توقف قصير هناك، قـاد جيشه وتقدم نحـو الأمام، وعندمـا لاحظ أن عدداً قليـلاً بقي برفقتـه (لأن الجزء الأعظم من الوحـدات العسكرية قد ذهـب إلى بلاده، دون أن يعلم بذلـك، مع أنه كان من قبـل قد أعطى أوامر مـؤكدة بعدم مغادرة أي واحـد من ذلك الجيش) أرسـل رجلاً اسمه ميخائيـل، وكان من أصل بربـري (في الحقيقة كان اسمه السالف اسحـق)(٦) من الذين خدموا في حـواشي بيته، أرسله لإنزال عقـوبات جسدية ببعـض الفارين من الجنـد، وقام الامبراطور شخصياً بـالمرور خلال السهول التـي تقود إلى لامب Lampe [في فريجيـا](٧)، وأعاد بناء إحدى القـلاع (وكان اسمها سـوبلايـون Soublaion)(٨)، وقد أقيمـت في مكان حـول ينابيع ميانـدر، وكانت قـد سقطت بفعل الأيام، ومـن هناك شرع الامبراطور بالاشتباك مع الأعداء، لكن ليـس بالطريقة التي اعتادها، بل ثار واندفع بشكل لايقاوم مثل النار أو الماء.

وبينما الامبراطور مشغـول بهذه الأعمال، كان ميخـائيل المذكـور أعلاه،

يحمل حقداً دفيناً ضد الرومان منذ زمن طويل مضى، لذلك اتخذ غضب الامبراطور عذراً له، فكان يمدّ على الأرض كل من التقاه، ويجعله ينكب على وجهه، ثم يقوم بدون استجواب بغرس الحديد في عينيه، ويتركه هناك تعيساً، لايفقه حتى لماذا أنزل به البلاء، وكان بعض الذين ابتلوا في بعض الأحيان ليسوا حتى أعضاء في الجيش، بل فلاحين، أو عاملين بالتجارة أو أنواع أخرى من الناس، وقد انتقل إلى أماكن أخرى، وشوه أجساد أعداد كبيرة من الرجال، واستمر هذا حتى علم الامبراطور بالذي كان يحدث (لأنه كان قد أكمل بنجاح الأعمال بالحصن، وعاد إلى بيزنطة) فأوقفه وأوقف أعمال انتقامه، لابل أكثر من ذلك كاد أن يتعرض إلى نوع الجزاء نفسه، لكن الامبراطور قدّر أنه لن يتجرأ ثانية على إنزال مثل هذه الأشياء ثانية بالرومان، لذلك عفا عنه، وحرره من التهم الموجهة إليه، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل على هذا، حتى تناولته العدالة، وأزالته من بين الجنس البشري، وأنزلت بأولاده سوء المصير.

ثم استدعى الامبراطور ميخائيل غابراس للمحاكمة، وعندما أدانه (لأنه رسم أنه من الممكن انزال عقوبات به وفقاً لارادته) وضع الأغلال في قدميه مع الحديد، وألقاه لبعض الوقت في واحد من سجون القصر، لكنه استدعاه بعد ذلك وأعاد إليه اعتباره ثانية مع رتبته السالفة.

وعندما علم قلج أرسلان بهجوم الامبراطور (لأن ماحدث حول دوريليون أثر بشكل حاد على معنوياته) أرسل إلى بيزنطة واحداً من ذوي النفوذ العظيم في بلاطه وكان اسمه غفراس(٩)، ليتقدم بالرجاء إلى الامبراطور علّه يرضى بأخذ أي من القلاع تبدو مرضية له، ومن ثم يقلع عن غضبه عليه [السلطان]، ومهما يكن من أمر، رفض الامبراطور هذه الرسالة، وأعاد غفراس، وحشد عساكر كثيرة جداً من الصرب والهنغار، واستعد بكل عناية للحرب، وخشية منه أن يحتاج الجند والخيول إلى ضروريات الحياة، جرى سوق عدد من الثيران من القرى في تراقية، وكان

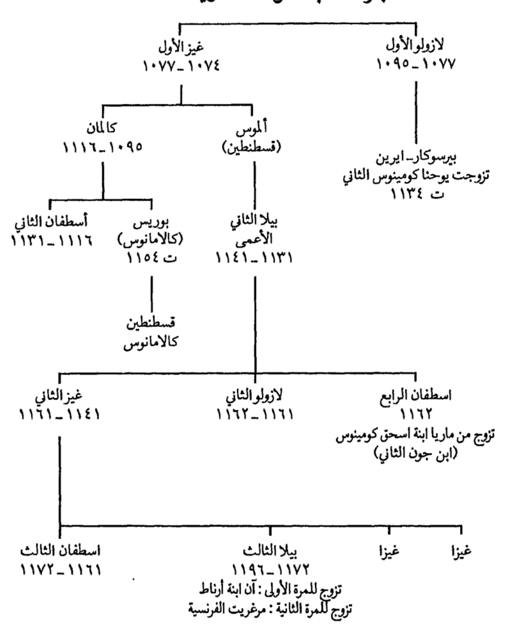
هناك مايزيد على ثلاثة آلاف عربة.

وعندما ظهر ربيع [١١٧٦] جاز إلى آسيا، وحسبما جرت العادة حشد عساكره عند ريندداكوس Rhyndakos ولم يصل الحلفاء من الهنغار والصرب —الذين كانوا رعايا للرومان— في اللحظة المناسبة، مما سبب قيامه بالحملة في موسم الصيف، ولذلك السبب بالذات واجهت أموره الدمار: ففي الأمور العسكرية والنشاطات الحربية، التوقيت هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهكذا سار الامبراطور خلال لوديكيا والمناطق المجاورة لمياندر، واضعاً بذهنه العسكرة والاستقرار مع القوات جميعها من أجل حصار قونية، وبما أن نو—قيسارية كانت تسعى للانضام إليه، فقد بعث بابن أخته أندرونيكوس باتاتزس Batatzes إليها مع جيش، على أن يرتحل من خلال مناطق بافلاغونيا، وكان مانويل قد قام قبل مغادرته بيزنطة بارسال أسطول قوامه مائة وخمسين سفينة إلى مصر، وذلك بالوقت الذي كان ذاهباً به مع القوات جميعها للحرب ضد قلج أرسلان(١٠)، ولهذا السبب افتقر إلى مايكفي من قوات [للحملة] ضد مصر...

[انقطع النص هنا، فخلال زحفه نحو قونية، انهزم مانويل في ١٧-أيلول ١١٧٦ هزيمة ساحقة، وسحق جيشه إلى أبعد الحدود في معركة ميريوكيفالون Myriokephalon . ثم كان أن توفي عام١١٨٠].

الملحق الأول

شجرة نسب ملوك هنغاريا



8. Ibid., 221–27 (esp. 224): Soublaion allegedly derives from ancient Siblianoi, and is also called by the Byzantines Choma (Nicetas, *Hist.*, 231), hence is equivalent to modern Homa, northwest of Dinar.

9. Bryer, "Gabrades," 180 (No. 9).

10. Chalandon, II, 504–07, 550. No Byzantine attack was made on Egypt at this time; the attack on Nea Kaisareia by Andronicus Batatzes and the Dānishmendid Dhū-n-Nūn failed, because of disagreement of the two commanders, and Batatzes was slain. On the route Manuel followed in 1176, and the location of Myriokephalon, see W. M. Ramsay, "Preliminary Report to the Wilson Trustees on Exploration in Phrygia and Lycaonia," *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, ed. W. M. Ramsay (Aberdeen, 1906), 235–38.

36. Jireček, *Serben*, I, 261–62.

37. The ruler of Ankyra and Galatia at this time was probably Shāhan-Shāh, restored by pressure of Nūr-ad-Dīn on Kilidj Arslan. The latter was compelled to yield to Nūr-ad-Dīn in 1173, and restore the Dānishmendid heir to Sebasteia/Sivas. The alliance was destroyed by the deaths of Nūr-ad-Dīn and Mleh in 1174, which left Kilidj Arslan free to expand his realm at the expense of lesser princes: Chalandon, II, 494–98, 501; Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 527; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678–79.

38. Chalandon, II, 597; Lamma, *Comneni e Staufer*, II, 244–53; Paolo Lamma, *Oriente e occidente nell' alto medioevo*, Medioevo e umanesimo, 5 (Padua, 1968), 383–94; Peter Schreiner, "Der Dux von Dalmatien und die Belagerung Anconas im Jahre 1173. Zur Italien- und Balkanpolitik Manuels I.," *Byzantion*, 41 (1971), 285–311 (includes German translations of this passage and of Nicetas' account of the siege).

39. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 339.

40. At the death of Nūr-ad-Dīn, 1174, Shāhan-Shāh and the Dānishmendid heir, Dhū-n-Nūn, fled to Manuel: Chalandon, II, 498.

41. Baldwin, "Latin States," 561.

42. The *a secretis* were notaries; the *protoasecretis*, probably referred to here, was director of the imperial chancery: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 167.

BOOK VII

1. Late 1174 or early 1175: Chalandon, II, 502.

2. Nicol, *Kantakouzenos*, 4–5 (Nos. 2 and 3).

3. Ramsay, *Historical Geography*, 212–213 (he considers the fish inedible); Vryonis, *Asia Minor*, 123, 153 (with a translation of this passage). The caesar in question must have been Nicephorus Melissenos, who received his title at the outset of Alexius I's reign. P. Wirth, "Kaiser Manuel I. Komnenos und die Ostgrenze. Rückeroberung und Wiederaufbau der Festung Dorylaion," *Byzantinische Zeitschrift*, 55 (1962), 21–29, compares the accounts of Kinnamos, Nicetas, Eustathius (in an unpublished oration), and Euthymius Malakes on this event.

4. Chalandon, II, 502–03, suggests that partisans of Shāhan-Shāh held the town, and that the latter had been sent from Dorylaion to join the Byzantine expedition.

5. Ibid., 502–04.

6. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

7. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 227–28; the plains are between the upper Büyükmenderes and the Acigöl; the modern place-name Lappa, mentioned by Ramsay, is no longer found on maps.

NOTES TO BOOK VI

24. Perhaps Tinnis, a mistake for Pelusium (modern al-Faramā'), captured at this time.

25. While this account makes numerous factual errors and distortions, it vividly reflects the hostility which sprang up between the Palestinian and Byzantine commanders during this expedition: Chalandon, II, 536–45; Baldwin, "Latin States," 556–58.

26. Chalandon, II, 546–50; Baldwin, "Latin States," 558–60.

27. Libanius, *Or.* XI, 38 (ed. R. Foerster, I, 449). Except in the northern Adriatic, tides are unknown in the Mediterranean and, evidently, were unfamiliar to Kinnamos.

28. Horatio F. Brown, "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *Journal of Hellenic Studies*, 40 (1920), 75, says, "An *Embolum*, it seems, was a place where merchants stored and sold their goods and generally transacted business. . . . It was a building with an open loggia running round it and was of the nature of an Exchange-house rather than of a bazaar. But the word *Embolum* soon acquired a secondary and wider meaning and came to be applied to the whole quarter; '*in Embolo Peramatis*' means in the quarter and district of the Ferry. We find the word *Embolani* signifying the Pisans dwelling in the Pisan Quarter."

29. Chalandon, II, 156–58.

30. The text of this sentence is corrupt; the translation is based on the suggestions in the editor's notes.

31. Chalandon, II, 582, 584–91; H. Kretschmayr, *Geschichte von Venedig*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. 1, No. 35, Vol. I (Gotha, 1905; repr. Aalen, 1964), 254–62. The "second blow" was perhaps the Venetians' defeat at Ancona (Kinnamos, 289).

32. In 1173, Mleh seized Tarsus, Adana, and Mopsuestia from the Byzantines, and captured Constantine Kalamanos, then in his second term as governor: Chalandon, II, 526, n. 2, 531–33; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 642–43. Mleh was murdered by his soldiers in 1174.

33. Chalandon, II, 596.

34. Stephen Nemanja had been grand župan since 1168, and eagerly attacked Byzantine Dalmatia: Jireček, *Serben*, I, 258–61.

35. The real reason for the termination of Béla's engagement to Maria Porphyrogenita was the birth of Manuel's son, who was proclaimed co-emperor in 1172. Béla's bride was Anne, daughter of Reginald of Châtillon, and thus half-sister to the empress. A Byzantine army assisted Béla III to obtain his throne: Chalandon, II, 491–92.

NOTES TO BOOK VI

12. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

13. Janin, *Constantinople byzantine*, 443: Aphameia or Apameia, a village with an imperial villa, northwest of Hebdomon and north of San Stefano/Yesilkoi, perhaps modern Bosnaviran.

14. Ibid., 496: Samandira and adjacent Alemdaği, ca. 16 miles east of Üsküdar.

15. Polemis, *Doukai*, 192–93 (No. 226): Constantine Doukas or Makrodoukas, who later figured prominently in the reign of Andronicus I.

16. Chalandon, II, 219–20; Nicetas, *Hist.*, 187–88, maintains that the accusation against the protostrator was false, the work of hostile courtiers. He names Isaac Aaron as his chief opponent.

17. According to Babos, *Adalékok*, 13, MS *Vat. gr.* 163 leaves a short gap here; the editor, Meineke, suggests that the name of John Kontostephanos (see below) has dropped out of the text.

18. This battle occurred on 8 July 1167: Chalandon, II, 488–90; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 85–89.

19. Janin, *Constantinople byzantine*, 215, 465, is unable to offer an exact identification, but suggests the vicinity of Eyüp. Eustathius of Thessalonica addressed an oration to Manuel on the water shortage in Constantinople, ed. W. Regel, *Fontes* (see Introduction, n. 43, above), I, 126–31; the editor (xvi–xvii) dates the shortage to the winter of 1168 and Manuel's construction to 1169, but on what grounds are unclear. The oration was definitely prior to 1174, when Eustathius was appointed to the see of Myra.

20. Chalandon, II, 611–12; Franz Dölger, *Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565–1453*, Corpus der griechischen Urkunden des Mittelalters und der neueren Zeit, Reihe A, Abt. I, Teil 2 (Munich, 1925), No. 1476 (dated shortly after 8 July 1167, solely on the basis of its position in the text of Kinnamos; Kinnamos, however, is here giving a non-chronological review of some important civil acts of the emperor); A. P. Kazhdan, "Odin netochno istolkovannyĭ passazh v 'Istorii' Ioanna Kinnama," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, 7 (1969), 469–73.

21. J. and P. Zepos, ed., *Jus graecoromanum*, I (Athens, 1931), 381–85; Dölger, *Regesten*, No. 1419; N. Svoronos, "Les Privilèges de l'Eglise à l'époque des Comnènes: Un Rescrit inédit de Manuel I[er] Comnène," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 1 (1965), 330–33 (No. 4 of his series), 375–76.

22. Zepos, *Jus*, I, 397–402; Dölger, *Regesten*, No. 1466.

23. Chalandon, II, 204 and n. 2; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 662; Janin, *Les Eglises et les monastères*, 530.

the walls of Zeugminon/Zemun. On the other hand, the discontinuity may be the result of the author's haste, evident in this rather disordered section of his history.

47. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

48. Polemis, *Doukai*, 190 (No. 220), as a "Doukas of unknown family background." He suggests he may be Andronicus Doukas Angelus, father of Isaac II and Alexius III (p. 86, his No. 39), but this person would in 1165 have been rather elderly to be behaving in so impetuous a fashion.

49. See Kinnamos, 107.

50. Chalandon, II, 484–85.

BOOK VI

1. Chalandon, II, 221, 526, n. 2, 529–30.

2. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 228 and n. 4.

3. John 14:28.

4. Euthymius Malakes, metropolitan of Neai Patrai, was a prominent theologian and author of the second half of the century; see his writings, *Τὰ σωζόμενα*, ed. Konstantinos G. Mpones [Bonis], 2 vols. (Athens, 1937–49).

5. The synodal decision came in 1166: Jean Gouillard, ed. and trans., "Le Synodikon de l'Orthodoxie," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 2 (1967), 75–77; Chalandon, II, 564, 644–51; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 58, 622–23; the inscribed stones from Hagia Sophia have been recovered: C. Mango, "The Conciliar Edict of 1166," *Dumbarton Oaks Papers*, 17 (1963), 315–30.

6. Alexius II (emperor, 1180–83) was born 14 September 1169: Peter Wirth, "Wann wurde Kaiser Alexios II. Komnenos geboren?" *Byzantinische Zeitschrift*, 49 (1956), 65–67.

7. This revival of the debate, and the condemnation of John (Constantine) of Kerkyra and Eirenikos, occurred in 1169–71, under Patriarch Michael of Anchialos (1169–77): Gouillard, "Synodikon," 77–81; Chalandon, II, 651–52; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623, 627.

8. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 118.

9. Chalandon, II, 486–87.

10. Ibid., 487; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 83–85. These campaigns are analyzed in Năsturel, "Valaques" (see above, Book III, n. 8), 177–86.

11. I.e., accept Manuel as emperor. The year 1166 marked the peak of Manuel's negotiations for the western throne (see Kinnamos, 218–20); one of the causes of their collapse was, as Kinnamos notes below, Manuel's refusal to reside in Rome.

NOTES TO BOOK V

32. Probably a reference to Alexander III's flight from Rome to France, 1162; even in 1167, Frederick was able to occupy only the Leonine section of the city.

33. Ottaviano, anti-pope as Victor IV, 1159–64; Alexander III was pope from 1159 to 1181. On this conflict and on Manuel's role in the subvention of the Lombard League, see Chalandon, II, 572; Balzani, "Barbarossa and the Lombard League," 430–47.

34. Guardian and doorkeeper of the palace: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 355.

35. Rostislav I Mstislavič, grand prince of Kiev, 1158–67; Primislav or Pervoslav is unidentified, but perhaps was prince of Volynia: Chalandon, II, 482; Vernadsky, *Kievan Russia* (see above, Book III, n. 27), 219–20.

36. This would seem to be a scribal error for Iaroslav.

37. This appears to be an accidental repetition of the previous reference to Rostislav; Kinnamos is not very well-informed on Russian affairs. The MS gives "Kiama" as the name of the city, but this is considered to be an error by Kinnamos or the scribe for "Kioba," i.e., Kiev.

38. Henry Jasomirgott, who was from 1156 duke of Austria; he had married Manuel's niece Theodora (daughter of Manuel's brother Andronicus) in 1148, at the time of Conrad III's residence in Constantinople during the Second Crusade.

39. Vladislav is unidentified; George might be George (or Iuri) Dolgoruky, prince of Suzdal and grand prince of Kiev, 1155–57: Chalandon, II, 482, n. 4.

40. Theodora, daughter of Manuel's brother Isaac.

41. After the capture of Reginald of Châtillon (1160), the people of Antioch had turned to Baldwin III, who assumed guardianship of the principality. In 1163, after Baldwin's death, the populace, with aid from Ṭoros of Armenia, drove out Constance and established her son (by Raymond of Poitiers), Bohemond III, as prince. Amalric I's embassy to Manuel is thought to have occurred soon after his accession, but only in 1167 did Maria, daughter of John Comnenus the protosebastos, wed him: Baldwin, "Latin States," 546–47, 554.

42. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 141.

43. Chalandon, II, 483.

44. Probably Kama, east of Branitshevo.

45. Probably across the Sava: note that Manuel proceeds to attack Zeugminon/Zemun, on the south bank of the Danube. Since "all Sirmion" (i.e., the territory between the Sava and the Danube) was in Hungarian hands, this would equally be a crossing into hostile country, yet the enemy forces would be effectively divided by the Danube: Chalandon, II, 484.

46. Tentatively, I would here suggest a lacuna of a sentence or two in the text; Manuel is seen in one sentence with an injured leg, then, in the next, attacking

Bohemond. Ṭoros of Armenia was also a member of the defeated coalition: Der Nersessian, "Cilician Armenia," 641.

20. On the locality, and the geographic difficulties posed by Kinnamos' reference to a crossing of the Sava (rather than of the Danube), see Chalandon, II, 477 and n. 2. The text, however, says that Manuel sat down opposite Titel; this could have meant on the south bank of the Danube, opposite the mouth of the Tisa (or Tisza); Titel is only a few miles upstream. The emperor's next stopping place, Petrikion, may be Petrovaradin, on the south bank of the Danube opposite Novi Sad; therafter, he reached Bač, north of the river; the three sites show a generally northwestward line of march. This agrees with Kinnamos, 221, who puts the crossing of the Danube in the subsequent part of the campaign.

21. Kinnamos, 68–69.

22. Frederick Barbarossa himself had balked at the requirement of serving as squire to the pope, but had had to yield to precedents: Ugo Balzani, "Frederick Barbarossa and the Lombard League," *The Cambridge Medieval History*, V (Cambridge, Eng., 1929), 419–20.

23. The allusion is somewhat mysterious, perhaps a reference to previous papal obedience to decrees of the Byzantine emperor ("someone else").

24. This tirade was inspired by Pope Alexander III's prolonged dispute with Frederick Barbarossa, during the course of which the pope at least discussed (in 1166) accepting Manuel as the single emperor of a united Roman Empire: Chalandon, II, 558–67. Eventually, after his defeat by the Lombard League, Frederick was reconciled with Alexander. On the political philosophy expressed in this passage, see Chalandon, II, 556–57.

25. Perhaps at Novi Sad.

26. On this Orthodox population, mentioned here and on Kinnamos, 221, see N. Oikonomides, "A propos des relations ecclésiastiques entre Byzance et la Hongrie au XI[e] siècle: Le Métropolite de Turquie," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, n.s., 9 (1971), 530.

27. See above, Book II, n. 9.

28. See above, Book II, n. 65.

29. On this campaign and negotiations, see Chalandon, II, 476–80, who gives some credit to Kinnamos' story of Manuel's relations with Vladislav II.

30. Bryer, "Gabrades" (cited above, Book II, n. 37), 180 (No. 7). He was married to Eudokia, daughter of Manuel's brother Andronicus: Chalandon, II, 480–81.

31. Chalandon, II, 526, n. 2 (for the chronology), 528–29; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

NOTES TO BOOK V

6. Kilidj Arslan II, 1155–92. On this visit, see Chalandon, II, 462–66; Vryonis, *Asia Minor*, 122; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678.

7. Patriarch Loukas Chrysoberges, 1157–70.

8. The reference is to the Byzantine disaster in 1176, at Myriokephalon. The earthquake mentioned in this section is not included in the lists by Grumel, *Chronologie*, 480, or Glanville Downy, "Earthquakes at Constantinople and Vicinity, A.D. 342–1454," *Speculum*, 30 (1955), 600.

9. Again, the reference is to Blachemai Palace: see Book II, n. 61.

10. Chalandon, II, 517, renders this as Excubitor, chief of the interpreters.

11. Matth. 22:8.

12. The girl in question was Melisend, sister of Raymond III, count of Tripoli. The tale told by Kinnamos is a fiction: neither miraculous diseases nor (groundless) allegations of illegitimacy prevented the marriage. Rather, negotiations were prolonged for a year (1160–61) by Manuel, then broken off by him, because a more favorable match seemed possible in Antioch: Chalandon, II, 517–21; Baldwin, "Latin States," 546.

13. Chief official of the city of Constantinople: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 186–92.

14. Chalandon, II, 520–24; Baldwin, "Latin States," 546–47.

15. Chalandon, II, 392–93 (who, however, errs in identifying Desa with Stephen Nemanja, and also in dating the event 1163: see 475, where Manuel's campaign is dated 1162); Jireček, *Serben*, 252; Grumel, *Chronologie*, 390; Radojčić, "Vazalnikh," 347–54.

16. Chalandon, II, 474–76; the territory ceded as Béla's inheritance was "Sirmion" (i.e., the region between the Sava and the Danube) and Dalmatia: 475 and n. 3. On the title of Despotes, see Ostrogorsky, "Urum-Despotes," 448–60.

17. Joscelin II of Edessa was captive 1150–59, and died in captivity: Baldwin, "Latin States," 533; Robert Lawrence Nicholson, *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States* (Leiden, 1973), 21.

18. Chalandon, II, 525, n. 2, says he was called this because his father had also been titled Kalamanos.

19. Hamilton A. R. Gibb, "The Career of Nūr-ad-Dīn," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 524; Baldwin, "Latin States," 551; Chalandon, II, 524–25; Nicholson, *Joscelyn III*, 33. Reginald of Châtillon, regent of Antioch, had been captured by Nūr-ad-Dīn in 1160 (Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 523; Baldwin, "Latin States," 546); the captives in 1164 included Bohemond III, prince of Antioch; Raymond III, count of Tripoli; Joscelin III, titular count of Edessa; and Hugh of Lusignan, as well as Kalamanos. Kinnamos has confused Reginald and

and 300. On these attacks, see Chalandon, II, 460–61; Vryonis, *Asia Minor*, 122, 189.

55. Evidently descendants or followers of Kogh Vasil, an Armenian who ruled Kesoun/Keysun (east of Marash/Maraş) at the time of the First Crusade. Kesoun formed part of the County of Edessa; in 1150, after the loss of its capital, the remnants of that county were ceded to Manuel Comnenus (Baldwin, "Latin States," 533–34). Possibly some of the Armenian inhabitants, using their former leader's name, remained in Byzantine service.

56. Chalandon, II, 459–60.

57. Kallipolis or Gallipoli, modern Gelibolu.

BOOK V

1. Kinnamos has here erred in his chronology: she died in early 1160, perhaps while Manuel was staying at Rhitzion (Kinnamos, 194): Chalandon, II, 211–12, 459. Part of John Kontostephanos' mission to Palestine, 1160–61, was to seek a bride for Manuel: Kinnamos, 199; Chalandon, II, 459, 517–19.

2. 31 May 1161. On this stage in Manuel's lengthy intervention in Hungarian affairs, see Chalandon, II, 469–73. For the genealogy and dates of the various rulers who follow, see Appendix I. The dating of these events is disputed; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 82–83 and appended genealogy, gives the reign of Géza II as 1141–62, László II as 1162–63, István IV as 1163, and István III as 1162–72. Chalandon gives the dates a year earlier, basing his data largely on western chroniclers.

3. According to Chalandon, II, 469–73, László II ruled 1161–62. On "Urum," "My Lord," see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 238; G. Ostrogorsky, "Urum-Despotes: Die Anfänge der Despoteswürde in Byzanz," *Byzantinische Zeitschrift*, 44 (1951), 448–60; repr. in his *Zur byzantinischen Geschichte*, 153–65.

4. Grumel, *Chronologie*, 390, believes Primislav (or Prvoslav) is another name for Uroš II; see Kinnamos, 113, on his earlier restoration by Manuel's decision.

5. Borislav Radojčić, "La Region de la Dendra de la Serbie au XII[e] siècle," *Balkan Studies*, 11 (1970), 249–60, is able to show that Dendra was Serbian territory, granted to Desa in 1155 by Manuel's judgment regarding the županate of Serbia, between Uroš II and Desa; he is, however, unable to give any more exact identification of the region than Kinnamos' expression here. Desa ruled ca. 1161–65. See Chalandon, II, 391–92 (but the identity of Desa and Stephen Nemanja, there asserted, is not generally accepted); Jireček, *Serben*, I, 250–52; Borislav Radojčić, "Prilog proučavanju vazalnikh odnosa Srbije prema Vizantiji pedesetikh i šezdecetikh godina XII veka," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 2 (1964), 347–54.

NOTES TO BOOK IV

42. Bertram of Toulouse, grandson of Raymond of Saint-Gilles, had been captured in 1149: Baldwin, "Latin States," 532, 545.

43. Bertrand of Blancfort, master of the Templars, had been captured in 1157: Baldwin, 539, 545.

44. Ramsay, *Historical Geography*, 382n. In 1158 Manuel had followed the coast from Attaleia/Antalya in Pamphylia; in 1159, he chose to return from Cilicia through the center of the plateau, by way of Laranda/Karaman and Kotiaion/Kütahya, a route which could have taken him near Ikonion.

45. On this campaign of 1158–59, see Chalandon, II, 435–56; Baldwin, "Latin States," 543–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

46. Chalandon, II, 457–59.

47. See Kinnamos, 63.

48. Augouste was perhaps an imperial estate on the Astakenos Gulf; Rhitzion was probably near Chalcedon: Ramsay, *Historical Geography*, 185–86. Possibly Manuel stayed near Constantinople, but did not enter it. He then turned south to Philadelphia/Alaşehir.

49. Dubious word.

50. Alternate translation, equally possible: "Reaching a certain village, Sarapata, called by the natives Mylonos. . . ." In the opinion of Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 1, and 341; Pt. 2, pp. 598, n. 4, 679, and 696, the name is Turkish-Greek, Mylonos or Mylon perhaps the original Greek name, Sarapata representing "Hissar-Abad," "Place-of-the-Castle." He suggests modern Sandikli (on the Glaukos/Kufi River, a northern tributary of the Maeander). The area was clearly in Turkish hands: Vryonis, *Asia Minor*, 122, 190.

51. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285.

52. Abu-Bakr: ibid., 256–57; see Kinnamos, 48, 50.

53. At first glance, the "oft-mentioned John" would seem to be John Comnenus the protosebastos, but he was a nephew of the emperor, not a relative-in-law (*gambros*): see L. Stiernon, "Notes de titulature et de prosopographie byzantines: Sébaste et gambros," *Revue des Etudes Byzantines*, 23 (1965), 222–43, esp. 223. Probably this is John Doukas, former Byzantine commander in Italy and future great heteriarch; he is identified in very similar language by Kinnamos, 260, line 24. This possible date in his career is not mentioned by Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas." John Doukas is not elsewhere called a *gambros* of the emperor, and some other individual might be meant.

54. For Phileta as a late-Byzantine name of Phaselis (near modern Tekirova), on the Lycian coast southwest of Attaleia/Antalya, see Ramsay, *Historical Geography*, table facing p. 424; Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 2,

NOTES TO BOOK IV

26. Chalandon, II, 232–33; on Kinnamos' misconception of the location of Blachernai, see above, Book II, n. 61.

27. Perhaps Simon, illegitimate son of Roger II: Chalandon, *Domination normonde*, II, 307.

28. Kilidj Arslan II, 1155–92.

29. Unknown locations, apparently in Cilicia, south of Laranda/Karaman: Ramsay, *Historical Geography*, 369, 450.

30. Chalandon, II, 434–35. Oinaion/Ünye is on the Black Sea coast; Pauraë/Bafra is on the lower Halys/Kizil.

31. According to Chalandon, II, 640–41, the text is from the liturgy of Saints Basil and John Chrysostom: "You are He Who offers and Who is offered and Who receives."

32. Chalandon, II, 640–43; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623–24.

33. Chalandon, II, 437–39; Baldwin, "Latin States," 539–41, 559–60.

34. Apparently the region of Laodikeia/Denizli: Ramsay, *Historical Geography*, 150–53, 382.

35. Kistramos and Longinias are unknown (Ramsay, *Historical Geography*, 348, 380, 382), but Anazarbos is 'Ain Zarbâ or Andvorza, an abandoned fortress sixteen miles south of Sis/Kozan. Tili or Til is modern Toprakkale, Arabic Tall-Hamdūn, on the Adana-Alexandretta railway line, just west of the pass between Cilicia and the plain of Alexandretta: J. Gottwald, "Die Burg Til im südöstlichen Kilikien," *Byzantinische Zeitschrift*, 40 (1940), 89–104 (esp. 96–97). Kinnamos seems to have disordered events slightly: the capture of Anazarbos and Tili probably followed that of Tarsus. On this campaign, see Chalandon, II, 441–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41; Baldwin, "Latin States," 543.

36. Probably John Comnenus and other captives taken in Cyprus and the Cilician wars.

37. On Reginald and Aimery of Limoges (Latin patriarch of Antioch, ca. 1139–96), see Cahen, *Syrie du nord*, 505–06; Baldwin, "Latin States," 540; Chalandon, II, 443.

38. Presumably Muḥammad (II), the Great Selchükid sultan of Persia, 1153–59: C. E. Bosworth, "The Political and Dynastic History of the Iranian World (A.D. 1000–1217)," *The Cambridge History of Iran*, V (Cambridge, Eng., 1968), 175–76.

39. The text here is corrupt; I have read *παρά* for *περί*.

40. Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148.

41. By an error of the editor the number "21" has been repeated for chapters commencing on pp. 186 and 188.

NOTES TO BOOK IV

12. On this relief force, see Chalandon, II, 363; Chalandon, *Domination normande*, II, 215–16, but by a slip he makes the Germanoi of the text into Germans instead of French. This John Angelus is probably John Doukas Angelus, son of Constantine Angelus and Manuel's aunt Theodora, but this expedition is not cited in the note on him by Polemis, *Doukai*, 87–88 (No. 40). This appearance of John, with the name Angelus, repeated in Kinnamos, 162 and 238, is omitted in his survey of references to John by Lucien Stiernon, "Les Origines du Despotat d'Epire: A propos d'un livre récent," *Revue des Etudes Byzantines*, 17 (1959), 102–17, who is thus able to write: "Nulle part JEAN, *fils* de Constantin Ange . . . ne porte le patronyme d'Ange ou de Comnène, mais celui de DOUKAS . . ." (p. 114). While the references by Kinnamos do not specify his relationship to the emperor, I know of no other John Angelus in this period, and Manuel's proclivity for using his relatives as army commanders is well known. Kinnamos doubtless calls him "Angelus" to distinguish him from the John Doukas who was commanding land forces in Italy.

13. Tonsured as a monk, the normal preparation for death.

14. The name given in the text is Polymilion; Chalandon, *Domination normande*, II, 217, identifies this as Polignano (on the east coast between Bari and Monopoli). But the village of Palagiano is close to Massafra and Mottola, the scene of Byzantine operations. Also, the fact that the Norman garrison of "Polymilion" fled to Taranto (not Monopoli or Brindisi, both still in Norman hands) suggests Palagiano, scarcely ten miles from Taranto.

15. This is a paraphrase of Procopius, *De bello gothico*, IV, 1, 11 (ed. Haury, II, 489), as Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 96, pointed out.

16. Probably a Latin from the principality of Antioch, a mercenary in Byzantine service.

17. Archilochus, Frag. 55 (Diehl).

18. Probably Alezio, between Otranto and Gallipoli.

19. Keltoi in the text: see Kinnamos, 67 and 167. The bulk of the Byzantine army consisted of Norman rebels and mercenaries, not troops sent from the empire.

20. He had done a like feat at Marathon: Herodotus, VI, 114.

21. Alexius Comnenus [Bryennios], son of Anna Comnena.

22. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 243.

23. Chalandon, *Domination normande*, II, 229.

24. Chalandon, *Domination normande*, II, 248–54; Chalandon, II, 377–81.

25. Chalandon, *Domination normande*, II, 250, thinks this an accurate account of events in Rome in the summer of 1157.

49. On Basil Tzykandeles Goudelios, see Kinnamos, 56, 72, 77.

50. Probably Géza II's *brother* Stephen, later István (Stephen) IV: Chalandon, II, 413, n. 1.

BOOK IV

1. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

2. On this sequence of embassies, and the offers made, see Chalandon, II, 343–50, esp. 344, n. 3, which examines the chronology in detail; Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 137–47.

3. On Michael Palaiologos, see Kinnamos, 70, 82. John Doukas is possibly John Doukas [Kamateros]: Polemis, *Doukai*, 127–30 (No. 99), but Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 262, considers this to be the future great heteriarch. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, see Book II, n. 48, above. See Chalandon, II, 349.

4. Robert II of Bassonville, Count of Loritello, son of Roger II's sister: Chalandon, II, 352, n. 5; Chalandon, *Domination normande*, II, 182–83. Under William I, 1154–66, Robert led the barons' opposition to the low-born chief minister, Maio or Maione of Bari.

5. This word has been added to the text by the editor.

6. Chalandon, II, 358, and Chalandon, *Domination normande*, II, 191, 204–10, dates the events narrated here and following (Kinnamos, 137–46) to late August–September 1155. See Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 149–231.

7. According to Chalandon, *Domination normande*, II, 205–06, possibly Fano, ancient Flavia Fanestris, north of Ancona. Doukas, however, was moving from Ancona to Apulia, and the now-ruined site of San Flaviano, adjacent to the present town of Giulianova, at the mouth of the Tordino River, between Ancona and Pescara, would better suit the text. According to [*Murray's*] *Handbook for Travellers in Southern Italy and Sicily*, 9th ed. (London, 1892), I, 234, San Flaviano owed its name to the body of a saint brought from Constantinople in the Middle Ages. Chalandon, II, 353, n. 4, was unable to locate this place in the directories available to him.

8. Chalandon, *Domination normande*, II, 206, believes the Byzantine force had now entered the Bassonville lands.

9. Ibid., 209.

10. Hadrian IV, 1154–59. Chalandon, *Domination normande*, II, 210–14; Chalandon, II, 358–62.

11. In the text, Masagetoi; see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 183, citing this passage.

NOTES TO BOOK III

39. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39; Chalandon, II, 426–28.

40. Chalandon, II, 408–09. Bitola in Yugoslavia is the modern center of the plain of Pelagonia. Chalandon II, 408–09, dates this incident to Manuel's 1153 stay at Pelagonia, but Kinnamos, a few lines further on, indicates that it was prior to Andronicus' first governorship in Cilicia (1152). Manuel was probably at Pelagonia in 1149 and 1150: Chalandon, II, 385, 387; see 408, n. 3, on the difficult chronology of this period.

41. Chalandon, II, 408–09; Babos, *Adalékok*, 9, gives an important correction to the text. Protosebastos was a rank in the court hierarchy (sebastokrators, protosebastoi, sebastoi, etc.), protovestiarios or chief chamberlain was an honorary position in the palace services. See Hohlweg, *Beiträge*, 34–40 (esp. 39–40).

42. Chalandon, II, 410; on the grand stratarches (an undefined, apparently honorary military title), see Hohlweg, *Beiträge*, 131.

43. This quarrel at Melangeia seemingly occurred during one of Manuel's early campaigns: he was at Melangeia in 1144 or 1145 (Kinnamos, 36), and passed close by (Pithekas) in 1146 (Kinnamos, 38). On the latter campaign, both his brother Isaac and his cousin Andronicus attended him (Kinnamos, 49, 61). Some names in the text have evidently suffered scribal corruption, and I have followed the emendations suggested by Chalandon, II, 215, n. 6. Polemis, *Doukai*, 113, n. 1, believes the John Doukas, cousin of the emperor, here mentioned, was John Doukas [Bryennios], son of Nicephorus Bryennios and Anna Comnena. But John Doukas [Kamateros] could equally well be meant, and John Doukas [Angelus] would also qualify. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 261, is unable to identify this person, but would reject John Doukas the future great heteriarch on grounds that he is not elsewhere called cousin of the emperor. John Doukas was presumably punished for raising his whip against a prince of the blood. Apparently out of pique, Isaac stole the seals. Andronicus was probably offended by the light penalty imposed on Isaac, and then infuriated by the favor showered on John Comnenus the protosebastos at Pelagonia. The incident is briefly discussed in Chalandon, II, 215.

44. This seems to have been Alexius Axouchos, son of the grand domestikos John Axouchos: see Kinnamos, 170, line 5, and Chalandon, II, 377–78.

45. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

46. The dates can only be approximate, but Andronicus was in prison nine years and fled to Russia in autumn 1164: Chalandon, II, 220–21, 410–11, 482, 483, n. 2.

47. Perhaps Svilajnac on the Morava: Chalandon, II, 412. On this campaign, see Chalandon, II, 411–13; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81–82.

48. Borić ruled from before 1154 to 1163.

seven individuals; she is not, however, ready to state which of Manuel's close r
atives this particular individual was.

25. Donald M. Nicol, *The Byzantine Family of Kantakouzenos (Cantacuzenu ca. 1100–1460: A Genealogical and Prosopographical Study*, Dumbarton Oa Studies, XI (Washington, D.C., 1968), 4 (No. 2).

26. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 85. Bakchinos' identity is disputed: I was not the grand župan of Serbia proper (who was Pervoslav Uroš II), but prob bly was the leader of the Hungarian contingent: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I 85; Chalandon, II, 390, n. 2; Jireček, *Serben*, 248, n. 2.

27. Just as Géza II and the Serbs were allied, so the Byzantines were linked t Vladimirko, prince of Galicia (1130–52): George Vernadsky, *Kievan Russia*, History of Russia, II (New Haven, 1948), 217–18; Chalandon, II, 402–05; C Vernadsky, "Relations byzantino-russes au XIIe siècle," *Byzantion*, 4 (1927/28 273–76. Géza had just defeated and made peace with Vladimirko: Chalandon, I 401–03.

28. Beloš or Bela was a son of Uroš I of Serbia (Rascia or Raška), and Géza II' maternal uncle: see above, n. 17, and Chalandon, II, 399, 405–07.

29. Chalandon, II, 406, suggests the mountains along the Timtş, now in wester Romania.

30. He was a son of king Kálmán: see Appendix, and Chalandon, II, 62–63, 401 406–07. His son was Constantine Kalamanos, who played a prominent role i Manuel's later years.

31. Maria, often called "Porphyrogenita," "Born-in-the-Purple," was born i March 1152: Chalandon, II, 212. On this Hungarian campaign, see Chalandon, II 403–07; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81.

32. Chalandon, *Domination normande*, II, 188–89; Chalandon, II, 347–48.

33. On this campaign, see Chalandon, II, 407–08; and, on Kinnamos' chronolog ical slips, 408, n. 3.

34. The Byzantine year ended August 31; these events then fell in the summer o 1154: Chalandon, II, 348.

35. Chalandon, II, 408–09.

36. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39: this was Ṭoros (or Thoros) II. Chalandon, II, 418–29.

37. Marshall W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I. 1143–1174," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 532–33.

38. Baldwin, "Latin States," 536; Chalandon, II, 426–27. To become a monk before dying was normal for a Byzantine.

NOTES TO BOOK III

13. Chalandon, II, 384–86, believes that on his return from Kerkyra (autumn 1149), Manuel marched from Valona/Avlona/Vlonë through Pelagonia to the Vardar and Morava valleys; Rhason/Ražanj is near the Morava, north of Niš. Constantin Jireček, *Geschichte der Serben*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. I, No. 38, Vol. I (Gotha, 1911), 246–47, has little to contribute on these campaigns.

14. Manuel's uncle by marriage, the progenitor of the Angeli dynasty.

15. Galitza was allegedly at the mouth of the Morava: K. v. Spruner, ed., *Spruner-Menke Hand-Atlas für die Geschichte des Mittelalters und der neueren Zeit*, 3rd ed., ed. Th. Menke (Gotha, 1880), Map No. 84; Jireček, *Serben*, 247, n. 3, however, suggests a location in south-central Yugoslavia, consistent with his identification of Rhason as Ras (modern Novi Pazar), and Chalandon, II, 385, n. 4, places Galitza on Mt. Golija, north of Novi Pazar. Nikava is unidentified; Chalandon, II, 385 and n. 4, thinks it the Nišava valley. That the entire campaign was in the Nišava and Morava valleys seems probable.

16. Identification uncertain: Chalandon, II, 388, n. 1, cites several possibilities. On this campaign, see Chalandon, II, 387–91. Moravcsik's opinion (*Byzantium and the Magyars*, 80) that Kinnamos participated in this campaign is scarcely acceptable; he could have been only six or seven years old at the time.

17. Géza II, 1141–62. Kinnamos is confused about the genealogy: Uroš I of Serbia's daughter Helen married Béla II the Blind of Hungary; her brother Beloš or Bela became very influential at the Hungarian court; Chalandon, II, 74–75, 384–85, 399.

18. See above, Book II, n. 33.

19. Evidently a scribal error for the Drymon/Drina: Chalandon, II, 389, n. 1.

20. An upper tributary of the Drina.

21. Perhaps Sjenica, on the Uvac River, west of Novi Pazar: Chalandon, II, 389.

22. The Chalisioi were probably refugee Jewish Khazars: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 338–39; D. M. Dunlop, "The Khazars," *The Dark Ages: Jews in Christian Europe 711–1096*, ed. Cecil Roth and I. H. Levine, The World History of the Jewish People, Ser. II, Vol. II (n.p. [New Brunswick, N.J.], 1966), 356.

23. Dj. Sp. Radojičić, "Kinamov Γουρδέσης," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 1 (1963), 255–59, provides documentary and inscriptional evidence for this person.

24. Allegedly John Doukas Kamateros: Demetrios I. Polemis, *The Doukai: A Contribution to Byzantine Prosopography*, University of London Historical Studies, XXII (London, 1968), 127–30 (No. 99). P. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," *Byzantion*, 42 (1972), 259–65, suggests that Polemis has conflated six or

namos' allegation that Conrad pledged to return "Italy" (i.e., Apulia and Calabria), once conquered, to Manuel. Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 90–93, is dubious. It was at this time that Henry of Austria wedded the emperor's niece, Theodora; see Kinnamos, 236, 261. On this Theodora's identity, see my *Byzantium Confronts the West*, 34, n. 9 (p. 322–23).

69. Berry, "Second Crusade," 511; Chalandon, II, 330–32.

70. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

71. Actually, sons of Henry V's sister Agnes, who married duke Frederick of Swabia.

72. Lothar II, 1125–37.

BOOK III

1. Roger II was count of Sicily from 1105.

2. Duke William of Apulia, 1111–27, was a grandson of Robert Guiscard. The story of a loan and mortgage on Apulia is a fiction; William died without an heir, and Roger II speedily moved to appropriate his domain: Chalandon, *Domination normande*, I, 321–26, 380–89.

3. Roger II was opposed by both Pope Honorius II, 1124–30, and Innocent II, 1130–43. Roger supported the anti-pope Anacletus II, 1130–38.

4. See Chalandon, *Domination normande*, II, 69–70.

5. Roger II had first been recognized as king by the anti-pope Anacletus II in 1130. On the capture of Pope Innocent II in 1139 and his subsequent acceptance of Roger as king, see Chalandon, *Domination normande*, II, 89–91.

6. On this exchange, see Chalandon, *Domination normande*, II, 129.

7. Ibid., II, 135–37; Chalandon, II, 317–20.

8. Perhaps modern Zimnicea, Romania: Chalandon, II, 324, n. 2; on this campaign, see 323–25. In regard to this place, P. Ş. Năsturel, "Valaques, Coumans et Byzantines sous le règne de Manuel Comnène," *Byzantina*, I (1969), 169–75, suggests the late-medieval place-name Holevnic (modern Turnu-Măgurele).

9. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 305–06; for another interpretation, see Chalandon, II, 325, n. 1. Năsturel, "Valaques," 175, identifies the site as the hill of Măgura Aranului, near the Teleorman River.

10. The citadel at Kerkyra is a rocky peninsula. On the siege, see Chalandon, II, 325–33; Chalandon, *Domination normande*, II, 137–45.

11. Pervoslav Uroš II, ca. 1131–60 (briefly dispossesssed ca. 1155).

12. Chalandon, II, 333–34.

NOTES TO BOOK II

54. See Kinnamos, 56, and n. 35 above.

55. Near modern Bahşayiş in Thrace, west of Istanbul: Constantin Jos. Jireček, *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe: Eine historische-geographische Studie* (Prague, 1877; repr. Amsterdam, 1967), 102.

56. On the park and palace of the Outer Philopation, see R. Janin, *Constantinople byzantine: Développement urbain et répertoire topographique*, 2nd ed., Archives de l'Orient chrétien, 4A (Paris, 1964), 143–45, 452–53. The statement by Kinnamos involves punning etymologies; "*philopatein*" could mean "enjoy frequenting;" "*phyllopatein*," "walk on leaves."

57. Janin, *Constantinople byzantine*, 465–66; this passage is further evidence for the existence of a bridge over the Golden Horn outside the city wall, just west of Blachernai, in the modern Eyüp district: see my *Byzantium Confronts the West*, 237–38 and nn.

58. A section of Üsküdar (Scutari): Janin, *Constantinople byzantine*, 495–96.

59. Commander of the Varangian Guard: Hohlweg, *Beiträge*, 49–50.

60. Identity uncertain: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 181; Vryonis, *Asia Minor*, 121, 188.

61. Kinnamos always regards the Blachernai Palace (situated at the western extremity of Constantinople) as south of the city: Kinnamos, 171–72, 207. A number of famous relics were kept at Blachernai: Janin, *Eglises et monastères*, 169–79.

62. Franco-Byzantine relations were actually more strained than Kinnamos states: Berry, "Second Crusade," 489–92.

63. Patriarch Nicholas IV Mouzalon, Dec. 1147–Mar./Apr. 1151.

64. Theodotos II, elected between Mar./Apr. 1151 and Apr. 1152; died between Oct. 1153 and Oct. 1154, having held office two-and-a-half years.

65. Vladislav II of Bohemia, 1140–74 (but he was not crowned king until 1158), and Boleslav IV of Poland, 1146–73.

66. L. Oeconomos, "Remarques sur trois passages de trois historiens grecs du Moyen Age," *Byzantion*, 20 (1950), 180–82, and H. Grégoire's note on p. 183; I have adopted Grégoire's suggestion.

67. Actually, only to Ephesos at this time (Dec. 1147): Berry, "Second Crusade," 497–98. Conrad's actual reason for temporarily returning to Constantinople was illness.

68. On Conrad's meeting with Manuel near Thessalonica, and his subsequent second stay in Constantinople, see Chalandon, II, 326–28; Berry, "Second Crusade," 510–11. The purpose of the treaty alluded to by Kinnamos was a joint attack on Roger II of Sicily. Chalandon, II, 326–27 (esp. 327, n. 2) accepts Kin-

NOTES TO BOOK II

Cites and Bishoprics (see above, Book I, n. 3), I, Pt. 2, 454, and map facing p. 353.

43. Actually, both the name and the site were older: it is on the north coast of Bithynia, just outside the Astakenos Gulf: Ramsay, *Historical Geography*, 137; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Dc.

44. Kosmas II Attikos was patriarch of Constantinople from April 1146 to 26 February 1147.

45. Nephon was thus propagating a Bogomil dualism, whereby the Divinity of the Old Testament was alleged to be the Evil Principle: Hans-Georg Beck, *Kirche und theologische Literatur im byzantinischen Reich*, Handbuch der Altertumswissenschaft, Abt. XII, Teil II, Band I (Munich, 1959), 661; D. Obolensky, *The Bogomils* (Oxford, 1948), 221–22.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285; on the fight at Kalograia, see Kinnamos, 40. On these negotiations, see Chalandon, II, 257–58.

47. On the Second Crusade and the Byzantine Empire, see Chalandon, II, 262–315; Virginia G. Berry, "The Second Crusade," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 463–503; on western plans to seize Constantinople, see Sibyll Kindlimann, *Die Eroberung von Konstantinopel als politische Forderung des Westens im Hochmittelalter: Studien zur Entwicklung der Idee eines lateinischen Kaiserreichs in Byzanz*, Geist und Werk der Zeiten, 20 (Zurich, 1969), esp. 149–68.

48. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, who became a leading diplomat in John II's and Manuel's service, see Chalandon, II, 170, 226–27, 270, and index; Chalandon, *Domination normande*, II, 27–29, and index; Paolo Lamma, *Comneni e Staufer: Ricerche sui rapporti fra Bisanzio e l'occidente nel secolo XII*, Istituto storico italiano per il Medio Evo, Studi storici, 14/18 and 22/25, 2 vols. (Rome, 1955–57), indices of each vol., s.v. "Gravina."

49. An exaggeration: Berry ventures no estimate, but Steven Runciman, *A History of the Crusades*, II (Cambridge, Eng., 1952), 259, suggests "nearly twenty thousand" for the German force.

50. This is a literary usage, in no way reflecting official nomenclature.

51. The *chartoularios* was chief of the archive office in the treasury department Bréhier, *Monde byzantin*, II, 257. This individual would seem to have been the *chartoularios* Basil Tzintziloukes: Chalandon, II, 196, 273, n. 3. Michael Palaiologos was a cousin of Manuel, and later commanded a force in Italy: Chalandon, II, 218–19.

52. See above, Kinnamos, 33.

53. The future Frederick I Barbarossa; Kinnamos' estimate of him is based on his later prolonged opposition to Manuel and the Byzantine Empire.

30. Perhaps a brother of Constantine Angelus, husband of Manuel's aunt Theodora: G. Ostrogorsky, "Der Aufstieg des Geschlechts der Angeloi," *Zur byzantinische Geschichte: Ausgewählte kleine Schriften* (Darmstadt, 1973), 168–69.

31. Commander of the armies, second only to the emperor. John Axouchos was a former Turkish captive reared alongside John II, whose trusted minister he became. Axouchos was a leading supporter of Manuel in the difficult outset of his reign; he was chief of Manuel's advance representatives to the capital, and by his ability bloodlessly suppressed the conspiracies (real or potential) of Manuel's brother Isaac and of the caesar John Roger.

32. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 256–57.

33. John Comnenus was eldest son of Manuel's older brother Andronicus; he was a favorite of Manuel, and is often mentioned by Kinnamos. The title of protosebastos was one of the highest in the Comnenian scheme: Hohlweg, *Beiträge*, 36–38.

34. The text of the sentence is confused; I have followed the editor's suggestion.

35. Probably Basil Tzikandyles Goudelios: Chalandon, II, 648.

36. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 331, has no suggestion.

37. On the Gabras family, see Claude Cahen, "Une Famille byzantine au service des Seldjuqides d'Asie Mineure," *Polychronion: Festschrift Franz Dölger zum 75. Geburtstag*, ed. Peter Wirth (Heidelberg, 1966), 145–49; Anthony Bryer, "A Byzantine Family: The Gabrades, *c.* 979–*c.* 1653," *University of Birmingham Historical Journal*, 12 (1970), 164–87 (Bryer's No. 6, pp. 179–80); Vryonis, *Asia Minor*, 231–32.

38. Literally, "Rhomaïs," evidently a rhetorical variant of "R(h)omania," which by the 12th cent. was in official Byzantine use to designate the empire: Robert Lee Wolff, "Romania: The Latin Empire of Constantinople," *Speculum*, 23 (1948), 5–8.

39. This is the correct reading of the manuscript: Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. The ancient name was Lake Karalis, of which "Skleros" is thought to have been a medieval corruption; it is now Beyşehir Gölü: Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389. Rather than return the way he had approached Ikonion, Manuel withdrew nearly due west, through the Ala Dağ, and made for the upper valley of the Maeander.

40. On this important evidence of Turkomen pressure westward, into the Maeander valley, see Vryonis, *Asia Minor*, 121, 147, 189; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 259, has no suggestion to identify Rama(n).

41. Son of John II's brother Isaac the sebastokrator: see above, n. 4.

42. This clearly refers to the region from Apameia/Dinar to Soublaion/Choma/Homa and further west: Ramsey, *Historical Geography*, 79, 434; Ramsay,

18. The Kaystros or Cayster valley (modern Küçükmenderes): Ramsay, *Historical Geography*, 130, and map facing p. 104.

19. The second son of Gümüshtigin Ghāzi ibn Dānishmend, and emir of Sebasteia/Sivas, 1140/42–64: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 677–78; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 96–97, 100–01.

20. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 337.

21. Neither Ramsay, *Historical Geography*, 359, nor Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 69, have any identification to suggest.

22. Adrianople or Hadrianopolis was on the route between Philomilion and Ikonion, south of modern Cavuşçugölü: Ramsay, *Historical Geography*, 140; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Fe. Ramsay, *Historical Geography*, 359, identifies Gaïta as Aghait, now Akait, southeast of Akşehir: this suggests that Kinnamos has confused the sequence of stopping places.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359; the location is apparently a pass through the Ala Dağ, west of Ikonion/Konya. Kaballa is possibly an abandoned fort atop Takali Dağ (also called Gevele Dağ) eight miles west-north-west of Konya; see notes to Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Gf. Medieval Ikonion was on an oval mound, perhaps a third of a mile long and seventy-five feet high, in an otherwise level plain.

24. An important domestic official: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148. Chouroup is not discussed by Moravcsik, but the name is possibly Turkish.

25. Not word of the Second Crusade, but news of the Turkish allies' gathering to the sultan's banner probably turned Manuel back: Chalandon, II, 254–55.

26. On the hypothetical family of rulers, see Franz Dölger, "Die 'Familie der Könige' im Mittelalter," *Byzanz und die europäische Staatenwelt* (Ettal, 1953), 34–69.

27. Evidently Muḥammad, 1134/35–1140/42. Since the eleventh century the Dānishmendid family of Cappadocia had been the chief Turkish rivals of the Seljuks established at Ikonion. After Muḥammad's death, however, the principality was divided between his son Dhū-n-Nūn at Kaisareia/Kayseri (1140/42–64), and Muḥammad's two brothers, Yaghi-Basan at Sebasteia/Sivas (1140/42–64) and 'Ain-ad-Daulah at Melitene/Malatya (1140/42–52). These princes and their sons became pawns in power struggles between the Seljuks of Ikonion, the Byzantines, and Nūr-ad-Din. See Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 91–110.

28. Not precisely identified, but one of several passes west of Ikonion: Ramsay, *Historical Geography*, 359.

29. These might have included Manuel Anemas (married to Theodora), Stephen Kontostephanos (Anna), and Theodore Batatzes (Eudokia); probably John Roger was still in custody, although he was at some date restored to favor.

6. Chalandon, II, 239–41; Nicholson, "Latin States," 445–47.

7. Evidently a Turk in Byzantine service; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 257.

8. A classical byword for easy spoil: Liddell-Scott-Jones, s.v.

9. The Byzantine term is λίζιος, adapted from Old French *liege*; it is used by Anna Comnena and later authors to designate western Europeans who had become imperial vassals. See Jadran Ferluga, "La Ligesse dans l'Empire byzantin: Contribution à l'étude de la féodalité à Byzance," *Zbornik radova Vizantološkog Instituta*, 7 (1961), 97–123.

10. Kinnamos' chronology is here somewhat erroneous. The negotiations for Manuel's engagement were managed by John II between 1140 and 1142; seemingly it was in the latter year that Bertha of Sulzbach (renamed Irene, in accord with Byzantine custom) arrived in Constantinople. She was sister-in-law to the German emperor Conrad III; her birth evidently made her seem unsuitable to Manuel when he unexpectedly became emperor, and only pressure from Conrad and need for alliance with Germany brought about the marriage, in January 1146: Chalandon, II, 169–72, 209–12, 259–62.

11 That is, the death (1142) of co-emperor Alexius, which caused his wife to enter a convent.

12. The date of this expedition to re-fortify the Bithynian frontiers is vague, but prior to Manuel's attack on Ikonion in 1146: Chalandon, II, 247–48; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 187–88. On Melangeia-Malagina, see Ramsay, *Historical Geography*, 202–09, and map facing p. 178.

13. John Roger was a Norman of unknown background and lineage, who married John II's eldest daughter, Maria. For his attempted coup in 1143 he recruited prince Robert of Capua, who was in Constantinople as an envoy of Conrad III: Chalandon, II, 11–12, 197–98; Chalandon, *Domination normande* (see above, Introduction, n. 36), II, 126–29 (I have adopted the textual correction suggested on p. 127, n. 4).

14. The fort of Lopadion, where the modern Orhaneli River leaves the Apolyont Gölü, figures repeatedly in 12th-cent. history: Ramsay, *Historical Geography*, 160 (Uluabat is the modern spelling of Ulubad).

15. Prakana, in Cilicia Tracheia, lay almost due west of Seleukeia/Silifke: Ramsay, *Historical Geography*, 364, and map facing p. 330, is to be corrected by W. M. Calder and George E. Bean, *A Classical Map of Asia Minor*, published by the British Instiute of Archaeology at Ankara (London, 1958), reference square Hg.

16. Apparently located between Melangeia and Nikaia/Iznik: Ramsay, *Historical Geography*, 201–02; Vryonis, *Asia Minor*, 21, 31, and map facing p. 14.

17. Evidently the road to Kotiaion/Kütahya; the route led to Akroenos/Afyonkarahisar, Philomilion/Akşehir, and Ikonion/Konya: Ramsay, *Historical Geography*, 199. On this campaign against Ikonion (1146), see Chalandon, II, 248–57.

valric culture. The discovery of the true circumstances, from several contemporary rhetorical compositions, is the achievement of Robert Browning, "The Death of John II Comnenus," *Byzantion*, 31 (1961), 228–35.

Note that John II actually reigned 24 years, 7 months, 25 days (15 Aug. 1118–8 Apr. 1143): Kazhdan, "Eshche raz," 23.

BOOK II

1. Antioch had been regained by the Byzantines from the Arabs in 969; the Turks took it in 1085 from Philaretos, once a lieutenant of Romanus IV Diogenes; he had established himself as an independent ruler after Romanus' downfall. When the First Crusade seized it in 1098, Bohemond refused to acknowledge Byzantine overlordship. Alexius I had vainly struggled to achieve this; John II had in 1138 momentarily imposed himself, when Raymond did homage: Chalandon, II, 119–50, 183–90; Cahen, *Syrie du nord*, 357–68.

2. On the route (through Attaleia and Chonai/Honaz), see Chalandon, II, 198–99. On dromonds, triremes, and biremes, repeatedly mentioned by Kinnamos, see Hélène Ahrweiler, *Byzance et la Mer: La Marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VIIe–XVe siècles*, Bibliothèque byzantine, Etudes, 5 (Paris, 1966), 410–18, esp. 418: "Le bateau à voiles est en effet l'une des unités principales des flottes impériales du XIIe siècle. Le tonnage des bâtiments byzantins s'est alors considérablement accru, les unités de guerre sont maintenant des bâtiments ronds et lourds, ils continuent cependant à être désignés comme *dromons* et surtout comme *chélandia*, terms indiquant à ce moment le navire de guerre en général sans aucune précision spécifique."

3. The senate was then an advisory body of officials.

4. This Isaac Comnenus the sebastokrator, after initially enjoying the trust and confidence of his brother John II, turned against him; from 1130 to 1138 he wandered the Near East, striving to create a league against John. His exile at Herakleia Pontika apparently dates from soon after his return and reconciliation with John. In 1140, during the siege of Nea Kaisareia, his son John went over to the Turks, turned Muslim, and married a daughter of the sultan of Ikonion. Isaac's other son, Andronicus, continued the family tradition of opposition to the ruling Comneni. He figures largely in the histories of Kinnamos and Nicetas Choniates; in 1182 he effectively deposed Manuel's son Alexius II and ruled as Andronicus I. From him descend the so-called Grand Comneni, emperors of Trebizond. Chalandon, II, 17–18, 83–85, 152–53, 179–80, 195, etc.

5. Patriarch Leo Styppes had died in Jan. 1143; Manuel's first patriarch, Michael II Kourkouas Oxites, held office from July 1143 to March 1146: V. Grumel, *La Chronologie*, Traité d'études byzantines, I (Paris, 1958), 436; Chalandon, II, 196, 199–200; Peter Wirth, "Leon Styppes oder Styppeiotes?" *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 254–55.

by king Fulk of Jerusalem to marry Constance: Nicholson, "Latin States," 434, 436–38. Raymond of Poitou was prince of Antioch from 1136 to 1149.

21. This campaign and the siege of Shaizar in 1138 mark a high point of Byzantine intervention in the Crusading States; Kinnamos exaggerates the extent of John's success, especially in the siege: Chalandon, II, 130–46; Nicholson, "Latin States," 439–40; Cahen, *Syrie du nord,* 359–63; Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 252.

22. Chalandon, II, 175–79; Vryonis, *Asia Minor,* 119–20, considers this failure the beginning of the end for the Comnenian reconquest of Anatolia.

23. Ramsay, *Historical Geography,* 359, 389; I have corrected the MS reading "Pasgouse" on the basis of Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. On Sozopolis/Uluborlu, see Kinnamos, 6; on the campaign, see Chalandon, II, 180–83; Vryonis, *Asia Minor,* 120, 215.

24. An exaggeration; the distance is "over sixty miles" by road: Ramsay, *Historical Geography,* 389.

25. Alexius was born in 1106, crowned co-emperor in 1122 (after John's victory over the Petchenegs), and died in 1142; he married a Russian princess, and left a daughter: Chalandon, II, 12–13. Alexius' portrait, as co-emperor, survives in the south gallery of Hagia Sophia: Thomas Whittemore, *The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul: Third Preliminary Report, Work Done in 1935–1938: The Imperial Portraits of the South Gallery* (Boston, 1942), 7, 26–28, and plate facing p. 21.

26. Purple boots were in Byzantine usage the prerogative and special mark of the emperor; a sebastokrator (Manuel's rank) was entitled to blue boots: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin,* L'évolution de l'humanité, XXXII^{bis} (Paris, 1949), II, 12.

27. The co-emperor Alexius died in 1142 at Attaleia; Andronicus the sebastokrator, the second son, died while taking his brother's body back to Constantinople by sea; he was accompanied on this mission by the third brother, Isaac the sebastokrator, who remained in the capital: Chalandon, II, 12–14, 182–83.

28. This word, evidently signifying "membrane" or something similar, is not found in the lexica of Du Cange, Liddell-Scott-Jones, Sophocles, or Demetrakos.

29. The ancient custom of reclining while dining continued among the Byzantines: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin,* L'évolution de l'humanité, XXXII^{ter} (Paris, 1950), III, 52.

30. The actual circumstances of John II's death were quite different: he was apparently murdered, possibly by the Latin mercenaries in the army, who disliked his aggressive policy toward Antioch and the other Crusading States. They favored Manuel, who was known to be partial to Westerners and to Western chi-

8. So Chalandon, II, 51, dates these engagements.

9. Kinnamos is confused about the genealogy of the Hungarian kings. See table in the Appendix, based on that in Gyula Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, trans. Mihály Szegedy-Maszák, Miklós Szenczi, and Zsigmond Ritoók (Amsterdam, 1970). Álmos and István II were uncle and nephew; neither descended from László I.

On the text of this passage, see Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

10. R. Janin, *Les Églises et les monastères*, La Géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin, Part I, Tome III (Paris, 1953), 529–38 (modern Zeyrek Kilise Cami).

11. Located on the Danube, three miles northwest of Belgrade; modern Yugoslav Zemun appears in Kinnamos as Zeugme or Zeugminon, in Nicetas, *Hist.*, 25, as Zeugminon, in Hungarian as Zimony, and in German as Semlin. See Jovanka Kalić, "Zemun u XII veku," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 13 (1971), 27–56 (esp. 32–50).

12. Chalandon, II, 56–62; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 78–79.

13. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 59, 158.

14. On this campaign, see Chalandon, II, 81–87; Claude Cahen, "The Turks in Iran and Anatolia Before the Mongol Invasions," *The Later Crusades, 1189–1311*, ed. Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, II, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 677; Vryonis, *Asia Minor*, 119, 162.

15. Gümüshtigin Ghāzī (ca. 1105–34/35), leader of the Dānishmendid dynasty: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 676; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 94–95; Chalandon, II, 87–89.

16. Mas'ūd, 1116–55, of the Seljuk (Selchük) dynasty, opponents of the Dānishmendids.

17. Apparently the valley of the Rhyndakos, the modern Orhaneli River.

18. Leon or Levon I, 1129–37: Chalandon, II, 107–12; Sirarpie Der Nersessian, "The Kingdom of Cilician Armenia," *The Later Crusades* (see above, n. 14), 636–37.

19. Bohemond II, 1126–30: Chalandon, II, 121–39; Robert L. Nicholson, "The Growth of the Latin States, 1118–1144," *The First Hundred Years*, ed. Marshall W. Baldwin, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, I, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 431–32, 436–39; Claude Cahen, *La Syrie du nord à l'époque des croisades et la Principauté franque d'Antioche*, Institut français de Damas, Bibliothèque orientale, I (Paris, 1940), 349–50, 357–61.

20. This is a fiction of Kinnamos; Raymond of Poitou was purposely summoned

NOTES TO BOOK I

BOOK I

1. Nicephorus Bryennios, Alexius I's son-in-law, commenced a biography of him; it was revised and completed by his wife, Anna Comnena.

2. Moravcsik, *Byzantinoturcica* (see above, Introduction, n. 4), II, 70–71. Ἰωάννης should evidently be corrected to Ἰωάννην.

3. Moravcsik, "Συμβολαί" (see above, Introduction, n. 52), 295. On this campaign, see Chalandon, II (see above, Introduction, n. 20), 46; Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071–1330*, trans. J. Jones-Williams (New York, 1968), 92–93; Speros Vryonis, Jr., *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh Through the Fifteenth Century*, Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies, U.C.L.A., No. 4 (Berkeley, Calif., 1971), 117–19. On Laodikeia, see W. M. Ramsay, *The Historical Geography of Asia Minor*, Royal Geographical Society, Supplementary Papers, IV (London, 1890), 134–35; W. M. Ramsay, *The Cities and Bishoprics of Phrygia: Being an Essay of the Local History of Phrygia from the Earliest Times to the Turkish Conquest* (Oxford, 1895–97), I, Pt. 1, 32–71; on the Kapros River, 35: "the river of Serai-Keui," i.e., Sarayköy, but recent maps call it the Kadiköy Dere.

4. On Sozopolis, see Ramsay, *Historical Geography*, 400–01; Vryonis, *Asia Minor*, 154–68.

5. An unknown location near Attaleia/Antalya: Ramsay, *Historical Geography*, 381, 420; Peter Wirth, "Zur asiatischen Toponymie im Geschichtswerk des Johannes Kinnamos," *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 251–52.

6. A Turkic people who had occupied much of the Ukraine, Moldavia, and Wallachia since the 10th cent. In 1091 they had been severely defeated by Alexius I, acting in cooperation with the Cumans (Polovtzi), who subsequently occupied the same regions: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 87–90; Constantine Porphyrogennetos, *De administrando imperio*, Vol. II, Commentary, ed. R. J. H. Jenkins (London, 1962), 12–14, 142–45. On this campaign, 1121–22, see Chalandon, II, 48–51.

7. On the Anglo-Saxons, who made up the chief part of the Varangian Guard from early in Alexius I's reign, see A. A. Vasiliev, "The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century," *Annales de l'Institut Kondakov (Seminarium Kondakovianum)*, 9 (1937), 39–70; Richard M. Dawkins, "The Later History of the Varangian Guard: Some Notes," *Journal of Roman Studies*, 37 (1947), 39–46 (see rev. by V. Laurent, *Revue des Etudes Byzantines*, 6 [1948], 114); Armin Hohlweg, *Beiträge zur Verwaltungsgeschichte des oströmischen Reiches unter den Komnenen*, diss. Munich, 1962, Miscellanea byzantina monacensia, 1 (Munich, 1965), 46–50.

NOTES TO INTRODUCTION

Du Cange's edition, Paris, 1670, in the Paris Corpus of Byzantine historians, was reprinted in Venice in 1729 in the Venice Corpus. Meineke's edition (see n. 1, above) was reprinted in J.-P. Migne, ed., *Patrologiae cursus completus*, Series graeca, Vol. 133 (Paris, 1864), col. 309–677. Fritz Hörmann, *Beiträge zur Syntax des Johannes Kinnamos*, diss. Munich, 1937 (Munich, 1938), discusses Kinnamos' grammar as a prelude to what proved an abortive new edition.

Even before Tollius' edition, the existence of Kinnamos' work was known; the title page of P. Poussines' edition of Anna Comnena reads in part as follows: *Annae Comnenae Porphyrogenitae Caesarissae Alexias . . . Notae mox opportunius edentur, unà cum Sinnamo Continuatore Annae* . . . (Paris, 1651), and on folio T. ij[r] appeared the statement, "Hanc Alexiadem continuauit *Ioannes Sinnamus Regius Grammaticus;* quae nunc lucem aspexit e Codice Vaticano 319. cum Versione & Notis P. Possini." The projected publication was evidently forestalled by the appearance of Tollius' text.

There is a general, rather uncritical study of Kinnamos as a historian by M. M. Freĭdenberg, "Trud Ioanna Kinnama kak istoricheskiĭ istochnik," *Vizantiĭskiĭ Vremennik*, 16 (1959), 29–51; the bulk of it (pp. 30–47) analyzes Kinnamos' account of Byzantine relations with the Slavic states, Hungary, and Western Europe (except for the Italian cities); pp. 47–50 relate to Kinnamos' interests in military affairs. Peter Wirth, "Zur Frage nach dem authentischen Titel von Johannes Kinnamos' Geschichtswerk," *Byzantion*, 41 (1971), 375–77, points out that, in addition to the lengthy title given at the beginning of the MS (Kinnamos, 3), there are the titles given to the only two books attested by the manuscript, "Histories" and "Roman History." The long title, he thinks, might go back only to a scribe or epitomator, but which of the two other names Kinnamos applied to his whole work remains unknown.

New editions of Kinnamos have repeatedly been projected, most recently by B. Schartau, in XIV[e] Congrès international des études byzantines, Bucarest, 6–12 September 1971, *Résumés—Communications* (Bucharest, 1971), 196–98, and by P. Wirth. I have been privileged by some communications from Dr. Wirth.

Since these notes were composed, a French translation of Kinnamos has been published: Jean Kinnamos, *Chronique*, trans. J[acqueline] Rosenblum, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines de Nice, 10 (n.p. [Paris], 1972). The translation is occasionally defective: e.g., in Book I, Ch. 1 (Kinnamos, 4–5), John Comnenus is made out to have rebelled against Nicephorus Botaneiates, and the last sentence in the chapter has been misunderstood (Rosenblum, p. 18). The annotation is incomplete and often inaccurate: Laodikeia on the Lykos, mentioned in Book I, Ch. 2, is identified as "Lattakieh" (Rosenblum, p. 199), a mistake for Syrian Laodikeia, now Latakia. Mlle Rosenblum's introduction takes a different view of Kinnamos' trustworthiness from the one expressed here (Rosenblum, pp. 7–9). See the review by D. Stiernon, *Revue des études byzantines*, 32 (1974), 407–09.

NOTES TO INTRODUCTION

48. For the view that the existing Kinnamos text is an abridgment, see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber,* 80–84, who originated the hypothesis; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur,* 279–80; Chalandon, II, xiv–xv. The opposite view was put forward (I think successfully) by V. Grecu, "Nicétas Choniatès a-t-il connu l'Histoire de Jean Cinnamos?" *Revue des Etudes Byzantines,* 7 (1949), 202–03; Moravcsik, *Byzantinoturcica,* I, 325, states both views and leaves the question open. Epitomes exist for Anna Comnena's *Alexiad* (see edition by Leib, I, clxxi–clxxv), and for Nicetas Choniates' *History:* the B version partially published at the base of the text of the Bonn edition, and the simplified version by [Theodore Scutariotes,] in K. N. Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη (*Bibliotheca graeca medii aevi*), VII (Venice and Paris, 1894). Leib, I, clxxiv, notes that Anna Comnena's epitomator made senseless excisions which destroy the meaning of the text; such is never the case in Kinnamos' history.

49. Nicetas, *Hist.,* 7.

50. Grecu, "Nicétas Choniatès," 194–204; A. P. Kazhdan, "Eshche raz o Kinname i Nikite Khoniate," *Byzantinoslavica,* 24 (1963), 4–31, which is a detailed comparison of the two authors' treatment of the reign of John II (pp. 6–23), and a brief review of some aspects of Manuel's reign (pp. 23–27).

51. Psellos, *Chronographie,* ed. Renauld, I (Paris, 1926), lxi–lxii; Anna Comnena, *Alexiad,* ed. Leib, I, clxiii–clxxi.

52. The 13th-cent. manuscript of Kinnamos is designated *Vaticanus graecus* 163 (fol. 221r–268v); for its being in Constantinople in 1453, see the marginal note published by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber,* 101–02. The best discussion of the history of the text, with a stemma of manuscripts and editions, is Gyula Moravcsik, "Συμβολαὶ εἰς τὴν χειρόγραφον παράδοσιν τῆς Ἐπιτομῆς Ἰωάννου τοῦ Κιννάμου," in his *Studies Byzantina* (Amsterdam, 1967), 293–96. The variants from *Vat. gr.* 163 for the sections of Kinnamos touching on Hungarian affairs were published by Ferenc Babos, *Adalékok Kinnamos Szövegtörténetéhez: Symbolae ad historiam textus Cinnami,* Magyar-görök Tanulmánok: Οὐγγροελληνικαὶ μελέται, 26 (Budapest, 1944), 6–13, and have been utilized for the present translation. The first edition is: Ioannis Cinnami, *De Rebus Gestis Imperat. Constantinop. Ioannis & Manuelis, Comnenorum Historiar. Libri IV,* Cornelius Tollius, Primus edidit, vertit, castigavit, Trajecti ad Rhenum [i.e., Utrecht], 1652; note that this edition was in four books (Books II, III, and IV begin where the present Books II, III, and IV do, so that the last book is extremely long). A Latin translation accompanied it, but a new one was made by Du Cange, and it is essentially his translation which is given in the Bonn edition; Du Cange divided the text into six books, the Bonn editor, into seven, but the divisions are not at the same points. The MS gives only two books, the modern Book I (John's reign), and the modern Book II as the entire remainder (Manuel's reign), but does have a paragraph mark or an ornamental stripe at the points where the Bonn editor's other books commence (Neumann, *Griechische Geschichtschreiber,* 82–84).

NOTES TO INTRODUCTION

38. Kinnamos, 30, 58–59, 67–68, 76–80, 172–75, and many other places. On the question of the genuineness of the documents quoted, see the discussion in n. 23 above.

39. Kinnamos, 46–58 (esp. 55–56), 143–45, 246.

40. See above, n. 17.

41. Kinnamos, 265–69; Nicetas, *Hist.*, 187–89. For examples of panegyric to Manuel, see Kinnamos, 42–43, 47, 56, 61, 99–100, etc. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–101, offers a particularly good discussion.

42. Michael Psellos, *Chronographie, ou Histoire d'un siècle de Byzance (976–1077)*, ed. and trans. Emile Renauld, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, II (Paris, 1928), 172–85; Michael Attaleiates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1853), 3–6, 216–29; Nicephorus Bryennios, *Commentarii*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836); for Anna Comnena, see n. 1, above.

43. A number of 12th-cent. court orations are to be found in W. Regel, ed., *Fontes rerum byzantinarum*, I, fasc. 1–2 (all pub.) (Petrograd, 1892–1917); see my own translation of an oration by Nicephorus Chrysoberges to Alexius IV, in "A Byzantine Plan for the Fourth Crusade," *Speculum*, 43 (1968), 462–75. For Nicetas' orations, see the new edition: Nicetas Choniates, *Orationes et epistulae*, ed. Ioannes Aloysius van Dieten, Corpus fontium historiae byzantinae, III (Berlin, 1972 [pub. 1973]).

44. See in particular Kinnamos, 192; Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 98–99, a particularly good discussion; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 326, places excessive trust in Kinnamos' claims of objectivity.

45. Kinnamos, 121–22. This confused chronology reappears at pp. 125–26, where again the necessity of explaining the fatal destiny of Andronicus leads the historian into rapid temporal and topical shifts. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 85–88, discusses the composition.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325.

47. Kinnamos, 236, 261; other back-references without corresponding texts are to Manuel, oft-mentioned as John's youngest son (21), but really only once before; to Andronicus as having received an extended account already (61), while he has only been alluded to among the unnamed sons of Isaac (53–54); to Suleimān's having been in command at Kalograia (66); to a certain Sotas (95); and to subsidies paid by Manuel to Kilidj Arslan (291). This is the list furnished by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80, augmented by the case of Kilidj Arslan, which he had not noted. Neumann, 81, also mentions that Kinnamos fails to fulfill a promise (Kinnamos, 10) to record the rebuilding of Zeugminon, although he alludes to the event.

NOTES TO INTRODUCTION

spondence of Manuel and Conrad III, it bears no relationship to what Kinnamos alleges was written. Only Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325–326, has supported the accuracy of Kinnamos' alleged documents as summations from a register. But his examples are nearly all manifest rhetorical creations by Kinnamos himself; only the papal documents (alluded to, not quoted, in Kinnamos, 220) can have any real validity.

24. Kinnamos, 5; see Nicetas, *Hist.*, 7.

25. Kinnamos, 20.

26. Ibid., 127, 129–30; Chalandon, II, 410. John Comnenus and Andronicus were bitter enemies. Note that John Comnenus was killed in 1176 at Myriokephalon, so Kinnamos must have listened to his recollections before then.

27. Kinnamos, 109–13, 136–69 (see above, n. 9), 257–59.

28. Anna Comnena, *Alexiad*, XIV, vii, 7 (ed. Leib, III, 175–76).

29. Kinnamos, 38–63.

30. Kinnamos, 67–83, 84–87. If Kinnamos did *not* participate in the Italian expedition, and if John Doukas was *not* his informant, a written narrative by a participant should confidently be hypothesized.

31. Kinnamos, 3–4, 163. Among other possible Herodotean usages would be Kinnamos, 42, line 23 (Herodotus, VII, 18), and Kinnamos, 139, line 3, contains the same thought ("darken the air with arrows") as Herodotus, VII, 226, but not in the same words.

32. Kinnamos, 121. Kinnamos' style in general seems to imitate that of Thucydides.

33. Ibid., 218; the reference is to Procopius, *De bello gothico*, I, 1; see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 86.

34. Kinnamos, 52, 280. Kinnamos, 232, line 20, seems to reflect Hesychius, *Lexicon*, ed. Kurt Latte, II (Copenhagen, 1966), 112.

35. On this Byzantine practice, see Herbert Hunger, "Die byzantinische Literatur der Komnenenzeit: Versuch einer Neubewertung," *Anzeiger der Phil.-Hist. Klasse der Österreichischen Akademie der Wissenschaft*, 105 (1968), 61–62. For the sake of clarity, these names have ordinarily been translated into their medieval equivalents: see Preface. A similar classical echo is the consistent designation of Roger II as the "tyrant" of Sicily (Kinnamos, 118, and elsewhere), which merely signified that his title to rule had not been recognized by Constantinople.

36. Chalandon, II, xvi; the same author's *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile* (Paris, 1907; repr., New York, 1960), II, 253 n. 4.

37. Kinnamos, 26–28; see below, Book I, n. 30.

16. Kinnamos, 119, 120–21.

17. Kinnamos, 123–25, 129–31, 232–34 (his escape from prison), 250–51. The orations of Michael Choniates, before and after 1185, show what could be said both in eulogy and excoriation of Andronicus I: Michael Choniates, *Τὰ σωζόμενα: Τὰ πλεῖστα ἐκδιδόμενα νῦν τὸ πρῶτον κατὰ τοὺς ἐν Φλωρεντίᾳ Ὀξωνίῳ, Παρισίοις καὶ Βιέννῃ κώδικας*, ed. Spyridon P. Lampros, I (Athens, 1879).

18. On the regency period, see my *Byzantium Confronts the West (1180–1204)* (Cambridge, Mass., 1968), 30–40. Several other details point to the regency period as the date of composition: Pope Alexander III (1159–81) is subjected to a violent invective (Kinnamos, 219–20), as if he were still alive, and the Kontostephanoi family, who were important supporters of the regency, receive consistently favorable treatment (96–98, and many other places). The date of composition of Kinnamos' history has aroused debate: Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–100, believed most of the work was compiled during Manuel's reign, only the introduction being later; this ignores Kinnamos' reference, p. 4, to his present special opportunity for writing history (see below). Karl Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum Ende des oströmischen Reiches (527–1453)*, 2nd ed., Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, IX, Pt. 1 (Munich, 1897), 279, believed the work was published after 1185, as shown by the statement in Kinnamos, 53–54, but this does not seem a clear reference to Andronicus' usurpation, only to his repeated treacheries toward Manuel. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, dates the composition to 1180–83, the lifetime of Alexius II.

19. Kinnamos, 4.

20. Ferdinand Chalandon, *Jean II Comnène (1118–1143) et Manuel I Comnène (1143–1180)*, Les Comnènes: Etudes sur l'Empire byzantin au XI[e] et XII[e] siècle, II (Paris, 1912; repr., New York, ca. 1960) [hereafter cited as Chalandon, II], xvi–xviii; on Kinnamos' hostility to Latins, see xx–xxii.

21. Nicetas, *Hist.* (see n. 1, above), 430–31. The subject under debate was the Gospel expression, "My Father is greater than I." Since Euthymius had earlier supported the heterodox view on this point (Kinnamos, 254–55), he probably restated this position, while Kinnamos would have defended the conventional orthodoxy he expresses in his history (251–57, esp. 256).

22. E. Miller, *Catalogue des manuscrits grecs de la Bibliothèque de l'Escurial* (Paris, 1848), 218; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279, 281.

23. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 91–93, pointed out that there was no tradition of documentary accuracy in ancient history; Chalandon, II, xvi–xvii, joined in rejecting the texts of the documents allegedly quoted by Kinnamos, pointing out that where we have genuine surviving documents, as in the corre-

4. Györgi Bánhegyi, ed. and trans., *Kinnamos Ethopoiiája: Cinnami Ethopoeia*, Magyar-görök Tanalmánok: Οὑγγροελληνικαὶ μελέται, 23 (Budapest, 1943), which has not been available to me. See brief accounts of its contents by F. D[ölger] in *Byzantinische Zeitschrift*, 43 (1950), 59, and Gyula Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 2nd ed., Berliner byzantinische Arbeiten, 10–11 (Berlin, 1958), I, 324.

5. Kinnamos, 3.

6. Kinnamos, 69, 146–147.

7. Kinnamos, 5; it was possible to be enrolled "since childhood" among the imperial secretaries (19).

8. This has been the conventional view: see Carl Neumann, *Griechische Geschichtschreiber and Geschichtsquellen im zwölften Jahrhundert: Studien zu Anna Comnena, Theod. Prodromus, Joh. Cinnamus* (Leipzig, 1888), 93–95, 98–99; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 324. One must, however, bear in mind that the ancient historians who formed his model concentrated on warfare, and his Byzantine predecessors (Attaleiates, Anna Comnena, and Bryennios, to name but a few) found only the emperor's person and especially his martial deeds worthy of attention. Convention thus dictated his concentration on military history.

9. Kinnamos, 134–69. The description of Mottola, for instance, seems accurate: 152; his account of the siege of Bari, 139–40, seems to be that of a witness. If he was present, to whom was he attached? Possibly Michael Palaiologos, for whom he has outstanding praise, 70, 151. For John Doukas, the other leader of the expedition, he has very high regard and lavish praise (indeed, he claims to be able to state his thoughts, 158), but condemns his conduct after his capture by the Normans: 168–69, 172–73. He did not participate in every part of the campaign, since at one point he says that "allegedly" booty sold at specified prices (154). Nor does he seem to have shared the captivity of the leaders, so he may have returned to Constantinople at a late stage in the struggle. If he did not participate in this expedition, he had available an unusually complete and reliable source, whether a written memoir or living persons.

10. Kinnamos, 170–71, 290–91.

11. Ibid., 241.

12. Ibid., 192–93.

13. Ibid., 207. These quotations were noticed by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 93.

14. Kinnamos, 4, 257.

15. Kinnamos, 82–83; for the French version of these events, see Odo of Deuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem: The Journey of Louis VII to the East*, ed. and trans. Virginia G. Berry, Records of Civilization, Sources and Studies (New York, 1948).

Notes

INTRODUCTION

1. Anna Comnena, *Alexiade: Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081–1118)*, ed. and trans. Bernard Leib. Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé. 3 vols. (Paris, 1937–45). The English translations are: Elizabeth A. S. Dawes, trans., *The Alexiad of the Princess Anna Comnena* (London, 1928); E. R. A. Sewter, trans., *The Alexiad of Anna Comnena* (Harmondsworth and Baltimore, 1969). Ioannes Kinnamos, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio [sic] Comnenis gestarum*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836; repr., Athens, n.d.); there is an unannotated Russian translation, *Kratkoe obozrienie tsarstvovaniia Ioanna i Manuila Komninov, (1118–1180). Trud Ioanna Kinnama*, trans. V. N. Karpov, Vizantiĭskie istoriki, perebedennye s grecheskago pri S. Peterburgshoĭ dukhovnoĭ akademii (St. Petersburg, 1859), and a Serbian translation, thoroughly annotated, of the sections relevant to Serbia and Hungary in *Vizantiski izvori za istoriju naroda Jugoslavije*, IV, trans. J. Kalić and N. Radošević-Maksimović, Vizantološki institut Srpske akademije nauka i umetnosti, Posebna izdanja, Knj. 12 (Belgrade, 1971), 1–105; Nicetas Choniates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1835; repr., Athens, n.d.); the German translation is by Franz Grabler, in the series Byzantinische Geschichtsschreiber, VII–IX (Graz, Vienna, Cologne, 1958). There were other Byzantine historians in the 12th century, but they either wrote on short periods (Eustathius of Thessalonica, on the Norman capture of Thessalonica) or on world history (John Zonaras, Michael Glykas).

2. Kinnamos, 4–5; all citations to Kinnamos are to pages of the Bonn text (cited in n. 1 above), represented by numbers inserted between virgules in the translation which follows.

3. See the Typikon of St. Neophytos, in Ioannes P. Tsiknopoullos, ed., *Κυπριακὰ Τυπικά*, Κέντρον ἐπιστημονικῶν ἐρευνῶν. Πηγαὶ καὶ μελέται τῆς κυπριακῆς ἱστορίας, No. II (Leukosia [i.e., Nikosia], 1969), 78. In 1195 a Manuel Kinnamos was one of the clerks of the Bureau of the Sea: F. Miklosich and J. Müller, *Acta et diplomata graeca Medii Aevi*, VI (Vienna, 1890), 129.

ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ
عن الحروب الصليبية

المدينتان

الكتاب السابع

١- عندما توفي غريغوري —الحبر الأعظم، صاحب الذكرى المباركة— في سالرنو باتت الكنيسة في وضع صعب، لأن غيوبرت، استولى بقوة الامبراطور على الكرسي الروماني وعلى المدينة، وقلة هم الرومان الذين نهضوا ضده، وتمّ جلب الكادرينال ديسيدروس [فكتور الثالث: ١٠٨٦، توفي في١٠٨٨] راعي ديرمونت كازينو (الذي دعي أيضاً باسم فكتور) لاستلام العرش البابوي، وبعدما رشا حراس مدينة ليونايـن Leonine أدخل إلى كنيسة بطرس المقدس، ليرسم هناك ليلاً، وذلك خوفاً من الانشقاق، وأصيب هناك باسهال شديد، ومالبث أن غادر المدينة ليفارق حياته بعد ذلك بوقت ليس بطويل، وقد ترك حكم الكنيسة إلى أوتو أسقف أوستيا، الذي عرف أيضاً باسم أوربان.

٢- في ذلك الوقت —بينما كان هنري الرابع مايزال يحكم في روما، وألكسيوس يحكم في القسطنطينية— قامت أمم (باسم كلمات الانجيل) ضد أمم في جميع العالم، وعانت الكنيسة الشرقية بشكل حاد من الاضطهاد على أيدي الكفرة، وارتعدت المدينة المقدسة تحت أقدام الكفار، وفقط القبر المقدس للرب احتفظ باحترام عظيم لديهم، مع أن ذلك —والحق يقال— كان في سبيل جني الأرباح وهكذا عانى عبدة المسيح هناك من التعاسة والشقاء، وكان مفروضاً عليهم دفع الجزية، ولذلك أرسل هؤلاء، عبر ألكسيوس امبراطور القسطنطينية، رسالة إلى

البابا أوربان، وسألوه مساعدتهم، وتحرك البابا لمواساة شعب الرب، فقام برحلة متعبة في بلاد غاليا ليعقد مجمعاً هناك [في كليرمون -١٨-٢٨ ت٢-١٠٩٥]، واستطاع بخطاب موعظته المقدسة أن يوحد حوالي مائة ألف رجل من مختلف الدول للحرب في سبيل المسيح، وعيّن قائداً عليهم غودفري دوق اللورين، وروبرت كونت فلاندرز، وريموند كونت صنجيل، وهيو أخي فيليب ملك فرنسا، وعدداً آخر من النبلاء، ورجال الحرب، وعهد بالاشراف على هؤلاء الرجال إلى المبجل [أدهمر] أسقف بوي، وأثارت التقارير حول مافعله أوربان شعوباً معروفة قليلاً في أكوتين، ونورماندي، وانكلترا، وسكوتلاندا، وايرلاندا، وبريتاني، وغالشيا، وغاسكوني، وفرنسا، وفلاندرز، واللورين، وشعوباً أخرى، ليس من بين الذين يعيشون في القارة، بل من الذين يعيشون في جزائر البحر وأقصى المحيط، وكان بين هؤلاء الناس، شعوب تميزت تماماً بلغاتها وعاداتها ومواردها، حتى أن بعضها —كما قيل— عاش فقط على الخبز والماء، بينما استخدم آخرون الفضة فقط في أدواتهم، واتحد هؤلاء الناس الذين جاءوا من كثير من الأمم، واستخدموا لغات مختلفة، في جسم واحد، وقد ارتدوا الصليب فوق ثيابهم، ووعدوا أنهم سيكونون بالقول والفعل أتباع صليب المسيح، وانطلقوا وهم على ثقة بكفاية الصليب وقدراته، في رحلتهم إلى الشرق مع غودفري قائداً لهم، ليقاتلوا باسم الرب ضد أعداء الصليب، وكان لهذه الحملة تأثيراً أدنى على الفرنجة الشرقيين، والسكسون والثورنجيين،والبافاريين، والألمان، وذلك بسبب الانشقاق الذي كان قائماً آنذاك بين الدولة والكنيسة، ومع هذا كان هنالك بعض الناس، الذين حملوا ذلك الشعار نفسه، بشكل زائف، مدعين أنهم يفعلون ذلك باسم الدين، وكان بين هؤلاء واحد اسمه إميكو Emicho ، كونت منطقة الراين، وكان أرعناً في ذاته، وقد قاد مايقارب الاثني عشر ألف رجل، وقد كرّس نفسه لتدمير اليهود أينما وجدهم، أو، إذا أمكن، جلبهم للالتحاق بالكنيسة والاتحاد بها، لكن بما

أن سكان بانونيا اعترضوا سبيلهم لدى مرورهم بالممرات الضيقة، كانوا مرغمين على العودة إلى أوطانهم، غير أن غودفري والقادة الآخرين، الذين ذكرتهم أعلاه، تمكنوا بفضل الرب من الجواز خلال بلغاريا، لكن بصعوبة، ووصلوا إلى القسطنطينية، وعانوا هناك كثيراً من خيانة الامبراطور ألكسيوس، ثم إنهم نجوا من خطر الموت، بثورة قاموا بها هناك، فقد اقتحموا جسر المدينة الملكية، ودمروا ضواحيها، ثم تابعوا زحفهم إلى نيقية، وكان عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل، بدون تعداد النساء أو الأطفال، وكانت نيقية في يوم من الأيام حصناً للعقيدة الكاثوليكية، وبعدما هزموا [قلج أرسلان بن] سليمان قائد الكفار، استولوا عليها، وسلموها إلى الامبراطور، وتابعوا زحفهم نحو الأمام إلى أن وصلوا إلى مناطق سكيزيا البحرية، حيث وجدوا وفرة من المؤن، إلى حد أن الكبش بيع بديناري واحد، والبقرة باثني عشر ديناري، وذلك حسب مارواه الكونت روبرت، ثم إنهم تمكنوا بعون الرب من الانتصار على أمراء أو ملوك المسلمين الذين تصدوا لهم، وشجعتهم هذه النجاحات، فقاموا بحصار أنطاكية، التي كانت حاضرة سورية، غير أنهم بعدما أمضوا هناك تسعة أشهر، ضعفوا كثيراً بسبب تناقص جيشهم وانكماشه ونقص المؤن، ولهذا نظر الرب فرأى متاعب شعبه ومعاناته، فأعطاه المدينة، مع مؤن الأتراك، ووضع ذلك في أيديهم.

٣- وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وفيما المسيحيون منشغلون بحصار أنطاكية، وشعوب المشرق كلها قد أصابها الرعب، وصل رسل من قبل ملك المصريين —وهو المعتقد أنه ملك بابليون— إلى الدوق غودفري، ووعده بشكل خياني بالعون ضد الأتراك، الذين كانوا آنذاك مستولين على القدس مع جميع فلسطين، وكانوا قد انتزعوها من العرب، لأنه تأكد لنا عن طريق رجال ثقة من بلادنا فيما وراء البحار، أن جزءاً من بابل القديمة يُدعى بغداد، وهو جزء مايزال مسكوناً، وهو جزء كما تقرأ في

النبوءة «مهجور ولا يمكن الوصول إليـه»، يمتد إلى نحو عشرة أميال، لابل حتى بـرج بابل، والقسـم المسكون، والمدعـو بغداد، واسع جـداً، ومكتظ بالسكـان، ومع أنها بشكل صحيح جـزء من امبراطورية الفـرس، منحها ملك الفرس إلى كاهنهم الأعلى، الذي يـدعونه الخليفة، هناك بينات (كما تقدم القـول مراراً) على وجود بعـض التشابه بين بـابل وروما، لأن مـاهو ممنوح في جزئنـا من العالم من قبل الامبراطـور المسيحي، إلى الحبر الأعظم في مـدينة رومـا، مثلـه قد جـرى منحـه من قبـل الملـوك الفرس الكفـار —الذين كانت بـابل ومابرحت خاضعة منذ زمـن طويل— إلى كاهنهم الأعظم، ومثلما اختـار حكامنا مـدينة ملكية اسمهـا آخن، كذلـك جعل ملوك الفـرس مقر مملكتهـم ايكباتـانا Ekbatana (التي نقرأ في سفـر يهوديـت أن أرفخشد قـد أسسهـا) وهـي مـدينـة تدعـى بلسـانهم «همذان»، وهـم يمتلكـون مائة ألـف مقـاتـل أو أكثر، ولقـد اتخذوا هـذه المدينة مقرهـم الملكي، ولم يحتفظوا لأنفسهم بشيء خـارج بغداد فيما عدا اسم «امبراطـور»، والمدنية التـي قلت إنها تعـرف الآن بشكل عـام باسـم بـابليون ليسـت قائمـة على الفرات (كما يفترض النـاس) بل على النيـل وتبعـد مسافـة حوالي ستـة أيـام من الاسكنـدريـة، إنها بالحقيقـة مدينـة ممفيس، وكـان قمبيز بـن قورش قـد سماها بـابليون، وهنـاك فيها يسكـن ملك المصريين وذلك بسبـب حديقة البلسم، مع أن عاصمـة مملكته هي الاسكنـدريـة، ويمكـن استنتـاج مـن حقيقـة أن المسيحيين يسكنـون في المدينتين، ومـع أنهم خـاضعين للجـزيـة، فإن أسقـف ممفيـس خـاضـع بمـوجب القـانـون اللاهـوتي إلى بطـريرك الاسكنـدريـة، ونحن نجـد في الترتيبات الأساسية، وبموجب سلطات مجمـع نيقية أن البطريرك قد أقيم ليس على الآشوريين والبابليين بل على المصريين والأفارقة.

٤- عندما قـدم رسل الملك المذكور آنفاً أنفسهم إلى الـدوق غودفري، جرى ارسال بعض نبلاء الفرنجة —فهـذا هو الاسم الذي اعتاد المشارقة

اطلاقه على الشعوب الغربية، كما أعتقد على أساس المجد القديم لذلك الشعب وبسبب شجاعته— الذين جرى اختيارهم بكل عناية، إلى بابليون، وأعلن البرابرة، الذين أعجبوا بقوة هؤلاء الرجال، وببنيتهم الجسدية، ولباسهم وتصرفاتهم، ونقاوتهم، أنهم آلهة وليسوا من بني البشر، وبعد اجتماع جرى عقده، قام ملك بابليون، فأخذ سفراء الفرنجة معه، وحاصر القدس، وعرض في منظر عام الأبطال المتقدم ذكرهم، وأعلن أنهم حلفاءه، وبهذه الطريقة تسلم طاعة المدينة [آب١٠٩٨م] —بسبب الرعب الذي بثوه فيهم، وليس لسبب مخيف آخر— وطرد الترك، وأسكن العرب هناك.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون (كما قلنا قد استولوا على أنطاكية) لكنهم لم يقدموا الشكر المستحق للرب، ولهذا جرى تطويقهم من قبل حشد هائل من المسلمين، ولذلك حلّ بين صفوفهم مجاعة —تلت وفرة عظيمة— لايمكن تحملها، حتى أنهم تمنعوا بكل صعوبة عن أكل لحوم البشر، وعطف الرب الرحيم، على شعبه التائب المنيب ورحمه، ونظر إليه بعين النعمة، بوساطة رؤيا جاءت من عليين، فأظهرت للمؤمنين من أتباعه الحربة المقدسة (وكانت حتى هذا الحين غير معروفة) التي بها طعن —كما نقرأ— طرف ابنه المسيح، وهو على الصليب، ووثق المسيحيون بهذه الحربة واعتمدوا عليها، ومع أنهم كانوا ضعفاء بسبب المجاعة، خرجوا وتقدموا نحو الأمام، وهزموا المسلمين، ليس بوساطة أية قوة هي قوتهم بل بوساطة قوة المسيح، ثم زحفوا داخل سورية، فاستولوا على مدن كفر [طاب و] البارة ومعرة النعمان، وبينما كانوا مشغولين بمحاولاتهم هذه، تعرضوا للعناء ثانية، حيث روي أنهم عانوا من نقص شديد بالمؤن، إلى حد أنهم أكلوا لحوم بشرٍ كانت آيلة للفساد، ثم إنهم وجهوا بعد هذا جيوشهم ضد المدينة المقدسة، التي كان يسكنها الآن العرب، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها بالقوة،

عقدوا مؤتمراً، وقرروا تقليد تواضع المعلم، فمشوا حول المدينة حفاة، وتبعاً لهذا، حدث في اليوم الثامن، ذلك اليوم الذي يوافق انتشار الرسل، والذي يحتفل به ، أن تمّ الاستيلاء على المدينة [١٥تموز١٠٩٩]، وقتلوا الأعداء الذين وجدوهم فيها، وكانت مذبحة هائلة حتى أن دم المذبوحين وصلت إلى قوائم خيول مقاتلينا داخل بناء المعبد، ولاحظ أنه بعدما قام شعب الرب بالتواضع والتذلل شخصياً، والتقاطر للصلاة للرب، أصبحت المدينة المقدسة التي كانت تحت أقدام أبناء الشعوب، في اليوم الثامن مبتهجة بشكل رائع لأنها استردت من قبل شعبنا، ومثلما تمّ الاستيلاء على أريحا في اليوم السابع، لدى مراعاة يوم السبت، كذلك حدث هنا أن مدينة القدس المحاصرة جرى اقتحامها من قبل الشعب المسيحي في اليوم الثامن (جاء يوم القيامة بعد يوم السبت)، وفي ذلك اشارة إلى أن الشريعة [اليهودية] ونظام الأيام السبعة قد طبق، وغدت القدس من ذلك اليوم مع ضريح الرب في حوزتنا.

٥- وقام ملك شعب ممفيس، أو الاسكندرية —الذي يدعوه الحجاج باسم أمير جيوش أهل بابليون— بالتوجه إلى عسقلان، مصطحباً رسل الفرنج معه، ثم وجه زحف قواته نحو أنطاكية، في سبيل الاستيلاء عليها بنوع من أنواع الخداع الذي كان قد سيطر بوساطته على المدينة المقدسة، غير أن المسيحيين تركوا أثقالهم ومرضاهم في المدينة، وقادوا قواتهم ضد المسلمين، وعندما أبصروا عن بعد حشود العدو التي لاتحصى عدداً، أقاموا الصلوات للرب، ثم انقضوا على الأعداء بكل جرأة مع أن قواتهم كانت صغيرة، ومن الغريب القول، إنه بنعمة من الرب، القادر على فعل كل شيء، تمكنوا وعددهم لم يتجاوز خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل من ارغام مائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل على إدارة ظهورهم والفرار، ثم انهم حصلوا على غنائم هائلة، وهلك بحدّ السيف في هذه المعركة أكثر من مائة ألف من المسلمين، وقيل اختنق أيضاً

بالتـدافع عنـد باب المدينـة أكثر مـن ألفين، كما وروي أن أعداداً أخـرى لاتحصى غرقـت أو ماتت على الخازوق، وبعد نيل هـذا النصر، عاد بعض القـادة إلى أوطـانهم، لكن غـودفـري بقـي، ومارس بكـل حماس حكمـه كدوق على الذين مكثـوا، وتدخل أيضاً وسيطاً بين الفرنجـة الرومانسيين والألمان، الذين اعتـادوا على الخصام دوماً، مستخدمين حـركات تعبّر عن المرارة والحقـد، وتمكن غـودفري مـن التوسـط بينهم بحكـم أنه نشأ على الحدود بين الشعبين، وكان عارفـاً بلغة كل منهما، وعلّمهم بطـرائق مختلفة كيفية الصبر والتحمل.

٦- وتمكن أوربان بعد عودته مع مجمـع كليرمونت—فيراند، بمساعدة الذيـن ألهبهم حماسـاً للقيام بحملـة إلى القدس، مـن طرد غيـوبرت مـن المدينة (لكـن ليس مـن قلعة كرسسنتـوس) وحكم كـرسيه المقـدس، ثم سافر من خـلال أبوليا وكالبيرا إلى صقلية، التي كانت آنـذاك مقطونة من قبـل النـورمنـديين، وجمع مـن هناك مبلغـاً كبيراً مـن المال، ثـم عـاد إلى المدينة، ورشـا بالأعطيات الـذين تولوا حـراسة قلعة كـرسسنتوس، وبهذه الـواسطة تمكـن مـن طرد غيـوبـرت من القلعـة مثلما طـرده من المدينـة، وبـذلك استحـوذ على كـامل المدينـة [١٠-آب١٠٩٨]، لكـن بعد أمـد قصير فارق هذه الحياة، وترك كرسيه لباسكال.

٧- وفي السنة الألـف ومائة بعد تجسيد الـرب، عندما أخـذ المؤمنون يحتشـدون من جميـع أجـزاء العالم للـذهـاب إلى القدس الأرضيـة (نظيرة القـدس السماويـة) للصلاة، كثيرون مـاتـوا مـن المناخ الصعـب، ونقـل غودفـري أيضاً البـاكون عليه، بعـدما بقي دوقـاً لمدة سنة فقـط، ودفن في كنيسة قـرب الضريح المقدس، وحظي أخـوه بلدوين بشرف اسـم ملك، بوسـاطة سلطات الحبر الأعظم، وتعين مكـان غودفري —وهـذه اشارات تشير إلى التمييز بين المملكـة وبين الحملة إلى القدس— ويكفـي أن ذلك قد تم تدوينـه من قبل الآخرين، ومات في تلك الآونة غيـوبرت، وبذلك

جلب نهاية للانشقاق الرهيب الذي طوقنا مثل دخان مصر الكثيف، وتوفي في السنة التالية كونراد الابن المسيحي الأكيد للامبراطور هنري، الذي كان أبوه قد عهد إليه بإيطاليا، لقد حمله الموت المبكر في السنة التاسعة التي افترق فيها عن أبيه، وكانت وفاته ثم دفنه في فلورنسا التي هي مدينة في توسكانيا، وفي الوقت نفسه قام كل من وليم كونت بواتو ودوق أكوتين، وتيمو Tiemo ، رئيس أساقفة سالزبورغ، وولف دوق بافاريا (الذي تولى في حرب أثارها ضد الامبراطور هدم مدينتي فريزنغ وأوغسبيرغ)، والدوقة ايثا Itha التي كانت أم ليوبولد [الثالث] (الذي كان حاكم النمسا) ووليم [كونت نافار] وستيفن [كونت بليوس] وهما بارونان ايطاليان [كذا] مع كثير من ايطاليا وأكوتين وألمانيا، قاموا بالانطلاق نحو القدس عبر طريق هنغاريا واليونان، وحشرهم الامبراطور ألكسيوس بشكل خياني في ممرات ضيقة، وقتل معظمهم بشكل وحشي، وأخذ الشخصيات الأكثر لمعاناً بينهم أسرى، وأهداهم إلى ملك، أو أمير الجيوش في ممفيس، وقام واحد، ذكر أنه شارك بهذه الحملة، فكتب هذه الرواية، بشكل واضح ومؤكد، وفق طرائق التراجيديا، وقيل إن صاحب الغبطة الأسقف تيمو قد وقع بالأسر مع البقية، فأمر بأن يعبد الأصنام، وطلب منحه فرصة للتفكير والراحة [وحصل على ذلك] فدخل إلى المعبد، وبما أنه امتلك القوة الفعالة للعقل والجسد، فقد حطم إلى قطع الأصنام التي كان متوجب عليه عبادتها، مرياً بذلك أنهم لم يكونوا أرباباً بل أعمال أيدي الناس، ولهذا السبب اقتيد، وبعدما تعرض لتعذيب شديد مع جميع أنواع الارهاب، تتوج بالشهادة الرائعة، بيد أنه من الصعب تصديق قيامه بتدمير أصنام، لأنه معروف بشكل جيد ومتداول بين الناس أن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً، وهم يقبلون بكتب الشريعة، وعادة الختان، ولايرفضون المسيح والحواريين، والرسل، وقد نأوا عن الخلاص بشيء واحد فقط، هو حقيقة انكارهم أن المسيح هو الذي يجلب الخلاص إلى الجنس البشري، وانه رب، أو ابن الرب، ويجلّون

ويقدسون محمداً بحكم كونه نبياً عظيماً لله العظيم، وهو الشخص الذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وبدأت نبوته —كما يدعوها نفسه— وتبعاً لتقاليدهم، بدأ دعوته حسبما جاء في مطلع انجيل محمد قوله: «ابن الرب، بني الرب الأعلى، غسلك، وجعلك نظيفاً» [كذا]، ويقوم هذا الشعب المشار إليه بحماقته بعادة تمسكوا بها تبعاً لهذه الأوامر وذلك بغسل الأجزاء السرية من أجسادهم يومياً.

٨- في السنة الثالثة بعد المائة وألف من تجسيد الرب، احتفل الامبراطور هنري بميلاد الرب في مينز، وقام هناك بتعيين ابنه هنري ملكاً يكون خلفاً له، وأعلن أمام الناس أنه سيقوم بزيارة ضريح الرب، مما جعل الكثيرين من مختلف أجزاء مملكته يتخذون القرار نفسه، وبينما كان في السنة التالية يشاهد الاحتفال بميلاد الرب في ريغنزبيرغ Re- gensbaurg ، حدث شجار، وقتل الكونت سيغهارد Sigehard من قبل كتلة النبلاء الذي عرفوا باسم «المنسترال Ministeriales(*)» لأنه تعدى على حقوقهم، وفي السنة التالية، بينما كان الامبراطور يحتفل أيضاً بميلاد الرب في مينز، قام ابنه هنري، بناء على نصيحة مارغريف ثيبولد وكونت برنغر بالتآمر للثورة على أبيه في بافاريا، وقام بهذا تحت غطاء ديني في أن والده قد حرم من قبل الحبر الأعظيم الروماني، وجمع حول نفسه بعض النبلاء من شرق فرانكونيا، وألمانيا وبافاريل، ثم دخل ساكسوني، وهي بلاد وشعب من السهل اثارته ضد المملكة، واستقبل هناك بكل التشريف، وبقي في كويدلنبيرغ Quedlinburg للاحتفال بفصح الرب [٩نيسان ١١٠٥]، وقد ربح إلى جانبه جميع الشخصيات القيادية لذلك الشعب، وجرى عقد مجمع

(*)- حاشية الامبراطور من غير الأحرار الذين جلبوا من أراضي العرش أو من ممتلكات الامبراطور الشخصية الموروثة.

للأساقفة في المدينـة الملكية نوردهوزن Nordhousen ، برئاسة روثارد Rothard رئيس أساقفة مينـز (الذي كان قد عزل من منصبــه منذ أمد طـويـل من قبـل الامبراطـور)، وأدان هنـري في هـذا المجمع السيمـونيـة والممارسات الأخرى المخـالفة لكنيسة روما، وحالما فرغ مـن الاحتفال بعيد الشعانين في ميرسبيرغ Merseburg قام بتنصيـب هنري (الــذي انتخب، لكـن رُفض من قبل مـؤيدي أبيه) بحكـم كونه رئيساً لأسـاقفة مغدبيرغ Magdeburg ، ثم جمع هنـري جيشاً، قاده بـاتجاه مينز بقصد إعـادة تنصيب رئيـس الأساقفة، ولكـن بما أن والده كـان مع كثير من أتباعه ينتظـرون قدومه مع قوى مسلحة وراء الأسوار، لم يكـن بإمكانه تنفيـذ رغبته،ولـذلـك ذهـب إلى وورزبيرغ وطرد ايـرلنـغ Erlung وأقام روبرت مسؤولاً عن تلك الكنيسة، وإثر قيامه بهذا سرّح السكسون، وتولى مع البافـاريين حصار نورنبيرغ Nurnberg وتمكن خلال شهــرين أو ثلاثـة من الاستيـلاء عليها، ثم تـوجه نحـو ريغنزبيرغ Regenburg وكانــت مقرّ مطرانية دوقيـة بافاريا، وكـان والده يتتبع خطاه بكـل شدة، فـألحق الهزيمـة بروبـرت، واسترد ايـرلنـغ، ثـم تـابع تقـدمـه، واستطـاع بمساعـدة شعب ريغنزبيرغ أن يطرد ابنـه من المدينة، وأقام هنـاك واحداً اسمه أولريك Ulric أسقفاً، وعاث فســاداً في تخوم ثيبولد Theobald من خلال وكالة بوهيميا.

٩- وبعدمـا انقسمت المملكـة هكذا بشكـل مؤلم ضـد بعضها، فقـد حشدت جميع امكـاناتها العسكرية مـع بعضها، وتعرضت البـلاد بشكل وحشي للتخـريب بـالنـار والسيف، وتمركـز الفـريقـان المتصارعـان: الأب والابـن على طرفي نهر ريغنـغ، وكـان معسكـراهما قد تميـزا عـن بعضهما، وبدأت معسكرات القتـال لديهما بالتشكل، وكـان الأب غاضباً كثيراً على ابنه بفعل تحريضــه من قبل مؤيـديه، وكذلك الابـن في صراع عائلي ضد أبيــه، وقد أعـاق صراعهما القـذر مجرى النهر، وكـان بـإمكـانك أن تـرى

استعدادات محزنـة ومؤلمة، لقد كان مـن الممكن لك أن ترى العـالم يعاني من الأعمال الخيـانية بشكـل أشد وضـوحاً مـن شعاع الشمـس، وكانـت الأمور بلاريب مضـادة لقانون الطبيعة، لأن ابناً قام بعصيـان ضد والده، وبشكل ظـالم كان الجندي يستعد للقتـال ضد ملكه، والعبد ضـد مولاه، كما ووقف الأخ ضـد أخيه، والقـريب ضـد قريبه، وكان كـل واحد مـن هؤلاء يخطط لسفك دم شريكه الخاص بالدم...........

وبناءً عليه، عندمـا غمر في هذه الأيام حب السلطة المملكـة الرومانية وأدى بها إلى الحرب الأهلية، لابل حتى إلى قتل الابن لـوالديه، قام بعض النـاس، من أجـل المسيح، بـالتخلي عـن مصالحهـم، وعدّوا أنهم ليسـوا للعبـث كانـوا يلبسون حـزام الفروسيـة، ولـذلك انطلقـوا نحو القـدس، وهناك أخـذوا يعملون في مجال جـديد مـن القتال، حين وجهـوا أنفسهم ضد أعـداء صليب المسيـح، وعندمـا حملوا في بـاطنهم عقيـدة الموت في سبيـل الصليب، بـدوا بطـريقـة حياتهم وحـديثهـم لابمثـابة جنـد بـل بـالأحـرى رهبانـاً، زد على هـذا، بـدأت الحيـاة المستقيمة المتشـددة مـع السلوك تـزداد بين الرهبان ورجـال الدين، وذلـك منذ تلك الآونـة حتى اليوم الحالي، وهكذا بفضـل من عظمة الرب وصحيح حكمه أخـذ أتباعه يلتـزمون أكثـر فأكثـر بفضل نعمتـه بتطبيق كـامل والتـزام كامـل بأوامـره ونواهيه مع أن سكان العالم يزدادون دنساً في سلوكهم الدنس.

١٠- في هذه الآونة نفسهـا ألقى الملك بلدويـن الحصار على عسقلان وجعلهـا تدفـع الجزيـة لـه، كما وخاض معـركـة مـع المسلمين، ومع أنـه امتلك قليـلاً من الرجال فقـط —أي أربعة آلاف فقط— فقد تمكـن من إلحاق الهزيمة بخمسين ألفـاً، وذلك بفضل القـوة الربـانية وليس بـالقوة البشريـة، وقد أسروا واحـداً مـن قادتهم وقتـل البـاقين، لكن الامبراطـور ألكسيـوس، رأس الخونة، وقـد غدا غير قـادر على إخفـاء خطته الشريـرة التي أخفـاها مـن قبل في قلبـه، دخل الآن بكـل وقاحـة في حلف مـع

الأتـراك، الذيـن كانـوا وقتذاك في وضـع يائس تقـريباً، وقـام بكل قحـة بـالتخلي لهم عن نيقيـة، التي تـمّ الحصول عليهـا مقابـل سفك كثير مـن دماء شعبنا. لاحـظ هذا الزمان الصعـب الذي فيه امبراطوريـن —واحد في الشرق وآخر بالغرب— كلاهما عدو للرب..

٢٨- في سنة ألف وأربـع وثلاثين لتجسيد الرب، قـام الامبراطور جون كومينوس، امبراطور القسطنطينيـة (الذي عقد معاهدة صداقـة مع الملك الرومـاني كونـراد بوساطـة زواج ابنه مـانويل مـن أخت الملكـة غيرترود) بـالـدخـول إلى سـورية على رأس جيـش كبير، بسبـب أن ريمـونـد أمير أنطاكيـة قد أقسم على اعطـائه تلك المقاطعـة مع المدينة نفسهـا، وذلك مقابـل مبلغ من المال، لكن لم يـف بوعده، ذلك أن [هـوغو HUGO] المحترم، أسقـف جبلة، قـاومـه بـرجولـة ووقـف في وجهـه، وحذره بكـل شجاعة، باسـم كل من أسقف روما والامبراطور، وطلب منـه التوقف عن الهجوم على المدينـة التي أتيـت على ذكرها، لأنها كـانت ضمـن ممتلكات اللاتين، غير أن جـون الذي خـدع من قبل الأمير قـام —على الرغـم من عـدم مهاجمة المدينـة— بالعيـث فساداً في جميـع أرجـاء المقاطعـة بالنـار والسيـف، حتى أنـه اقتلع النسـاك والرهبـان، الذيـن هناك أعـداد كبيرة منهم في تلـك المنطقة، وساقهـم أمامه بعـدما أخـرجهم من صـوامعهم، وعاملهم بوحشية متناهية، ولم يقـم جون هنا بدور المعطي —أي أن تقول الجيد— ولم يمـض وقت طويل بعـد هذا، أن تعرض، وهو يقـوم بأعمال الصيـد ويستخدم سهـامـاً مسمومـة، إلى الاصـابة بـأحـدها بشكـل غير متوقـع، وهكذا مات الملـك الغني بشكل بـائس جداً وسط جيشـه،وترك العرش لابنه مانويل.

وفي الوقت نفسـه مات فولك، ملك القدس، وسلـم قيادة المملكة إلى ولده فـولك [كذا: الـذي خلفه هو بلدويـن الثاني وكان في الثـالثة عشرة من عمـره] وكان وقتها مجرد صبـي، وإثر اعتلاء مـانويل للعـرش، أرسل

رسلاً إلى الملك كونراد مع هدايا ثمينة (وذلك مثلما فعل أبوه من قبل) وجدّد المعاهدة، وغالباً ما جرى مراعاة هذه العادة بين الامبراطورين، وذلك لاعتبارات متنوعة، أعني بعدما انتقل اللقب الامبراطوري إلى الفرنجة، وفي هذه الآونة كان الاتفاق بين جون والد هذا الامبراطور وكونراد ضد روجر الذي تولى غزو كل من الامبراطوريتين...

٣٠- عند بداية العام ألف ومائة وخمسة وأربعين مضت على تجسيد الرب، وفي ذروة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وقعت واقعة في الشرق، جاءت نتيجة لآثام الشعب المسيحي، وكانت واقعة محزنة ومريعة فيها سوء حظ عظيم، هي أن زنكي: أمير حلب، في سورية وأمير الجزيرة (باستثناء أنطاكية ودمشق)، والذي كان من أتباع ملك أو سلطان الفرس والميديين، قام بحصار إديسا مع حشد من المسلمين لايعد ولايحصى، وكانت هذه المدينة (التي تعرف الآن باسم الرها) على أساس حجمها وثروتها الملاذ الوحيد لكنيسة القدس، ففي يوم ميلاد الرب، كما قلت، اقتحم زنكي المدينة وقتل بحد السيف جميع المسيحيين مع أسقف المدينة، أو حولهم إلى مرتبة العبودية، ودنس بإثم كنائس المسيح، وبشكل خاص بازيليكا مريم المقدسة (العذراء دوما) التي دفن فيها جسد الرسول توما، وجلب إلى داخلها أشياء غير لائقة، وذلك استهزاء بمخلصنا، وبعدما فرغ من ابادة شعبنا، وحولهم إلى دافعي الجزية، مركز المسلمين هناك لسكنى المدينة....

٣٢- ووصل في هذه الآونة وفد ديني مرسل من الأساقفة الأرمن ومطرانهم (الذي هم أنفسهم يسمونه الجاثليق، أي الأسقف الكوني، وذلك بسبب العدد الذي لايحصى من الأساقفة الذين يتبعونه) وجاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم في فيتربو VITERBO ، قادماً من أقصى الشرق ومكملاً رحلة متعبة استغرقت سنة وستة أشهر، وبعدما بعثوا إليه بالتحية باسم تلك الكنيسة، وأكدوا له خضوعهم التام،

انطلقـوا مسافـريـن إلى فيترالا(*) VETRALL ، التـي كانـــت هدف قدومهم وغايته، وكنت أنا موجوداً أثناء تلك المقابلة مع عدد كبير آخر، وكانت الأسباب كما يلي:

إنهم يتفقون مع الاغريـق في ممارسة جزء من طقوس القـربان المقدس، ويخالفـونهم في جوانـب أخرى، فهـم يـأخذون الخبـز المخمر مثلما يفعـل الاغـريـق، لكنهم لايمـزجـون الماء مـع النبيـذ مثلما نفعل نحـن ويفعـل الاغريـق، زيادة على هـذا إنهم يجمعون معـاً بين عيدي الميـلاد والغطاس ويجعلون منهما عيـداً واحداً، ونظراً لخلافاتهم حـول هذه المسائل وقضـايا أخـرى، وقـع اختيارهـم على الكنيسـة الـرومـانية لتكـون حكماً، وجـاءوا للتشـاور معهـا، وسـألـوا التـوجيـه حـول شكـل الأضحيـة تبعـاً للعـادة الـرومـانية، واستقبلهـم الأسقـف الـروماني بسرور، وسمـح لهم بحضـور القداس العظيـم، ومشاهدة الطقوس السريـة للتضحية، ووجههم لمتـابعة كـل ماجـرى هناك بكـل دقة، وفيما هـم يفعلـون ذلك، ويقفـون بانتبـاه شـديد، أمـام المذبـح المقدس، رأى أحـدهم وكـان يحمـل رتبة أسقـف —شيئاً حكاه فيما بعـد— في اجتماع عام عقد في اليوم الثامـن الذي تلا عيد مارتن المقـدس، وذلك أثناء الاحتفال المعتاد بتكريـس كنيسة بطرس المقدس [١٨تشرين ثاني] والذي رآه —كما قال— هو مايلي:

بينما كـان الحبر الأعظـم يقـوم بالقـداس المقـدس، أضـاءت الشمـس وانتشرت أشعتهـا فجأة حـول رأسـه بشكل كلـه بهاء، وأثنـاء ذلك كـان هناك حمامتان تصعدان وتهبطان وسط نور الشمـس، ولدى اطافته ناظريه في هذا الاتجاه وذاك، ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أن يتخذها

(*)- على بعد اثنـي عشر كم إلى الجنـوب من فيتربـو حيث كـان البابـا مقيماً في كانـون أول: ١-١٦ عام١١٤٥م، ويستخلص من هـذا النص أنه كان موجوداً هناك منذ حـوالى بداية تشرين الثاني.

طريقاً له، أدرك أن هـذا كان من عمـل الرب، وهنا ازداد يقينـاً باطـاعة الكنيسة الـرومانيـة، وجعل معـروفاً مـاراَه أيضاً إلى جميـع الناس، غير أن الأب المبجل رفض أن يعـزو هذا إلى فضائله الخاصة، وأعلـن أنه بالحري بسبب إيمان هذا الأسقـف أبيحت له هذه الرؤيا مـن السماء، ففي سبيل تيسير الاعتراف بالكنيسـة التي تولت ارسـاله، تمّ غسل قـدرة القداس في نور الحقيقـة، ومن ثـم بالمعـرفة، وكـذلك بـالتبجيل وبـالشكل المتـوجب الاحتفاء به بهم.

وروى الأسقـف المتقـدم ذكـره أنـه يـوجـد على تخوم أرمينيـا بعـض الشعـوب التـي تحمـل أطفـالاً برائحـة مخيفـة، وأنهم يـأخـذونهم مبـاشرة ويجعلـونهم يستحمون في ميـاه أرمينيـة ويطرد الأرمـن عنهـم برشهـم بماء العماد تلك الـرائحة النتنة، لكـن ما يلبثـون لدى عودتهم أن يتحـولوا إلى طقوسهم الوثنيـة وإلى قذارتهم، وسألوا أيضاً رأي الكنيسة الـرومانية هل ينبغي أن يصنع هذا.

٣٣- ورأيت في ذلـك الزمـان والمكان أيضاً أسقـف جبلة في سـورية المتقـدم ذكره، —الـذي بفضـل جهوده بشكـل خـاص بـدأت أنطاكيـة تصبح تابعة تمامـاً للكنيسة الرومانية— وقد جاء ليقـدم شكوى ضد كل من بطريركـه في أنطاكية وأم(*) الأمير، ابنة بلدوين —الـذي كان مرة ملك القدس— وطـالب بحقوق قديمـة، قياساً بما فعله ابـراهيم، (ذلك أنه أعطى عشر الأسلاب إلى ملكيصادق، بحكـم أنه عزا نصره إلى الرب) أن يُـدفـع له عُشر الأسـلاب المأخـوذة مـن المسلمين، وطالـب أن يمنـح التفويـض من الكـرسي الرسولي بشـأن هذه المسألـة، ولقد سمعتـه يقدم شكوى مريـرة تتعلق بالمخاوف المحيقـة بالكنيسة في بلاد مـاوراء البحار

(*)- لم تكن الأم بـل حماة الأمير ريمونـد الأول أمير أنطاكية، وكـانت أرملـة الأمير بوهيمـوند الثاني وأم كونستانتيا، زوجة ريموند.

منـذ الاستيلاء على الـرهـا، وقـال إنه يفكـر لهذه الغـايـة بعبور جبـال الألب إلى ملك الرومان والفرنجة ليطلب العون.

وروى أيضاً أنـه حدث قبل عدة سنـوات مضت أن قام واحـد اسمه بريستر جـون(***)، وهو ملك وكـاهن يسكن فيها وراء ايـران وأرمينيا في أقصى الشرق، وجميـع شعبه مسيحيـون، لكن نسـاطرة، وحكـى أنه شـن الحرب على أخي ملوك الفـرس والميديين الذي اسمه سـانياردي (سنجر) وأنه اقتحـم ايكباتنـا EKABATANA (حاضرة ملكهـــم) والتي تقدم ذكـرها مـن قبل، وعنـدما التقـى به الملـوك المتقدم ذكـرهم ومعهـم جيش تألـف من الفرس والميديين والآشـوريين، حدثت معركـة استمرت ثلاثة أيـام، لأن كل فريق كـان يؤثر الموت على الفرار، وألحق بـريسترجون —ذلـك أنهم يـدعونـه هكـذا حسبما اعتـادوا— بـالفرس الهزيمـة بعـد اصابـات بالغة، وأخيراً ظهـر منتصراً، وحكى أنه بعـدما نال بـريسترجون هذا النصر قاد جيشه لتقديم المساعدة للكنيسة المسيحية في القدس، لكن عندمـا وصل إلى نهر الـدجلة ووجد نفسـه غير قادر على نقـل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة، انعطف متجهـاً نحو الشمال، لأنه قيل له إن النهر متجمد هنـاك بفعل برد الشتـاء، وبعدمـا انتظر هناك لمدة عـدة سنوات، دون أن تتحقق رغباتـه القلبية (لأن المناخ اللطيف المستمـر منعه)، ونظراً لفقدانـه كثيراً من جنـوده بسبب المناخ الـذي لم يعتادوا عليـه، أرغم على العودة إلى وطنه، ولقـد قيل إنه يمت بنسبه إلى المجـوس، وينحدر منهم، وهـم الذيـن ورد ذكـرهم في الانجيـل [متـى: ٢/ ١]، ولقـد تولى حكـم الشعوب نفسها التي حكموها، وتمتع بشهرة عظيمة وثروة هائلة ومع ذلك لم يستخـدم عصـا صـولجان سـوى واحـدة مـن الـزمـرد، وكـان عظيـم

(***)- سـأورد عنـه المزيد مـن التفـاصيـل في أول المجلـدات التي ستبحث في العـلاقـات الصليبية المغولية وذلك قبل الشروع بتقديم مصادر تاريخ المغول.

الرغبـة في أن يحذو حذو آبائه الذيـن جاءوا لعبادة المسيح وهـو في مزوده، ولـذلك خطـط للذهـاب إلى القدس، لكـن السبب المذكـور آنفاً منعـه، فهكذا يروي الناس....

أعمال فردريك بربروسا

الكتاب الأول

(٣٤،٣٥) عندما كان يوجين (الثالث ١١٤٥-١١٥٣) بابا في روما، وكونراد [الثالث ١١٣٨-١١٥٢] يحكم هناك، ولويس [السابع ١١٣٧-١١٨٠] في فرنسا، ومانويل امبرطوراً في المدينة الملكية، وفولك [ت١١٤٤ وخلفه ابنه بلدوين الثاني] في القدس، أرغم لويس بوساطة رغبة داخلية على قرار الذهاب إلى القدس لأن أخاه فيليب كان قد ربط نفسه بالتعهد نفسه، لكنه منع بالموت، ولم يمتلك الرغبة في زيادة تأجيل هذا القرار، ولذلك استدعى بعضاً من أمرائه وأباح لهم ماكان يدور في خلده.

وكان في تلك الآونة في فرنسا راعياً لدير كليرفو اسمه برنارد، وكان محترماً في الحياة والأخلاق، عظيماً في طريقته الدينية، تمتع بالحكمة والمعرفة الأدبية، ومشهوراً في الشارات والكرامات العجيبة، وقرر الأمراء استدعاءه بغية سؤاله —وكأنه يملك الالهام الرباني— ماالذي ينبغي فعله بالنسبة لهذه المسألة، وتمّ استدعاء الراعي المتقدم الذكر، وطلب منه تقديم نصيحته بشأن رغبة الأمير التي ذكرتها، ورأى أنه لايجوز اعطاء الجواب لمثل هذه المسألة الكبيرة والحكم عليها انطلاقاً من موقفه ورأيه لوحده، ولهذا أجاب انه من الأفضل احالة المسألة إلى مسامع وتقدير الحبر الروماني، وبناءً عليه جرى إرسال سفارة إلى يوجين، ووضعت القضية بأكملها أمامه، وفكر يوجين فيها ملياً، وانطلق من قاعدة سلفه —أي اعتمد على حقيقة ماقام به أوربان في مثل هذه المناسبة، وكيف

أنه ربح بإعادة الوحدة والسلام إلى كنيسة ماوراء البحار مع بطريركتين (أي أنطاكية والقدس) كانتا قد قطعتا نفسيهما عن طاعة الكنيسة الرومانية— فأعطى موافقته على رغبات الملك السالف الذكر، وذلك في سبيل مد انتشار الايمان المسيحي ومراعاته، ومنح الراعي الذي ذكرنا اسمه من قبل —والذي نظر من قبل شعوب فرنسا وألمانيا كنبي وحواري— صلاحيات وسلطة التبشير وتحريك قلوب الذين كانوا هناك، وهاكم نص الرسالة التي وجهها إلى الملك مع أمرائه فيما يلي:

٣٦(٣٥) «الأسقف يوجين عبد عبيد الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، لويس الملك المجد واللامع للفرنجة وإلى أبنائه الأحباء الأمراء، وإلى جميع الشعب المؤمن بالرب، الذي يسكن في أرجاء فرنسا، تحيات وتبريكات رسولية.

كم كان عظيماً، مابذله أسلافنا من البابوات الرومان، في سبيل تحرير الكنيسة الشرقية، فلقد عرفنا ذلك من روايات المسنين من الرجال، ووجدناه مدوناً في تواريخهم، ذلك أن سلفنا البابا أوربان صاحب الذكرى المباركة، أرسل النداء،وكأنه صوت من السماء، وتولى حشد أبناء الكنيسة الرومانية المقدسة من أقاصي الأرض للتداول حول هذا، واستجابة لندائه، قام الذين فيما وراء الجبال، وبشكل خاص أكثر المقاتلين شجاعة ونشاطاً لمملكة الفرنجة وكذلك المقاتلين من ايطاليا الذين التهبوا حماساً واندفاعاً، فتدفقوا جميعاً واجتمعوا، وعندما اجتمع حشد عظيم منهم قاموا بتحرير تلك المدينة من دنس الكفار، تلك المدينة التي عانى فيها مخلصنا عن طواعية من أجلنا، وتركها لنا لتكون ذكرى لمعاناته ولضريحه المجد، ولقد فعلوا ذلك بدون أن يسفكوا كثيراً من دمائهم، فقد رافقتهم العناية الربانية والمساعدة، وحرر هذا الحشد أعداد كبيرة من مدن أخرى، تجنباً للاطالة لن أقوم بذكرها، فقد ناضل هؤلاء بنعمة من الرب وبفضل حماس آبائك وغيرتهم فيما تقدم من

السنين ، ناضلوا بقوة لحمايتهم ولينشروا في الخارج اسم المسيح، وفي تلك الأجزاء التي مازالت بأيدي المسيحيين حتى أيامنا هذه، وكذلك مدناً أخرى من مدن الكفار التي استولوا عليها بشجاعة، لكن الآن، بسبب من ذنوبنا وذنوب هؤلاء الناس، جرى الاستيلاء على مدينة إديسا من قبل أعداء صليب الرب، وإديسا هي المدينة التي لانستطيع ذكرها دون عظيم أسى ونحيب، إنها المدينة التي ندعوها بلساننا الرها، التي قيل إنها الوحيدة التي خدمت الرب وبقيت تحت الحكم المسيحي وذلك في وقت كانت فيه جميع بلدان الشرق مملوكة من قبل الكفار، نعم لقد استولى عليها أعداء صليب المسيح وعلى عدد كبير من الحصون المسيحية التي كانوا قد انتزعوها منهم، وحدث إثر هذا أن جرى هناك قتل رئيس أساقفة تلك المدينة مع رجال دينه وعدد كبير آخر من المسيحيين، كما أعطيت آثار القديسين إلى الكفار للدوس عليها وبعثرتها.

وعلى هذا كم هي عظيمة المخاطر التي تهدد كنيسة الرب وجميع المسيحيين، فهذا مانلاحظه نحن أنفسنا، ونعتقد أنه ليس خافياً على حكمتكم، وسيكون جلياً وأعظم برهان على نبلكم وتماسككم إذا ماتمّ الدفاع عما امتلكه الآباء بقدرتهم، بوساطة قدراتكم أنتم أبناؤهم، لكن إذا ماكان الأمر غير ذلك —الذي يحرمه الرب— فإن شجاعة الآباء التي ظهرت سوف تتلاشى في أبنائهم.

وبناءً عليه نحن ننذركم، ونرجوكم، ونأمر كل واحد منكم، وقد قضينا بغفران ذنوبكم، وهذا الذي قضيناه هو قضاء الرب، وخصصنا بالغفران الذين هم أكثر قوة ونبلاً، الذين حملوا أسلحتهم بكل شجاعة، ويناضلون بشدة لمواجهة حشود الكنيسة الشرقية التي جرى —كما قلنا— تحريرها من طغيانهم بسفك كثير من دماء آبائكم وسيتولون انقاذ الآلاف المؤلفة من الأسرى، وتخليصهم من أيديهم، فهم اخواننا، حتى يزداد شرف اسم المسيحية عظمة وانتشاراً في أيامكم، ومن أجل أن تبقى

شجاعتكم التي عمّ الثناء عليها في جميع أرجاء الدنيا سليمة غير مخدوشة.

وليكن ميثاثياس [المكابيون: ١/ ٢] مثلاً أعلى لكم، فهو لم يتردد أبداً في تعريض نفسه مع أولاده وأبويه للموت في سبيل الحفاظ على شريعة آبائه، كما لم يتردد مطلقاً في التخلي عن كل مايملكه، وأخيراً وبمعونة ربانية، وبعد جهد طويل، انتصر هو مع أبنائه برجولة على أعدائهم.

واعتماداً على صلاحياتنا الأبوية وعملنا من أجل سلام شعبكم، وإعادة بناء تلك الكنيسة، وبموجب السلطات المضفاة علينا من الرب إننا نمنح ونؤكد منح الغفران من الذنوب الذي أعطاه سلفنا البابا أوربان إلى الذين قرروا بموجب غيرتهم الدينية وحماسهم القيام بالواجب المقدس جداً، وتنفيذ الأعمال الضرورية كثيراً، ونرسم أن أزواجهم وأولادهم وبضائعهم ومقتنياتهم سوف تبقى تحت حماية الكنيسة المقدسة، وتحت حمايتنا، وتحت حماية رؤساء الأساقفة، وحماية الأساقفة ورجال الدين الآخرين في كنيسة الرب، زيادة على هذا إننا نحرم بموجب سلطاتنا الرسولية القيام بأي اجراءات قانونية تتعلق بأي من ممتلكاتهم القائمة في الآونة التي قبلوا فيها حمل الصليب، حتى تتوفر معلومات أكيدة تتعلق بعودتهم أو وفاتهم.

زد على هذا، بما أن هؤلاء الذين هم جنود الرب، سوف لن يهتموا بأي شكل من الأشكال، أو يلتفتوا نحو الملابس الثمينة أو الزينة الشخصية، أو الكلاب أو النسور، أو الأشياء الأخرى، التي تعبّر عن حياة الرفاهية إننا نتمنى على حكمتكم باسم الرب، في أن لايلتفت الذين وصلوا إلى قرار القيام بمثل هذا الواجب المقدس، نحو هذه الأشياء بل أن يكرسوا حماسهم وعنايتهم مع جميع طاقاتهم، على السلام والخيول والأشياء الأخرى التي يمكن بها محق الكفار.

زيادة على هذا، إن جميع المثقلين بالدين، ممن قرروا بقلبٍ نقي القيام بهذه الرحلة العظيمة القداسة، لايحتاجون إلى دفع الفوائد المستحقة عليهم، وإذا ماكانوا هم أنفسهم قاموا ، أو أحد سواهم لصالحهم بقسم أو تعهد من أجل هذه الفوائد، إننا نقوم بموجب سلطاتنا الرسولية بتحليلهم من هذه العهود والأيمان، كما ونسمح لهم في حال أن أقربائهم أو مواليهم الاقطاعيين، كانوا بعدما سئلوا غير قادرين أو غير راغبين بتزويدهم بالمال، في أن يقوموا برهن أراضيهم أو ممتلكاتهم لدى الكنائس أو لدى الشخصيات اللاهوتية أو لدى المؤمنين الآخرين، حسبما يرغبون ودون أن يعترضهم معترض.

ونحن نمنح الغفران من الذنوب والتحليل، وفقاً للسابقة التي أسسها سلفنا، وكذلك بموجب سلطات الرب القادر، وبطرس المقدس، رئيس الحواريين، وبموجب السلطات الممنوحة إلينا من قبل الرب، وبناءً عليه: كل من تولى عن طواعية وإيمان القيام بهذه الرحلة العالية القداسة، وأكملها أو توفي هناك، سيحصل على غفران تام لجميع ذنوبه التي تقدم له واعترف بها بقلبٍ ذليل، كما وسيحصل من بين جميع الجوائز، على ثمرة المثوبة السرمدية.

منح في فيترالا Vetralla في شهر كانون الأول [١١٤٥]».

٣٦)٣٧) ولنعدبعد هذا إلى سياق الرواية:

لم يسىء الراعي برنارد المبجل استخدام السلطات التي أضفاها عليه الكرسي الرسولي، فقد حزم نفسه وتمنطق بسيف كلمة الرب، وبعدما أيقظ قلوب العديدين من أجل القيام بالحملة إلى ماوراء البحار، قام أخيراً [١١٤٦] بعقد اجتماع عام في فيزلي، وهي بلدة فرنسية حفظت فيها عظام مريم المجدلية المباركة، وحضر الاجتماع عظماء وأعيان مقاطعات فرنسا، فقد تسلم هناك لويس ملك الفرنسيين، بنشاط عظيم

وروح عاليـة الصليب من الـراعي الآنف الذكـر، وتطوع للقيام بـالعمل العسكري فيها وراء البحـار، ومعه الكـونتين: ثيري أوف فلانـدرز، وهنري ابن ثيبود أوف بليوس، وبارونات آخرين ونبلاء من مملكته.

٣٨(٣٧) وفي الوقـت نفسه كان هنـاك الراهـب رالف، وكان بـالحقيقة رجلاً متمسكاً بالتقاليد الدينية، وآخذاً بـذكاء بصرامة الدين، مع أنه كان متوسـط الثقافـة، وقد دخـل هذا الـراهب إلى المنـاطق الفـرنسية المتـاخمة للراين، وألهب اثـارة عدة آلاف من سكان: كولـون، ومينز، وورمز، وسبير، وستراسبـورغ، ومـدن مجاورة أخـرى، وبلـدات وقـرى، وجعلهـم يقبلـون بحمل الصليـب، لكنه قـام أثناء تبشيره بالـدعوة بكل صراحـة بأنـه من المتـوجب ذبـح اليهود الـذين تبعثـرت مساكنهـم خلال المدن والبلـدات لأنهم أعداء الـديانـة المسيحية، وتـرسخت جـذور هذه الـدعوة وانتشرت وتنامـت في عدد كبير من مدن فـرنسا وألمانيا وقادت إلى قتـل أعداد كبيرة من اليهـود أثناء هـذه الزوبعـة الهائجة، في حين التجـأ الكثيرون واحتموا تحت حماية أمير الرومان، وهكذا حدث أن الكثيريـن منهم هربوا من هذه الأعمال الـوحشية بهدف انقـاذ حيـاتهم، وحملـوا أنفسهم إلى بلـدة الأمير التي اسمها نوركيوم أو نورنبيرغ وإلى مدن أخرى تابعة له.

٣٩(٣٨) وقـام راعي كليرفـو المتقدم الـذكر بـاعطاء تعليمات حظـر بها هذه الدعـوة، وبعث برسل ورسـائل إلى شعبي فرنسا وألمانيـا أوضح فيها بشكـل جلي أنه بمـوجب سلطـات الكتابـات المقدسـة ليس لليهـود أن يقتلوا بسبـب جرائمهم الدائمـة، بل ينبغي بعثرتهم، ولفـت الانتباه بهذه المنـاسبـة إلى مـاكتبـه صـاحـب المزامير الـذي قـال في المزمـور السـابـع والخمسين:

«الرب يريني بأعدائي. لاتقتلهم» ويقول أيضاً: «تيّهم بقوتك » .

[المزامير: ٥٩/ ١٠-١١] .

٤٠ (٣٩) والآن بعدما استجابت حشود لاتحصى في غربي فرنسا للقيام بالحملة فيما وراء البحار، قرر برنارد الالتفات بنشاطاته نحو شرقي مملكة الفرنجة، ليحرك بقوة التبشير وليثير قلب أمير الرومان حتى يقبل بحمل الصليب، وكذلك ليقوم باسكات رالف، الذي يدفع الناس في المدن للثورة على أسيادهم وذلك أثناء تبشيره وحملته ضد اليهود، وإثر سماعه بهذا، قام الأمير بتوجيه الدعوة إلى اجتماع عام يعقد في مدينة سبير يوم ميلاد الرب [عيد ميلاد ١١٤٦]، وقدم الراعي المتقدم الذكر إلى هناك، فتمكن من اقناع الملك مع ابن أخيه فردريك، وأمراء آخرين وأعيان مشهورين بقبول حمل الصليب، كما أنه قام بعدد من الأعمال الاعجازية بشكل علني وبشكل خاص.

هذا وكان قد ذهب أيضاً إلى مينز [تشرين ثاني ١١٤٦ قبل عقد الاجتماع العام في سبير] حيث وجد رالف يعيش هناك وسط حظوة عظيمة من الناس، فاستدعاه إليه وحذره من توريط نفسه بموجب سلطات التبشير، وذلك بالتجوال في البلاد خارقاً بذلك أحكام الرهبنة، ثم ضغط عليه وشدد حتى أقنعه بالوعد بالطاعة والعودة إلى ديره، وكان الشعب غاضباً جداً لهذا ، وأراد الشروع بالثورة، لكنه تمنع وحبس نفسه بسبب قداسة برنارد.

٤١- في الوقت نفسه حمل الدوق فردريك العالي النبالة، في قلبه غضباً عظيماً ضد مولاه وأخيه الملك كونراد، لأنه سمح لابنه فردريك —الذي كان بكره والولد الوحيد الذي ولد له من زوجته النبيلة الأولى، وجعله الوريث لجميع البلاد وأوكل إليه المسؤولية عن زوجته الثانية وابنها الصغير— وذلك بغية قبوله بالصليب، وكان الدوق فردريك معوقاً في فرنسا بسبب مرض خطير ألمّ به، وقد جاء الراعي السالف الذكر لزيارته، وباركه وصلى من أجله، غير أن هذا الدوق لم يستطع تحمل آلام مرضه وأحزانه، فتوفي بعد أيام قليلة، ودفن في الدير الذي يحمل اسم

القديس ولبيرغ، والقائم على حدود الألزاس، وقد خلفه ابنه فردر
دوقيته.

٤٢(٤٠) دخل بعد هذا الأمير إلى بافاريا، وعقد هناك اجتماعاً ؛
شهر شباط [١١٤٧]، واصطحب معه بدلاً من راعي كليرفو آدم
إبراخ Ebrach وكان رجلاً مؤمناً ومثقفاً، وقد أقام هناك قداساً
حسبما جرت العادة، وبعدما استمطر الرحمات من الروح القدس
المنبر، وإثر قراءته لرسالتي الكرسي الرسولي وراعي كليرفو، اس
بوساطة إثارة بسيطة أن يقنع الجميع تقريباً ممن كان للتعهد با
بالخدمة العسكرية، ذلك أنه لم تكن هناك من حاجة لاستخدام ؛
الحكمة الانسانية للاقناع أو للاستعانة بوسائل الاثارة الاصطن
اعتماداً على أساليب البلاغة الخطابية، بسبب أن جميع الذين
حاضرين قد أثيروا من قبل وجاءوا مسرعين عن طواعية واختيا
أنفسهم لاستلام الصليب، وتقبل في تلك الساعة نفسها ثلاثة
الأساقفة الصليب وهم:

هنري أوف ريجنسبيرغ، وأوتو أوف فريزنغ ورينبيرت أوف بـ
وكذلك دوق البافاريين، واسمه هنري، الذي هو أخو الملك، وجا
بين سلك الكونتات والنبلاء والأعيان البارزين حشد لايمكن عدّه،
الغريب الحديث عن إلتحاق حشد عظيم من قطاع الطرق واللص
حيث قدموا مسرعين، إلى حد أن ما من انسان فيه عقل يخفق في إ
أن هذا التحول المفاجىء وغير الاعتيادي قد جاء من أيدي الرب ا
سمواً، وألا يأتي ادراكه من قلب أصيب بالدهشة، وتعهد ولف،
الآخر لهنري، وهو الدوق المتقدم، والذي كان واحداً من أعلى ؛
المملكة مكانة، بالقيام بالمهمة العسكرية نفسها، وكان معه عدد
آخر، وتمّ تعهدهم في مساء يوم ميلاد مولانا، وجرى ذلك في اقطاعي
ستيريا Styria ولم يمض وقت طويل حتى أخذ الصليب أيف

فلاديسلاف دوق البوهيميين (*)، وأوتوكار أمير تخوم ستيريا، وكونت برنارد اللامع صاحب كارينثيا Carinthia ، وتبعهم أعداد كبيرة من أتباعهم وشعبهم، غير أن السكسون، رفضوا التوجه نحو الشرق، لمجاورتهم لبعض القبائل التي انصرفت عن قذارة الوثنية، ولذلك حين حمل السكسون الصليب مثل سواهم قصدوا حرب هذه الأجناس، ومن هذا الجانب اختلفت صلبانهم عن صلباننا، في أنها لم تكن مخاطة ببساطة إلى ثيابهم بل حملت عالية فوق عجلات.

٤٣(٤١)- وفيما يلي نسخة الرسالة التي بعث بها راعي كليرفو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة [١١٤٦]:

«إلى الأمراء الأعزاء جداً والآباء، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة وجميع رجال الدين والشعب في شرقي فرنسا وبافاريا. من برنارد راعي دير كليرفو، فيض من روح الشجاعة.

إنني متحدث إليكم عن أشياء تتعلق بالمسيح، خاصة حول الأمور التي يوجد فيها خلاصكم، وأقول مايمكن لسلطات الرب أن تسوغ عدم صلاح الشخص الذي يتحدث، كما تعطي الاعتبار للكلمات المتفوه بها، إنني في الحقيقة ضعيف، غير أنني لست ضعيفاً في رغباتي نحوكم في حب يسوع المسيح، وهذا هو السبب الدافع لي للكتابة إليكم، إنها مناسبة اقدامي على التشاور معكم جميعاً بالمراسلة، ولدي رغبة تفضل بحث هذا معكم بوساطة كلمات الفم، إذا ماتوفرت الارادة، وتأمنت المناسبة.

(*)- فلاديسلاف الثاني، زوج غيرترود أخت أوتو، ونصف أخت كونرادالثالث، وقد أقيم دوقاً في بوهيميا سنة ١١٤٢ بمساندة من كونراد، وكثيراً مايتداخل اسمه مع اسم فلاديسلاف الثاني صاحب بولاندا، الذي تزوج من أنجس أخت أوتو.

انتبهوا أيها الأخوة إن الوقت الآن هو وقت الاجابة. انتبهوا إن اليوم الآن هو يوم الخلاص في جميع المعايير، لأن الأرض تحركت وجاشت، لأن رب السموات سيخسر أرضه، أرضه التي ظهر فيها، وعاش فيها لمدة تزيد على الثلاثين سنة بمثابة رجل بين الرجال، أرضه التي تمجدت بمعجزاته والتي كرسها بدمه الذاتي، والتي ظهرت فيها أول زهور القيامة، والآن حدث بسبب ذنوبنا أن رفع أعداء الصليب رؤوسهم الملعونة، وعاثوا فساداً بحدّ السيف في تلك الأرض المباركة التي هي أرض الميعاد، الوقت بات قريباً، لابل إنه لن يمضي كثيراً قبل أن يندفعوا إلى داخل مدينة الرب الحي، ليدمروا الأعمال التي صنعها مخلصنا، وليلوثوا الأماكن المقدسة ويلطخوها بالدم القرمزي لحمل بلا عيب ولا دنس، لقد أطبقوا —وأسفي لذلك— بمقابض ملوثة على الحرم المقدس للديانة المسيحية، ويسعون إلى تدنيس، وإلى أن يضعوا تحت أقدامهم مكان الراحة الذي ترتاح فيه حياتنا بالموت، ماذا نحن أيها الرجال الشجعان؟ ماذا أنتم ياعبيد الصليب؟ هل ستعطون ماهو مقدس للكلاب ودرركم للخنازير؟ كم من مذنب اعترف هناك بذنبه وهو يبكي ونال العفو، وذلك منذ أن أزيلت قذارة الكفار بسيوف آبائنا! لقد رأى الشرير هذا، فكان جسوراً فالتهم بأسنانه ذلك كله وذهب به، وقد أثار عبيد طغيانه حتى لايبقى أدنى أثر أو شارة من التقوى أبداً —لاسمح الرب— ولذلك قواهم حتى ينتصروا، وحقيقة إن هذا مصدر آلام لجميع الأجيال المقبلة لأن الخسارة لايمكن تعويضها، لكن بالنسبة للجيل الشرير الحالي سيكون بشكل خاص مصدراً للعار وللانتقاد بلانهاية، ومع هذا ماالذي ترونه أيها الاخوان؟ هل بات ذراع الرب قصيراً أو ضعيفاً لايستطيع الانقاذ، لأنه حشد هذا القليل فقط للدفاع عنه، ولاسترداد ميراثه؟ ألا يستطيع هو ارسال أكثر من اثنتي عشرة فرقة من الملائكة، أو حتى أن يتفوه بالكلمة فقط، ستكون البلاد حرة؟ لاشك أن قوته موجودة حيثما أراد ومتى شاء.

لكنني أقـول لكم إن الرب مـولاكم يقوم بـامتحانكم، إنـه يحدق ببني البشر ليرى بمجرد الصدفة واحداً يمكنـه أن يفهم وأن يبحث، وهو آسف من أجله، لأن لـدى الـرب الـرحمة لشعبه، ويـزود الـذيـن سقطوا نحـو الأسفل بعـلاج الخلاص، قدروا كـم هي بديعـة طرائقـه للانقـاذ ورائعة، تمعنوا أيها المذنبـون كم هـو عميق حبـه، وآمنوا، هـو لايريـد موتكـم، بل يريـدكم أن تتحولـوا وأن تعيشوا، لأنه ينشـد فرصـة لاتكون ضدكـم بل لصالحكم...».

بهذه الكلمات، وبالاشارة إلى الموضوع نفسه شغـل راعي كليرفو نفسه، وفق طـرائق الخطباء وأساليبهـم، وأكد أن اليهـود ينبغي ألا يقتلوا وبـرهن ذلك بالمنطق وباستخدام السلطة....

٤٤(٤٢) وهكذا تحركـت شعوب لاتحصى عـدداً وأمم ليس فقـط من داخل الامبراطـورية الرومـانية وإنما أيضـاً من الممالك المجـاورة، أي من فـرنسا وانكلترا وبـانـونيا، تحركـت جميعها لحمـل الصليـب، وفجأة غـدا الغرب كلـه تقريبـاً هادئاً ليس في عـدم إنشاب الحروب بـل في عدّه حمل السلاح بشكل علني خطأ........

٤٦(٤٤) وهكذا عنـدما انقشـع برد الشتاء، وبـدأت الورود والنبـاتات تخرج من بطن الأرض تحت زخات مطر الـربيع المباركة، وابتسمت المروج الخضراء للعالم، جاعلة وجه الأرض مسروراً، وقتها قـاد الملك كونراد قواته من نورمبرغ في تشكيل عسكري، وأخذ سفينة عند ريجينسبيرغ ليبحر نزولاً في الدانـوب، وفي يوم أحـد الصعود أقـام معسكره في الجهـة الشرقية مـن بلدة اسمها أرداكير Ardacher وانتظر هناك لمدة يـومين أو ثلاثة أيام رجـاله الـذين كـانوا قـادمين، وتابـع من هنـاك تقريبـاً حتى حـدود مملكتـه، وتوقـف ليـس بعيـداً عن نهر فيسكـا Fischa ، وبعدمـا احتفل هناك بأحد العنصرة عبر الليثا Leitha مع جميع قواتـه تقريباً،

حيث أبحر بعضهم نزولاً في الدانوب بينما تـابع آخرون السير براً، وقد أقام معسكره في بانـونيا، غير أنه جرّ من ورائه حشداً كـان عظيماً إلى حد بدت فيـه الأنهار وكأنها غير كـافيـة للملاحـة فـوقهـا أو أن امتدادات السهـول لاتكفي للسير عليها، وسار لـويس ملك الفرنسيين مع رجالـه خلفه لكن ليس بعيـداً عنه، وقـد جلب معـه من شعبنا أهـالي اللوريـن الذيـن كان أمراؤهم أو قادتهم من الأساقفـة: ستيفن أوف متز، وهنري أوف تول، ومن الكونتـات: رينالـد أوف موزون وهيـو أوف فودمـونت Vaudemont ومـن ايطاليـا أماديـوس أوف توريـن مـع أخيه وليـم مركيـز مونتفـرّات، وأعمامهما وعدد كبير آخر.........

(٤٥) وبعد بانـونيا جرى اجتياز بلغاريا لكـن على حساب الكثير من المتاعـب ومصاعـب الطريـق، وبعد عبـور تراقيـا العليا تـمّ تسلق جبـل هبروس، ثـم كان أن سرنـا لعـدة أيـام ونحن نشعـر بكثير مـن السرور في قلوبنـا في مناطق خصبـة في تراقيا الـدنيا، وذلـك في طريقنا نحـو المدينة الملكية [القسطنطينية]، وفي اليوم السابع قبـل الثالث عشر من أيلول، أي في اليـوم [٧-أيلول] الـذي تقـدم على الاحتفال بميـلاد مـريـم المباركـة وصلنا إلى أحـد الوديان على مقـربة مـن بلدة تدعـى شيرفاخ Chere-vach [كـاتالكـا إلى الغـرب من القسطنطينيـة]، وكان مكـانـاً جذابـاً بسبـب حقولـه الخضراء ولتميـزه بمجـرى نهر صغير يمر في وسطـه، ولقـد استولى علينا سحر المكان فقررنـا نصب خيمتنا هناك والاستراحة في ذلك المكان ذلك اليـوم، بهدف الاحتفال بسرور كبير وفرح بيوم ميـلاد أم الرب، العذراء دوما، وفقـط نصب الدوق فردريـك ومعه حاشيته وكـذلك عمه ولف —لأن عساكر اللورين لم تكـن قد التحقت بنا بعد— معسكراً على مقـربـة مـن طـرف أحـد الجبال المواجـه لنـا، وذلـك ليـس بعيـداً عـن البروبنطش الـذي يدعـى الآن باسـم ذراع القديـس جورج، فهنـاك على شاطئـه بلدتان صغيرتان هما: سلمبريـا وأثيرا، فمنهما كنا نتوقـع الحصول

على فرص للتجارة.

وقد عرف هذا البحر مرة باسم الهلسبونت، من خلال القصة المعروفة كثيراً حول فريكسوس وهيللي(*)، أو باسم البروبنطش (أي مطلع بنطش) لأنه يندفع نحو الأمام من البنطش بقوة نهرين عظيمين هما الدون والدانوب يتدفقان كما يقولون مثل سيل لطيف، ويصبان في البحر الأدرياتيكي أو البحر الطروادي قرب طروادة القديمة(**). وأعترف أننا لم نحصل خلال حملتنا على معسكر أجمل، ولم يكن معسكرنا قط مثل هذا (بحسب مايمكن للمرء أن يحكم من طريقة التعبير) مغطى باطار أوسع.

لكن حدث عند الصباح أن ظهرت غيمة صغيرة أخذت تنزل مطراً لطيفاً، وفجأة تغيرت الأحوال وقامت زوبعة تلاها ريح شديد اقتلع الخيم ومزقها، ودفعها بعنف نحو الأرض، وقد بعثنا ذلك من فرشنا التي أوينا إليها متأخرين، وقامت زوبعة ملأت الجو من حولنا، لأن النهر الصغير ازداد حجمه كثيراً —لعل ذلك كان بسبب تدفق مياه البحر المجاورة، أو نتيجة للأمطار المتساقطة، أو أن تساقط الأمطار بهذه الغزارة كان انتقاماً من قبل الرب في علاه، فهذا كله غير مؤكد— ونتيجة لازدياد الماء فيه فقد طافت زيادة عن عادتها إلى حد أنها غطت جميع البقعة، ماالذي كان من الممكن لنا فعله؟ فقد عددنا هذا عقوبة ربانية، وليس كارثة طبيعية، ومع ذلك امتلأنا جزعاً، ومهما يكن الحال أسرعنا نحو خيولنا القوية، وحاول كل منا عبور النهر بأفضل طريقة ممكنة له، وكان بإمكانك أن تشهد بعضنا يسبح، وبعض تمسك بظهور الخيل، وربط بعضهم أنفسهم بلا حياء بحبال بغية النجاة من الخطر، واندفع

(*)- هرب فريكسوس وأخته هيللي عبر المضائق على ظهر كبش صوفه ذهبي، غير أن هيللي وقعت وغرقت.

(**)- خطأ —يصبان في بحر ايجه.

بعضهم بشكل فوضوي إلى داخل النهر وأخذوا يغطسون لأنهم بدون انتباه تمازجوا واختلطوا، وكان هناك أعداداً كبيرة اعتقدت أن بإمكانها السير والعبور فجرفها بعيداً اندفاع النهر، فأصيبت بجراح بسبب الصخور، وغرقت بقوة تيار الدوامات، ففقدت حياتها في النهر، وقام بعض الذين لايعرفون السباحة بالامساك بهؤلاء الذين كانوا يسبحون، وكان هدفهم النجاة غير أنهم سببوا الانهاك لهم، ولذلك أعيقوا، حتى توقفت أذرعتهم عن الحركة فاستلقوا على ظهورهم، وغطسوا جميعاً وغرقوا.

واستطاع بعضنا الآن أن يحملوا أنفسهم إلى خيام الدوق فردريك التي بقيت لوحدها دون أن تصاب بأذى من هذا الفيضان المدمر، واستمعنا هناك إلى قداس مهيب وغنينا «دعونا نبتهج» ولكن بدون بهجة أو سرور لشعورنا بكثير من المرارة في القلب، ولهذا سمعنا أنين وبكاء رجالنا، وتمكن أخيراً بعضهم من جواز هذا الرعب بوساطة الكثير من الجهد والخوف، وقام بعضهم الآخر وهم في حالة من اليأس فربطوا معاً عدة عربات مع تجهيزات أخرى مما أمكن تأمينه، ووضعوا هذه المواد لتشكل حاجزاً ضد الماء المندفع منتظرين توقف الفيضان.

لكن كم كان عظيماً ماخسره جيشنا هناك في الرجال والبضائع والعتاد الضروري لمثل هذه الرحلة الطويلة، لاأحتاج أن أذكره، ففي اليوم التالي عندما تناقصت المياه وظهر وجه الأرض، كنا جميعاً مبعثرين هنا وهناك، ويمكنك حين ترانا أن ترى صورة محزنة لمعسكرنا على عكس الصورة المبهجة التي يمكنك رؤيتها في اليوم المتقدم، ولذلك ليس —كما يبدو— خطأ القول كم إن القوة الربانية أهم من النور، وكيف أن السعادة الانسانية غير مستقرة، وتزول بسرعة. لكن يكفي هذا......

(٥٨،٦٢) وبينما كانت هذه المسائل وقضايا أخرى من هذا النوع

تحدث في فرنسا، غطى جيشنا وجه البحر، وتوزع مستخدماً مختلف الوسائل والجهود من الابحار بالسفن أو طرائق أخرى في أماكن متعددة بغية الوصول إلى اليابسة في أسرع وقت ممكن، لأن لويس ملك الفرنجة رسا في حوالي منتصف أيام الصيام في مكان يدعى ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من أنطاكية، وهي البلاد التي كان أميرها عمّ زوجته(*)، ورست مجموعة أخرى من قواتنا في بطوليس التي تدعى أيضاً باسم عكا، ومجموعة في صور، وأخرى في الصرفند فيما بين صيدا وصور، والصرفند هي ساربتا Sarepta بلدة صيدونياس، ولم يأت رسوهم خلواً من الخوف من تحطم بعض السفن، وبالفعل عانى بعضهم من تحطم سفنهم فكان أن ابتلع اليم بعضهم ونجا بعضهم الآخر وهم نصف عراة.

ودخل الذين وصلوا إلى الشاطىء مبكرين إلى المدينة المقدسة في حوالي أحد سعف النخيل، واحتفلوا هناك باسبوع آلام الرب والقيامة المقدسة، بكثير من مشاعر التقوى في القلب، وداروا حول مختلف هذه الأماكن التي وقعت فيها هذه الأحداث ولمسوها ورأوها رأي العين كما يقول الناس.

ورسا كونراد أمير الرومان في عكا في أسبوع الفصح، وكان بصحبته الأمراء:

أورتليب Ortlieb أسقف بازل وأرنولد، مستشاره، وفردريك دوق سوابيا، وهنري دوق بافاريا، والدوق ولف مع عدد آخر من الكونتات والأعيان والنبلاء، وبعد مضي عدة أيام توجه إلى القدس وسط احتفال

(*)- كان ريموند أوف بواتيه صاحب أنطاكية، أصغر أولاد وليم التاسع دوق أكوتين، وكانت زوجة لويس هي إليانور ابنة وليم العاشر دوق أكوتين.

عظيم واحتفاء به، قام به رجال الـدين والشعب، حيث استقبل بتشريف كبير، وتوفي هنـاك في تلك الآونـة فردريـك [أوف بوغـن] الذي كـان من أتباع الملـك، وكان محاميـاً شهيراً عن كنيسـة ريجنسبيرغ، وحمل جثمانه إلى المدينة المقدسـة، ودفن في مقبرة فرسان الـداوية، ليس بعيداً عـن معبد الرب القديم.

وبقـي الملك هنـاك لبضعـة أيام، حيـث أقـام في قصر الـداوية، وهـو المكان الذي كان فيما مضى البيت الملكي، الذي هو أيضاً هيكل سليمان، فهناك بني، وبعـدما زار الأماكن المقـدسة في كل مكان عـاد إلى عكا من خلال السامرة وطبريـة، وعندما وصل الفرسان أقنعهـم جميعاً بالأعطيات المالية بـالبقاء، ذلك أنـه اتفق مع ملـك تلك البـلاد والبطريرك وفـرسان الداوية على أن يتولى قيادة جيش إلى سـورية في آب المقبل للاستيلاء على دمشـق، ولهذا شرع في حشد مـاتمكن مـن القـوات بوسـاطة انفـاق المال بسخاء.

٦٣- وتبع الملـك لويس الفرنسي المنحـى نفسه أيضاً، وذلك بقـدر ما أوتي من قـوة، فبعد عـودته من أنطـاكية مكث في صـور، وإثرهـذا التقى الملكان في شهـر حزيـران، في حوالي مـوعد عيـد ميلاد يـوحنا المعمـدان [٢٤حـزيـران ١١٤٨] في مكان يـدعـى بـالما (آخـذاً اسمه مـن شجـرة النخيل) فيما بين صور وعكـا، لوضع الخطط فيما يتعلق بالـوقت والمكان، والموعد الـذي ينبغي فيـه حشد الجيش، وعلى كـل حال، ومهما يكـن من أمـر، لم يتم ابتـلاع الإباء الملكـي وايداعـه جـانباً دونها مشـاق ومتاعـب عظيمة، وبما أن مانتـج وماحدث أثناء الحملة إلى دمشق قـد تمت المعاناة منه لذلك ينبغي حكايته في مكان آخر، وربما من قبل آخرين.

٦٤(٥٩) وبعـد إكمال هـذه الحملـة، أخـذ الأمـراء يعـدون خططهـم للعودة إلى الوطن:

الملك الروماني من خلال بلاد الاغريق [بيزنطة]، لكن الآخر عبر طريق كالبريا وأبوليا، وبناءً عليه أقلع كونراد أمير الرومان من عكا، وبعدما عبر البحر إلتقى بأخيه وصديقه مانويل، أمير المدينة الملكية في منطقة آخيا أوثيسلي، وقد مضى لرؤيته وكان مرهقاً بسبب طول الرحلة، وضعيفاً نتيجة لمشاقها، كما وكان يعاني من إعياء عظيم، ولقد ارتاح لديه لبعض الوقت(*)، وأعدّ هناك العدة للعودة، وأرسل أمامه ابن أخيه فردريك ليبحث، أو بالحري ليمتن أوضاع الامبراطورية، وأخذ فردريك الطريق خلال بلغاريا وبانونيا، وقد وصل بلاده في شهر شباط، وباشر ممارسة أعماله بمثابة قاض جيد، فلصالح السلام قام بشنق واحد من وزرائه، وبناءً عليه قام عمه الملك بعد ا نقضاء عدد من الأيام استراح فيها في بلاد الاغريق بالوصول إلى داخل مملكته إلى يولا، وهي مدينة في استريا، [النمسا] وذلك بعد ابحاره عبر بحر ايليريا ودالماشيا، وقد جلب معه أسقف بازل المتقدم الذكر، والمستشار أرنولد مع أخيه هنري دوق البافاريين، لأن الدوق ولف عاد عبر طريق كالبيريا وأبوليا، وفي أبوليا اتخذ كونراد لنفسه مطية امتطاها ورحل وهو على متنها خلال أكويليا Aquileia وقد احتفل بأحد العنصرة في يوفافيا التي تدعى الآن سالسبورغ، والمعروفة بأنها مقرّ مطرانية بافاريا، وكان قد مضى عامان على حضوره الاحتفال بهذا العيد نفسه في منطقة بانونيا، وأقام بعد هذا حفلة غذاء في ريجنسبيرغ، حضره حشد كبير من الأمراء.

(*)- رافق كونراد مانويل فذهب إلى القسطنطينية حيث مكث حتى ربيع١١٤٩، وخلال هذه المدة عقد الملكان تحالفاً ضد روجر صاحب صقلية.

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414637